غادة السمّان

الأعماقُ المحتلّة

منشورات غادة السمان

مسودة اهداء

● الى حبي ،
الاحتلال الوحيد
الذي ترحب أعماقي به ،
لأنه يحررها ... أحياناً ! ...

غادة

● إننا نقرأ الحياة بشكل خاطىء ، ثم نقول انها تخدعنا !

رابندرنات طاغور

● الحرية هي حقك في ان تقول للناس ما لا يرغبون في سماعه .

جورج اورويل

● كي تكون حراً ، عليك ان تحقق ذاتك .

تنيسي وليامز

● لا عتاب . . فلو لم نكن اغبياء ما رضينا بهذا ، ونحن الشعوب .

بدر شاكر السياب

● اغضب على الصمت المهين انا لا احب الساكنين .

نازك الملائكة

كتابات على جدران شارع القلب

أعود إليكم .
مشتعلة الأظافر كعشرة أصابع من الديناميت ،
ملتهبة بأشواق المنفى ، متوردة بفرحة اللقاء ،
وقلبي تفاحة دهستها شاحنات المتقاتلين فوق إسفلت الليل الدامي في بيروت .
وأكتب إليكم .
والمقاتلون يغلون تحت شرفاتنا . داخل بيوتنا . فوق بياض أوراقنا . تحت جلدنا . يصنعون من أجسادنا متاريسهم ، ومن أعصابنا حبالهم ، ومن جلد أطفالنا طبول حربهم .

* * *

أعود إليكم . .
خارجة من رحم الكوابيس . ماشية نحوكم داخل ماسورة مدفع طولها سبعة أعوام من الحرب . مغسولة بالدمع كرسائل العشاق . مزدهرة بالحقد العادل . مصرة على أن يظل ذلك الجسر المضيء ممتداً بينكم وبيني ، أينما كنتم ، وكيفما كنت . . موقنة بأن اللغة ليست غباراً مضيئاً يتلاشى كبقايا الشهب الضالة . . فانتظروني عند الطرف الآخر للجسر . . واغسلوني بزيت المحبة الشافي ، وقولوا لي : كل موت وأنت بخير !

* * *

. . . . وأعرف أنني عدت إلى الكتابة في أكثر الأوقات العربية رداءة .
وما أكثر الأصدقاء الأوفياء الذين نصحوني بالتريث ، ريثما يشير (بارومتر) الطقس العربي إلى الصحو أو الاعتدال . . وقالوا لي ان (ارتكاب) الكتابة الآن خطأ في التوقيت . ولعل فيما قالوه عين الصواب . .
ولكنني خفت أن أقع في الصواب ! . .

المهزلة أننا نرفض أحياناً أن نقع في الخطأ ، فنجد أنفسنا وقد وقعنا في الصواب ! . .

* * *

لعل في الكتابة الآن فعل خطأ ،
ولكن عدم الكتابة فعل خطأ أيضاً ،
وعلي أن أختار الخطأ الأقرب إلى حقيقتي .

* * *

وهكذا كان علي أن أختار بين موت وآخر . فاخترت الموت المائي على الموت القاحل . وآثرت بحار الفضول على قحط السلامة . والتصقت بزمن العاصفة بدلاً من زمن القوقعة . أنتظر ؟

ماذا أنتظر ؟

هل أنتظر وصول الرفيق (جودو) بعد أيام ، رافعاً راية مفاوضات السلام ؟ نلتف حوله كالأطفال السذج ، ويخرج لنا من أكمامه كالحواة أرنب السلام الوهمي ، ويطلق لنا من محرمته الحريرية عصافير الفرح الكاذب ؟

ماذا انتظر قبل أن أعود إلى الكتابة ؟

هل تبقى حقاً من ينتظر معجزة (سريعة الذوبان) مثل (حليب نيدو) ، تحيل المياه الدامية لزمننا العربي إلى موجة بيضاء من غير سوء ؟

* * *

ولكن ، هل توقيت الكتابة الآن خاطىء حقاً ؟ حسناً . الكل تقريباً يقف الآن ضد أن نكتب .

ارتكاب الكتابة الآن فعل مناف (للأخلاق الكتابية) السائدة ، والتقاليد الكتابية الغابرة . هذا ما يراه بعض النقاد من الأكاديميين . فالكتابة في نظرهم يجب أن تتم بعد أن تصبح الحرب ذكرى . وتنقضي أعوام طويلة بعد توقفها . ولما كنا نحن الكتاب سنموت قبل أن تنتهي هذه الحرب ، علينا أن نكتب الآن عن حرب (سفر برلك) إذا توغلنا في الحداثة ، أو عن حرب (داحس والغبراء) حرصاً على اللمسة الكلاسيكية .

والأكاديميون بالتالي يقاطعون (أدب الحرب) ، ويرفضون قراءته لرداءته التي تأكدوا منها ـ دونما قراءة ـ كما يعلنون بفخر ـ وبوركت التقاليد الأكاديمية الحربية .

أما الكتاب الذين لا يكتبون الآن شيئاً ، فكل ما يسطره رفاق الكلمة هو بنظرهم (انفعالات وظواهر تنفيسية) .

* * *

أما المساكين الذين يكتبون ، فإنهم يقفون أمام الحائط بخجل ، ويحاولون تبرير (ذنبهم الفادح) بلغة متعثرة ، مليئة بخفر العذارى ، أو بالنقد الذاتي الممزوج بتلاوة فعل الندامة ! وإذا ارتد أحدهم إلى الصمت ، اتهمه بعض النقاد بالتخلي عن (المرحلة) الحرجة . وإذا عاد إلى الكتابة اتهموه (بهدر التجربة) قبل إنضاجها !

وبما أن أحداً لا يجرؤ على انتقاد زعيم ميليشيا ، أو زعيم تنظيم حزبي ، أو حتى زعيم عصابة الحي ، فإن (النقد البناء) ينصب كله على الأدباء العزل ، توكيداً لحرية الصحافة ، ورايات النقد المرفوعة في مجال (لزوم ما لا يلزم) ، وهرباً من قول كلمة حق في وجه (من يلزم) ، من مهربي سلاح ، وقتلة ، ومحتكرين ، ومرتدي قمصان الشعارات في مهرجانات السرقة والذبح .

أولئك لا يقترب منهم النقاد ولا الأكاديميون ، ولا أهل الصحافة ، ولهم في الأديب خير كبش فداء ، يموء ولا يعض ، يصرخ ولا يطلق الرصاص ، يمتلك محبرة لا قنبلة يدوية ، وله (صفحة في مجلة) لا عصابة قطاع طرق مسلحة .

كل ذلك يحرض الأديب على الصمت ، ومما لا شك فيه أن بعض الحكام العرب هو أسعد الناس بصمت الأديب (ريثما ينضج إبداعه) على رأي بعض النقاد ـ أم ريثما تنضج مؤامرة الخيانة ـ ؟ . . ومن لا ينجح في (كتم صوت) حروفه النابضة صدقاً وغضباً ، فله لقاء مع المسدس المزود (بكاتم للصوت) على قارعة شارع بيروتي . .

ومقهى (الاسترخاء الرسمي العربي) لا يطرب كثيراً لصوت الأديب (الصاحي) ويفضل عليه صوت شخيره المسالم .

وبعد ذلك كله ، من يريد أن يكتب ؟ . . أنا ! . .

* * *

قد تكون الكتابة الآن خطأً (تكتيكياً) ، لكنها ليست خطأً (استراتيجياً) .

فالحياة الحقيقية هي نبع الفن المتجدد . ومن ينسحب منا إلى بحيرته الراكدة الهادئة ، البعيدة عن بشاعة ما يدور ، يسقط في (بشاعة) من نوع آخر . وينتهي به الأمر إلى أن تأسن بحيرته ، وتموت فراشاته ، وتنفق أحصنته البرية ، وتختنق طيوره .

وسوف يستيقظ ذات صباح فيجد على شاطىء عزلته ثمان وعشرين جثة ملونة لأسماك نادرة كانت حروف أبجديته .

* * *

« أحمل حياتك على ذراعك . ولا تخضع إلا لإلهك الداخلي . وليس ثمة ما هو مؤكد أبداً » .

والصورة العتيقة عن حرفة الكتابة هي من تلك الأشياء التي لم تعد مكرسة . إنها بحاجة إلى نسف . كل شيء هو باستمرار في حالة صيرورة ديناميكية بما في ذلك فعل الكتابة .

في زمننا هذا ، في عالمنا (الثالث) هذا ، صارت مهمة الفنان أن يكون مقتولاً ومبدعاً ، وعليه أن ينهض من موته بسرعة كلما سقط تحت السنابك الجامحة لأحداث الزمن العربي المتلاحقة ، المذهلة التناقض . وعليه أن يعيش موته باتقان ومثابرة ، ما دام يقع داخل ما يحدث ، والوطن يحده من الجهات كلها . . وإذا حدق بوجهه في المرآة ، شاهد فيها خارطة الوطن العربي !

* * *

. . وكيف أجلس وسواي على رصيف الزمن العربي ، يمر بنا الثوار النبلاء والخونة ، ونحن نتسول قرش فرح تجود به يد المعجزات ، أو قرص (فاليوم) ؟

وكيف أخرج من جلدي وقومي وهمي العربي ؟ وكيف أمنح نفسي شهادة براءة متنصلة مما يدور ؟ وكيف أقسم الناس إلى أبناء (الزمن الرديء) وأبناء (الزمن الجميل) ،وأعلن انتمائي إلى أبناء الزمن الجميل بالصمت السلبي ،وأقضي بقية أيامي معتصمة بحبل السكوت ، ملتصقة بالانتظار الأفلاطوني ؟ وكيف نشهد فجر ولادة قادمة من مخاض النار والعذاب والدم والنضال ، إذا لم نساهم جميعاً ، كل في مجاله ، وقدر استطاعته ؟ وكيف نشهد فجر ولادة كتابة جديدة إذا كسرنا جميعاً أقلامنا وذهبنا إلى صيد فراشات النسيان في غابة اللامبالاة ؟

* * *

يقولون في بيروت : الكتابة هذه الأيام إنتحار . .

. . الكتابة اليوم إنتحار ؟

حسناً ، ولكن الكتابة حياتي . .

إذن ، سأنتحر لانقاذ حياتي ! . .

وسأكتب . . . .

١٩٨١/٧/٦

وقفة على شمعة

حذار من التوهم بأن اشعال شمعة واحدة خير ألف مرة من لعن الظلام .

حذار من لعن الظلام ! وحذار من إشعال شمعة !

فالشمعة لم تعد تكفي وسط إعصار ليل القهر الذي يكاد يلفنا . صار إشعال الشمعة فعل تخدير ، كمن يداوي الشلل بقرص من الفيتامين . كمن يعطي جريحاً ما قرصاً من (الفاليوم) كي يتخدر وينزف دمه كله قبل أن يصحو ، دون أن يضمد له جراحه أو يحدد موقعها على الأقل !

في زمننا العربي الرديء هذا ، لم يعد إشعال شمعة خير ألف مرة من لعن الظلام .

* * *

وحذار من لعن الظلام !

فقد كتبنا في لعن الظلام وذمه أحلى قصائدنا ، وبسملنا وحوقلنا في ليل الانكسارات المتلاحقة . . والانهيارات الكابوسية .

المهم أن نرصد ما يدبر لنا في هذا الظلام المسدل كستارة فوق مسرح الجريمة .

المهم أن نرصد مراكز إطلاق الجراد على أرضنا وخبزنا وأحلامنا .

وحذار من إشعال شمعة أمام هذه الصورة المتأججة سواداً : صورة واقعنا العربي .

دعـوا سنابل القهر تنمو ، وخبز الحقد ينضج ، وشلالات الذاكرة العربية تتدفق من خلف سدود التخدير والترغيب والترهيب والتأويل والاجتهاد الفكري السوريالي ، أمام حلم عربي مذهل البساطة والعفوية والصرامة .

* * *

وحذار من إشعال شمعة !

أمام هذه الصورة المتأججة سواداً ، صرنا بحاجة الى شمس وضوح . صرنا نتوق

إلى اكتشاف منابع الضوء بدلاً من التلهي بقناعة أهل الشمع ، ومتاحف الشمع لبعض حكامنا الذين يمنحوننا بين وقت وآخر شمعة أمل ذابلة ، تطيل عمر عذابنا دون أن تساهم في إلغاء اسبابه .

ولنزدد ضراوة كلما تكاثرت هزائمنا . ولحظة يقودنا الجلاد الى مقصلة الحزن البائس ، سنقول له برباطة قلب وجأش أن برجنا منذ الآن فصاعداً لن يكون « برج الحمل » ولا « برج الجدي » ولا « برج القطة » . إنه « برج الضوء » .

ولن نصدق بعد اليوم أن إشعال شمعة خير ألف مرة من لعن الظلام .

كنا نشعل الشمعة ، فتدل على مكاننا ، ونتلقى طلقة في الرأس .

وكنا نشعل شمعة ، وهم يشعلون فتيل الديناميت لنسف بيوتنا ، ويشعلون الأضواء الكاشفة في معسكرات اعتقال الحلم العربي .

هامش لوقفة على شمعة :

ولم تعد الشمعة رمزاً رومانسياً في هذا الزمن الوحش .

في المدن المعاصرة التي قاست من ويلات المعارك ، الشمعة رمز الحرب . في بيروت ، الشمعة رمز لانقطاع الكهرباء عن بيوتنا ـ وسبل الحضارة الأخرى ـ ، ورمز لتساقط القذائف الأميركية علينا عبر محطة « الإشعاع » الاسرائيلية ، الشمعة صارت عندنا بعد سنوات الحرب إياها رمزاً للحصار . للقهر . للخوف . للموت . لارتجاف الأطفال ـ لا العشاق ـ أمام لهبتها . وبعد ليالي القصف التي لم نمت فيها ، كان يطلع الصباح على بقايا الشموع المتناثرة في كل مكان .

بقع صغيرة وكبيرة تلطخ الأرض والطاولات وزوايا دهاليز الرعب والمخابىء ، تلتصق بها وبثيابنا وشعر أطفالنا وجلدنا وأوراقنا وخبزنا وأقلامنا وأصابعنا . آه ذلك الرعب الصغير المسمى بقعة شمع جافة بعد ليلة قصف . هذه النقاط الجامدة الصغيرة ، كأنها آثار أقدام الموت الذي تجول بيننا . . آه حشرات اللعنة البيضاء تلك ، التي عبثاً تقتلعها عن الأشياء بأظافرك ثم بالسكين .

في بيروت تعلمنا أن الوسيلة الوحيدة لانتزاع بقعة الشمع عن الأشياء هي بالنار والكي ، وقد تصادف أنها أيضاً الوسيلة الوحيدة لمواجهة الذين يرغموننا على العيش في ظل الأشباح .

في بداية الحرب حاولنا عقد صلح مع الشمعة وعملية اشعال الشمعة . صرنا نحاول تحريض ذكرياتنا حول رومانسية الشموع ، وجلساتنا الغابرة في حنان نورها

الهامس، لكن صوت انفجار القنابل كان يمحو عن شريط الذاكرة الأصوات الباقية كلها، وبدأنا نلحظ كم تستطيع تلك الظلال التي ترميها الشموع أن تكون مرعبة . كان الأطفال أيضاً يخافونها، وصرنا نحاول تطويع الظلال بأصابعنا التي ترتجف، ونحولها إلى أشكال قطط وكلاب نرميها على الجدار ونقلد أصواتها ونصطنع الضحك . لكن الشمعة كانت تكبر وتكبر مع بكاء الأطفال حتى تصير منارة للخوف والحزن تتوسط ليالينا .

واليوم بعد أن انتهت الحرب (انتهت ؟ ابتدأت ؟) صرنا نكره الشموع . وحين يدخل عاشقان الى مطعم، ويشاهدان الشموع (الرومانسية)، يهربان إلى أول مكان ساطع الأنوار حتى ولو كان غرفة العمليات بالمستشفى ! صار ضوء (النيون) الشعار الرومانسي الجديد لدينا بدلاً من الشموع !

* * *

أمام صورة الواقع العربي المتأججة سواداً، لم يعد ثمة أي مناص من اختراع الضوء ! . . .

أمام هذا السواد الحالك نعلن الصوم عن التشاؤم السلبي (طوال شهر رمضان على الأقل !)، ونعلن حاجتنا الى اكتشاف منبع الشمس ودروب الشروق وصنع المصباح . وحذار من مصباح علاء الدين السحري . . . فمآسينا لن تحلها لمسة سحرية عجائبية . إنها بحاجة الى لمسة عمل ملايين السواعد .

كل شيء تقريباً مظلم . إذن فنحن بالضرورة في المرحلة الأخيرة لمخاض الضوء .

إنها مرحلة الخروج من النفق الى لحظة الضوء ! ضوء الموت والإبادة النهائية (للهنود الحمر) العرب، أو ضوء لحظة وعي ضرورة الوعي ! . . . كأنها لحظات الخيار الأخيرة لنا .

* * *

نعم . الصورة قاتمة .

ولكن حذار من الإكتفاء بلعن الظلام . دعونا نحدد نهائياً الاعداء المختبئين في عباءة الكلمات السياسية المتقاطعة ولعبتها الجهنمية .

ولأن الظلام دامس، والتشاؤم نتيجة شبه محتومة (وثمة من يحاول دفعنا إليها دفعاً)، دعونا نلجأ إلى التفاؤل المشروط . الى التفاؤل الغاضب المخطط، لا التفاؤل الأبله المسترخي الفج .

وحذار من إشعال شمعة ،

سيقطفون رأسنا بعدها بطلقة ، أو أنهم سيحرضون الجماهير البريئة على كتابة المسرحيات في امتداح الشمعة وتأليف الأغاني في تمجيدها ، وجمع كورس للتصفيق لها ، وكتابة المسلسلات التلفزيونية في شرح فضائلها لتحرير الوطن السليب والسالب والمستلب ، ولن تعدم الشمعة منظّراً يؤلف كتاباً عن فضلها في تحرير وطننا العربي من محيط الرمال المتحركة الى خليج أسماك القرش .

وسنتلهى بالشمعة عن نبتة الضوء ! . . . ولأن الصورة قاتمة حقاً ، صار في اكتشاف بذرة الضوء وزرعها الانقاذ الأخير لنا ، ونبتة الضوء ترتوي بالفكر ، لا بالدم وحده ! .

* * *

نحدق في الصورة المتأججة سواداً .

ها هو مناحيم بيغن رئيس وزراء «إسرائيل» يبشرنا بأن الأعلام العربية الـ ٢١ سوف ترفرف فوق القدس بعد اعتراف هذه الدول « بإسرائيل » . يقول لي صديقي الفلسطيني بحرقة : من زمان ليس ببعيد كنا نسميها « اسرائيل المزعومة » وهم يحاولون اليوم تحويلنا الى « العرب المزعومين» .

يردد بيغن : أرض اسرائيل هي أرض أجدادي منذ ٢٠٠٠ سنة .

نصمت ولا نشعل شمعة ولا نلعن الظلام . فهذه أرض الفلسطيني العربي الى ما قبل حوالي ربع قرن فقط ، ومع ذلك فالمطلوب منه ومنا نسيان ذلك ! .

يبشرنا بيغن أيضاً بذبحنا (بمناسبة شفائه من الذبحة) ، ويعلن أثر خروجه من المستشفى انه سيتم تطويب القدس عاصمة موحدة لاسرائيل ! . . .

نحدق في الصورة المتأججة سواداً . . .

نرى المستوطنات الاسرائيلية تنمو كالسرطان لالتهام الخلايا العربية في الأرض المحتلة . نراها تطوق أريحا لأن فيها شجرة زيتون نسوا إحراقها . ونرى بعض الإعلام العربي المشبوه يحاول مواكبة التطويق العسكري ، بمحاصرة ذاكرة الانسان العربي . . .

ما جدوى ذلك كله ؟

ألا يعرفون أن الانسان لا يستطيع أن يخلع ذاكرته كما يخلع ضرساً عتيقاً ، ولا يستطيع أن يرمي بها الى سلة المهملات كجورب مهترىء مثقوب ؟

* * *

المعتقلون العرب يتابعون إضرابهم في سجون التعذيب الاسرائيلية . الأهالي يتابعون ثورتهم على مصادرة الأراضي العربية والانسان العربي . وأريحا الحمامة المطوقة . وزعماء المقاومة في الداخل يتابعون مسيرة الأقدام المقطوعة التي تمشي على رصيف السماء فوق شوارع التاريخ . . . هذه كلها نقاط تتجمع كالجمر مرشدة الى النبع الأصلي : المقاومة على كل صعيد ، بما في ذلك مقاومة المقاومة المزيفة وبالأحرى مقاومة الذين يسرقون شعاراتها ويرتدونها قفازات تخفي بصماتهم في مسرح جرائمهم .

* * *

الرايات العربية ترفرف باستمرار فوق القدس. كل شهيد يسقط، يولد راية ضوء هناك !

حسناً . لنتقشف في استعمال الصور الشعرية الحماسية ، فالصوم عن التشاؤم ليس مرادفاً للتفاؤل الشعري الفضفاض .ولنقل ببساطة : إخراج الانسان من داخل الأرض ممكن ، لكن إخراج الأرض من داخل الانسان غير ممكن .

ولأجل ذلك صارت الذاكرة العربية هي العدو الأول للعدو . الذاكرة العربية المفعمة بالمد والعنفوان والكبرياء والطموح وحلم الوحدة والانبعاث والخروج من زمن الرماد .

الذاكرة العربية محظرة كالمتفجرات ، وكل من يُقبض عليه متلبساً بحيازة ذاكرة عربية ، يعاقب باستئصالها في السجون الاسرائيلية ، وفروعها في بعض البلاد العربية وغير العربية .

ورغم الانهيارات والتعتيم والانكسارات وإشعال شموع باهتة وإطلاق اسم الشمس عليها في مهرجانات لعن الظلام ورغم محاولات إلهاء الذاكرة العربية وتخديرها ، نتمسك ببذرة الضوء ، ونعلن :

إعلان غنى خال لا « فقر حال» :

ملتزمون بالذاكرة العربية . محكومون بالتفاؤل المؤبد ، مع الأشغال الثورية الشاقة ! . . .

١٩٨٠/٨/١

ما رأيكم ببعض الغضب ؟

إذا كان جرحها قد شفي ، فإن جرحنا قد أينع . وإذا كانت كسورها قد برئت ، فإن كسورنا قد ازدهرت وجعاً ، ونمت المخالب والأشواك على حافاتها .

فقد تعبنا منهم . من استغلالهم لحبنا . لكرم ضيافتنا . لتصفيقنا . تعبنا من تلفيقهم لآياتنا القرآنية . وتعبنا من الأغاني التي يمجدون بها عدونا . وتعبنا من المواقف الزئبقية لفلاسفتهم التي تناصر الحق في المطلق وتستخف بالحق العربي . تعبنا من تزويرهم لحقيقتنا ، ومن تزويرهم لحقيقة مشاعرهم نحونا .

* * *

الممثلة الأميركية جين فوندا ، (الثورية) راعية الأبقار والقضايا الانسانية ، التي طالما توجتها صحفنا (التقدمية) وأكثر صحفنا العربية نموذجاً للفنانة الملتزمة بالكفاح من أجل العدالة والفرح ، كسرت رجلها في اسرائيل .

فقد ذهبت الى هناك معربة عن عواطفها الجياشة نحو الصهيونية ، مقدمة خدماتها للمساهمة في بناء المستوطنات والأفراح والليالي الملاح ، لكن طفلاً عربياً صغيراً لا مرئياً جعلها تتعثر بقدمه الشفافة الصغيرة ، التي تبرعت بالمال والعمل لقطعها وقطع سواها ، فسقطت وكسرت رجلها .

وحدث ذلك منذ أسابيع . ولعل عظمها المكسور في طريقه الى الالتئام ، ولكن جرحنا العتيق المكرر ليس في طريقه الى الالتئام ، وإنما الى الانفجار .

* * *

تعبنا منهم أولئك الغرباء الذين نمنحهم بنفسج القلب وغابات الحنان وينابيع الحب ، ويمنحوننا الغدر .

تعبنا من ذلك الحب الذي يكسرنا ازدراء ، ويخلفنا ونحن نلملم شظايانا ، ونمارس تقريع الذات سرّاً خوفاً من الشماتة . تعالوا نشمت بأنفسنا قليلاً ، نقرعها علناً ، نجلدها بالغضب على الذات والسخط ، ثم نغسلها بماء الزهر والغفران ،

ونجرها من دائرة الحب الأعمى لهم الى دائرة الحب الواعي ـ لا الحقد الأعمى كردة فعل عفوية رعناء ـ . ليتنا نخرج من دائرة الخفقان القلبي الجارف البريء ، الى دائرة الحب الواقعي الهادىء ، فالحب خفقان عقلي !

* * *

حكايتنا مع (الرفيقة) جين فوندا ليست سوى قطرة الماء الأخيرة التي طفح الكيل بها . . . إنها القشة التي قصمت ظهر التسامح والبعير معاً . إنها ليست سوى الحادثة الأخيرة في مسلسل خيباتنا العربية بهم ، وما أكثرها . . . واذا كان العظم المكسور لجين فوندا قد شفي الآن ، فإننا لن نسمح لجرحنا بأن يلتئم بعد اليوم . اليوم شاهدت صورها وهي تعود الى تمثيل دورها المفضل في مظاهرات الرفض والاحتجاج من أجل الهنود الحمر في أميركا . . . فلماذا جاءت الى اسرائيل لتساهم في قتل (الهنود الحمر العرب) وإبادتهم من المنطقة ؟ ولماذا قتل الفييتناميين حرام وقتل العرب حلال ؟ ولماذا الاعتداء الأميركي في فييتنام (أمبريالية) وفي فلسطين المحتلة (كرم أخلاق) ؟ . . ولماذا ؟ . . ولماذا ؟ . . . . اليوم حين شاهدت صورتها تتابع لعب دور (الثورية) ، تفجر في رأسي مخزون من حكايا مشابهة موجعة .

* * *

قبل الحرب اللبنانية بعام ، شرفتنا المطربة الأميركية (الثورية) جون بابيز بزيارة لبنان، وغنت في بعلبك . يومها زحف المثقفون اليها ، وكتبوا المعلقات في (إلتزامها) ، وكتبوا العرضحالات والمراسيل في الترحيب بها ، وأغمي على بعضهم اعجاباً بحضرتها البهية وقفطانها الشرقي واقدامها العارية وأظافرها الموسخة .

وغنت يومها جون بابيز للحب والحرية والعدالة وغيرها من الشعارات الجميلة ، واستخف بالناس الطرب ، وغسلناها بزيت المحبة العربي المضيء الذي لا يشبهه زيت آخرفي العالم . . فنحن العرب حين نعشق ، نركع في محراب نكران الذات ، وتحول أجسادنا سجادة يدوسها المحبوب ، وأصابعنا شموعاً يشعلها المحبوب ، وصدورنا قوارب لموكب المحبوب ، وأذرعنا المجاذيف . . لكن بعض الشبان الذين حافظوا على ما تبقى من وعيهم يومئذ صرخوا بها : جون بابيز ، أين أغنية فلسطين ؟ وابتسمت هي ابتسامة صفراء مقددة ، وتجاهلت الاستفسار ، فاحترموا تجاهلها ولم يلحوا . وقلائل عرفوا سر ضحكتها الصفراء : إنها لم تنشد « أغنية فلسطين » لأنها ببساطة غنت قبل ذلك « أغنية اسرائيل » . غنت أكثر من أغنية لاسرائيل . (لأورشليم) القدس ،

العاصمة الموعودة (التي أعلنت هذا الشهر وكرست كذلك !) ، و« للأرض الموعودة» وللمقاتل الاسرائيلي ومجد صهيون و « اطلالة صباح النصر » و « الأطفال الذين قادهم موسى » . .

هل كنا نجهل ذلك حين دعوناها للغناء عندنا ؟ إذا كنا لا ندري فتلك مصيبة ، وإن كنا ندري فالمصيبة أعظم!! . . . .

* * *

وبعض المستشرقين الذين نفرح بهم باستمرار ، يدخل إلينا من باب الحب ، ويغادرنا منسلاً من نافذة الحقد . نغمرهم بالكرم العربي ، ونسهل مهمتهم ، ونهديهم خنجراً يمانياً مطعمًا بالأحجار الكريمة ، وساعة أوميغا ذهبية وبطاقة طائرة بالدرجة الأولى للعودة الى بلادهم مكرمين، ويأتي بعدها الحصاد المر للرحلة ، وتصدر مجموعة من الكتابات المعادية لنا ، ويغمدون الخنجر المذهب ـ المهدي اليهم ـ في صدورنا .

كتاب (صحارى) مثلاً الصادر بالانكليزية ، تأليف مجموعة من البروفسورات والدكاترة أمثال كارل سوتر ، ـ هانز روترت ـ الكسندر واندلر ـ اولريخ شويتزر ، وعلى رأسهم رينيه جاردي خرج من زياراته الى شمال افريقيا وسواها الى القول بأننا أقوام (يعيشون في أحضان الأقذار والوساخات التي لا توصف ـ صفحة ١٢) ، و (الأوروبي يحس بالرغبة في صفع المسلم وهزه وإعلامه بأنه لا علاقة للرب بمرض الزهري أو البلهارسيا ـ ص ١٦). ومن الواضح أن المستشرقين الذين ألفوا الكتاب لم يكلفوا انفسهم عناء قراءة ترجمة للقرآن ليفهموا المعنى الحقيقي للقدرية الاسلامية اللاإتكالية . وبلغ من استخفافهم بنا انهم لفقوا آيات قرآنية منها (الجمل حيوان الله المفضل) و (أهم شيء للمسلم هو اقتناء قطيع من الجمال) و (من يطعم جمله طعاماً نظيفاً وجيداً يسجل الله اسمه ويسجل له حسنات بعدد قشات التبن التي أطعمها لجمله) و (من يحرم جملاً وصاحبه من شربة ماء حرم رحمة الله يوم القيامة ـ صفحة ٢٩ من الكتاب نفسه حتى ص ٣٤) .

ومر الكتاب دونما حسيب ولا رقيب ، بل واشتريته من الأسواق العربية وكتبت عنه يومئذ لافتة الأنظار الى موقفه المشين منا ، والكتاب ما زال يباع معززاً مكرماً مدعوماً بعقدة نقصنا أمام الأجنبي .

الأمثلة لا تحصى .

كتاب « فانيشينغ سبيشيز » أي « فصائل منقرضة » لمحرري اللايف ـ التايم

يتحدث عن كائنات حية في طريقها الى الانقراض ، لكنه لا يعدم وسيلة للغمز من قناة العرب، وامتداح اسرائيل ، التي انقذت غزلان فلسطين من الابادة . ويؤكدون انه منذ تأسيس اسرائيل استعادت الفصائل الحيوانية النادرة عافيتها وتكاثرها و «الاسرائيليون يأملون في صنع سفينة نوح المعاصرة » ـ أي لانقاذ المنطقة وكائناتها الحية من طوفان العرب (الهمج) !

* * *

هذه أمثلة مرت ببالي ، وهي غيض من فيض .

ونحن حتى اليوم لم ننس مأساتنا مع سارتر . وما نزال نكتب حول موقفه المعادي للقضية الفلسطينية والموالي لاسرائيل . والبعض يحاول تفسير ذلك أو تبريره كالقول بأن سارتر كأوروبي يعاني من شعور بالاثم نحو اليهود ، أو القول بأن غموض موقفه من العرب هو من بعض تناقضاته المتأتية من (طفولة بودليرية ذات مازوشية كامنة) الى آخره . . الى آخره . . اللعنة ! لقد كان سارتر قادراً على الوضوح حين يشاء . وصحيح أنه من غير المؤذي أن نبرر موقفه المعادي او نفسره ، ولكن ، ما رأيكم أيضاً ببعض الغضب من أمثاله ، وبعض الشماتة بأنفسنا . . نحن الذين منحناه وسواه من رقعة القلب العربي الشيء الكثير ؟! . . .

* * *

إن الأمثلة على الحب العربي الجارف لا تنتهي . والأمثلة على بعض الغدر الأميركي والغربي الذي لقيناه تطول . . ماذا نفعل ؟ نعلن القطيعة عليهم ؟ لا . بل نعلن القطيعة على أسلوبنا العتيق في حب الغرباء . إننا نمنحهم خفقة القلب العفوية كرفة عصفور ، ويمنحوننا حباً نفطياً كومبيوترياً في موكب من الآلات الحاسبة . إنهم يأتون وأكثرهم قد برمج مصالحه وأرقام مبيعات اسطواناته وكتبه ، ونحن نلقاهم غير مزودين بالمعرفة ـ معرفة أعمالهم السابقة على الأقل ـ ، وغير مزودين بالوعي المحايد الذي يجب ألا يذوب بعد اليوم أمام الحب . وعلى حد التعبير الجميل والواعي للدكتور ميشال شيحا ، استاذ الدراسات الشرقية في الجامعة اللبنانية « نحن اليوم نمر بفترة حرجة من تاريخنا يجب أن نكون فيها واعين لكل ما يحاك لنا من دسائس ، ويجب أن نفرز الحق عن الباطل ، فنأخذ ما أعطاه المستشرقون من بحث وعلم، ونرفض الزيف » .

* * *

والمؤسف أن انحياز (ثوريتنا المدللة) جين فوندا الى اسرائيل لم يثر أكثر من

بعض التعليقات الصحافية العابرة المستنكرة . . . أما مصالحها ، وأفلامها التي تعرض في صالاتنا ، فلم تمتد إليها يد . . ومرت الحكاية بسلام كأنها لم تكن . . . ونسيناها . . فالمؤسف اننا نعيش اليوم في زمن الانحدار ، زمن الانحسار القومي في أكثر من قطر عربي ، زمن الاستخفاف والسقوط ، لا في زمن المد القومي الجميل ومرحلة « وطني حبيبي وطني الأكبر » ، يوم كانت الخيانة لا تمر بغير حساب أو عقاب . يومها عوقبت اليزابيت تايلور لجرم مماثل ، وكان قرار مقاطعتها رادعاً وعادلاً . . وحرمت من زيت الحب العربي المضيء وتركت تتقلب في الوحل الاسرائيلي حتى تشبع . .

أما جين فوندا ، فلم تلق أي عقاب ، بل لعلها تلقت بعض البرقيات (العربية) التي تدعو لها بالشفاء العاجل .

ونحن ، متى نشفى من الحب المجنون الأرعن ، وشلل العدالة الوطنية ؟

١٩٨٠/٨/١٤

أصل البلاء من حواء

حينما يمتدحون امرأة ما عندنا ، يصفونها بأنها « أخت الرجال » . وحينما يشتمون رجلاً ما ، يقولون أنه « مثل النسوان » أي كالنساء ! ويخيل إليَّ أن هذا الأمر ينسحب بوجه عام على بعض البلاد العربية .

* * *

ذات صباح غائم ، كنت في طريقي الى موتي اليومي ، والأفكار الغائمة تتكاثر داخل رأسي وأنا أتأمل في الطقس السياسي العربي الغائم . اسرائيل تقرض قطعة من جنوب لبنان ، والمؤامرات تقضم القلب منه ، والوطن الصغير يتمزق . . ونحن ما نزال نتناسل ونربي أولادنا وننصب خيامنا فوق سفح البركان . وكنت أتساءل : ترى الى أي مدى صار المواطن العادي يعي أصل البلاء ؟ . . ومتى يثور على العدو الحقيقي ؟ ومرت بي سيارة تاكسي لبنانية تحمل الرقم ١٨٦٦٧ ، وقرأت كتابة على زجاجها الخلفي بخط أحمر : « أصل البلاء من حواء » !

* * *

ربما كان الذي خط هذه العبارة ، قد تلقى طعنة نجلاء من حوائه ، ويمكن اعتبار ردة فعله هذه مؤشراً على البساطة العفوية والطرفة الشعبية المحببة غالباً . ولكن رصد بعض الآراء التي يدلي بها (الأساتذة المثقفون) يكشف أن نظرتهم لا تختلف في جوهرها كثيراً عن نظرة المواطن العادي التي لخصها سائق التاكسي حين أكل التفاحة ، وصادق الأفعى ، وذبح حواءه ، ولخص الحكاية على زجاج سيارته .

وقد قمت برصد مجموعة من الآراء في المرأة لسياسيين وأدباء وفنانين (ربما أجمعها ذات يوم في كتاب !) ، واليكم الآن بعض النماذج منها .

* * *

رئيس الوزراء اللبناني السابق ـ وربما اللاحق ـ الأستاذ رشيد كرامي قال في تصريح لاحدى الصحف اللبنانية بتاريخ ١٩٧٨/١١/١٣ « يا عمي من يوم اشتغلت

النساء في التجارة ازداد ارتفاع الأسعار » . . . إذن ، التضخم النقدي العالمي سببه عمل المرأة في التجارة ، ولتسقط النظريات الاقتصادية والسياسية كلها ، وأصل البلاء من حواء !!

* * *

رئيس قسم الفلسفة في كلية التربية بالجامعة اللبنانية الشاعر الدكتور عادل فاخوري أدلى بحديث أدبي لاحدى المجلات بعنوان (نزار انتهى . درويش دعايته أكبر منه . وأدونيس ملك يستحق العرش) بتاريخ ١٩٧٩/٤/٦ . وقد دعم آراءه في الشعراء بقوله: «أحسست من واجبي، كوني لا أطلق أحكاماً إلا بعد الدراسة ، أن أمنحهم الأهمية التي يتمتعون بها في البلاد العربية وأن أقرأهم . وبالفعل عكفت على نفسي وأخذت بمطالعة دواوينهم » .

لكنه لم يحس بالواجب نفسه حين واجه سؤالاً مماثلاً حول الكاتبات . وباستخفاف نفى وجودهن في العالم العربي بأكمله (وهذا من حقه لو قرأ لهن ، وهو قد يكون صحيحاً أو ، لا يكون) لكنه انتقل الى التعميم حين ميز بين فصيلة الذكور المتفوقة وفصيلة الاناث بقوله : « فيما يخص العقل ، المرأة هي اللامنطق بالذات » . حسناً . ربما كان ذلك صحيحاً أيضاً انطلاقاً من تجربته الشخصية مع النساء ، ولكن لماذا التعميم الفلسفي حول المرأة ككل ،واطـلاق حكم شامل حول خطأ أساسي في تركيبها كأنثى ؟ انه هنا يردد بمعنى ما رأي أرسطو القائل « الأنثى أنثى بسبب نقص معين لديها في الصفات » وهو قول عمره أكثر من ٢٠٠٠ سنة ، وصاحبه فيلسوف كبير لكنه كالبشر جميعاً ليس منزهاً عن الخطأ .

ترى لماذا يصير التهجم على المرأة (تقليداً فلسفياً) يشمل تلقائياً كل كتاب يحمل اسم مؤلفه « تاء التأنيث » ؟ ولماذا تحرم الكاتبة من حق المثول أمام محكمة عادلة أسوة بالشعراء الذكور؟ ولماذا استطاع الدكتور فاخوري إنصـاف حتى البوم بـأسلوبه الجميل . . أما المرأة فلا ؟ . .

« من قال
إن البوم خلق لليل
وليس الليل للبوم ؟ » ـ من قصيدة له .

* * *

في المجلة نفسها بتاريخ ١٩٧٩/٣/٩ نقرأ خبراً صغيراً كبير المدلول لأن صاحبه

ممثل لبناني جيد هو نبيه أبو الحسن . ويروي لنا الخبر أنه « بعد أربع سنوات من القتل والحرب والذبح يكتشف نبيه أن جميع الرجال (نسوان ـ أي نساء ـ وللأسف). إنه يأسف لأن رجال لبنان نساء ، ونحن ندهش أمام هذا الأسف فالمعروف أن المرأة اللبنانية والعربية لم تشارك ـ هذه المرة ـ في الحرب اللبنانيـة بغض النظر عن رأينا في هذه الحرب وعن الفرق بين الشهيد والخائن والمقتول مصادفة ، وأنه لو كان جميع الرجال في لبنان نساء حقاً لما كان هذا « القتل والدمار » . ولكن، فلتذهب الى الجحيم النظريات السياسية والأسباب الاقتصادية والقومية . . و « أصل البلاء من حواء » ! . . .

* * *

وحينما نغادر حقل الفلسفة والسياسة (والتاكسيات) الى حقل الأدب ، نجد أن الوضع ليس أفضل حالاً .

فالمرأة الأديبة ممنوعة من اختيار مادتها الروائية ، وما هو محرم عليها ، مباح للكاتب الذكر . للكاتب الحق في اختيار بطلة أنثى لروايته ، أما الكاتبة فلا .

اميل زولا مسموح له بالكتابة عن « نانا » . فلوبير مسموح له بالكتابة عن « مدام بوفاري » . تولستوي مسموح له بالكتابة عن « آنا كارنينا » . « ريتشاردسون » مسموح له بالكتابة عن «باميلا». شكسبير مسموح له بالكتابة عن « ليدي ماكبث » ، فهذا كله وسواه « أدب انساني » . أما إذا تجرأت كاتبة وتصادف أن اختارت بطلة كمادة لعملها الفني ، فهذا « أدب نسائي » محكوم سلفاً بالدونية . حتى الكتابة عن المرأة ومشاعرها هي حكر للرجل ممنوع على الكاتبة التطاول عليه تحت طائلة القمع .

ويحق للأديب (الذكر) الكتابة في روايته عن (بطل ذكر) دون أن تتهمه (ناقدة أنثى) بأنه يكتب (أدباً رجالياً) ! . . .

وحينما يكتب عامل عن كفاح العمال ضد القمع أو بحار عن كفاح طبقته ضد الاستلاب يصفق النقاد غالباً بغض النظر عن القيمة الأدبية لهذه الكتابات . وإذا كتبت واحدة من طبقة المرأة (المنحطة) عن قهر طبقتها فهي مدانة سلفاً بدونية أدبها ـ بغض النظر عن قيمته الفنية ـ ، والغريب أن بعض النقاد (الثوريين) هم الذين يمارسون تكريس مؤامرة الصمت حول هذا القمع بتخويف الكاتبات من الكتابة حوله ، ناسين أن المرأة المقهورة هي الحليف الطبيعي للثوار جميعاً .

لماذا اعتبار كل ما هو « نسائي » غير انساني ؟ لماذا هنالك « هواجس نسائية » ، أما « الهواجس الرجالية » فتلقب بـ « هموم إنسانية رحبة الأفق » ؟

لماذا لا يكون الابداع هو المقياس الأوحد ؟
لماذا تجلد الأديبة الرديئة أضعاف ما يجلد أديب رديء ذكر ؟

* * *

ولا أدري من أين يعتاش كتاب النكات الساخرة والتعليقات اللاذعة في أكثر وسائل الإعلام العربية من صحف واذاعات لو لم يخلق الله المرأة لنجدتهم كمادة خصبة لحكاياهم الساخرة .

ويبدو أن « أبقراط » كان على خطأ حين أعلن أن « المرأة هي في خدمة البطن » . فالمرأة هي « في خدمة السخرية » وأنا لا أحاول القول أن المرأة ليست موضوعاً قابلاً للسخرية . كل ما هو بشري هو موضوع قابل للسخرية ، بما في ذلك الرجل والطفل . فلماذا يحرموننا من نكات جديدة وممتعة لم نسمعها بعد ، تدور حول ذلك (القرد العاري) كما أسماه ديسموند موريس ؟ ثم إن النكتة العربية متطورة حقاً على الصعيد السياسي ، فلماذا هذا التخلف على صعيد المرأة ؟! . . .

* * *

جميلة جداً هي تلك الدراسة التي كتبها الأستاذ خالد القشطيني بعنوان « الساقطة المتمردة ـ شخصية البغي في الأدب التقدمي » . والأديب (الثوري) يتفهم جيداً أبعاد مأساة « العاهرة » ، لكنه لم يقترب بعد من المرأة السوية العادية ـ إلا فيما ندر ـ . يخيل اليَّ أن دراسة حول « الأدب الذكوري العنصري العربي » صارت أمراً ملحاً . سنكتشف خدعة نقدية كبيرة أسماها النقاد «الأدب النسائي»، في حين أن أكثر ما يكتبه الرجال هو « أدب رجالي » يتناول المرأة العربية تناولاً فجاً ويحولها الى نماذج سطحية قاصراً عن تصوير عالمها الحقيقي الداخلي والاجتماعي ، ويقع باستمرار في فخ التمجيد الرومانسي المفرط ، أو التحقير المبالغ به .

* * *

وسط هذه الفوضى الشديدة الازدحام والخواء ، نرى المرأة العربية المعاصرة تنبت بشراسة كالورود الربيعية على سور مقبرة، وتزدهر مثل مهرة اكتشفت الركض ذات فجر دموي شهي . ها هي كخبز الفقراء ، مأكولة ومذمومة ، كملح الأرض ، منسية الا من السنابل . ها هي تعمل بصمت فعال كالزمن ، وتشرق في المجالات كلها . . . . عاملة . . . وزيرة . . . فلاحة . . . نائبة في المجالس الشعبية . . . ربة منزل ـ أي موظفة لدى خمسة أشخاص على الأقل دونما راتب أو منحة تقاعدية أو إجازة ! ـ . . .

ها هي تتوج ذلك التوهج السري كله حين حولت مؤتمراً (نسائياً) عالمياً ـ في كوبنهاجن ـ الى تظاهرة ثورية إنسانية استطاعت خلالها انتزاع قرار بمساواة الصهيونية بالأمبريالية والعنصرية . .

ولكنها ما تزال تلقى في وطنها من يعاملها بعنصرية . . .

* * *

ها هي المرأة العربية تتطور في المجالات كلها ، فهل تلحظ ذلك بعض وسائل الإعلام عندنا ؟ هل يلحظ ذلك (سادتنا) من الساسة المخضرمين ويعون ضرورة مواكبة هذا التطور ؟ وهل يشيح الفلاسفة بوجههم عن وهجه ملتصقين (بالرفيق) أرسطو ؟ وهل تتبدل الأفكار الشائعة عندالعامة قبل (الخاصة) غير الخاصة بشيء فيما يبدو إلا بالبطء في وعي الواقع ؟ وهل تقدر النكتة العربية ـ المتطورة على الصعيد السياسي ـ تحقيق قفزة تواكب مسيرة المرأة في درب العطاء ، وتسخر منها بطريقة أقل إثارة للتثاؤب ؟

إن واقع المرأة الجديد صار يفرض نمطاً جديداً على كل صعيد : النقد . النكتة . السياسة . الفلسفة . الشعر . الاقتصاد . الاعلان . التلفزيون . الاعلام ككل . . .

فمتى يعي الجميع ضرورة الخروج من عصر الخنساء ، ورابعة العدوية وبثينة ، وليلى، وعَزة، وماري انطوانيت ، الى عصر المرأة العربية الجديدة ، العاملة المسؤولة الواعية، التي ولدت بعملية قيصرية بفعل الأحداث السياسية الخطيرة المتلاحقة على أرضنا العربية ، لكنها ولدت قوية ناصعة أصيلة ـ وإن كانت لا تخلو من الأخطاء كالبشر جميعاً ـ ؟

ولكن ،

هل أقول : من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر ؟ لا . لا . لا .

بل من كان منكم بلا خطيئة سنرجمه نحن بحجر ، لأنه ليس إنساناً !! . . .

لكن الخطأ يغتفر . . . المهم خَلْق إرادة التصحيح والتبديل .

١٩٨٠/٨/٢٢

لا تحزن يا صديقي

من زمان ،

كان هنالك من يعلِّم الأشجار أن تكرهنا . الغابات . السنابل . المراعي . القطارات . الرجال . الثلوج . قرميد القرى النائية . الحقول المرمية تحت النجوم الليلية . الطيور .

كان هنالك من يكتب على أوراق الرياح ، وقطرات الأمطار ، سطور بغضه لنا ، وينشرها فوق شوارع المدن والشرفات . يكتب رفضه لنا فوق وجوه البسطاء الغربيين ، وملايين الطيبين عبر شاشات تلفزيونهم ، وصحفهم وأفلامهم ، ويعلمهم كراهية (العربي البشع) واحتقاره .

وكنا نرى ذلك . ونعرفه . ونلتقيه في بعض كتب الغرب وأفلامه وصحفه وتلفزيوناته .

وكنا نعرف أن بعضه صهيوني مغرض ، وبعضه الآخر (بريء) لكنه مضلل .

وكتبنا حوله وعنه وناقشناه وسئمناه ، وسئمنا حروفنا المسفوحة أمام قدمي الحكاية العتيقة إياها . .

عنه كتبنا باللهجات كلها ، من أقصى الرفض الغاضب ، إلى أقصى التفهم الودي المتسامح . . كتبنا على درجات أنغام السلم الموسيقي كلها ، حتى اهترأت عتبات (السلم) عاماً بعد آخر ، وصارت النغمات كلها نشازاً موحداً لكثرة التكرار . . ولم يتبدل شيء .

* * *

اليوم ، هنالك بوادر تبدل جذري في عملية طرح صورة « العربي البشع » في السوق الأوروبية الاستهلاكية.

هنالك هدف جديد وخطير حقاً : انه الطفل .

وها هم يعلمون (البذرة) أن تكرهنا قبل أن تصير شجرة .

يسقونها ماء الاحتقار والاستخفاف بنا . . يسقونها سخرية ماكرة اسمها : « بترول . . بترول » . .

* * *

تعال معي .

اجلس إلى جانبي في قاعة العرض المعتمة .

سنشهد فيلمًا هزلياً للأطفال اسمه « بترول . .بترول » ـ (تمثيل جان بيير ماربيل ـ برنارد بلييه ـ إخراج كريستيان غيون) .

اليوم نشهد الحفل الافتتاحي الأول لعرضه ، في واحدة من عشرات العواصم الأوروبية التي تقدمه . . وستقدمه .

سيضحك الأطفال كثيراً ، لكننا لن نضحك أنت وأنا .

صحيح إننا ألفنا مشاهدة صورة « العربي البشع » في أفلام سابقة لا تحصى ، لكن الأمر مختلف هذه المرة . .

انهم يعلمون أطفال الغرب الاستخفاف بنا بدءاً من سن السابعة . يغرسون في (لا وعيهم) البريء بذور احتقارهم لنا ، لتنمو فيها بعد وتزدهر .

إننا نشهد مولد ظاهرة يبدو أنها ستعم وتنتشر لتغطي حقل كتب الأطفال ، ومجلاتهم ، ورسومهم المتحركة . .

حكاية الفيلم ؟ ما الفرق . .

سأحدثكم عن صورتنا فيه ، المرسومة لنا من خلال « أمير نفطي » ـ على حد تعبير الفيلم ـ !

انه رجل مسن ، يهبط على سلم الطائرة في عاصمة أوروبية ، تحيط به حاشيته ويرتدون جميعاً اللباس العربي التقليدي . تتقدم منه طفلة ، وتهديه باقة من الأزهار ، يحصي أوراق الزهرة ، يجدها ٧ أوراق ، فيقرر رفع سعر برميل البترول بنسبة ٧ بالمائة !! أي أنه (عابث ، مهذار ، تتحكم الصدفة والنزوة في قراراته) . في المطار ، يقدم حذاءه لمستقبليه، فينحني مدير شركة النفط الأوروبي ويضع عليه الطلاء ، ثم ينحني نائبه فيمسح الحذاء ،وينحني المحاسب فيلمعه (احتقار الآخرين ، واذلال الذين يتعاملون معه) . ويمضي الأمير إلى الكازينو ليقامر (لا يحترم شعائره الدينية حقاً) . يعود من الكازينو إلى فندقه الفخم قبل مطلع الفجر . يجد مطبخ الفندق وقد أغلق أبوابه ، لكنه مصمم على أن يأكل البيض المقلي (الأومليت) بالذات . يتدلع كطفل .

توقظ حاشيته مدير الفندق . يقول مدير الفندق للأمير بلهجة يصفق لها الأطفال : « أنت في أوروبا ، وقانون العمل لدينا يحترم الناس ، ولا يسمح لنا بايقاظ عمالنا من نومهم في أوقات راحتهم ، حتى من أجل أمير » .

ماذا يفعل الأمير لمواجهة أزمة (الأومليت) ؟ يشتري الفندق فوراً ، ونرى المدير في المطبخ يعد (الأومليت) بنفسه للأمير ، المالك الجديد للفندق . (الغطرسة ، اللامبالاة بالقيم الانسانية ، استعمال المال بصورة مذلة للآخرين) .

صورة أخرى تنغرس في (لا وعي) الأطفال : الأمير عند بائع المجوهرات ، يلعب وحاشيته بالماس والياقوت والمرجان كالمتخلفين عقلياً (العبث ، التبذير ، عدم الحس بالمسؤولية) .

والأمير يحن إلى الصحراء ، ولكننا لا نعرف لماذا لا يعود إلى بلاده مثلاً ، وإنما نراه يشتري أرضاً شاسعة وسط العاصمة الأوروبية ، ويحولها إلى صحراء إصطناعية ، ينصب فيها خيمة مليئة بالطنافس والرياش و . . . راقصات « هز البطن » .

صورة أخرى ضحك الأطفال لها طويلاً : الأمير في بلاده يركب سيارة « رولز رويس » فاخرة ، تجرها الجمال ! (رمز للقدرة الشرائية مع العجز عن التعامل مع الحضارة . شراء الآلة لا يعني امتلاك مهارات العقل الذي صنعها ، ولا المهارة اليدوية المطلوبة لصيانتها ، أو على الأقل لملء خزانها بالنفط المتوفر تحت الأرض التي تجر الجمال عليها « الرولز رويس » !) .

* * *

طائرة الـ «جمبوجت» الخاصة التي يمتلكها الأمير ويعمدها بـ (الشامبانيا) ستنطبع صورتها طويلاً في خيال أطفال الغرب .

تقلع الطائرة المغسولة بالكحول ، ونسمع صوت الأذان : الله أكبر . . يقف الأمير وحاشيته للصلاة فوق بوصلة متحركة تدور بهم نحو القبلة كلما دارت الطائرة ، وفجأة تنتقل الكاميرا بنا إلى جناح الحريم في الطائرة ، فنرى دزينة من النساء : الحرير ، العري ، الماس ، التهتك ، الكسل على الطنافس ، الاستسلام ، الذهب ، أي الحريم بصورته التقليدية إياها كما في أفلام هوليوود منذ ربع قرن .

بعد إنتهاء الصلاة ، يأتي أحد أفراد الحاشية ليطمئن الأمير إلى أنه اشترى من أوروبا بضاعة جديدة مشحونة على متن الطائرة في جناح الحريم للتسرية عنه: إمرأتان ! . .

وفي الطائرة العربية الخرافية ملعب للتنس مزروع بالعشب ، والأمراء الشبان يركبون الدراجة داخل الطائرة (العبث ، الهزل ، التبذير)، وحين يسأمون ذلك كله ، يضغطون على زر ، فينحسر العشب أوتوماتيكياً ، وتـظهر من تحته بركة سبـاحة مدفأة ! . . هذا كله ، بينما تعزف فرقة موسيقية الحان القرن الثامن عشر وهي ترتدي ثياب ذلك الزمن و (الشعر المستعار) الفضي ، وبقية (العدة) ، وسط هذا الخليط كله ، يأتون بالخرفان المشوية ، فيهجم الجميع ، يتخاطفون الأكل بالأيدي ، والثياب تستعمل (فوطة) لمسح الأصابع ! . .

* * *

أخطر ما في هذه الصورة هو أنها موضوعة في قالب ذكـي جـذاب طـريف ومضحك (للغريب) ! . فالأمير يحب الأطفال ويحسن معاملتهم ، وشخصيته الهزلية المسلية ستدفع بهم إلى حبه ، ولكن سيرسخ في أذهانهم في الوقت ذاته (الفظاعات) الأخرى كلها الملازمة لها ، والتناقضات .

أليس في الفيلم (عرب) غير الأمير والحاشية ؟ ماذا عن ملايين العاديين الطيبين المكافحين من أجل شمس ورغيف ؟

الفيلم يلخصهم في صورة عدد من المهاجرين الفقراء العرب ، الذين يتحولون في أية لحظة إلى ارهابيين من أجل حفنة من الدولارات . أي أن الفيلم يرسخ في ذهن الأطفال النظرة (العنصرية البيضاء) إلى المهاجرين العرب المغاربة وسواهم ، كما يرسخ ربط الارهاب الدولي بالعرب .

* * *

ماذا بعد نصف قرن من البترول ؟

ماذا بعد أن ينضب بترول العرب ؟

الفيلم اقترح جوابه الخاص : لقد استورد الأمير العربي (العاقر) حاكمًا أوروبياً لبلده المسلم ، هو زوج إبنته غير الشرعية . (سبق أن رزق بها من إحدى الغانيات قبل أن يصاب بأمراض « . . . » بسبب عبثه أيام شبابه حرمته من الانجاب فيما بعد !) ـ هكذا يخبر الأطفال .

قد يكون هذا الفيلم فاتحة توجه اعلامي ذكي وخطير ، ينصب على ذهن الطفل الغربي ، ويعلمه أن العربي هو برميل البترول اللطيف الأحمق الثري الغريب الأطوار ، أو الارهابي المفلس الذي يفعل أي شيء مقابل المال . .

حسناً ، بعد ٣٠ سنة سينفذ البترول في بعض الأقطار العربية ، وسيكبر الطفل الأوروبي ويصير عمره ٣٧ سنة ، وقد يصير حاكمًا لبلده ، فهلا فكرنا مرة بذلك في نظرة مستقبلية هادئة ؟

* * *

من زمان ،

كنا بعد أن نشاهد فيلمًا كهذا ، نصب نقمتنا على الأوروبيين . الآن ، صار علينا أن نطرح عدة أسئلة بصوت عال فيما بيننا . منها : ألم يشارك بعض الأثرياء العرب في رسم هذه الصورة الكاريكاتورية عنا ؟ (أي أنهم شاركوا في وضع سيناريو الفيلم وقصته وتمثيله غير مشكورين) ؟ وإلى أي مدى شاركنا نحن بسلوكنا ـ حين سكتنا عن سلوكهم هذا ـ ، وعقدنا هدنة (غض نظر) معهم ؟

* * *

صار علينا أن ننتقل من مرحلة (تقريع الآخرين) الأوروبيين إلى مرحلة مواجهة الذات العربية بكل سقطاتها . . وسموها .

لم نعد (معنيين) حقاً بتصحيح صورة الأوروبي عنا ، بقدر ما صرنا نهدف إلى تصحيح واقعنا .

السؤال الذي يطرح نفسه ببساطة : ماذا بعد نصف قرن من عمر النفط ؟ ماذا يحدث لنا حين نستيقظ من (سكرة البترول) ، ونجد أنفسنا في بعض الأقطار العربية على قارعة طريق التاريخ ، راكبين « رولز رويس » تجرها الجمال ؟

وهل يتم توظيف المال العربي في الأقطار العربية كلها للبناء لا الهدر ، وضمن خطة مكرسة للوحدة العربية ـ أملنا الوحيد في البقاء ـ خطة تأخذ بعين الاعتبار لحظة وداعنا المحتومة مع الثراء المادي والنفط بعد زمن ليس ببعيد ؟

أي مستقبل لنا ، وبعض أقطارنا العربية يمضي في درب التشرذم والتمزق والتشتت ؟

أي زمن ينتظر صغارنا حين يكبر صغار العالم ، وفي أذهانهم هذه الصورة البشعة عنا التي يجهد بعض الأثرياء إلى تكريسها حين يخونون أمانة التاريخ العربي وقيمه ؟

* * *

ضحك الأطفال في « بترول . . بترول » طويلاً . . أما نحن فلا . .

ذكرنا الفيلم بتقصير بعض الأقطار العربية في بناء مؤسسات حضارية تدوم وتبقى

بعد أن يذوي نفط العرب . .

ذكرنا بهجرة (الأدمغة) بسبب الافتقار إلى مناخ الحرية والديمقراطية في أكثر أقطارنا بوجه عام .

ذكرنا فيلم (الأطفال) عندهم بحاجة (الكبار) عندنا للعودة إلى القضايا العربية المصيرية .

أليس مرعباً أن الوحدة العربية التي كانت الى ما قبل أعوام من بدهيات حياتنا العربية ، عادت لتصير في بعض الأقطار أطروحة بحاجة إلى إثبات ، وفرضية يجهد البعض لنقضها ، وفك رقبتها ؟

* * *

نغادر قاعة السينما ، أنت وأنا . .

لا تحزن يا صديقي القارىء . . سنغمض جفوننا بحنان على أولئك المناضلين العرب الشرفاء ، والحكام النادرين الذين لما يتلوثوا بعد ، وسنعمل كي يبقى الفرد العربي ممتلئاً بقيمه الانسانية وعطائه ، بعد أن يفرغ (البرميل) ، أو تهبط أسعاره .

ولن . . لن ينتهي بنا الأمر الى قبائل مشرذمة في سيارات « رولز رويس » ، تجرها الجمال في صحارى الزمن .

لقد دنت ساعة الحساب يا صديقي ، فاشحذ اسنانك ! . .

١٩٨١/٧/٢٠

.. وهل يرضى النيل

كل أسبوع ، أحاول أن أخلع عني أحزاني ، قبل أن نلتقي ..

كل أسبوع ، أحاول أن أغسل عن جلدي وحل زمننا الرديء ، وعن يدي دم ضحايا المرحلة ، وعن قلبي فجيعة زمننا العربي بخيانة البعض .

كل أسبوع ، أقول لنفسي ؛ اكتبي لعينيهم كلمات ضاحكة ... كلمات فرحة .. أخرجيهم قليلاً من وحل الواقع الأسيان ، وطيري بهم - ولو للحظات - الى قمم النسيان .

كل أسبوع ، أقول لنفسي : أيتها المواطنة في زمن السمو والغدر ... قليل من الهرب يفرح قلب الانسان ...

وكل أسبوع تهطل دماء الجرح العربي داخل محبرتي ... وتتسلل الى حروفي ...

ماذا أفعل إذا كان الهم العربي يحاصرنا ، والخيانة تتهددنا ، وأسماك القرش تحاول التهام ذاكرتنا العربية ؟

***

كل أسبوع أقول لنفسي : لتكن حروفك ملونة كذيل طاووس ، ضاحكة كابتسامة طفل في اعلان عن معجون الأسنان ، ناعمة كجناحي عصفور ضبابي راكض عبر الغابات .

لكنني حين أتلفت حولي ، لا أجد ما يضحكني غير « شر البلية » ! ..

حتى قراءة جريدة الصباح صارت تعذيباً ...

حتى قراءة إعلان سياحي صارت تثير في النفس أسى ذاكرة عربية تستعصي على النسيان .

***

تمسك بجريدة « اللوموند » الفرنسية ، وتقرأ معي هذا الاعلان السياحي عن رحلة على متن الباخرة « آزور » لزيارة مصر واسرائيل ..

نعم ، هكذا ببساطة . مصر واسرائيل معاً . جنباً الى جنب ، وقطراً بعد آخر . .

مصر واسرائيل . .

الثنائي السياحي يستقبل . .

السواح من الاسكندرية إلى حيفا . . . ومن القاهرة إلى تل أبيب .

تشعر بالقهر وأنت تقرأ الأعلان . تلتهمك الدهشة ! . . .

تقول لنفسك : لماذا الدهشة ؟

هذه هي النتيجة (السياحية) لواقع (سياسي) تم تكريسه منذ زمن ما . .

ولماذا الأسى ؟

ألم تأت الأفواج السياحية الاسرائيلية من قبل ، لتتفرج على جرح الكادح المصري المقهور ، ولتبصق فوق قبور الشهداء الذين سقطوا في سيناء وبور سعيد والقنال ؟ فلماذا لا يتنقل السواح الاوروبيون بين القاهرة وتل أبيب ؟

تتذكر أن الشعور الغامض ذاته ، داهمك ذات مرة منذ أعوام بعيدة ، حين شاهدت في لندن للمرة الأولى برتقالة كتبوا عليها : يافا . . اسرائيل .

يومئذ ، رميت بالبرتقالة كمن لسعته أفعى ، وانطلقت راكضاً خارج المخزن ، وقد سددت اذنيك بيديك كي لا تسمع صراخ البرتقال ، وربما خوفاً من ان يسقط رأسك المقطوع قهراً ، ويتدحرج على الرصيف ، وتتعثر به في ركضك المجنون .

لماذا الدهشة يومها ؟ لماذا القهر ؟

كنت تعرف منذ أعوام بعيدة ، أن الصهاينة قد احتلوا فلسطين وأشجارها وترابها وعنبها ونخيلها وقمرها وبرتقالها ، فلماذا لا يضعون ختمهم على الأزهار والثمار ، ويتاجرون بها ؟ . .

* * *

كأن هذا الاعلان السياحي قد فجر في نفسك أحزاناً لا تنسى ، ورمى بك في سياحة داخل دروب الذاكرة . . . ها أنت تتذكر ذلك المساء الحزين ، حين غادرت صالة المسرح الذي كان يعرض (ميوزيكل) يدعى (فيدلر اون ذي روف ـ اي « عازف الكمان فوق السطح ») ، لأن بطله توبول اسرائيلي ، والمسرحية مكرسة لتمجيد (الصهيوني التائه) ، وقضيت بقية الليل متوجعاً وانت ترى الاعلام الاسرائيلي الخبيث يضلل شعوب العالم في قالب فني جيد ! . . .

وتتساءل : لم الدهشة يومئذ ؟ . .

وتتذكر يوم غادرت (الرويال ألبرت هول) دون ان تتابع الاستماع الى سيمفونية بيتهوفن الثالثة الرائعة (هيروييكا) لأنك اكتشفت وأنت تقلب كراس البرنامج ، ان قائد الاوركسترا اسرائيلي ، يساهم في تكريس صورة (بلده) كواحة (للحضارة) وسط (صحاري التخلف) .

. بيتهوفن كان قد أهدى سيمفونيته الثالثة هذه الى نابليون ، ثم عاد وسحب الاهداء وأسماها (هيروييكا - أي : البطولة) لأن نابليون تحول الى عدواني عاشق للغزو والأذى. . فكيف يكون بوسعك أن تستمع الى السيمفونية نفسها ، وعازفها يباهي بانتمائه الى بلد عدواني مكرس للغزو والأذى؟تتذكر ذلك كله وسواه وتتساءل: لماذا الدهشة ؟ ولم الأسى ، وانت تعرف جيداً ان هذه كلها ليست أكثر من مظاهر فنية لواقع سياسي عسكري مكرس ، سبق لك ان وعيته منذ عشرات الأعوام ؟

* * *

ولماذا يظل يثيرك ان تقرأ في العواصم البعيدة لافتة ، تحمل اسم مكاتب شركة (العال) للطيران الاسرائيلية ؟ ولماذا يستفزك حتى اليوم منظر نجمة داوود في واجهات مخازن الغربة ؟

ولماذا يغضبني ان اراها الآن تتدلى على صدر جرسون « مقهى السافوا » في بلدة « آنسي » الفرنسية ؟ يقدم لي قهوتي ، وأنا أحدق في الاعلان البغيض عن الرحلات السياحية إلى مصر واسرائيل . . .

يسألني : هل أنت مصرية ؟

قلت : لا ، أنا سورية .

فانتفض كمن لسعه عقرب ، ومضى ، ولم يحضر لي سكراً لقهوتي ! كانت القهوة ستظل مرة المذاق على أية حال !!! . .

* * *

لماذا الدهشة ؟ وعلام الأسى ؟

ربما لأن الشر يصير أكثر مدعاة للخوف حين يرتدي قالب المألوف والعادي . .

ها هو الشر يأتيك بلا أقنعة ، متغلغلاً في أدق ثنايا حياتك اليومية .

يحاول ان يتسلل الى دماغك عبر ثقوب الألفة التي قلما يحرسها العقل ، وإن كان اللاوعي يرصدها . .

يحاول ان ينسل الى ما تحت جلدك عبر مسام (الاعتياد على الاعتيادي) . .
رحلة سياحية من هنا . . . مسرحية من هناك . . . سيمفونية . اغنية . . حلية ذهبية . طائرة . برتقالة . يحاصرك باليومي والمعتاد ، فيثور القلب مثل حصان بريء ، يدسون له المخدر في خضرة الحقول . . .

* * *

ها هم يتقدمون نحو جرحك في ثياب السواح . . . يرتدون الأحذية المريحة و (التنس شوز) ، ويقفزون فوق الجرح العربي ، ويلتقطون الصور التذكارية فوق البرلمان العربي في مصر الـذي يتوهمونه قد خمد بمرسوم جمهوري ، وصلح منفرد .

نعم . انه مجرد (برنامج سياحي) للغربي ، ولكنه (برنامج خياني) في نظر العربي .

ذلك الزخم العربي كله . . ذلك العنفوان الثوري في مصر ما زلت تجده اليوم في السلوك العفوي لفقراء البلد ، الذين يرفضون نقود السائح (الاسرائيلو ـ اميركي) ، ويرفضون نقله بالتاكسي ، او استقباله في مطعمهم او بيتهم او معارض كتبهم .

ذلك السائق المصري الذي طرد سائحاً اسرائيلياً من سيارته ، تراه أحس بأن (الراكب) هو بالذات قاتل ابنه الشهيد في سيناء عام ١٩٧٣؟؟

* * *

لماذا الدهشة ؟ وعلام الأسى ؟

وهل هذا المخزون الهائل من الغضب قادم من الماضي فقط ، أم انه يتدفق من مخاوفك المستقبلية ؟

وهل قلبك مفعم بالأسى لما كان ، ام خوفاً مما قد يكون ؟

وهل أنت حقاً بحالة غضب من خط سير الباخرة السياحية بين مصر واسرائيل ؟

أم انك تخشى من ان تكون هنالك محطة سياحية ثالثة قد تقرأ عنها في اعلان (اللوموند) في العام المقبل ؟

قلها بصراحة : إنك تخشى ان تقرأ اسم السودان(*) في اعلان السنة المقبلة؟ . . .

فهل يرضى شعب السودان بأن يكون المحطة الثالثة لصلح منفرد ؟ . .

(*) إثر هذا المقال ، منع نظام جعفر النميري كتب غادة السمان بأكملها من الدخول الى السودان !

وهل يرضى نهر النيل من منبعه الى مصبه ، بأن يصير مربطاً ليخت اسرائيلي ، يحمل علمًا سياحياً ، وفي جوفه قنبلة ذرية ؟

لا . . .

لن . .

١٩٨١/٨/٣

أرجوك أن تستيقظ

سيدي العملاق العربي النائم في بعض الأقطار . . أرجوك ان تستيقظ قليلاً ، فأنا خائفة . . وأريد ان اقول لك شيئاً .

لست من جواريك لأضجرك بتكرار عبارة «سمعاً وطاعة » . . . وأرفض لعب دور (شهرزاد) في رواية الحكايات الخرافية التي ترفه عنك ، فأقطع رأسي ساعة شئت ، ولكن ، انصت لي قبلها !! فأنا مواطنة تحاول ان تنقل إليك ما يدور حولك في أثناء نومك الطويل جداً ، عساك تستيقظ وتحميني من الخوف ، او يستيقظ عقلك الباطن ، وتخترقك صرختي ناقلة واقعنا الكابوسي المر الى أحلامك (العنترية) في زمن ذَبَحَ حصان عنترة وأكله، واغتصب عبلة . . وأنت ما زلت تمتطي صهوة جوادك في أحلامك ، وتضم شبح عبلة .

سيدي النائم في بعض الاقطار . .

أرجوك ان تستيقظ قليلاً لأنني خائفة ، ولن اصرخ : (وامعتصماه) لأنني لست وحدي في (ورطة) المعتصم نفسه هو الآن في (ورطة) ، اذا لم نستيقظ جميعاً .

فانهض قليلاً ، وانصت لي . .

* * *

وكيف تنام يا سيدي ، وأسمنا في رأس قائمة المدعوين للتهنئة بوصول الطائرات الحربية الأمريكية (التي مثلوا مسرحية احتجازها) الى اسرائيل ؟

ألم تسمع بالخبر اللطيف ؟ لقد رفعت اميركا قرار حظر ارسال طائرات الـ « ف ـ ١٦ » وستصل بين لحظة واخرى الى اسرائيل رافقتها السلامة .

تكاد عيوننا تدمع سروراً للخاتمة السعيدة ، التي تكللت بها حكاية الطائرات ، بعد ان كادت تتطور الى شجار عشاق بين اسرائيل واميركا ، وهو أمر يدمي نفوس رقيقي القلوب أمثالنا . . . وها هي اميركا واسرائيل تعودان من جديد للتعاون على

(البر والتقوى) ، وتضربان مثلاً يحتذى للتعامل الودي بين الأنظمة غير الودية لنا . . .

* * *

لماذا أنت سيىء الظن يا عزيزي القارىء ؟

لماذا تتأمل صور الطائرات الأمريكية الذاهبة الى اسرائيل ، وتتساءل : ترى أي طائرة منها سوف تقصف بيتي ؟ وهل هذه الطائرة الى يمين الصورة هي التي ستقتل طفلي الذي تعلم المشي للتو ، ام الأخرى ؟ . . . لماذا أنت سوداوي المزاج يا صديقي ؟ صحيح ان الطائرات الأميركية المهداة الى اسرائيل ، سبق لها ان دمرت بيتك في جنوب لبنان وسيناء والجولان ، وقتلت منذ شهر شقيقك في (الفاكهاني) ببيروت ، ولكن عفى الله عما مضى ، والعتاب صابون القلوب ، وقد عاتبتك اسرائيل لأنك اضطررتها الى قصفك ، وأرهقتها بقتل ٢٠٠ مواطن من رفاقك وجرح ٨٠٠ آخرين على الأقل . . .

لكننا قلبنا الصفحة ، فلماذا سوء الظن هذا كله لأمر عابر مضى وانقضى ؟

* * *

تعلم حسن الظن يا عزيزي القارىء من عاصمة عربية مثلاً . . . مسؤول في وزارة خارجيتها أعرب عن أمله في . . ألا تستعمل اسرائيل الطائرات التي تزودها بها الولايات المتحدة لأغراض هجومية . .

والأمل في ذلك كبير طبعاً . فهل سبق لاسرائيل ـ معاذ الله ـ ان استعملت طائراتها من قبل في أغراض هجومية (ما عدا هنات هينات ، كالغارة على المفاعل الذري العراقي ، وغارات تشرين على دمشق وعمان والقاهرة وبيروت وجنوب لبنان وبعض الطائرات الليبية ، وغيرها مما لا يستحق الذكر . .) . .

* * *

نعم . الأمل كبير في أن تستعمل اسرائيل طائراتها لأغراض سلمية ، منها إنزال المطر في مواسم الجفاف ، والقيام برحلات سياحية الغرض منها الترفيه عن ابناء الشهداء العرب الذين سبق لهم ان قتلوا ـ قضاء وقدراً ـ بقذائف اسرائيلية غير مقصودة . . نعم ستكرس اسرائيل طائراتها لهذه الأغراض السلمية وسواها ، كرسم اللوحات الفنية في سمائنا بدخانها الأبيض لتزيينها ، واختراق جدار الصوت يومياً لتسلية الاطفال العرب الضجرين في المدارس والشوارع ، أو بكسر زجاج الابنية ـ وربما تدميرها ـ مساهمة سلمية منها في تنشيط حركة العمران الحديثة ، وترويج مهن الكادحين

من عمال بناء وتركيب زجاج وممرضين وممرضات وغيرها من المهن الحيوية الكاسدة ! . . .

هل يمكن لأحد الظن بأن اسرائيل قد تستعمل طائراتها لأغراض هجومية ؟

* * *

سيدي العملاق العربي النائم في بعض الأقطار . . .

ان الأحداث في الأشهر الأخيرة ، تدفع بالمرء الى ايقاظك من نومك الهنيء ، لتتأمل هذا المهرجان المكوني من المحبة والتسامح ، الذي تبديه بعض الدول نحو (الوجود) ، و . . الوجود الإسرائيلي ! . . .

فالولايات المتحدة مثلاً لم تشأ إدانة اسرائيل يوم ضربت المفاعل النووي العراقي . . إذ ما حاجة العراق للانفاق على تطوير التكنولوجيا الحديثة والنووية ، ولماذا الانفاق على المفاعلات المتطورة وتوظيف الذرة لأغراض سلمية بدلاً من مضغ القات المسالم او الانفاق على غانيات الغرب والسيارات المذهبة واليخوت المتطورة والطائرات الفندقية وغيرها من مباهج الدنيا السهلة ؟ . . .

واسرائيل قد ضحت بنفسها لأجلنا ، وغرقت في العمل الذري والنووي كي يتسلى العرب ويتفرغوا للهوهم . وقد أنشأت عام ١٩٥٩ مختبر « ديمونا » في صحراء النقب للأبحاث النووية التي يشارك فيها اثر حرب ١٩٦٧ خبراء اميركيون . . ثم ان اسرائيل تملك بشهادة عاهل المغرب الملك الحسن الثاني ما لا يقل عن ١٥ قنبلة ذرية (كما ذكر في حديثه لمجلة درشبيغل الألمانية الغربية) ، فما حاجتنا الى المزيد ؟ ولماذا نتعب أنفسنا ، بينما اسرائيل تكدح لأجلنا ؟

* * *

ولا بد لنا من تقدير احترام (جارتنا) اسرائيل لمشاعرنا ، إذ أنها تجري تجاربها الذرية والنووية بعيداً عنا في منطقة (جنوب أفريقيا) وبالتعاون معها . وقد شهد شاهد من أهله ، إذ نشرت صحيفة الـ «واشنطن بوست» في ايلول ١٩٨٠ تقريراً سرياً للـ (C.I.A) يتحدث عن تفجير ذري إختياري جرى هناك ضمن اطار مشروع مشترك بين اسرائيل وجنوب افريقيا وتايوان . . وأن حجم القنبلة إياها كان يبلغ سدس قوة قنبلة هيروشيما ، ويمكن استخدامها في قتال حقيقي ، بحيث يكون محيط إشعاع الانفجار كافياً لاصابة قوات العدو (أي نحن !) من دون تجاوز هذا الحد (اي هم) .

ولكن فات صحيفة (الواشنطن بوست) يومئذ ان تشيد بالاخلاق الحميدة لاسرائيل ، التي تتدرب على قتلنا بالتقسيط لا بالجملة ، وتحاول ان تجعل منا شعب الله المختار . . للابادة !

وفي الوقت الذي تطير فيه اسراب طائرات الـ (ف ـ ١٦) الى اسرائيل ، نجد اميركا لا تزال تتردد في قرار بيع طائرات الرادار (الأواكس) للسعودية .

فهي لا تريد للعرب ان يروا على شاشات رادارهم ما قد يقلق راحتهم . . . وتحب المثل اللبناني (لا عين ترى ، ولا قلب يحزن) . .

والثنائي المرح العاشق ، اميركا واسرائيل ، يحاول نشر الفرح في كل مكان . . .

الطيارون الليبيون مثلاً ، لماذا لا يذهبون للسباحة في فندق الشاطىء بطرابلس او المدينة السياحية ، بدلاً من ركوب طائراتهم وازعاج مناورات اسطول (سفينة المرح) الأميركية ؟

ولماذا يهدرون وقتهم في مضايقة اسرائيل ، والتحدث عن شبكة للدفاع الجوي الصاروخي في لبنان ، ولا يتركوننا نزرع التبغ في سلام ، وندخن (حشيشة) بعلبك لننسى لوعة الفراق التي تخلفها لنا الزيارات الاسرائيلية (الحارة) العناق ؟

* * *

أما الحبيب فيليب حبيب ، فهو عائد الى ديارنا نصف العامرة ، من أجل السعي لسحب الصواريخ السورية من البقاع . فليس من كرم الضيافة العربية في شيء ان نستقبل الطائرات الاسرائيلية بالصواريخ ، بدلاً من الجلوس بهدوء العشاق في الملاجىء والستيريوهات . . . والتغزل بالاجنحة الفراشية الملونة لزائرتنا التي تبات في عظامنا واحشائنا . . . قنابلها !

* * *

وأجمل ما في علاقات العشق الدولية هذه ظاهرة الغيرة . . . و (بابا بيغن) عاشق غيور و (حمش) ، وقد أعلن ان على مصر ان تختار بين اسرائيل ، ومنظمة التحرير الفلسطينية !

ويا له من خيار صعب !

فكيف تختار مصر منظمة التحرير التي تكافح من اجل استعادة وطن سليب ، وتتخلى عن اسرائيل المسكينة التي تخلى عنها حتى أهلها ، إذ غادرها في الأعوام الأخيرة نصف مليون يهودي وهاجروا منها إلى الأبد ؟

اليس الصديق وقت الضيق ؟

* * *

سيدي ، أرجوك ان تستيقظ . .

فالحلقة الجهنمية تكتمل . . ونحن في لبنان الضحية الأولى لا الأخيرة . . فلا تتابع نومك يا سيدي . .

لا تتوهم ان بوسعك تقديم الفلسطينيين واللبنانيين كبش فداء لحل القضية ، بحيث تتابع نومك الخطر . .

ألا ترى بوضوح أن الكأس التي يتجرعها اليوم لبنان ، سيشربها من بعده كل عربي نائم او حالم او مستسلم ؟

ألا ترى ان اسرائيل تعتبر المعركة شاملة مع العرب كلهم والفلسطينيين ، شاملة ، شاملة ، بينما لا يزال بعض العرب يعتبر المعركة مع اسرائيل من شأن كل قطر على حدة !

* * *

هذا التشرذم العربي في مواجهة الغرام الاسرائيلو- أميركي ، لن ندفع ثمنه وحدنا في لبنان ، كل ما في الأمر اننا المحطة الثانية - بعد فلسطين - لرحلة قطار العشق الاسرائيلو- اميركي . . .

والقطار لا ينوي التوقف . . فهل نرضى بأن نتساقط محطة تلو الأخرى ؟

* * *

سيدي العملاق العربي ارجوك ان تستيقظ فأنا خائفة . .

أرجوك ان تجمع شظايا المرآة المكسرة ، وتحدق الى صورة الأحداث كوحدة متلاحمة .

أرجوك ان تستيقظ الآن ،

لأنك اذا نمت الآن ،

فإنك لن تستيقظ بعدها قط !

١٤/ ٩/ ١٩٨١

حقول التوت . . . إلى الأبد ؟

حكاية عادية .

إمرأة ورجل .

مطرب بريطاني شهير ، وفنانة يابانية . حب . زواج .

عاشا معاً عشرة أعوام . أحدهم قتل الرجل . المرأة تبكيه .

حكاية أخرى مؤسفة ، لكنها عادية .

ما شأننا بذلك ؟ لا شيء حتى الآن ، إلا اذا كنا من هواة موسيقى (البيتلز) ، فالمطرب القتيل هو أحدهم ، ويدعى « جون لينون » .

حتى هنا ، الحكاية عادية ، لا شأن لنا بها في وطننا العربي المليء بالرجال المقتولين غيلة ، والزوجات الباحثات عن آباء أطفالهن في سجون بعض الأقطار ، داخل أكمام الحراس والجلادين وقبعاتهم .

حسناً . ما دامت الحكاية عادية ، لماذا أحدثكم عنها ؟

* * *

أحدثكم عنها لأن « يوكو أونو » زوجة المطرب الشهير القتيل ، تحاول بالاشتراك مع بلدية نيويورك تحويل مصرع « جون لينون » إلى تظاهرة سياسية عالمية تحت قناع عاطفي رومانسي .

الحكاية يا أصدقائي باختصار ، هي أن أرملة المطرب نشرت إعلاناً في الصحف الأميركية والأوروبية يغطي ربع صفحة بالحرف الكبير ، تزف إلى العالم نبأ (الحنان) الرسمي الأميركي على مطرب الشباب . فقد أطلقت « بلدية نيويورك » اسم إحدى أغنيات المطرب الجميلة على إحدى بقع حديقة « السنترال بارك » واختارت لذلك (جزيرة) صار اسمها « حقول الفريز إلى الأبد » ـ الفريز : ثمر التوت الفرنجي ـ .

وتقول الأرملة في إعلانها ، انها فكرت في البداية بإحضار اشجار من بريطانيا واليابان وزرعها في الحديقة . ثم قررت توجيه هذه الرسالة عبر الصحف « مناشدة جميع

حكام بلاد العالم » ان يرسلوا أشجاراً وصخوراً وتذكارات من بلادهم لتكون هذه الجزيرة وسط « السنترال بارك » في نيويورك « العالم كله في مكان واحد ، وحقل واحد ، يتعايش وينمو بانسجام » .

* * *

للوهلة الأولى تكاد عيوننا تدمع تأثراً أمام هذا الغرام الفردي الذي تحول إلى غرام كوني مشمولاً بالرعاية الأميركية الرسمية .

ولولا الانفجارات الليلية في بيروت ، لحلمنا أيضاً بتلك اللحظات الشاعرية التي تحدثنا عنها « يوكو » في رسالتها إلى حكام العالم وشعوبه وعشاقه . . حين زرعت برفقة جون لينون شجرة في انكلترا رمزاً لحبهما المتنامي . . وكيف كانت نزهتهما الأخيرة معاً في حديقة « السنترال بارك » ، في المكان ذاته الذي قررت بلدية نيويورك إطلاق اسم أغنية المطرب عليه . . « حقول التوت . . إلى الأبد » . . بل إننا نكاد نسطر رسالة غزل إلى بلدية نيويورك العاطفية اللطيفة ، التي تسمي الأماكن الحلوة فيها بأسماء العشاق الذين لقوا مصرعهم ، وقد نرفق الرسالة بعريضة توقعها بعض نساء الوطن العربي ، تحمل اسماء أحبائهم العرب الذين قتلوا (مصادفة طبعاً) برصاصات أميركية الصنع (والتصويب) ، مع أسماء أغانيهم المفضلة ، فقد تتكرم البلدية الحنون بإطلاق هذه الأسماء على بقية أجزاء حديقة الـ« سنترال بارك » ـ إذا كانت تكفي لقتلانا ـ ولكن ماذا تفعل بلدية نيويورك الشاعرية إذا حذت حذونا نساء الشعوب الأخرى اللواتي لقي رجالهن مصرعهم بفضل السياسة الاميركية العنيفة الحب حتى القتل ؟ . . وهل تكفي القارة الاميركية لذلك حتى ولو منحت لكل ضحية شبراً مربعاً واحداً من أراضيها ؟

* * *

لم يعد بوسعنا أن ننظر ببراءة إلى هذا الزمن غير البريء . . لقد قرأت النداء الرومانسي لبلدية نيويورك و« أونو » كما لو كان بلاغاً عسكرياً ملحقاً بغرفة العمليات الأميركية ، وشاهدت هذه الحديقة كما لو كانت (قنصلاً عاطفياً) أو (ملحقاً دبلوماسياً) لاحدى حاملات الطائرات الاميركية التي تجوب بحار الأرض بحثاً عن طيار طيب تقتله ومياه إقليمية تدنسها . .

أجل ! قرأت النداء كمواطنة عربية تقطن بيروت الدامية ، أحرقت بيتها ذات يوم قذيفة أميركية الصنع ، وقتلت أحب أصدقائها ورفاقها متفجرات أميركية مهداة إلى الأصابع الاسرائيلية العابثة . . وعاشت زمناً وهي ترى (الهيبة الأميركية) عبارة

مهذبة تعني عملياً قتل كل لمسة كبرياء لدى الشعوب النامية ، وكل رفض عفوي للقمع لدى الجماهير الكادحة ، وصارت لديها ـ بعد تأييد اميركا المطلق لاسرائيل ـ حساسية خاصة أمام بوادر (العذوبة الاميركية) العاشقة ، المكللة بالرومانسية الرسمية !

* * *

هل تتوهم « يوكو أونو » ان بوسعها خلق يوتوبيا من الحب وسط مناخ من العداء للانسان ؟

وهل تتوهم بلدية نيويورك أن عشاق الأرض ما زالوا يرون الحب بعين ساذجة سخية الدمع ، دونما تحديق إلى الوجه الآخر للصورة ؟

وهل تحاول اميركا ان توهمنا أنها كعبة العشق وملاذ العذارى مكسورات القلوب ؟ وها هي حديقة العشاق و« حقول التوت إلى الأبد » تجاور « تمثال الحرية » في نيويورك ، رشوة لعشاق الأرض ومحبي العطاء الانساني والحرية . .

ولكن ، لا .

لم يعد بوسع العشاق ان يهيموا على وجوههم في اللامكان واللازمان خارج إطار التاريخ الشرس المعاصر . .

ولم تعد تلك اللفتات الرومانسية الملفقة تكفي لتغطية المذابح الشرسة التي تقاسي منها أكثر شعوب الأرض . .

يوكو ولينون زرعا (شجرة حب) كما تقول في رسالتها ـ الاعلان ؟ . . لا . كانت (شجرة)فقط . شجرة شخصية . شجرة عادية . فهما لم يكرسا فنهما يوماً للاحتجاج ضد الذين يحرقون ملايين الأشجار في كل مكان ، ويُحرقون كل نبتة خضراء في عيون أطفال الشعوب النامية والكادحة والمقهورة . .

ومن الشريك في هذا المهرجان الغرامي الكوني ؟ بلدية نيويورك ! وكأن وزارة الدفاع هناك تقتل ، والبلدية تلعب دور النادبة وحفار القبور وجابر الخواطر المكسورة . وزارة الدفاع تحمل (الفانتوم) ، والبلدية تحمل الشاش المعقم وصبغة اليود و(الميركركروم) !

من قال إن جراح الشعوب تداوى بلمسة من السبيرتو وصبغة اليود ؟

* * *

ألا يرون أن اللعبة انكشفت ؟

وسياسة (احتضان العشاق) لم تعد قناعاً قادراً على ستر الوجه البشع للسياسة الأميركية . . و« حديقة العشاق » هذه ، مصيرها كمصير « تمثال الحرية » : ستصير رمزاً للكراهية المبطنة كما صار التمثال اياه رمزاً للقمع والتسلط . .

مسكينة بلدية نيويورك . . تصوروا لو كان عليها ان تزرع شجرة لكل عاشق يسقط برصاصة أميركية ، أو بقنبلة نيوترون مثلاً . .

ستغطي الغابات وجه الأرض ، وسينقرض العشاق . .

* * *

ولكن دعونا نخرج من مناخ سوء الظن هذا . .

نحن العرب أمراء الحب وملوك العشاق ، فدعونا نقدم لحديقة الغرام الأميركية هدايانا كما طلبت منا البلدية و(الأرملة الكونية) . . ووسائل الاعلام الغربية . .

ماذا نهديهم ؟

هل نهديهم شجرة زيتون مباركة من فلسطين ، نسرقها لهم ليلاً من أرضنا المسروقة ؟

ولكن « يوكو » طلبت أن لا نرسل الهدايا مباشرة ، وإنما ان نكتب إليها أولاً مواصفات الهدية ومصدرها مع صورة ملونة لها ، ونحن لا نريد أن نقول لها إن الشجرة مسروقة من أرض سبقت سرقتها كي لا نؤذي مشاعرها الرقيقة ، إذ من يدري ، لعلها لم تسمع بالحكاية إلا في أثناء تدخينها ورفيقها المرحوم سيجارة حشيش أو ماريوانا ، وهي بالتالي قد تكون نسيت القصة ، فلماذا نضايقها بقضايا هامشية كهذه ؟

حسناً .

سنهديها شجرة برتقال فلسطينية زرعها فدائي في مخيمه بلبنان ثم قتل . . أو نهديها ثيابه الملطخة بالدم ، والتي تحتفظ بها أمه العجوز العمياء لتشمها من وقت إلى آخر ، ومن يدري فقد تجد « يوكو أونو » ألوانها (هيبية) ، وتسر بها وبألوانها (البهيجة) . .

* * *

هل نهدي « يوكو » وبلدية نيويورك نخلة عراقية ، أم نهديها قطعة من بقايا المفاعل النووي العراقي الذي تعرفون من دمره . . وبأسلحة من . . ومباركة من . . !

لقد أبدت « يوكو » رغبتها في أن تهديها شعوب الأرض حجارة وصخوراً من بلادها ، أو من القمر وربما المريخ ، فهل نهديها رخام شاهدة من مقبرة الشهداء بدمشق

كحجر من كوكب شعب مناضل ، أم نهديها شظية من قذيفة نادرة استطاعت أن تقتل في جنوب لبنان عشرات الأطفال فقط ـ بعد أن نمحو عنها طبعاً عبارة « صنعت في أميركا » لأننا لا نحب خدش مناخ الحزن الرومانسي عندها ؟ . . وقد تعتقد « يوكو » انها من معدن نادر أصله نيزك أو كوكب لما يكتشف بعد ، وهي فعلاً كذلك ، ما عدا أن هذا الكوكب سوف ينفجر في وجوههم يوم يكتشفونه .

وبما أن العشاق الكونيين يحبون الصناعات المحلية ، فما رأيكم بأن نهديهم باباً جانبياً متواضعاً لحديقة الغرام الأميركية . . كأن يكون باب بيت عربي في الأرض المحتلة هدمته الجرافات الاسرائيلية . طبعاً لن نقول لها إنه سقط بجرافة اسرائيلية ، بل سنقول لها إنه سقط . . سهواً !

* * *

صار جرحنا عميقاً ومرهفاً ، كل لمسة تجاهل توجعه .

صرنا نمقت استخفافهم بواقع إنسان عصرنا الذي يحاولون تدجينه وترويضه وقمعه ورشوته وغسيل دماغه في أكثر من قطر،مع احتفاظهم بقناع حماة العشاق والشعراء الذين في كل واد يهيمون . . ولكن . . لقد أحرقوا الوديان بنا ، وحولونا إلى فئران اختبار لأسلحتهم . . وما زالوا في الوقت ذاته يصرون على ارتداء مسوح الحب والرقة والعذوبة استخفافاً منهم بوعي المعذبين . . ولم تعد الحيل السينمائية الأميركية تنطلي على قلوبنا المصفحة بالألم . .

صرنا نكره هذا الاستخفاف حين يرتدي قناع العواطف الفضفاضة المزيفة ، أكثر مما نكرهه ، وهو عاري الشراسة وبلا طقوس . .

صرنا نكره الاستخفاف بإنسانيتنا حينما يرتدي قفازات الغرام الحريرية البيضاء، أكثر مما نكرهه حين يخرج لنا أظافره السكاكين ومخالبه بكل وضوح . .

* * *

لا . . لن نهدي اليابانية « يوكو » حجارة عربية من شمال افريقيا ، ولا حفنة رمل من أرض الخليج ، لأننا لا نحب تكرار الهدايا ، وهي لن تعدم مواطناً يابانياً يبعث إليها (وهي مواطنته) بهدية من هيروشيما ، حجراً مثلاً أو حفنة تراب ، كانت إنساناً مرت به اللمسة السحرية للقنبلة الذرية الأميركية المزيلة للأوجاع تماماً . .

هل تبقى على وجه هذا الكوكب النازف من يتوهم أن بوسعه خلق يوتوبيا شعرية معزولة عن واقع الأكثرية الدامي ؟

ذات صباح ، ستستيقظ بلدية نيويورك ، لتجد تمثال الحرية منتحراً في حديقة (العشق الكوني) إياها . . ووجهه ممرّغاً في الطين وسط «حقول التوت إلى الأبد» . .
ففي عصر كعصرنا ، قد يخجل حتى الحجر !

٢١/ ٩/ ١٩٨١

الموجة ، ليلة موت البحر !

هل تحب الفيل والنمر والحوت وديك الحبش (النيني) والدرفيل والاوريكس والنسر الذهبي والصقر والسلحفاة ؟

ستقول لي ما شأني والفيل والنمر والصقر والحوت والماموث في زمن الاستشهاد العربي والموت اللبناني الفلسطيني ، زمن المؤامرة والتضحية ، زمن الخيانة والعطاء ؟

امهلني لحظات يا صديقي القارىء قبل ان تقطع رأسي (اللاشهرزادي) وتقلب صفحتي ، وسأقول لك ما العلاقة بين الفيل والنمر والحوت والدلفين ، وبين قضية فلسطين .

بين الديك الحبشي ، والانسان العربي .

* * *

كلنا يحب المخلوقات التي أبدعتها يد الطبيعة ، وكلنا مر بلحظة صفاء عذبة حين طارت امام عينيه مثلاً فراشة باهرة الألوان وقال : سبحان الخالق .

لكنني احدثكم عن حب من نوع آخر ، نقرأ عنه باستمرار في اعلانات الصحف الاجنبية ، وكان آخر ما طالعته في هذا المجال اعلان في مجلة (التايم ـ العدد ٣٨) وهو يغطي صفحتين كاملتين منها .

اعلان لطيف للوهلة الأولى . عنوانه « الراجعون من الموت » ، ويتحدث لا عن اللبناني الراجع من عمله الى بيته دون ان يخطف او يقتل ، بل عن الحيوانات المهددة بالانقراض على وجه الأرض . ويروي كيف تم انقاذ بعضها بفضل جهود مؤسسة « تطوير الحياة الحيوانية » وسواها ، والمساعي مستمرة لانقاذ ما تبقى من الحيوانات ، والمطلوب التبرع السخي لانقاذ (العرق الحيواني) .

ذلك كله جميل اذ لا أحد يكره الحيوان بوجه عام ، فالكراهية مكرسة للأخ الانسان طبعاً .

* * *

هذا الاعلان هو نموذج عن اعلانات مماثلة وحملات دعائية واسعة مدعومة بالمال والنفوذ الاعلامي ، ومشمولة بتعاطف عدد كبير من نجوم الغرب امثال بريجيت باردو التي كرست حياتها للدفاع عن حياة حيوان « المينك » السعيد وسواه من القطط والكلاب .

لا اعتراض . .

كلنا نحب رفاقنا على وجه الكرة الأرضية من نبات وحيوان ، وكلنا نحرص على بقاء الفصائل المهددة بالانقراض . . ولكن ، ماذا عن بقاء تلك الفصيلة المدعوة بـ « الانسان » المهددة بالانقراض اكثر من أية فصيلة اخرى ؟

* * *

القضية هي ببساطة ما يلي : هنالك من هو قلق على مصير بعض الفصائل الحية وحيوانات الطبيعة التي يبيدها الانسان ، وانت قلق على مصير الانسان الذي يبيده الانسان !

* * *

هم قلقون على مصير الحيوان فوق هذا الكوكب . . وانت قلق ـ تكتيكياً ـ على مصير شعوب كثيرة مناضلة تخطط مؤسسات قوية لذبحها وابادتها (كالشعب اللبناني والفلسطيني العربيين) . وانت قلق ـ استراتيجياً ـ على مصير الانسان فوق هذا الكوكب عامة .

هم يجمعون التبرعات من أجل ايجاد بيوت ملائمة لاستمرار فصائل حيوانية عديدة تكاد تنقرض ، وانت تفكر بـ (فصائل) فكرية وانسانية تتعرض للاعدام بهدف انقراضها ، وهنالك من كرس قواه كلها متعمداً ابادتها وعلى رأسها « فصيلة الانسان المناضل » .

* * *

مؤسسة « تطوير الحياة الحيوانية » تجمع التبرعات للحفاظ على الفصائل المهددة بالانقراض ، وانت يا رفيقي العربي ، بصفتك الفصيلة الأولى المطلوب انقراضها ، ماذا تفعل ؟

تتبرع بأموالك لاقامة حفل تأبيني للديناصور والماموث ، وللحفاظ على بقاء الفيل والغزال والديك والكركدن والتمساح والنمس وكلب البحر والسلحفاة ،

أم تنفجر في وجه هذا العالم الوحش الذي ضيع توازنه وفسدت معاييره وصار

ينادي بانقاذ الموجة ، ليلة موت البحر ؟

* * *

الاعلان الذي قرأته صادر ـ على الأرجح ـ عن مجموعة من الناس اكثرها يحب الحيوانات حقاً ، ويكرس حياته لاستمرار بقائها ـ اي بقاء الحيوانات ـ ، فبعض هذه المؤسسات حسن النية ، لكن حسن النية لم يعد يكفي في هذا الزمن الذي يوظف المحايدين لخدمة الانحياز الى اللامبالاة بقضايا الشعوب !

والانحياز الى اللامبالاة اضحى جريمة بحق العرق البشري . واضحى الحياد فخاً يسقط البعض فيه ، ويحول بينهم وبين اتخاذ (موقف) في زمن لم يعد يتقبل (موقف المتفرج) . .

زمننا المتوتر المتفجر بأوجاع البشر ، لم يعد (يحتمل) من الآخرين موقف اللامبالي او عابر السبيل . كل من يتأمل مذبحة دون ان يحرك ساكناً او يدلي بشهادته ، هو شريك في فعل القتل !

ان من يرقب صامتاً ذبح الانسان في اكثر من قطر ، ويخرج في تظاهرة ضد ذبح التمساح ، هو شريك ـ غير مباشر ـ في مجزرة اخيه الانسان .

* * *

تشعر بالرغبة في استجواب احدهم :

كيف تكون عادلاً مع الأفعى ، وظالماً مع آدم ؟ وكيف تستطيع ان تحب الحصان العربي ، وتكره الانسان العربي ؟

ولماذا تبكي انقراض الديناصور الماضي ، ولاتبكي انقراض الانسان الآتي ؟

الاعتراض ليس على حب الحيوان ، وانما على المبالغة في هذا الحب حتى لا تبقى في النفس بقية لحماس آخر ، واهتمامات اخرى .

الاعـتراض هو على عدم العدالة في توزيع الحب ، وتمييع المقاييس العاطفية ، وافساد النسب ، وتدمير التوازن في المشاعر ، واخفاء (الأهم) خلف (المهم) .

لم يعد بوسعنا مثلاً ان نعتبر تشييد فندق خاص بالكلاب في لندن خبراً طريفاً ، حين نتذكر ملايين البشر الذين ينامون كل ليلة في العراء ، وبطونهم خاوية .

* * *

ترى هل يهدف بعض الذين يمولون هذه المؤسسات الى الهاء الناس ـ بالحيوان ـ عن الظلم الواقع على الاكثرية الساحقة من فصيلة الانسان ؟

كأن فيها يدور بنداً من بنود تتفيه الناس وتحييدهم، وتلقيحهم بالصغائر كي لا تتفتح عيونهم على الكبائر التي ترتكب بحق البشر .

وكل لقاح بالتفاهة يولد مناعة امام انتشار الافكار الانسانية التي تبعث المرء من ركوده العقلي ، وتفتح عينيه على البؤس الجماعي .

كأن المقصود بالترويج لهذه المؤسسات ، هو المساهمة في تخدير الضمائر والنفوس . .

فلماذا يمنعون بقية المخدرات النباتية والكيمائية ، ويتركون لنا هذا المخدر (الحيواني) ؟

* * *

لكن التخدير لم يعد يجدي ، هنا او هناك ، والغرب يعيش يقظة رعب شاملة من ابادة الجنس البشري ، عبر عنها في أدبه المعاصر ، وفي تظاهرات احتجاج عفوية عديدة ، منها تظاهرة ـ على الاقدام ـ خرجت من كوبنهاجن وسارت مشياً عبر القارة كلها الى باريس مروراً بألمانيا وهولندا وبلجيكا، حاملة لافتاتها ضد صواريخ بيرشينغ وكروس وصابة نقمتها على قنبلة النيوترون الامريكية وكل سلاح نووي مكرس للابادة الجماعية .

* * *

هذا الرعب من ابادة الانسان لاحفاده ولذاته ، ينعكس في الأدب بشكل مشحون بالخوف والترقب . والكتب الثلاثة التي قرأتها هذا الشهر ، تعلن مخاوف الادباء في الغرب من انقراض الانسان قبل الفصائل الحيوانية الاخرى كلها . .

الكتب هي : الحقبة الأخيرة ـ تأليف كريستوفر لي (منشورات هاميلتون ـ لندن ـ ١٧٨ صفحة) وهو يعبر عن المخاوف من حرب نووية عالمية لا تبقي ولا تذر ، ويتحدث بالتفصيل عن الماكينة الحربية لدى (الجبارين) .

والكتاب الثاني هو: الايام الاخيرة لنيويورك ـ تأليف كولن ماندفيل (منشورات جارتهاوس ـ نيويورك ـ ٢٧٦ صفحة) ويتضمن رعباً من الارهاب النووي وسواد الايام الآتية .

والكتاب الثالث هو رواية (خمس دقائق قبل منتصف الليل ـ تأليف سابي . هـ . شابتاي ـ منشورات وست اند ليمتد ـ لندن) وتتضمن صفحاتها المخاوف نفسها من

حرب عالمية ثالثة تكون هي الحرب البشرية الاخيرة وتبيد الجنس البشري . .

والمجد للسلحفاة !

* * *

ونحن في بيروت نسكن موتنا اليومي ، فنرى عبره بوضوح محاولات اغتيالنا محلياً ، واغتيالنا عربياً ، واغتيالنا كونياً !! . . ثلاث ميتات تنتظرنا واحده منها عند منعطف زمني ما . .

نرى بوضوح محاولات اغتيال (الانسان العربي) مع الابقاء على نسل (الغزال العربي) والاوريكس . . وتسكننا في الوقت ذاته المخاوف العالمية من الاصرار على اغتيال النوع البشري ككل .

نرسل برقية شكر الى اميركا الحنون التي صنعت قنبلة النيوترون للحفاظ على الأجناس المعدنية والحجرية والنباتية ـ بعد ابادة الانسانية طبعاً ـ . .

* * *

خوفنا في بيروت مركب . .

وصحوة الرعب كصحوة الموت ، يرى الانسان عبرها موقعه بوضوح . .

ها نحن نهرول في حقول مزروعة بالالغام اسمها بيروت . . وها نحن نعيش في منطقة من العالم مزروعة بالقنابل السياسية الموقوتة اسمها العالم العربي . . وها نحن ننتمي الى كوكب بائس قرر اهله تدميره بفضل رقيهم العلمي وتطورهم . .

كم هذا مبهج ويبعث على ضحك ما ! . .

* * *

داروين قال ذات يوم : « البقاء للاصلح » . وانسان عصرنا مصر على ان يثبت ان « الدمار للاصلح » ، ما دام (الاصلح) لم يعد (صالحاً) ، وصار يخترع دماره ، ويختاره !

١٩٨١/١٠/١٢

الشهيد هو الحي !

انحني اجلالاً للشهداء جميعاً الذين سقطوا في لبنان دفاعاً عن قضايا العروبة وفلسطين .

لكنني أحب ان اضيف إلى قائمة الشهداء اسماً منسياً لا يبالي أحد بموته اليومي ، هو : الحي .

أجل ! في بيروت ، الشهيد هو الحي .

* * *

باستمرار ، نعيش رعباً ما ، ونموت رعباً .

نستيقظ صباحاً . نقرأ الصحف ، فنموت قليلاً ونحن نتأمل جيداً صور الجثث الممزقة ، ونفتش عن صورتنا بينها ، ونطمئن حين لا نجدها . واذا لم نصدق ، نقرأ أسماء القتلى وعمود الوفيات ونتنهد حين لا نجد اسمنا ، ونتنفس الصعداء (والنزلاء ايضاً !) .

نشرب قهوة الصباح ، فتطفو داخل الفنجان دماء الضحايا ، ونموت موتنا اليومي الثاني .

نحاول ان نرتدي ثيابنا ، فنجد داخلها بعض أشلاء احبائنا . أشياء قليلة تحيا عندنا ، وأشياء كثيرة تموت .

ماتت المياه . الكهرباء . الهاتف . الأمن . العدالة . الديمقراطية . . إلى آخره .

نفتح صنبور المياه لنغسل شفاهنا المشققة بالشهقات اللامسموعة ، فيركض النمل منه بدلاً من الماء .

وما أعظم دهشتنا إذا أدرنا زر الكهرباء وأضاء النور ، أو اذا عدنا من العمل إلى بيوتنا أحياء (رغم مخاطر الطريق) ، ووجدنا البيت كما تركناه في الصباح ، دون ان يدمره انفجار ما ، ويقذف بأوراقنا وكتبنا كومة من الرماد في شارع الحزن .

* * *

هذا كله يؤرقنا . . لكن الرعب الذي يقض مضجعنا ، والذي عشناه بكثافة مؤخراً اسمه « رعب الافراح » ! . . .

صحيح ان السيارات صارت تخيفنا كالـغول ، منذ أضحت قنابل موقوتة مزروعة في الشوارع ، وانت لا تدري متى تنفجر وتطيح بك . . .

صحيح ان السيارة كانت رمزاً للحركة والعمل والحرية ، واللقاء مع الليل والطبيعة والجبال والشواطىء والغابات ، فصارت رمزاً للموت العشوائي .

مصابيحها عيون زجاجية لوحش اسطوري ، هيكلها جسد معدني ديناصوري معاصر يخفي داخله الدمار المحتوم ،دواليبها سيقان خرافية تجتاحك وتذكرك بـ (حصان طروادة) ، ولكن خوفنا الأول يمكن تلخيصه بعبارة « رعب الأفراح » ، لأنه الموت وقد ارتدى قناع السعادة !

* * *

انني لا أحاول التقليل من شأن السيارة كأداة رعب بيروتية معاصرة .

فالمرور بها صار شروعاً في الانتحار . وأنت تحار ، أي السيارات يخيفك أكثر ؟ السوداء أم الزرقاء أم الرمادية ؟ وأي (الماركات) يثير تطيرك ؟ وهل تهرب من هذه المرسيدس (البيضاء مثل ـ موبي ديك) إلى الرصيف الثاني ، أم تحذر سيارة الرصيف الثاني الـ (فيات) الرمادية ، المتنكرة بالتواضع ؟

انك تهرب من السيارات الى الأشجار ، فلم يحدث أن انفجرت شجرة مفخخة حتى الآن . . . ولكن من يدري ، قد يزرعون المتفجرات في الأشجار أيضاً ، وربما يأتي يوم في بيروت تشم فيه زهرة ، فتنفجر في وجهك ! . . .

* * *

لكن ذلك كله يهون أمام « رعب الأفراح » الذي نعاني منه هنا .

لقد أضحت الأفراح نادرة في زحام ميتاتنا اليومية العديدة . ونحن قلما نجد فرصة للاحتفال بفرحة ما ـ لحسن الحظ ـ . وأقول ـ لحسن الحظ ـ لأننا نحول أفراحنا بمهارة الى مآتم ، ومناسبات لبث الرعب والرصاص في قلوب الأطفال ، والكبار ، وإضافة اسماء جديدة الى سجل الشهداء القتلى ، ننقلها من سجل الشهداء الأحياء .

* * *

كأننا نسينا الفرح السوي .

كأننا نسينا امكانية الغناء . الضحك . الرقص الجماعي . الود . الأنس .

الحنان . العذوبة . الرقة . المصافحة . التأمل . صلاة الشكر . .

أصبحت طقوس الفرح عندنا مصابة بالجذام الروحي . خرساء وخاوية من كل شيء إلا من طلقات الرصاص ، والانفجارات .

كل فرح عندنا يجب ان يرافقه اطلاق نار . الأفراح العائلية (كولادة الصبي والأعراس) . الأفراح الدينية . الأفراح القومية . الأفراح الشخصية (لأسباب مجهولة الهوية) .

اي احتفال عندنا يجب ان يصدح فيه صوت السلاح ، ويسقط فيه ضحايا يقتلون (خطأ) ومصادفة ، ودونما اي معنى . .

فنحن مسرح اللامعقول العربي الأول ! . . .

* * *

هذه العادة الذميمة ، عادة اطلاق النار (ابتهاجاً) ليست جديدة . وهي كثيرة الانتشار في القرى اللبنانية منذ زمن بعيد . لكن السلاح تطور ، وبقيت العادة ! . .

وكان (القبضاي) يكتفي من زمان باطلاق (خرطوشة) من (جفت) الصيد ، ثم (يفتل) شاربيه بقية السهرة . .

أما اليوم ، فأداة الاحتفال رشاش او مدفع الدوشكا أو قذيفة (آر . بي . جي) او (بي ـ ١٠) ، والضحايا يتساقطون بالعشرات بتهمة المشاركة في فرح دون بناء متاريس . ودون الاحتماء خلف أكياس الرمل !

* * *

إليكم هذه الحكاية النموذجية :

عرس اقيم في بلدة بطمة في قضاء الشوف . اطلق احدهم الرصاص (ابتهاجاً) ، فأصيب (خطأ) رقيب في الجيش اللبناني في العقد الثاني من عمره وخر قتيلاً . حين علم والده المسكين بالنبأ انتحر . . وتحول العرس إلى مأتم . .

إليكم هذه الحكاية المضادة :

في بلدة البحيري ـ قضاء زغرتا ، أطلق احدهم النار (ابتهاجاً) اثناء حفلة تنصير احد الأطفال ، مما أثار استياء السيد كميل ب . وهو على حق في استيائه . فماذا فعل السيد كميل ؟ لقد أقدم على طعن مطلق النار بخنجره طعنة قاتلة !! .

* * *

ليلة مصرع أنور السادات ، لعلع الرصاص في بيروت ابتهاجاً وانفجرت

القذائف ، فخاف الأطفال وبكوا ، وفقد الكبار فرصة التأمل في الحدث التاريخي العظيم بدلاً من الهيجان الغوغائي الأهوج ، وهدر المسلحون الذخيرة الموجهة الى كبد السماء بدلاً من صدر العدو ، وسقط ليلتها ثمانية عشر بريئاً بين قتيل وجريح بالرصاص الطائش ، والرشقات النارية ، والشظايا المتطايرة على غير هدى . .

وفي قطر عربي شقيق ، بدأ الجنود باطلاق النار ابتهاجاً بموت رمز « كامب ديفيد » . وأمام ردة الفعل العفوية هذه ، أصدرت سلطات البلاد نداء عبر الاذاعة والتلفزيون ، أمرت فيه الجنود بالتوقف عن اطلاق النار وهدر الذخيرة ، والاحتفاظ بها لصدر العدو الذي يحاربون . . . ورضخ الجنود للأمر فوراً في انضباط جميل متزن . . .

فمن يصدر أمراً كهذا عندنا ؟

وكم نشفق على انفسنا ، لأننا ضيعنا الفرح ، وصارت وسيلة التعبير عن الفرح والحزن عندنا واحدة هي : العنف .

* * *

ولا تسألونا عن حالنا مع الأعياد الدينية ، التي يفترض انها مناسبة للتأمل عند الكبار ، والفرح عند الصغار .

صغارنا يخافون الأعياد أكثر مما يخافون السيارات المتفجرة والغول و (البعبع) . .

وليلة (الوقفة) المباركة ، تحولت عندنا الى ليلة جهنمية ، يطلق فيها المسلحون نيرانهم على عيد الاطفال والعابهم وأحلامهم وبالوناتهم الملونة وحلواهم .

ويخلفون أولادنا المساكين الصغار جديلة من الأعصاب المهترئة قبل الأوان ، ترتجف تحت السرير وتبكي ذعراً . . .

أهذا هو العيد ؟

* * *

صرنا نخاف أعيادنا ، أكثر مما نخشى مآتمنا .

ونشفق على الأحياء منا ، اكثر من شفقتنا على الذين أسعدهم الحظ بالاستشهاد قبلنا . .

فنحن الشهداء الأحياء الذين نموت كل يوم عشرات المرات ، دون ان تقام لنا حفلات التأبين ، او يبالي الخطباء بأحزاننا او توزع علينا الأوسمة ، وتسبغ علينا صفات التعظيم بكل سخاء .

ونحن منذ اليوم نتطلع بخوف الى العيد القادم ليلة رأس السنة بعد شهرين ،

واذا لم يسعدنا الحظ بالانتقال من ديار الاحياء الشهداء الى مكان ما ، فسوف نرتجف ليلتها حزناً على اطفالنا الذين حرمناهم ابجديات الفرح كلها ، وابقينا على عبارة واحدة لا يسمعون غيرها هي عبارة « بم » .

* * *

أجل ! إنني انحني اجلالاً للشهداء الذين سقطوا في لبنان من أجل القيم والمبادىء السامية .

لكنني ايضاً انحني للشهداء الاحياء الذين يموتون كل يوم عشرات المرات ، ويستمرون في الصمود داخل رقعة الأرض والمبادىء ، بالرغم من الـذين يطعنون اطفالنا (ابتهاجاً) ، ويعتدون علينا (بأفراحهم) ، ويغتالوننا (سعادة) ! . .

* * *

صور الشهداء تملأ جدران شوارعنا وبعضها ملصقات نبل وتضحية . . . فهل نجد منذ الآن فصاعداً صور الأحياء ايضاً الى جانبها ؟ . .

وهل يقدم مواطن حي على طبع صوره في ملصق جدراني جديد ويكتب تحت صورته : انا الشهيد الحي فلان الفلاني لأنني أقطن بيروت ، وقد (مت) حتى الآن مرات عديدة ؟؟

١٩٨١/١١/٢

حاكموهــم . . .

لم يعد السكوت ممكناً أمام الزنا الذي يمارسه بعض الأثرياء العرب مع الذهب .

ومع كل صيف ، يخلعون عنهم الوطن ، وينسون قومهم ، ويمضون الى حانات الغرب وبيوت القمار وموائد الفسق والتبذير ، ونقرأ حكايا سلوكهم اللامسؤول في الصحافة العربية ، والصحافة العالمية الساخرة .

غنياً كنت أو فقيراً ، متوسط الحال أو (فوق الريح) ، فانك لن تستطيع الاستمرار في قراءة مسلسل «التبذير العربي » اللامبالي بالموت العربي والهم العربي ، دون أن تشعر بالمذلة والمهانة .

* * *

تقرأ في جريدة الصباح خبراً عن رجل رقيق الحال ، يعلن عن رغبته في بيع إحدى كليتيه كي يعيل أسرته بثمنها ، ويعلم أطفاله . . . فتسود الدنيا في عينيك ، ويهطل مطر مالح داخل حنجرتك .

وتقرأ في الصفحة نفسها خبراً عن ثري عربي أنفق ثروة ليلة عرسه ، التي صمم أن تكون في القاهرة .

ماذا فعل الثري ؟ جاء بمدعويه على متن طائرة خاصة الى الفندق الفخم ، وحجز لهم (٨٠ غرفة) و (١٦ جناحاً) و ٧٥ سيارة لكل منها سائقها . وجاء بـ (٦٠) من صانعي الحلوى بينهم أربعة من رؤساء الطهاة الفرنسيين فصنعوا له كعكة الزفاف (الأعظم) ، قطرها (٢,٥ متر) وارتفاعها ٤ أمتار !! وتحيا سياسة (الانفتاح) . . . .

ويحكي الخبر عن سقوط رئيس الطهاة من فوق (السقالة) وهو يضع اللمسات الأخيرة على (الكاتوه) وإصابته بكسور . . (تراه سقط حين وقع بصره مصادفة عبر النافذة على طفل فقير جائع ، كان يفتش عن خبزه داخل برميل القمامة ، أو ينتزع

لقمته من فم قطة أكبر حجمًا منه ؟) . . .

* * *

ان الدراهم في المواطن كلها   تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة   وهي السيوف لمن أراد قتالا

هذه الأبيات الساحرة للشاعر العربي (المتنبي ان لم تخني الذاكرة) هي فيما يبدو (شعار المرحلة) لبعض الأثرياء العرب . . .

وها هم ينثرون الأموال في دروب الاستهتار واللامبالاة ، حتى صار الغربي يتوهم أن كل عربي فاسد وثري بالضرورة . مهذار ، يهوى شراء الأشياء والنساء . يحب التشاوف بقدرته على الانفاق . يحب ادهاش الآخرين بثرائه الخرافي .

وصار الغربي بوجه عام يتعامل والعربي الذي لا يعرفه من هذا المنظار وضمن إطار هذه الفكرة المسبقة . (وإذا كان العربي رقيق الحال فسيظنه الغربي متنكراً أو بخيلاً) .

* * *

صار العربي الفقير أو متوسط الحال يلقى في الغرب معاملة قاسية كلها استخفاف بانسانيته . فهو ليس في حالة تخلف فحسب ـ بنظرهم ـ بل انه فقير أيضاً . . . بعض الأغنياء العرب يأكلون العنب ـ لا الحصرم ـ في أوروبا ، والفقراء العرب يضرسون . الثري يلهو ، والفقير يسدد (فاتورته) في الليلة التالية ، من كرامته ، وكبريائه ، وسوء فهم الآخرين له .

وحين يكتشفون فيما بعد أن رأسه ليس مجرد كرة فارغة الا من الذهب ، فانهم يبدون دهشتهم (لذكائه وثقافته) موجهين بذلك تهمة غير مباشرة الى بقية بني قومه . . . . والفضل ، للسلوك غير المسؤول الذي يمارسه بعض الأثرياء العرب . عرب (ليلنا خمر) . أولئك لا يمثلون سوى أقلية نادرة . لكن الصحافة الغربية تركز على مباذلهم ، وقلما تتحدث عن بقية العرب هناك ، وبينهم الفقير والمتوسط الحال . المهاجر خلف اللقمة . والمهاجر خلف حرية الكلمة . واللاجىء السياسي . والسائح عابر السبيل .

وهنالك الذين اضطرتهم ظروف النضال للاقامة (مؤقتاً) هناك ، ريثما يسقط طغاة بلادهم ، وهم يعملون لأجل ذلك ، ومكاتبهم ليست مجرد امتداد لنادي (البلاي بوي) . .

أولئك جميعاً تتم الاساءة الى سمعتهم ، ويتلقون بعض الاهانات المباشرة وغير المباشرة من الغرب الذي رسخت في ذهن بعض أبنائه صورة العربي البشع المهذار المبذر ، الذي ضيع الفارق بين الكرم والاسراف ، وبين العطاء والتبجح .

* * *

أخبارهم البشعة تصلنا من كل مكان . نطالعها في الصحف العربية والأجنبية .

من باريس هذا الخبر : ثري عربي أوصى على لعبة يتسلى بها(!) ودفع للشركة الفرنسية التي صنعتها (مليون وربع فرنك فرنسي) . وهي كناية عن حديقة اصطناعية مصغرة يمر فيها قطار كهربائي ويجري فيها ماء حقيقي ونباتات الحديقة وأشجارها حية . . . وقد شحنوا اللعبة للثري على دفعتين بالطائرة في اليوم نفسه التي شحنت فيها الولايات المتحدة لاسرائيل بعض الدمى من الطائرات المقاتلة والصواريخ التي ما يزال بعض العرب يتوهمها من نصيب الفلسطينيين واللبنانيين فقط . . . ويرفض قراءة بروتوكولات حكماء صهيون ومطامحهم الممتدة من هناك . . . الى هناك . . . من محيط القهر الى خليج الجرح . . . ونحن على أية حال لا نستطيع أن نتعاطف كثيراً مع طائرة تنقل ألعاب الضجر والبطر ، وبين أيدينا جرحى لا يلقون سيارة اسعاف تنقلهم الى المستشفى ناهيك عن طائرة هليكوبتر .

* * *

الصحف الغربية الحسنة النية تجد في السلوك المالي لبعض أثريائنا مادة مثيرة للتسلية ولا تملك الا نشرها . . فحين تفوق (الطاقة الشرائية) ، (الطاقة العقلية) لدى البعض ، تكون الحصيلة مجموعة من الحكايات المضحكة ، من ماركة (شر البلية) . . .

والصحف الغربية السيئة النية ، تجد في هذه الحكايا مناسبة لا تعوض لتشويه صورة العربي بوجه عام ، وتكريس نموذج (العربي البشع) ، جار اسرائيل (المتحضرة المسكينة) ! .

وبعض أثريائنا يمنحهم للأسف هذه الفرصة ، ويبتكر لهم ما لا يخطر ببال من فنون التبذير والاستهتار بالقيم كلها . . وكلما كان القمع الاجتماعي الذي يواجهه في بلده أكبر ، كلما كان انفجاره الأخلاقي أكثر بشاعة . . . ولكن ما حيلتنا مع الذين يصرون على تكريس ازدواجية الأخلاق ، ويروجون لشرب الكحول في فناجين الشاي ؟ . . .

* * *

ماذا نقول حينما يخسر ثري عربي (٥ ملايين فرنك) على مائدة القمار في ليلة واحدة في دوفيل أو نيس مثلا ؟ . . هل نعاتب الصحيفة الغربية التي نشرت الخبر ، أم نعاتب (ابن بلدنا) الذي تخلى عن عذاباتنا وهمومنا القوميـة . حسناً . لا يحب (السياسة) ؟ كان بوسعه انفاق هذا المبلغ لتعليم (٥٠٠ طفل) من أطفال الفقراء حتى (نهاية) دراستهم الجامعية ، أو رصد المبلغ لمكافحة الأمية في قريته . . . أو الأمراض . . . أو الجراد . .

* * *

وهل نغضب لأن بعض الغانيات الأوروبيات يروين للصحافة الغربية حكايا مقرفة عن السلوك المبتذل المبذر لبعض الأثرياء العرب ، أم نغضب من الذي (كان السبب) ؟ . .

وحتام نكتفي بالغضب ؟ ومتى يقدم الحكام العرب على كبح جماح بعض المسعورين بالجاه ، بحيث يصير التبذير المهذار تهمة يطالها القانون العربي وتستحق العقاب ؟

إن صراخ الأطفال العـرب ، الجياع الى العلم والـرغيف والأمن والسلام والطمأنينة والنظام الاجتماعي العادل ، يتدفق فوق موائد القمار والعهر نهراً من الحقد الهادر . . . وهو نهر من النوع الذي لا يجدي معه أن يتعلم أولئك الأثرياء السباحة . .

ليتهم يتعلمون قراءة كتاب التاريخ ، حيث يتحول باستمرار خشب سرير اللاامبالي بشعبه ، الى خشب لمشنقته .

* * *

متى يأتي الخريف ليسدل ستاراً من الأوراق الصفر على مجونهم وحكاياهم ، أولئك الذين يخفون عوراتهم خلف السبائك الذهبية ؟ . . . متى تنتهي اجازاتهم الصيفية وفضائحهم ، ويعودون الى ستر الوطن ؟ لم تعد النقمة الشعبية العارمة تكفي . لم تعد نصائح عقلاء القوم الهامسة تجدي معهم .

إننا نطالب حكامنا العرب بسن قانون يعاقب الذين يبذرون المال العربي بهذه الصورة المخزية .

حاكموهم ، لا بتهمة الاسراف والهدر فحسب ، بل بتهمة الاساءة الى سمعة الانسان العربي ، وتزييف الوجه الحقيقي له أمام العالم . . .

حاكموهم بتهمة سرقة فرص الأطفال للحياة الكريمة . حاكموهم بتهمة ترويج

البشاعة وافساد الطيبين . . حاكموهم بتهمة مد الاعلام الغربي بمعلومات مزورة عن أمتنا . . .

* * *

لنفرض جدلاً :

من حق أي انسان أن يتصرف بماله كما يحلو له ، كأن يشتري به خبز المدينة كلها ثم يحرقه ويتسبب بمجاعة . . ألا تتوقف حقوق الانسان عند حق الجماعة في العيش الكريم ، ودفع الأذى عن الأفراد ؟ . . أليس ذلك ما يدفع الجماعة الى منع (المجنون) و (القاصر) من حق التصرف بماله وممتلكاته ؟

فـهلا تفضلت الدول العربية بالاشراف على طريقة الانفاق لدى بعض الأثرياء (القاصرين) ، و (المتخلفين تاريخياً) عن مواكبة مأساة الجماعة ؟ . .

* * *

حاكموهم . . واحكموا عليهم بالأشغال الشاقة الثقافية ، أي بقراءة صحف بلادهم وبلاد العرب ، علهم يعون موقعهم من جغرافية عصرنا وتاريخه ، ويعون الأعصار الذي يلف السفينة العربية ويضربها بلا رحمة . . .

احكموا عليهم بالسياحة الاجبارية في البلاد العربية . دعوهم يمضون الى القرى النائية ، ويأكلون على موائد الشعب العربي خبز النضال المرير والقهر ، ويشربون معنا الماء الممزوج بدم الآلاف الذين سقطوا دفاعاً عن الينابيع . . علهم يتذكرون أن السفينة حين تغرق تذهب بكل من عليها : الجرذ والقبطان والبحار والسائح . . .

* * *

« ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » . .

ليت البلاد العربية كلها تكتب هذه الآية الكريمة داخل طائراتها ، ليقرأها الذين يمشون في الأرض مرحاً . . .

ولكن ،

ما حيلتنا أمام الطائرات الخاصة ؟ . . .

١٩٨١/١٠/٢٨

خارج نادي الكتابة الداجنة !

ثمة لحظات تشعر فيها بالحاجة الى الحوار مع بعض رفاق عمرك العرب ، المنتشرين في كل قطر عربي . . أعني الحـوار بمعناه البسيط المباشر : سماع الصوت ، الاطمئنان ، الاستئناس . السؤال عن أحوال العائلة والأولاد ، وانواء الزمن ، وربما قضاء حاجة تستدعيها ظروف العمل .

في ليلة كهذه ،

غامرت بمحاولة الاتصال الهاتفي بقطر عربي شقيق . . ففشلت في الاتصال حتى بعاملة الهاتف !! . . .

* * *

بعد محاولات عديدة عنيدة ، استطعت إلقاء القبض على (صوت) عاملة الهاتف .

طلبت منها (مخابرة) الى قطر عربي .

تدفقت من نبرات صوتها دهشة فائقة : هل هنالك حقاً من يستمر في المحاولة ؟ اتصال هاتفي مع قطر عربي آخر ؟ أين أتوهم أنني أعيش ؟

قالت لي باحتقار : الخط معطل .

أجبت : ولكنك قلت لي ذلك منذ عام .

أصرت : وقد أقوله لك بعد عام .

سألت: ولكن ، هل الهاتف أداة زينة ديكورية ؟

فأخرجت يدها من سماعة الهاتف ، وصفعتني !

* * *

كأي مواطن يرفض الهوة بين الفكر والممارسة ، قررت : ما دام الكلام عن الوحدة العربية غزيراً هكذا ، فلا بد أن تكون بعض الخطوات العملية البدهية قد

انجزت في مجال تحقيقها ، كأن يكون بوسع عربي أن يقول للآخر ساعة يشاء عبارة « آلو » .

« آلو » فقط لا غير !!

وهكذا أعدت الكرة .

واتصلت بعاملة الهاتف التي تجيب ولا تجيب ، وتأتي ولا تأتي ، وتوسلت اليها ألا تصفعني هذه المرة ، وأن تمنحني مخابرة هاتفية مع عاصمة عربية لأتحدث الى لميس رفيقة العمر أيام الدراسة في الجامعة الأميركية ببيروت .

رقت لي العاملة قليلاً وصرحت : الاتصال المباشر مع هذه العاصمة مقطوع ، لكنني سأحاول أن أصلك بها عبر باريس أو احدى العواصم الأوروبية الأخرى !!

قلت لها : شكراً . لا داعي لازعاجك . . انني مسافرة على أية حال ، لانجاز مخابرة هاتفية مع صديقة بيروتية ، تقطن في (المنطقة الأخرى) من بيروت - على بعد ٥٠٠ متر من بيتي ! - والاتصال بها متعذر من هنا ، وممكن من أية عاصمة أوروبية . . . والمشي إليها دونه قناص . . . ورصاص .

إن المرء يستطيع - للأسف - الاتصال أوتوماتيكياً من أوروبا بمعظم العواصم العربية ، ويعجز عن ذلك اذا كان واقفاً في أكثر من أرض عربية .

كأن قناصاً سرياً يطلق رصاص الجفاء على أي خط هاتفي عربي يحاول عناق الآخر .

ولو تحت شعار كلمة « آلو » البريئة ! . . .

* * *

حاولت التحدث مع أحبائي - في عاصمة أخرى - بالوسائل العادية ، وفشلت .

فلجأت الى الوسائل (الخاصة) كي أقول « آلو » لأسرة صديقة هناك .

حاولت وحاولت التحدث الى أحبائي المنتشرين بين الرباط والجزائر ودمشق وتونس وبغداد والكويت وطرابلس والخرطوم والامارات المتحدة والرياض والقاهرة . . . حاولت أن أقول لهم « كل عام وأنتم بخير » أو كلمة « آلو » فقط على الأقل (!) .

وكان الفشل حليفي باستمرار لسبب أو لآخر . . . (خط) الهاتف معطل هنا أو هناك . الخط (مقطوع) . الخط بحالة اغماء . اليوم حر والخط نائم . اليوم برد والخط يرتجف . الآن ليل والخط لا يرى طريقه . الآن نهار والأصوات ترتدي البكاء .

والنتيجة : شبه استحالة الحوار مع الأحباب العرب الا بوسائل استثنائية تنجح حيناً وتفشل أحياناً وتتوافر للاقلية . . . ونادراً .

الخاتمة : موت حتى كلمة « آلو » بين مواطن عربي وآخر في قطر آخر !

* * *

صرت أرتجف قهراً مثل أرنب مبتل ومذعور في عاصفة من رصاص . قلت لنفسي : ربما كانت هذه حالنا في بيروت فقط . . عندنا وحدة عربية (خطابية) مدهشة ، كما في بعض الأقطار العربية الأخرى ، ولكن حين يتعلق الأمر بالانجازات العملية ولو على مستوى كلمة « آلو » فعلى الوحدة السلام !

إن (المثقفين) و (عباقرة المقاهي) في بيروت ، (يتغزلون) بالوحدة العربية ويحبونها ، لكنه (حب عذري) ، الغاية منه البعد لا الوصال ، وجوهره قائم على الفراق لا اللقاء ، بحيث يظل العشق اللفظي مزدهراً ، وكل محاولة للاقتراب محكومة سلفاً بالاعدام ، حتى ولو كانت عبارة « آلو » !

لدينا في بيروت من يعشق الوحدة العربية مع (وقف التنفيذ) ، ويفضل أن تتم الوحدة (غيابياً) لا (وجاهياً) .

أجل ! علاقة (الحب العذري) مع الوحدة العربية مزدهرة عندنا ، ولكن قلما يتم السعي الى تحقيق خطوة عملية واحدة في هذا المجال، أو (المطالبة) بذلك على الأقل . . . كالمطالبة بسماع صوت مواطن عربي من قطر آخر ، نقول له كلمة « آلو » لا غير !!

أتساءل : هل نحن وحدنا نعاني من العزلة في بيروت ، لأسباب تتعلق بوضعنا (الحربي) الخاص ؟ . . .

وهل ينعم بقية العرب بشبكة هاتفية تربطهم ، وتوثق عرى صداقتهم ؟
وتيسر ما تعسر من أعمالهم ؟
وتقرب وجهات النظر والقلوب ؟

وهل تحولت تلك العواطف الجياشة نحو الوحدة العربية ، المجسدة في الشعر والفن والأغاني والنظريات ، هل تحولت الى وحدة واقعية مبدئية ، كأن يكون العربي قادراً على أن يقول للآخر في قطر آخر كلمة « آلو » حين يشاء ؟؟

أجل . كلمة « آلو » ينتعش بعدها ، ويرى أن خطوة عملية ولو بسيطة قد تحققت في درب التقاء أفراد الشعب العربي خارج المهرجانات الخطابية مثلاً ؟

أم أن بعض أقطارنا يعرقل الاتصال الحقيقي بين الناس؟ لا يجد الوقت لبحث القضية ؟ لم تخطر له ببال لانشغاله بالقضايا (العليا) عن الهموم (الدنيا) ؟

ترى هل يعاني بقية العزب مثلنا في قليل أو كثير ، أم أننا وحدنا في بيروت لا نستطيع أن نقول « آلو » ؟

* * *

ولأن التساؤل يشبه ناراً تلتهم شجرة في غابة ، فإن العدوى تصيب بقية الأشجار ، وتستيقظ التساؤلات متوحشة وشرسة كحريق الغابات .

أتساءل وأنا أغادر نادي الكتابة الداجنة : على المستوى العملي ، ما الذي تحقق حتى الآن في مجال الوحدة العربية ، وعلى الصعيد العملي اليومي العريض ، كعلاقة المواطن ببقية المواطنين في الأقطار العربية الأخرى ، ماذا عن البريد وقيود السفر والعمل ؟ هل صار الاتصال أكثر سهولة ؟ أكثر يسراً ؟ هل صارالناس أكثر قرباً ؟

وان لا ، من الذي يضع القضبان في دواليب عربة التعارف ؟

* * *

في أوروبا ، حيث كل دولة مستقلة ، وذات سيادة ، ولا تتحدث عن (الوحدة الأوروبية) ، يستطيع أي مواطن أن يحاور من يشاء في الأقطار الأوروبية الأخرى بسهولة ، ودونما حاجة الى تدخل (السنترال) أو (الوساطات) ناهيك عن (الرقابات) . .

فهل لدينا نحن العرب الذين نباهي بطموحنا الى (الوحدة العربية) شبكة هاتف واحدة تربط أقطارنا ، كما هو بين أقطار دول أخرى ، لا تدعي (وحدة) ، ولا وصلاً بليلى ؟ . .

* * *

لا أعرف بالضبط ماذا يحدث في الأقطار العربية الأخرى . كل ما أعرفه أن الأحوال تزداد سوءاً عندنا في لبنان . . . تزداد بعداً بالارغام ، و (البعد جفاء) .

وكلما تكاثرت (العروبة المنبرية) ، كلما سقطنا في العزلة العملية . . . وكلما سقط شهيد عندنا من أجل العروبة ، انقطع خط هاتفي اضافي مع العرب . (الوحدة الخطابية) مزدهرة عندنا ، و (الوحدة العملية) منسية .

كأنما هناك مؤامرة ما تهدف الى تنشيط الحب (الرومانسي) مع العروبة ، وتكريس الانفصال العملي والانعزالية . . .

هذه حالنا هنا . . . فهل أنتم على أفضل حال ؟

* * *

هذه الملايين والثروات العربية ، التي تتدفق من حيث ندري ، الى حيث لا ندري ،

ألا يمكن رصد بعضها لانشاء شبكة هاتفية عصرية ، تصلنا وتسهل أعمالنا ولقاءاتنا ، وتنعش حلمنا العروبي بلمسة عملية واقعية ؟

وهل تقطن الوحدة العربية - في نظر البعض - في الفراغ ، أسوة بالاحلام (اليوتوبية) كلها ، أم أنها تقطن في الحياة اليومية للجماهير ؟

١٩٨١/١٠/٢٦

(بابا بيغن) لماذا اسنانك كبيرة ؟

مناحيم بيغن رئيس الوزراء الاسرائيلي (مكسور الخاطر) ، لأننا لا نعلم الأطفال العرب كيف يحبونه ، ويحبون إسرائيل ، وقد أبدى استياءه امام الاعلام العالمي ، لأننا نعلم الأطفال في مدارسنا « إن إسرائيل عدوهم الاساسي » على حد تعبيره .

بيغن غاضب لأننا لا نتغزل في قصائدنا بلون عينيه ، والأحلام (السلمية) التي تسكنهما ، ولا نتذوق الهدايا اللطيفة التي يقدمها لأطفالنا ، وهي من ذلك النوع الذي لم يحصل طفل في العالم على ما يشابهه . . إذ ما يكاد الطفل يمسك باللعبة حتى تنفجر بين يديه ، وتقطع أصابعه فلا يمسك بعدها لعبة ، وتدمي عينيه ، وتحيل جسده الغض قطعاً ممزقة ، واذا لم تصدقوني ، فاسألوا أطفال جنوب لبنان الذين تلقوا هذه الهدايا في مناسبات مختلفة ، واسألوا المراسلين العرب والاجانب الذين صوروا هذا المهرجان الطفولي (الملتهب) بهدايا (بابا بيغن) ودولته المحبة للأطفال .

* * *

والحقيقة ان غارات رجال (بابا بيغن) على الأراضي العربية المجاورة لتقتيل الآباء والأخوة و (الارهابيين) كانت دوماً تقترن بعناية خاصة للأطفال .

فقد كان قلب (بابا بيغن) الرقيق جداً يأبى عليه ترك جثث الأخوة والآباء أمام أعين اطفالهم فيفقأ ما تيسر منها ، ويحاول إلهاء بقية الاطفال عن المشهد وتسليتهم وتعزيتهم ، بهدية (لطيفة) صغيرة يتركها جنوده خلفهم في الحقول ، منها ما هو بشكل راديو صغير أو دمية أو طائرة ملونة ، ما يكاد الطفل يلتقطها ليطير بها في أحلامه ، حتى تطير به إلى الأبدية .

واذا لم تصدقوني ، راجعوا البلاغات التي تحذر الأطفال الصغار والكبار من لمس (هدايا) المحسن الكبير (بابا نويل بيغن) .

* * *

و(بابا بيغن) يولي الاطفال ـ والحق يقال ـ رعاية خاصة لا يستطيع أحد إنكارها .

وهو يقدم لهم برنامجاً تلفزيونياً خاصاً ، يعرض لهم فيه شريطاً وثائقياً مسجلاً عن تاريخ دولته المجيد في العناية بالاطفال ، ويقدم لهم لوحات حية لأكثر تلك اللحظات (حميمية) وخصوصية . .

* * *

يبدأ الشريط بتلك اللحظات (الأبوية) التي لا تنسى في مذبحة دير ياسين ، يوم خلفوا أطفال القرية كالعصافير الممزقة فوق الاسلاك الشائكة لزماننا الصدىء ، وخافوا على الصغار من اليتم حتى في موتهم ، فذبحوا لهم آباءهم وأمهاتهم كي لا يفرقوا بين أفراد الأسرة الواحدة .

وبينما الأطفال العرب يتأملون هذه البداية (الرقيقة) لبرنامج (بابا بيغن) ، والعدالة (المطلقة) في الذبح بالتساوي ، (والشاعرية)الأخاذة في تنفيذ المجزرة ، يغير (بابا بيغن) المشهد بسرعة ، منتقلاً من دير ياسين إلى كفر قاسم خوفاً على الاطفال من الملل .

* * *

وستتعاقب المشاهد . . دير ياسين . . كفر قاسم . . وستتوقف الكاميرا طويلاً عند (وسترن) مدرسة « بحر البقر » في مصر ، حين تمت مداواة الاطفال من إحتمال الاصابة بالبلهارسيا على يدي (الأطباء الاسرائيليين) بالدواء الشافي تماماً : الموت . . وتم تقتيل أطفال المدرسة في مشهد دهشت له الاشجار والطيور والخيول والترع والجلابيات ، وما زال رجال القرية حتى اليوم يحدثون ما تبقى من أطفالهم عن الطائرات الاسرائيلية وقنابلها (الملونة) كبيض الفصح ، ويعلمونهم بالتالي أن يحبوا إسرائيل وبركاتها ، وهداياها المستوردة من اميركا خصيصاً لأجل عيونهم !

* * *

سيصفق الاطفال العرب لـ (بابا بيغن) وهم يتابعون الشريط الحي للعلاقة الودية جداً ، التي تكنها إسرائيل لهم .

سيرون كيف قتلت إسرائيل أطفال دمشق في غاراتها على المدنيين ايام حرب تشرين ، وسيرون (الدمى) تنهال على أطفال حلب وحمص واللاذقية ، أسوة بأطفال

المخيمات الفلسطينية ، ومخيمات العرب الفقراء في كل مكان .

* * *

وستتوقف الكاميرا طويلاً عند المشهد الختامي - حتى لحظة كتابة هذه السطور - مشهد (بابا بيغن) وهو يدمر المفاعل النووي العراقي .

هذا مكان بني خصيصاً لتعليم الاطفال العرب وحمايتهم ، وحين يكبرون سيجدون فيه مركزاً للرقي العلمي ، وطاقة يغادرون عبرها العصور الوسطى إلى عصر التكنولوجيا ، وكوة مفتوحة على شمس الطموح في أفق المستقبل شبه المعتم .

فكيف يترك (بابا بيغن) خطراً كهذا يتهدد أطفالنا ، وهو الذي يخشى عليهم من الأمراض الحضارية ؟

كان مفاعل تموز درباً لأطفال العرب إلى أرض التكنولوجيا والممارسة العملية لعلوم العصر ، والملامسة الحقيقية لها ، بدلاً من (التغزّل) بها ، و (الرثاء) لأنفسنا ، و (المديح) لغابرنا ، و (الهجاء) لحاضرنا . كان خروجاً من اللفظة إلى الفعل ، ومن الكابوس إلى العمل .

و (بابا بيغن) يخاف على الأطفال العرب من العمل وأمراض الارهاق . . وهكذا كان لا بد من تدمير المفاعل النووي حرصاً على نوم اطفالنا غير الهانيء في جزر التخلف العلمي .

* * *

بعد ذلك كله لا بد لنا من التساؤل : من الذي يعلم الأطفال العرب كره إسرائيل ، نحن ، أم إسرائيل نفسها ؟

كل طفل في وطننا العربي هو ضحية ممكنة - بل وأكيدة - ونحن حين نحذر الطفل المرشح للقتل لا نكون قد (اخترعنا) له عدواً ، وإنما نكون قد ذكرنا له حقيقة بدهية حرصت إسرائيل على توكيدها لأطفالنا دائمًا . . وحرصت على تلقينهم إياها لحظة بعد اخرى . . فما ذنبنا اذا فهم الطفل الدرس جيداً وتعلم ؟

* * *

لنفرض جدلاً إننا قلنا لأطفالنا : إسرائيل تحبكم . ألن يسألنا طفل : ما دامت تحبنا ، لماذا تقتلنا ؟ لماذا تحرق بيوتنا ؟ لماذا تسرق السنابل من عيوننا و (تسحب) سجادة الأرض من تحت أقدامنا ؟ لماذا تحاول تدمير أي أمل لنا في نمو علمي عصري ؟ لماذا تحرق براعمنا الخضر ، وتحول إنحناءة افقنا إلى حد منجل الموت ؟ لماذا تحقد على

كل ما ينمو أو يطير؟

نعم ، ماذا يريد منا (بابا بيغن) أن نقول لهم حين يسألون : لماذا تقتلنا إسرائيل إذا كانت حقاً تحبنا ؟

ولنفترض جدلاً اننا قلنا لهم إرضاء لعيني (بابا بيغن) : إسرائيل تحبكم . . حتى القتل . . تحبكم من الوريد إلى الوريد عملياً . . تحبكم بطريقة فنية شاعرية خاصة ستفهمونها حين تكبرون .

هل يصدقون ؟

واذا سألونا : لماذا يريق (بابا بيغن) دمنا ؟

سنقول : إنه بريء ، لكنه يحب الأحمر القاني كلون الخجل ! واذا سألونا : لماذا أسنانه كبيرة هكذا ؟ لن نقول لهم : «لكي يأكلكم » كما قال الذئب لطفلة الغابة قبل أن يلتهمها ، وإنما سنقول لهم : نمت أسنانه لكثرة ما يحب ان يبتسم لكم !!

* * *

(بابا بيغن) يريد أن يحول جيش العرب إلى فرقة لرقص الباليه . ويحول زعماء العرب إلى (سفرجية) في مطبخ كامب ديفيد . ويحول أطفال العرب إلى عصافير مذبوحة على مائدته . ويحول نساء العرب إلى (فام دي شامبر) لزوجته . ويحول أرض العرب من خليج الجرح إلى محيط الدم اسطبلاً لخيوله . . احلامه (طفولية) طموحاته (طفولية) . . فكيف لا يحبه الأطفال العرب ؟ !

* * *

حلم (بابا بيغن) الأكبر هو أن يفتح (حضانة) للاطفال العرب تحت إشرافه ، تمتد من المحيط إلى الخليج . . يعلمهم فيها ركوب الخيل ، (أعني كيف تركبهم الخيول لا كيف يركبونها) ، ويعلمهم فيها برامج (مسح الذاكرة العربية) ، ويعدهم اعداداً خاصاً ليكونوا غلماناً وخصياناً صالحين في بلاط الامبراطورية الصهيونية ، التي وردت اوصافها بالتفصيل في بروتوكولات حكماء صهيون .

فلماذا نقف في وجه مستقبل أولادنا ؟ !

١٩٨١/٧/١٣

عنق للأزهار ، وعنق للمشنقة !

كاتبة موهوبة . كانت (توقع) ما تكتب باسمها الشخصي حتى تزوجت . بعد الزواج ، تخلت عن اسم أسرتها ، وصارت تذيل مقالاتها باسم أسرة زوجها . بعد الطلاق ، ظلت (توقع) باسم مطلقها الذي عرفها القراء به ، وصار شهيراً . تزوجت من جديد رجلاً آخر ، لكنها اضطرت الى الاستمرار في حمل اسم مطلقها وتذييل ما تكتب به ، بدلاً من اسم زوجها الجديد أو اسمها القديم .

من هي ؟ هذا غير مهم .

ليس المقصود من هذه المقالة التشهير ، أو الخوض في حالة خاصة ، لكن المقصود هو بحث قضية عامة آن الأوان لاعادة النظر فيها . . . وأعني بذلك : اسم المرأة العاملة (بوجه عام) ، والأديبة (بوجه خاص) . . . ولن نتعرض للأسماء وإنما للأمثلة ، لأنها تصير رمزاً لواقع انساني معين وشائع . تصرون على معرفة الأسماء ؟ حسناً . . . فليتطلع كل منكم حوله ، وسيجد حالة مشابهة لسيدة يعرفها !

***

صحافية ممتازة . كانت في البداية تذيل ما تكتب باسمها الشخصي (اسم اسرتها) . ثم تزوجت ، ورحلت الى بلد الزوج في قطر عربي شقيق . عملت هناك أيضاً في الصحافة ، وتخلت عن اسمها الأول الذي عرفها القراء به ، وصارت (توقع) كتاباتها باسم اسرة الزوج . وقع الطلاق بينهما ، فطلقت اسمها (الثاني) ، وعادت الى بلدها والى اسمها (الأول) تذيل به ما تكتب . تزوجت من جديد . رحلت الى بلد الزوج الجديد وصارت توقع باسمه !

الزملاء يعرفون أن صاحبات الأسماء الثلاثة هن امرأة واحدة . القارىء لا يعرف ، ومن حقه أن يعرف . فالكتابة فعل مقاومة علنية ، وكل مواربة مرفوضة ، حتى ولو لم تكن مقصودة .

فهل تصدر الكاتبة بلاغاً الى القارىء كلما تزوجت وطلقت وبدلت اسمها ، للمحافظة على استمرارية علاقتها به ؟

* * *

كاتبة قصة . بدأت حياتها الأدبية وهي (توقع) باسمها . تزوجت بعد حكاية حب عاصفة . أصدرت كتابها الأول ، وكان الحب لا يزال متأججاً ، فوقعت الكتاب باسمها المألوف ، مضافاً إليه اسم الزوج كفعل خنوع أو حب أو مباهاة أو تقليد . . . لا ندري . .

ومرت الأيام ، وتساقطت فوق رأس حبهما ثلوج الغربة . . أصدرت كتابها الثاني في زمن الجفاء . حذفت اسم أسرته هذه المرة !

فهل يتصالحان ويتأجج الحب مضاعفاً ، ونقرأ اسم أسرته وحده على غلاف كتابها الثالث من دون اسمها المألوف ، وكيف يعرف القارىء أنها الكاتبة نفسها ؟

* * *

هذه نماذج ثلاثة عن مهازل كثيرة ، تنتج عن ربط المرأة الكاتبة ربطاً مباشراً بين عملها وحياتها الزوجية . . بحيث يصير (توقيعها) شبيهاً (بالترمومتر) العلني للحياة العاطفية لها . . ومن الواضح أن المشكلة محلولة تلقائياً في الأقطار العربية التي يوقع كتابها ـ نساء ورجالاً ـ بالاسم الأول مقترناً باسم الأب لا الأسرة ، ولكن ، ماذا عن الأقطار العربية الأخرى الباقية ؟ ما الحل ؟ (الحل الوسط) هو أن تضيف المرأة الى اسمها اسم أسرة الزوج ، بحيث يسهل التخلص من الاسم (الفائض) حين يصير (فائضاً) في أيامها . .

ولكن ،

لماذا لا نواجه المهزلة دونما أقنعة ، ولا مواربة ، ونذهب حتى جذورها بحثاً عن موقف حاسم ونهائي ، وحل أكثر بساطة ووضوحاً وصدقاً ؟

* * *

الحكاية عتيقة ، وليست حصيلة نزوة نسائية عابرة ، بقدر ما هي حصيلة تقاليد موروثة . فقد بدأت المرأة تكتب ، وتوقع كتاباتها باسم مستعار لاعتبارات اجتماعية طاغية في ذلك الزمان . . . كأن اسمها (عورة) يجب سترها بحجاب الاسم المستعار . . .

. . . وكانت درب المرأة شاقة ، وبعد مرحلة « الاسم المستعار » جاءت مرحلة

اضافة اسم الزوج الى الاسم الحقيقي للكاتبة . . واضافة اسم الزوج في تلك المرحلة كانت بمثابة اعلان ضمني عن موافقة الزوج على ان تكون زوجته كاتبة ، ومباركته لذلك .

وفي هذا دعم اجتماعي حقيقي للمرأة يومئذ ، وكسب كبير في مرحلة معينة . .

* * *

لقد تبدلت الأيام ، وبقيت آثار تلك المرحلة . . لم تعد المرأة الكاتبة استثناء ، بل صارت أمراً مألوفاً في حقلي الصحافة والأدب .

ولم تعد المرأة العاملة بدعة ، وانما أصبحت ركناً أساسياً من أركان فعاليات الوطن وطاقاته . .

ولكن تقليد اضافة اسم أسرة الزوج الى الاسم الأصلي للكاتبة ، أو حمله وحده ، ما زال متوارثاً عند البعض . . لماذا ؟

من زمان ، كان مقبولاً أن تحمل (الكلمات النسائية) توقيع الزوجة والزوج معاً ، فقد كان الأزواج يمارسون رقابة ما على كتابات الزوجة خوفاً من الضغوط الاجتماعية ، وكانت الزوجة بحاجة ماسة الى دعم الزوج لها اجتماعياً .

أما اليوم فقد تبدلت الأحوال ، ولم يعد سهلاً على الكاتبة أن تتهم زوجها بقمعها فنياً والتدخل في سطورها ، فلماذا يشارك المسكين في توقيع مقالاتها ؟ وما ذنب الزوج فيما تكتبه زوجته الأديبة ؟

* * *

إن كفاءة المرأة العربية في عملها ، صارت أمراً مؤكداً . وهي تضطلع اليوم ـ في كل حقل ـ بمسؤوليات جمة جنباً الى جنب مع شقيقها في (المواطنية) ، الرجل . وتثبت في كل مناسبة جدارتها ـ المهنية والمسلكية ـ التي تكفي وحدها قوة دعم لها في عملها ومجتمعها ، ومصدراً لاحترام كل من يعرفها

لقد وثق المجتمع بها ، ويبقى أن تثق هي بنفسها .

المرأة العربية العاملة تمشي اليوم على ساقين حقيقيتين ، فلماذا تظل ممسكة بعكازها ؟

ولماذا يتكىء اسمها على اسم زوجها ؟

* * *

والمرأة الكاتبة صارت لا تتمتع بالاحترام فحسب ، بل بحرية الكتابة أيضاً ـ أعني

بحد أدنى من الحرية التي يتمتع بها الرجل الكاتب ، وهي حرية نسبية طبعاً تختلف من قطر عربي الى آخر ، ولكن لا علاقة لها بكون الكاتبة أنثى .

والكتابة المعاصرة لم يعد بوسعها أن تكون زخرفاً لفظياً ، وإنما صارت فعل ادانة ، وفعل شهادة ، واختياراً فكرياً ، وانتهاء يقود الى اتخاذ موقف . .

وصار على الكاتب أن يختار ، ويحمل علناً مسؤولية قراره . .

فلماذا تمارس المرأة الكاتبة ذلك كله ، ثم تزج باسم زوجها فيما تكتب ، وهو قد يكون في موقع فكري آخر ، وله وجهة نظر مختلفة ؟

ولماذا تريد أن تكون حرة ـ والحرية مسؤولية أيضاً ـ وتريد في الوقت ذاته أن تظل متمتعة (بمكاسب) عدم الحرية ، أي بتحميل جزء من المسؤولية لشخص آخر هو الزوج المسكين ؟

* * *

مما لا شك فيه أن الرجل العربي كريم النفس في تعامله وامرأته (الأديبة) أو العاملة ، فهي لا تكتفي بالحصول على مكاسب الحرية العصرية ، لكنها تظل محافظة على (مكاسبها الاتكالية) العتيقة المتمثلة في حقها بحماية الرجل لها .

والرجل العربي يمنحها (الربحين) بمنتهى النبل والرفق (بالقوارير) . .

بل ان المرأة تتصرف كما لو أنها تقدم لزوجها خدمة حينما توقع باسمه !!

حسناً . انني لا أحاول الدفاع عن الزوج المسكين ، ولا عن حقوق الرجل . لكنني أحاول التذكير بأن مرور الزمن يتطلب باستمرار مراجعة ذاتية للتخلي عن تقاليد لم تعد تتلاءم وواقع الحال . وبما أن دوام الحال من المحال ، فلماذا لا نجرؤ على تمزيق ما يهترىء من العادات على مر الزمن ؟ ولماذا لا نخلع القشور المقددة لحياتنا الاجتماعية ونتمسك بالجوهر منها فقط ؟

لماذا نتوهم أن كل ما هو عتيق ، هو ثمين وفريد ، كما يتوهم بعض الأدباء ، أن كل كتاب أصفر الأوراق أبلاه العتق ، هو بالضرورة تراث عظيم ؟

* * *

هذا الكلام ينطبق على المرأة العاملة بوجه عام ، لكنه يصير واقعاً ملحاً حين يتعلق الأمر بالمرأة الكاتبة . . فالتوقيع باسم الزوج هو نوع من التزوير ، تماماً كتزوير توقيع رجل على وثيقة لم يقرأها .

فهل يصحح الجيل الجديد من الكاتبات خطأ المرحلة السابقة ؟

وهل ترضى الكاتبات الناشئات الالتصاق بأسمائهن فقط ؟ إن في ذلك فعل مسؤولية جميل الوضوح أولاً ، وفعل ابتعاد عن استغلال اسم الزوج المقترن أحياناً بالسلطة والجاه والنفوذ ، وفعل تجنب للتملق أو الخضوع للقمع ، ثم انه يوفر على القارىء مشقة متابعة اسمائهن المتعددة المتبدلة اذ كن عاثرات الحظ في قضية الزواج (وهذا أمر شائع ومباح وعادي) .

فالكتابة قضية عامة أيضاً ، والزواج قضية خاصة أيضاً . . . فلماذا تحميل (قبيلة الزوج) مسؤولية آراء الزوجة ؟ أم أن الكاتبة تريد أن تكون (محمية) حينما تخطىء ، وحرة حينما تصيب ؟ والرجل في (حالة الطوارىء) هو المسؤول ؟

عنق المرأة لطوق الأزهار ،

وعنق الزوج لحبل المشنقة ؟

١٩٨١/١٠/١٩

التمساح المعدني

أتأمل صورة الزي وأقول لنفسي : هذه سترة تصفح لابسها ، وتحوله إلى تمساح معدني .

سترة مضادة للرصاص ، أقوى من الفولاذ ـ على حد تعبير صانعها ـ الجزء الأعلى مصمم لحماية الأكتاف ، وعند الصدر ١٨ طبقة (كفلر) لا تخترقها قذائف مسدس (ماغنوم ٣٥٧) !! ثنيات سميكة للحماية ، مصفحة وخفيفة في آن ، لها عدة أنواع وألوان ، ويمكن تمويه هذه السترة المضادة للرصاص بشكل ملابسك العادية . .

أتأمل صورة الزي وأتساءل : هل يمكن حقاً للثياب المصفحة أن تحمي الطاغية من أنياب شعبه الغاضب ؟ وهل يستطيع تمساح معدني أن ينجو من طوفان النيل العظيم ؟

* * *

يبدو أن الشركة التي صنعت هذا الزي تعي جيداً أن المذعور بحاجة الى المزيد من الأدوات والـ(غادجيتس) التي تمنحه وهم الحماية وها هي تعرض عليه أيضاً شراء سيارات فخمة لا يخترقها الرصاص تحوله الى قلعة متحركة . . . وكاشفة متفجرات تعمل على الـ (إكس راي) ، بحيث تصير عيناه كعيني (ستيف أوستن) الذي أنفقت المخابرات الأميركية ٦ ملايين دولار لتصفيحه وتحويله الى تمساح معدني منيع ، فلماذا لا تنفق المزيد على أي عميل آخر طمعاً في استخدام أراضي بلاده قاعدة للسيطرة ، ولضرب الحركات التحررية لشعبه ، وللشعوب الأخرى ؟

* * *

ثمة أجهزة مراقبة أيضاً ، من أجل تكريس ذل المحيطين « بالتمساح المعدني » والتأكد من خنوعهم ، وكاميرات تلفزيونية صغيرة تعمل على الـ (مايكرو ويف) ، وتلفونات مجهزة بمشوشات خاصة للأحاديث السرية كإصدار أوامر الاعتقالات

والاعدامات . والشركة تقدم لـ (التمساح المعدني) منظاراً للرؤ ية الليلية ـ كما عين البومة ـ وأجهزة لاسلكية بعيدة المدى (٥٠ ميل) ، وسواها من مئات الأجهزة الالكترونية الحديثة التي « تضمن الوقاية الأكيدة » على حد تعبير الشركة . .

وتجد نفسك تتساءل بمرارة : أما زال هنالك من يتوهم وجود « وقاية أكيدة » في وجه غضبة الشعوب ؟

لماذا لا يقرأ بعض زبائنها العرب كتب التاريخ ، التي تجمع على وجود خاتمة واحدة معروفة لكل من يذل بني قومه ، ويسجن أرزاق الناس وكرامتهم داخل قفص نظام فاسد ، ويحاول جرهم الى درب الخيانة خارجاً بهم عن مسيرتهم القومية ، المتجانسة ومسيرة الجماهير العربية ؟

* * *

إذا كنت مشاكساً مثلي ، ستفكر بمرافقتي إلى مقر الشركة التي تنتج هذه الأزياء والأدوات ، لكتابة تحقيق صحافي (بالألوان) عن (زبائن) الشركة وبضاعتها الرائجة . . سنستجوب المدير : هل يفكر بإقامة حفل لعرض (أزيائه) مع (اكسسواراتها) ، أسوة ببقية دور الأزياء (العالمية) الأخرى ؟

وأين سيكون مكان الحفل ؟ في أحد الفنادق الفخمة ، أم في القاعات المغلقة لأبنية المخابرات في بعض أقطار العالم ؟

وهل سيستخدم عارضات أزياء تقليديات ، أم سيتطوع للمهمة بعض جلادي الشعوب الذين تليق هذه الثياب بهم ، وترضي طموحهم في التحول الى تماسيح معدنية ، واهمين أنها تنجيهم من الطوفان ؟

* * *

ولكننا لن نذهب لاستجواب صانع الأزياء هذا . ما ذنبه ؟

فالمفجع أن الاغتيال يطال المجرم والبريء . . . الطاغية والثائر . . الفاسد والمصلح . .

وصاحب الشركة يكرس نفسه لحماية الجسد البشري ، لكنه ليس مسؤولاً عن خبايا القلب والنفس .

وهكذا فكل جهد لحماية الجسد الهش للانسان هو عمل جميل وجيد ، ومتعدد (الاستعمالات) .

وهذه السترة التي قد تستخدم لحماية طاغية ، يمكن لها أيضاً أن تستخدم لحماية

الثائر من شر الطاغية .

هذا يقودنا من جديد الى رفض « الاغتيال السياسي » كمبدأ ، لكن الشعوب لا تأبه كثيراً لهذا الرفض ، وهي تصر غالباً على تمزيق الطاغية ، وتجد الوسيلة لذلك دائماً بالرغم من فنون الحماية المتوافرة له (أزياء ومخابرات) ومعونات خارجية ورشاوى . . . وتنكر في زي تمساح معدني . . .

* * *

الأديب قال دوماً « لا » للاغتيال السياسي .

لكن الأمر يقع باستمرار . والشعوب تمد لسانها (للأدب العالمي) وتقول له ببساطة : ما هذا باغتيال . إنه تنفيذ لحكم بالاعدام صدر في محكمة التاريخ .

الأديب لم يحبذ يوماً « الاغتيال السياسي » ، خوفاً من العشوائية في استعمال المبدأ .

لكن الشعوب تذبح دوماً طغاتها وتقول للأديب ببساطة : ما هذا باغتيال . انه فعل دفاع عن النفس ، وقد حاول الطاغية قتلنا مادياً ومعنوياً . . . فقتلناه دفاعاً عن النفس وهذا مشروع ، وحكمه البراءة !

* * *

الأديب قال دوماً « لا » للاغتيال السياسي .

البير كامو في مسرحيته « العادلون » يدين الاغتيال السياسي ، ويفسره دون أن يبرره (دورا . . . إننا مجبرون على أن نقتل ، أليس كذلك ؟) و « كاليايف » يعجز عن تنفيذ حكم الاعدام بـ (الدوق الكبير) رغم قرار منظمته السرية ، فقد فوجىء بوجود أطفال في عربة الدوق سيقتلون معه لو نفذ (الحكم) .

سارتر في (الدوامة) يقول « لا » للاغتيال السياسي .

فموت الطاغية لا يبدل من الأمر شيئاً إذا حل محله طاغية آخر . . . سارتر يحمل الشعب أيضاً مسؤولية صنع الطغاة واستمرارهم ، ويلفتنا الى عوامل الضغوط الخارجية للدول الكبرى ، ودور مصالحها في صنع الطاغية . . . وصنيعه .

ت . س . اليوت في مسرحيته الشعرية « جريمة في الكاتدرائية » يدين اغتيال رجل الدين « بيكيت » ، ويرسم بحذق القناع الديني للصراع على السلطة السياسية .

* * *

الكاتب العظيم شكسبير رسم الوجوه العديدة للاغتيال السياسي في غير مسرحية

(ماكبث مثلاً) ، ولعل أكثرها تأثيراً في النفس لحظة اغتيال (يوليوس قيصر) في مسرحية (يوليوس قيصر) ، حين يطعنه أعضاء المجلس بخناجرهم واحداً بعد الآخر ، حتى يحين دور صديقه الحميم بروتس، واذا به يشارك في الاغتيال . (قبلها يتفقون على تحمل مسؤولية القتل شراكة . . كل منهم يطعنه بخنجره طعنة واحدة) ، لكنه لا يهوي الى الأرض إلا بعد أن يسدد اليه بروتس طعنته اذ يقول : « حتى أنت يا بروتس ؟ فلتمت قيصر إذن » .

وقد ذهبت عبارة « حتى أنت يا بروتس » مثلاً ، ويستشهد بها على غدر أغلى الأصدقاء ، لكن قيصر لم يكن يعني بها ذلك ولا شكسبير !!

كان يوليوس قيصر يعني بالعبارة (حتى أنـت يا بروتس تعتقد أنني طاغية يستحق الاغتيال ؟ فلأمت إذن ، فأنا أستحق ذلك إذا كان هذا رأيك بأعمالي ، أنت الذي أثق برأيه وحبه وحكمته) .

وتبرير قيصر للآخرين عملية اغتياله لحظة سقوطه ، يثبت أنه لم يكن سيئاً بحيث يستحق « الاغتيال السياسي » .

وفي الموقف تقريع شكسبيري لاذع للاغتيال كمبدأ ، وهو في معظم مسرحياته نذير بالكوارث والدمار ، وجر البلاد الى حمامات الدم .

* * *

وبعد ،

يبدو أن الشعوب ترغم الأديب المعاصر على إعادة النظر في « الأمر الواقع » المدعو بـ « الاغتيال السياسي » .

فـالشعوب تطيح دوماً بالطاغية . . . والأديب المعاصر مرغم على تفهم تلك الظاهرة واستيعابها ، بدلاً من إدانتها في المطلق ، وعلى الانصات بوعي جديد الى سيمفونية غضب الشعوب وضرباتها القاضية كالصاعقة ليتفهمها ، ويلم بمظاهرها . .

نعم . إن قرار مبدأ « الاغتيال السياسي » يمكن أن يشمل المجرم والبريء . . .

المطلوب إذن إعادة النظر في تعريف عبارة « الاغتيال السياسي » وايجاد تعريف دقيق جديد لها . .

وحينما ينفذ شعب ما حكم الأعدام بمن خان أمانة التاريخ ، فهذا ليس ـ بالضبط ـ فعل « اغتيال سياسي » . إنه ـ بمعنى ما ـ قصاص حق ، وحكم اعدام عادل

من أجل حياة الجماعة ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ .

* * *

ولعل من بعض مهمات الفنان المعاصر ، التوكيد على أن يكون في موت الطاغية نهاية لنظامه . . وتحالفاته . والمهم ألا يحل محل الطاغية من هو أكثر فساداً وطغياناً .

فإعدام الطاغية ليس غاية بحد ذاتها ، بل هي الخطوة الأولى التي يجب أن تتبعها خطوات أخرى أكثر وعياً في مجال انتقاء البديل . .

لا يكفي أن يطيح الطوفان بتمساح معدني ، اذا كان خليفته على صورته ومثاله .

ولا بد من فيضان آخر . .

يجرف التماسيح المعدنية كلها . . . واحداً بعد الآخر . .

١٩٨١/١١/٩

ضد رقم (١)

« أميركا هي الرقم واحد ، وعليكم ألا تنسوا ذلك » . هذا ما تقوله (يافطة) تقطر غطرسة ، وقف جنديان اميركيان ملثمان خلفها وقد حملها أحدهما بيده .

المناسبة : المناورات الأميركية في مصر العربية ، الملقبة زوراً بـ « النجم الساطع » أو « النجم اللامع » .

والترجمة لا تهمنا حقاً لأن التسمية مزورة أصلاً . .

فالنجم اللامع قد يهدي المسافر . .

والمناورات الأميركية مكرسة لتعطيل البوصلات العربية ، وجر الفرد العربي الى صحراء التيه السياسي .

وضياء النجم نور . . والمناورات الاميركية نار . .

والجنديان الملثمان ـ كمن استعد لارتكاب جريمة ـ يحملان (اليافطة) المتعالية فوق أرض عربية ، لا ندري كيف ترضى باهانة كهذه ، توجه إليها أولاً فوق ترابها وفي عقر دارها . .

* * *

« أميركا هي الرقم واحد ، وعليكم ألا تنسوا ذلك » . . ويرتجف القلب قهراً في مهب رياح التاريخ . .

القلوب كلها التي خفقت لايقاع التحدي والنضال ، ولزمان اللحظات المباركة الماضية والآتية . . حين يضيء نجم صدق ـ لامع وساطع حقاً ـ طالع من الوجدان العربي ليصرخ « لا » ، في وجه أميركا وحلفائها وكل أصبع اخرى تجرؤ على ان تمتد نحو جسد الأرض العربية . .

« أميركا هي الرقم واحد ، وعليكم الا تنسوا ذلك » .

والصيغة اللغوية التي كتبت بها (اليافطة) شعار المناورات ، هي صيغة

استفزازية ، تحمل لهجة التهديد الممزوج باحتقار الآخرين ، والغرور (السوبرماني) لنموذج « ستيف اوستن » الأميركي ، القوي «رقم ١» .

* * *

تشعر بأن هذه (اليافطة) بالذات تلخص تاريخياً وهم التفوق . . والنظرة الامبريالية نحو الشعوب الأخرى الكادحة والمسالمة والمكافحة .

إنها لهجة قلما يخاطب الأميركي بها كلبه ، فكيف يخاطب بها شعباً عريقاً شاسع التاريخ والأسرار والانفجارات هو الشعب العربي ؟

أي استخفاف .

أية رعونة . أية هتلرية تدعو إلى اشمئزاز الأصحاب والأحباب قبل المحايد والعدو والحذر والملدوغ من الجحر الاميركي عشرات المرات . .

هذه (اللافتة) الوقحة اللاانسانية تحقرك شخصياً وتخاطبك شخصياً وتهينك وتستفز مشاعرك أكثر مما استفزتها قاذفات قنابل ب ٥٢ ، ومئات المظليين ، وأطنان المعدات ، ومدافع هاوتسر ومورتر، والشاحنات المحملة بالذخائر وطائرات سي ١٤١ ، التي تنثر العداء متدلياً من مظلة . . وبقية عدة (المناورات) الاستعراضية إياها . . تلك الغطرسة البشعة للرقم واحد لا تنسى . لا تغتفر . توقظ في القلب أحزانه وتاريخه واحقاده وذاكرته وشراسته ، وطاقته على المقاومة حتى الافتراس ، وحتى كراهية ما وراء نهر التسامح . .

* * *

« أميركا هي الرقم واحد ، وإياكم ان تنسوا ذلك » . . فتتذكر شيئاً آخر . . وهو ان اميركا مصرة على ان تظل العدو رقم واحد للعرب ، وتتذكر أيضاً انك لم تنس ذلك يوماً ، وكل ما في الأمر هو انك تنشد العدالة لا العدوان ،

ولكن (العدالة الاميركية) تقضي عليك بالوقوف على شرفة بيتك وانت تدعو للمظلي الاميركي بسلامة الهبوط بينما هو يصوب رشاشه نحوك ويطلق النار !!

(العدالة الاميركية) تطالبك بالوقوف على أبواب استهتارها بك عاماً بعد عام ، وأنت تقول لعل وعسى وربما ويا ليت ، وهي ترد عليك بـ (السين) وسوف وبحروف التسويف الأخرى المبتكرة . .

* * *

ستنحسر عن الصحراء حفلة (الكرنفال) العسكرية الاميركية . . ستنتهي لعبة

استعراض العضلات المعدنية العدوانية بالقرب من ضفاف القنال التي شهدت منذ ربع قرن وقفة عز وكرامة لا تنسى . .

سيسدل الستار على أحد فصول العدوان تحت ستار (المناورات) ،

والعمالة تحت ستار (التحالفات) ،

ولكنك لن تنسى تلك العبارة التي أدمت كرامتك المرهفة لطول ما جُلدت وتجَلدت : « اميركا هي الرقم واحد ، وإياكم ان تنسوا ذلك » ! . .

وتتفجر في القلب عداوته نحو الرقم واحد . .

ذلك الرقم المريض بحب الذات والنرجسية والرغبة في احتلال الكرة الارضية ، وقذف الأرقام الباقية عن الغابات والجبال والسهوب والبراكين . . الى الفضاء . .

* * *

تتذكر مأساة هذا الكوكب مع « الرقم واحد » على كل صعيد . . هتلر مثلاً قرر ذات يوم ان الشعب الجرماني هو « الرقم واحد » فانتهى به الأمر الى محاولة إبادة « الأرقام » الباقية . .

الصهيونية أقنعت ابناءها بأنهم الشعب « رقم واحد » ، أي شعب الله المختار ، ومن يومها ومئات آلاف البشر يحصدون ويلات هذا الحس المريض بالتفوق ، المشوب بعقدة النقص السرية ، المدعوم بالقوة العسكرية (للرقم واحد) الآخر : اميركا . .

تتذكر ان المرض المدعو « رقم واحد » طالما أصاب الزعماء فتحولوا إلى جلادين . .

تتذكر مثلاً « رقم واحد » سياسياً ، اختار لنفسه ذات يوم لقب « الزعيم الأوحد » !! نعم . قرر أنه هو « الرقم واحد » وهذا بالتالي يستدعي اضطهاد من تبقى ، فتحول الزعيم الأوحد الى الجلاد الأول ، وتحول الرقم واحد من إشارة الى التفوق في خدمة القوم ، الى إشارة نحو درب الغطرسة والتجبر والمشي في الأرض مرحاً ، و « اختيالاً على رفات العباد » وعلى كرامات الناس وارزاقهم ومستقبل أطفالهم . .

* * *

تتفجر في القلب كراهيته نحو « الرقم واحد » ، حين يكون متكبراً وعلامة على وهم التفوق المريض . .

تتذكر أن « الرقم واحد » موجود في الحقول كلها .

ثمة الأديب « رقم واحد » الساقط في عزلة عظمته النرجسية ، المقتنع بأنه الكاتب الأوحد ، محاولاً اقناع « بقية الأرقام » بذلك . . إنه لا يصدق ان سماء الله الواسعة تتسع

لأكثر من قمة ومجد وعظمة وعبقرية . .

والسيد « رقم واحد » في دنيا الأدب مثلاً يشعر بأنك تتحداه اذا لفظت أمامه اسم شكسبير ، وتهينه اذا قلت له « نجيب محفوظ » مرتين ، وتخطط لاغتياله اذا تحدثت عن دوستويفسكي وملفيل وفلوبير دفعة واحد . .

انه يعتبر مجرد مقارنته بأي من أولئك الكتاب (التافهين) امثال شوسر ودانتي وهنري جيمس واميل زولا إهانة مباشرة لا تغتفر . .

وهو لا يمتدح كاتباً آخر إلا في حفله التأبيني ، ولا يذكر بالخير زميلاً آخر إلا إذا كان محتضراً أو مريضاً بداء عضال أو رديئاً ومغموراً بحيث يغيظ الآخرين بذكر اسمه !!

* * *

لكن نموذج الفنان « رقم واحد » الكاتب ، أو المسرحي ، الموسيقي ، أو التشكيلي ليس مؤذياً على الصعيد الكوني كالسياسي (الأوحد) . . رقم واحد في الفن يتحرك عادة باتجاه مزيد من العطاء للتوكيد على انه (الأعظم) ، واذا دمر ، فانه يدمر ذاته عادة قبل سواه .

ولكن رقم واحد السياسي ظاهرة خطرة وبحاجة الى كبح جماحها على الصعيد العالمي لأنها تهدد سلام العالم . . و« إياكم ان تنسوا » ان اميركا هي الرقم واحد على صعيد الرغبة في التدمير النووي .

الرقم واحد ؟

« قل هو الله أحد » وتحت عرشه لا فضل لدولة على أخرى إلا بالانسانية والعطاء والعدالة . .

* * *

على جدران شوارع (العالم الثالث) ، الملطخة ببقع الدم الجاف وملصقات الشهداء ودموع النساء والصمغ والرطوبة ، وإلى جانب صور اولئك الذين دفعوا حياتهم ثمناً من أجل ان يكون تحت الشمس أمكنة للأرقام كلها ، سنكتب رقم واحد بخط كبير ورديء ، وسنطلق عليه النار في موكب اعدام مهيب ، إذا كان رقم واحد سيصير رمزاً لغطرسة اميركا .

ربما ،

ذات يوم ، ذات عصر ، ذات سباق ،

قد يعاقب المنتصر في الألعاب الاولمبية لأنه (سبق) الجميع وحمل الرقم واحد !
ذات مستقبل ،
قد يصير الرقم واحد تهمة تستحق الاستجواب لا الميداليات !!

١٩٨١/١٢/٧

العودة الى مملكة الوردة

تلفزيون بيروت (المتحرر) ، يقطع براجه كل أمسية ليقدم لنا إعلاناً يروج لسلعة تتعلق بأمر (نسائي حميم) ! . . تستدير عيون الأطفال وتشتعل فضولاً ، وتتدفق الأسئلة منها كالشرر لتربك الأهل المساكين : « ما هذا ؟ ولماذا ؟ » . .

وإذا كنت من الذين قرروا عدم الكذب على أطفالهم ، فستجد نفسك متورطاً بالحيرة . انك ببساطة لا تستطيع ان تشرح الأمر لطفل في السادسة من عمره ، ولا تستطيع إرغامه على النوم قبل السابعة والنصف مساء (الموعد المفضل لتقديم الاعلان المشوق) ، في مدينة كبيروت تضطرك ظروفها الى سجنه في المنزل أغلب أيام العطلة خوفاً عليه من السيارات المتفجرة ورصاص المتقاتلين او المحتفلين . . وإذا استطعت إلهاء طفلك عن هذا الاعلان ، بلفت نظره الى فراشة لطيفة تسللت من النافذة لنجدتك ، فستجد نفسك أمام اعلان (عاطفي) عن احد أنواع العطور كأنه اعلان عن (ليلة الزفاف !) . وهنا يشتعل فضول طفلك المشاغب من جديد ، وتتدفق أسئلته نهراً من الزخم ! . .

* * *

مشكلة المواطن مع الاعلان هي عملية الاقتحام التي يمثلها . إنه يقتحم بيتك وحياتك عبر المجلات وشاشة السينما والتلفزيون واعلانات الشوارع ووسائل المواصلات . . و . .

واذا أسعدك الحظ بالعيش في بلد يحمي مواطنيه من الاعلانات التلفزيونية التجارية ، فانك لن تنجو من الاعلانات الملونة الفاخرة التي لا تخلو منها مجلات أكثر الأقطار العربية والغربية .

انك تستطيع اختيار الكتاب الذي تقرأ ، والمجلة التي تحب ، لكنك لا تستطيع اختيار الاعلانات التي تفضل . .

واذا كانت بعض الاعلانات تسبب لك (إرباكاً) صغيراً امام أطفالك ، فان بعضها

يشكل صفعة غير مباشرة لك ولأفكارك ولانسانيتك ، وللقيم التي بها تؤمن .

صفعة غير مباشرة لكنها موجعة . الزمن والتكرار لا يخدران من وقعها على النفس ، بل ربما يضاعفان من ردة الفعل امامها . .

* * *

هذه (الاعتداءات) المتكررة من قبل الاعلان تسبب ضيقاً غامضاً من نوع خاص . .

فالاعلان (اقتحامي) ، لكنه لا يحمل توقيعاً ، وكاتبه (سري) ، وانت بالتالي لا تستطيع ان تكتب إليه محتجاً .

إنه يصفعك ويمضي مثل رجل لا تعرفه ولا تعرف اسمه، ولا تعرف عنه سوى اسم السلعة التي يروج لها .

وهكذا فان الخيار الوحيد المتروك لك هو ان تقاطع السلعة ولا تشتريها عقاباً للاعلان الرديء الذي اهانك .

ترى هل يخطر ببال المعلن ان اعلانه سلاح ذو حدين ؟ وان فئة كبيرة من المستهلكين تقاطع بعض سلعهم كاضراب صامت ضد طريقة تسويقها التي تشكل إهانة ضمنية (لهم) ؟ مثال : ايام الدراسة بلندن في أواخر الستينات ، كنا مولعين بشرب عصير معين مغمور ، (لا اعلان عنه) . ثم فوجئنا باعلان يتحدث عن شرابنا المفضل ، وفيه صورة شاب عربي باللباس التقليدي يلعب دور الخادم مقدماً الشراب لنجمين اوروبيين . فقررت جاليتنا الطلابية مقاطعة هذا الشراب عقاباً للاعلان المهين .

* * *

الاستفزاز الذي تشكله بعض الاعلانات هو ظاهرة تستحق التأمل والرصد . ولعل الاعلانات التي تسبب (الحساسية) للقارىء العربي هي اكثر من ان تحصى . . وبعضها يسبب (الأذى) للقلب الانساني المرهف أياً كان وطنه . .

هناك مثلاً ظاهرة تمجيد « الرجل الأبيض » وتقديمه كممثل أوحد لحضارة النوع البشري على كوكبنا .

تأملوا معي أكثر الاعلانات المقترنة بصنع الحضارة وبنائها ، والمرتبطة بالذكاء والمهارة الانسانية .

في اعلانات كهذه لا نرى أثراً للرجل الزنجي ، أو العربي ، او المرأة ، غير الدمية . وإنما نرى صورة للرجل الأبيض ، وعلى التحديد صورة لرجل من العرق الآري الحامل

للملامح والصفات التي طالما تغنى بها هتلر . . كأن هتلر شخصياً يقف وراء تصميم الاعلانات المقترنة بتمجيد عرق واحد متفوق . . اما الزنجي والمرأة والرجل العربي فهم (المضطهدون الثلاثة) في هذا النمط من الاعلان (وحتى الوجوه السمر الأوروبية ذات الملامح الايطالية والاسبانية ، قلما نراها في اعلانات صنع الحضارة ، وتكرس غالباً لاستعراض السلع الاستهلاكية كالازياء والسجائر والعطور . .) .

* * *

واحياناً يطل علينا وجه عربي ، ونراه محاطاً بعدد من (العباقرة) البيض ، ولكنه يدخل في الاعلان كممثل لرأس المال (المادي) ، لا للمهارة الانسانية . إنه يرمز غالباً إلى الثراء فقط مقترناً بالكسل والتبلد وحب السلطة ! . .

فالرجال البيض تراهم (وقوفاً) في أوضاع تنبض حيوية وحركة ، أما العربي في زيه التقليدي فهو الثري المسترخي في مقعده الذي يرمز إلى صحارى عجزه . . يدفع ولا يصنع ، ولا يشارك في الخلق والانتاج . .

أولئك العلماء العرب الذين يكدحون ويثرون الحضارة بعطائهم لا أثر لهم في الصور الاعلانية إياها . . ولا أثر لزنجي أو لعامل تقني عربي ، أو لامرأة عالمة .

والصورة الشائعة للعربي في الاعلانات العالمية هي صورة المستهلك الأكبر في الفنادق الفخمة . . وصالونات القمار . . وصالات البذخ والمجوهرات ، مقترناً بالثراء والغباء والعطاء الأحمق ! . .

* * *

هذه الصورة التي تقدمها معظم الاعلانات العالمية للرجل العربي، تساهم في ترسيخ تلك الصورة البشعة التي تكاد تدمغنا عند شعوب العالم الأخرى . فالعربي إما (غني ومهذار) أو (فقير وارهابي) !! . . اما العربي العالم والعربي المخترع صانع الحضارة والعربي التقني فملغى عن معظم خارطة الاعلانات ، كالزنجي ، والمرأة ! . . الرجل الزنجي تم الغاؤه تقريباً من الاعلان الا في دور (الكومبارس) ومن باب رفع العتب عن (الرجل الأبيض) . كل أولئك الرجال الزنوج الذين يقطرون مهابة وجمالاً مضيء السواد ويشكلون قوة انتاجية لا يستهان بها في أمريكا والغرب والعالم قلما نرى وجوههم في (الاعلان الأبيض) . . انك ترى هذه الاعلانات كلها عن التبغ وسجائر (ذوي الرجولة) و (ذوي المرح) ، ولا ترى اعلانا منها يمثل زنجياً واحداً حتى لتتساءل : ترى الا يدخن الزنوج ؟ أم كتب عليهم العذاب فقط في « طريق التبغ » ؟ ألا يركبون

الطائرات ؟ الا يأكلون ؟ الا يشترون الأثاث والثياب وينجبون الأطفال ؟

هل يتوهم المعلن انه يبعدهم لأسباب جمالية ؟ من قال ان الرجل الأبيض اكثر وسامة ؟ ما المقياس ؟ ولماذا لا نراهم الا في دور (الكومبارس) وسط جمع حاشد، أما ان يقتصر الاعلان على وجوههم المحببة . . فلا . . ؟ لماذا تتحاشى الاعلانات الهرمة التقليدية العين وجوههم الجميلة المعتقة بالشمس والألم والطيبة ، والنظرة الطفولية ، والبعيدة الأغوار والأعماق في آن . . ؟ متى ينضج كوكبنا الأحمق المسكين ؟ . .

* * *

وإذا كانت معظم الاعلانات الغربية تضطهد الزنجي بالتجاهل والعربي بتشويه حقيقته ، فان المرأة هي « المضطهد الأول » في الاعلان . . المرأة في المطلق ، المرأة على وجه هذا الكوكب !

فامرأة الاعلان تقدم لنا غالباً كدمية جميلة مبتذلة وغبية ، حتى لنتساءل : أيهما للبيع ، السلعة ، ام المرأة نصف العارية التي تروج لها ؟

امرأة الاعلان تبدو غالباً سلعة استهلاكية فاخرة كمعظم السلع الأخرى . انها مقترنة ببيع الأشياء كما لو كانت (على البيعة) ومكافأة اضافية لمن يشتري . .

فاذا تعطر رجل بعطر (معين) طاردته ، واذا ارتدى قميصا معينا مزقته له طربا ، واذا دخن سيجارة (الصورة) فهي (سيجارته) الاضافية ، واذا ركب سيارة (المعلن) فهي سبيته ، واذا ارتدى حذاء (الاعلان) فهي الراكعة عند اقدامه . .

* * *

هذا النمط من الاعلانات المهينة للمرأة يتزايد للأسف مع الزمن ، بدلاً من ان يتقلص امام موجة الوعي النسائي من جهة ، وتحول المرأة العاملة الى قوة شرائية لا يستهان بها من جهة اخرى . وهي بالتالي تستطيع مقاطعة كل سلعة تحقرها في اعلانها وتهين انسانيتها وتبتذل انوثتها ، أي تستطيع ان تشكل قوة مادية رادعة للمعلن المصر على صورة « المرأة الدمية » والرجل الأبيض الـ « سوبر مان » .

ولعل اكثر هذه الاعلانات بشاعة ، هو ذلك الاعلان الجديد عن شراب (صاعد النجم) ، ويتضمن تلخيصاً لظاهرة تحقير المرأة في الاعلان و « تشييئها » .

الاعلان مؤلف من ثلاث صور مستقلة متساوية حجمًا تمثل على التوالي : سيارة فخمة . امرأة جميلة . بركة سباحة . والى جانب كل من هذه (الأشياء) كتبت عبارة « ملكه » او « خاصته » بخط كبير جداً .

وقد أضيفت الى هذه (السلع) المخصصة لمتعة الرجل صورة رابعة كبيرة لزجاجة الشراب المذكور ، مع العبارة اياها « ملكه » .

والمرأة ، الكائن الحي الذي لم يصنعه البشر ، يقدمها هذا الاعلان (كأداة) او سلعة يقتنيها الرجل أسوة بما تبقى من (الكماليات) المعلن عنها : السيارة . بركة السباحة . الشراب (والسيارة تأتي في الاعلان المذكور قبل المرأة !) .

* * *

متى يعاقب « المضطَهَدون الثلاثة » هذا النمط من التسويق برفض شراء السلعة ؟ متى يتخذ « المعذبون في الاعلان » موقفاً من الذين يستخفون بهم ، ثم يقبضون نقودهم ؟

والمرأة ، بوصفها الهدف الاعلاني (الأكثر تحقيراً) ومبيعاً ، ـ عن حسن نية او عن سوء نية ـ متى تتحد كلمتها وتتخذ موقفاً صارماً من كل اعلان يستغل انوثتها على حساب انسانيتها ؟

بل ومتى يقاطع هذه السلع ذات التسويق (المذل) رفيقها الرجل الواعي ، الذي تهان انسانيته ضمناً حين يتهم الاعلان النساء كلهن من حوله بانهن مجرد سلع : امه . وأخته . وابنته . وحبيبته ؟ . .

* * *

هل انتهينا من حديث الاعلانات ؟ لا . بل ابتدأنا الآن . .

الآن (انبش) لكم جرحاً صغيراً تسببه بعض الاعلانات الغربية لنا ، كعرب بوجه عام .

وإذا كنا نتوجع حقاً من بعض الاعلانات التجارية ، التي تتضمن إهانة لانسانية المرأة والزنجي والرجل العربي ، فإننا نحار قليلاً امام الاعلانات التي تتخذ من (تراثنا) ذريعة لاستدراج (ثرائنا) : هل نضحك ساخرين أم نغضب ؟

ما اعظم حماس الغرب للتراث العربي والاسلامي ، وبصورة خاصة بعد أن تصادف وجود النفط في أرضنا العربية !

* * *

هذا ليس اتهاماً لكل متحمس أصيل لنا . ولكنه اتهام لبعض المتحمسين حماساً (ذهبياً) للعروبة وللاسلام .

اولئك نجدهم في أماكن كثيرة محترمة . . في الجامعات . . في السفارات . . في الندوات والمؤتمرات . . و . . . و . . وانا لست هنا في صدد الحديث عن بعض المستشرقين

الذين يرون تراثنا عبر فوهة بئر بترولية . . فهذا حديث لن يكون نادراً منذ الآن فصاعداً ، بعد أن تنبه الجيل الجديد من الطلبة العرب لهذا الواقع المؤسف .

وثمة أطروحات جامعية تعد الآن حول الوجه المظلم (للاستشراق) وبعض نجومه (الامبرياليين) الذين ضللوا الرأي العام زمناً ولقوا التكريم والتبجيل عندنا لأن أحداً لم يقرأ اعمالهم وسيرهم قراءة واعية بعين جديدة ، صارمة المقاييس ، عروبية الرؤ ى ، عصرية المفاهيم .

أجل ! لن أحدثكم اليوم عن (الاستشراق السياسي) وإنما عن (الاستشراق المالي) .

أحدثكم عن فئة افرادها لا يسطرون الكتب ، ولا يرتدون مسوح العلماء ، وإنما يعلنون عن حبهم (الذهبي) لنا ، شرط أن ندفع لهم الثمن المحدد عداً ونقداً . وهم فئة طريفة ، نقف امامها على الحد الفاصل بين الغضب والضحك .

* * *

على حافة الضحك وقفنا ذات يوم ، وكنا نطالع اعلانات تجارية غربية صدرت ـ على حد قولها ـ بمناسبة حلول القرن الرابع عشر الهجري ، وهي تبلغ المسلمين (اهتمام) بعض الشركات الأوروبية بهذه المناسبة إهتماماً (ماسياً وذهبياً) خاصاً . . بل ان اعجاب هذه الشركات الغربية بفرائض الصلاة عندنا وفروض الزكاة وتاريخ نبينا مع المشركين ، والهجرة ، والعودة المنتصرة ، هذا الاعجاب دفع بها إلى محاولة مشاركة العرب في اعيادهم . . وثرائهم !

وهكذا تم صك ميداليات خاصة في إحدى العواصم الأوروبية ، مصنوعة من الذهب الخالص والماس ، وأعلن في الصحف والمجلات العالمية عن عرضها للبيع بأسعار خيالية تليق بالمناسبة الكبيرة ، وتتناسب واعجاب الشركة بـ (قوتنا الشرائية) . . ويا له من اعجاب باهظ الثمن، ولعله دفع يومئذ بالمسلم الفقير او المتوسط الحال الى استقبال القرن الهجري الجديد ببعض الغصة : ماذا لو ذهب المال العربي في مناسبات كهذه إلى درب عادلة ، كتحسين أحوال تلامذة الفقه الفقراء مثلاً ، بدلاً من ذهابه الى جيوب الغرباء ثمناً لميداليات تحيط بأعناق الاغنياء ، وربما تخنقهم اثناء نومهم ، لأن الدين الذي يفترض انهم يحتفلون باحدى مناسباته يحرم البذخ المهذار ؟

* * *

يبدو ان الصفقة كانت يومئذ رابحة . .

واليوم يبدي الغرب التجاري إهتماماً فائقاً بتاريخ العلوم عند العرب ، وها هو يصنع نماذج للآلات العربية القديمة في الفلك والرياضيات ، ولكن من الذهب ، وخصيصاً لبيعها للعرب !

والثمن يفوق الالف استرليني ، والكمية محدودة (!) فاحجز الآن وليس غداً كي تكون عربياً صالحاً وفياً للتراث ، وارسل نقودك إلى العاصمة الأوروبية التي تضم المعجبين بتراثك . واذا فاتك الحظ في الحصول على تلك الآلة ، الدرة في عالم الرياضيات سابقاً (الدرة في عالم التجارة الآن) ، فسوف يعيدون إليك نقودك بعد ١٢ اسبوعاً ـ أي بعد ثلاثة أشهر ـ والاعلان لا يذكر شيئاً عن الفائدة المصرفية للمبلغ خلال هذه الفترة ، وهل ستعاد إليك بكل امانة ، ام ستذهب إلى جيوبهم بكل هدوء وسلامة . .

الأمثلة على محاولة استغلال التراث العربي لاستدراج الثراء العربي لا تحصى .

وسذاجة بعضها تدفع بنا الى حافة الضحك المرير . . تراهم يعتقدون اننا حمقى الى هذا المدى ، ام اننا حقاً حمقى الى هذا المدى ؟

* * *

بعد استعراض هذا الجانب (الأسيان) للاعلان ، وكل ما يحرك الاشجان . . وبعد الاعلان عن غضبنا ضد الاعلان (الذي يمتهن المرأة ويذل الزنجي ويحتقر العربي ويغازل تراثنا كاذباً) ، لا نستطيع ان نغادر حقله دون وقفة ضاحكة مع بعضه الذي يجرنا إلى لحظة مرح ودي يبلغ حدود القهقهة . .

ثمة اعلانات لا تخلو من طرافة حقيقية تدفع بالمرء إلى الضحك نصف الخبيث . . ويحدث ذلك حينما يلعب الاعلان التجاري دور « الاعلان المضاد » لنفسه ، ويتحول إلى اعلان ضد السلعة التي يفترض انه يسوقها ، ويصير نصيحة ضمنية مبطنة ضد شراء البضاعة المعلن عنها !

افضل مثال على ذلك نجده في معظم الاعلانات التي تروج لتدخين السجائر ، وتستخدم لذلك صوراً طبيعية بديعة (لفتح شهية) المدخن !

إنك تحدق في تلك اللوحات الطبيعية المتقنة التصوير والطباعة والاخراج . . بل انك تخطو داخل تلك الصورة (مهملاً وجه نجم الاعلان المدخن) ، وتتجول وسط تلك الاجمات الباهرة الخضرة ، وتنصت إلى خرير المياه وصهيل الخيول ، وتهب عليك رياح البراري المنعشة ، فتتذكر العافية والهواء الطلق والاسترخاء والفرح البريء ، وتهب من قلبك رياح الصفاء والنقاء والبراءة والسلام . . رياح زمن ما قبل (التدخين) اللعين

والسعال الصباحي الحاد ، وتجد نفسك مدفوعاً الى اطفاء اللفافة التي كنت تدخنها ، وتكاد تقرر الاقـلاع عن التدخين ، وتستعيد شهيتك لتنفس الهواء النقي ، والفضل كله يعود الى اعلان يروج لسيجارة ، محاولاً اقناعك بتدخين سيجارة معينة ، فتخرج منه مقتنعاً بضرورة هجر السجائر كلها !!

* * *

بعض الاعلانات التجارية عن الادوات المطبخية يثير الضحك حقاً . . نساء في ثياب السهرة والشعر مصفف والاظافر ندية الطلاء ، والمفترض ان الفضل يعود إلى مسحوق معين للتنظيف أو آلة (مطبخية) معينة . . وكل سيدة (كابدت) المطبخ لا تملك إلا الانفجار ضحكاً امام صورة تلك الفتاة التي تزور المكان لأول مرة كسائح قادم من صالونات التجميل ، وغرف (السونا) .

هذا النمط من الاعلانات يضحك المرأة ويضلل الرجل . إذ قد يتوهم ان زوجته وحدها تفسد أظافرها بالتنظيف وشعرها ببخار الأكل ، بل ويكاد يعاتبها لأنها لا ترتدي ثوب زفافها اثناء اداء واجباتها المنزلية !

بعض الاعلانات الخاصة بشركات الطيران تتجاهل الحاجات الاساسية لراكبها حتى الطرافة .

فأغلبها يحاول اقناعنا ركوب طائرة دون اخرى ، لأسباب هي آخر ما يفكر به المسافر عادة .

يغرونه مثلاً بالطعام الشهي ، وابتسامات المضيفات ، والصحف المتوافرة ، والمقاعد المريحة ، ومساند الاقدام . . ومنتهى الرعاية الذي سيلقاه داخل (مقصورة الطائرة) . . ولكن قلما يحدثه أحد عن العناية التي (تعنيه) حقاً . . اي العناية داخل (مقصورة الكابتن) !

ان معظم شركات الطيران تنسى ان الهم الاساسي للراكب هو عدم سقوط الطائرة ، حيث لا تجدي ابتسامات المضيفات ورعايتهن . . ثم ان (صينية) الطعام الشهية لن تتحول إلى مظلة تنفتح به ويقفز بها لحظة تتطاير المقاعد المريحة والصحف ومساند الاقدام . . وهكذا فإن قارىء هذه الاعلانات يتمنى لو يجد فيها تنويهاً بمدى سلامة الطائرة ، او حقائق عن صيانتها ، أو إحصائية بالارقام تبين نسبة سقوطها كأن تكون (الأقل سقوطاً في العالم) لا الأكثر لطفاً وطهواً وبشاشة .

وصحيح ان الاعمار بيد الله ، ولكن المقود بيد (الكابتن) ، ولعل أي « زير

نساء » عالمي يفضل أن يعرف شيئاً عن كابتن الطائرة ومعاونيه بدلاً من المعلومات عن جمال المضيفات وابتساماتهن التي نعرف جميعاً أنها تتسع لركاب الدرجة الأولى وتتقلص في الدرجة السياحية !

* * *

لعل أطرف الأمثلة عن الاعلان الجميل الذي ينطوي على (اعلان مضاد) لذاته ، هو ذلك الشهير الذي يروج لبعض المجوهرات .

ها هي مجموعة من الاشياء الذهبية الثمينة تتوسطها وردة حمراء ، والصورة ملتقطة باتقان مذهل . . إنك تكاد تشم عبير الوردة . . وتحس على أصابعك ملمسها المخملي الحي ، وتنعش مسامك قطرات الندى عليها ، القادمة من نضارة الحقول والصباحات الشفافة .

هذه الصورة توقظ في النفس رومانسيتها الغابرة ، ويحس المرء امامها ـ اذا لم يكن ميتاً ـ بأن العاطفة الحية أثمن من الذهب حقاً ! . . أي ان الاعلان يبعده بمهارة عن السلعة التي يحاول ترغيبه بها ، إذ يقذف به في مناخ نفساني يستخف بالذهب . وبدلاً من شراء السلعة او اشتهائها ، أو التحريض على شرائها ، يجد المرء نفسه وهو يدمدم مغنياً : « الوردة هي ما يهم » !!

ان الصورة البديعة لهذا الاعلان ، تخرج بالمرء الضال في غياهب شهوة الثروة عن (جادة الذهب) ، وتعيده مواطناً صالحاً في مملكة الوردة !!

ويخسر المعلن زبوناً ممكناً للذهب ، بسبب إعلانه البديع غير المقصود ، عن العودة إلى الوردة !

١٩٨١/١١/٣٠

هدية ميلاد اسمها « الغربة »

ثمة أحزان لا يستطيع القلب أن يألفها . لا تستطيع الروح أن تدمنها ، أو تتعايش وإياها .

وقعها على النفس يظل جديداً وموجعاً ومفاجئاً ، كوقع باب سيارة أغلق خطأ على اصبعك .

قد توظفها قناعاً للسخرية ، أو الاستخفاف الكاذب ، أو اللامبالاة المتعالية . . . لكنك لا تملك أمامها في قاع قلبك غير الحزن ـ للوهلة الأولى على الأقل .

حزن مغسول بمطر القهر ، يبدأ مريراً ، ثم يتحوّل إلى غضب شرس ، وقح المصارحة .

* * *

لا تحبون الألغاز والتورية ؟ (وأنا أيضاً !) . . ها نحن نغادر لغة الضباب ، ندخل برية الأمثلة المحسوسة . إليكم هذه الحكاية التي نقلتها وكالة (وفا) الفلسطينية ، تحت عنوان « اسرائيل تبعد طفلاً فلسطينياً عمره أربع سنوات » نعم . طفل عمره أربع سنوات أبعدته السلطات العسكرية . ماذا فعل هذا المشاغب ؟ هل حاول اغتيال مديرة (مدرسة الحضانة) ، وضربها بزجاجة حليبه مثلاً ؟

لا . لم يفعل شيئاً . ذنبه الوحيد أنه ولد فلسطينياً عربياً ، إذ يقول الخبر أن السلطات العسكرية الاسرائيلية أبعدته عن الضفة الغربية المحتلة ، بعد أن كان والده قد أرسله إليها ـ أثر وفاة أمه ـ ليعيش في كنف جدته التي ما تزال تقطن بيتهم في الأراضي المحتلة .

نعم . الطفل « بدوي داوود الكالوني » وعمره أربع سنوات من ضاحية شعفاط شمالي القدس ، يشكل خطراً على أمن اسرائيل ، وقد أبعدته سلطات الاحتلال ، كما سبق لها أن أبعدت والده ووالدته من الضفة الغربية عام ١٩٧٢ .

* * *

غادر الطفل الفلسطيني بدوي الكالوني بيت جده في الأرض المحتلة وهو يهتف بحياة كامب ديفيد ، و(المرحوم) السادات ، وأمثاله من ورثة معجزة السلام (الاستسلامي) . وحاول أن يذهب لوداع (بابا بيغن) الذي يغمر الأطفال العرب بهداياه ، أكثر مما يغمر بها (بابا نويل) أولاد أوناسيس والخاشقجي وروتشيلد ، فلم يسمحوا له بذلك ، بالرغم من أن (بابا بيغن) نفحه بهدية لا تنسى اسمها : الغربة .

وحين بكت جدته عند الحدود ، اكتشف الطفل فجأة أنه تعلم الكلام جيداً ، وهمس في أذنها : سأعود . أقسم لك بذلك . وضمها الى صدره ، فوجئت بأن أطرافه الدقيقة الشفافة تحولت إلى ساعدين لشاب قوي ، وحين ابتسم لها مودعاً دهشت ، إذ رأت أنيابه قد نمت ، وامتلأ فمه بالأسنان كرجل ناضج . . . وقدرت أن بصرها قد شح وأنها ترى أوهاماً .

* * *

لم تكن الجدة ترى وهماً .

الطفل بدوي الكالوني لم يكن يكذب حين قال لها أنه سيعود . فهو يعرف درب العودة جيداً .

كان قد طرد مرات عديدة من قبل ، وكانت له يومئذ أجساد أخرى وأسماء أخرى ، وكان دوماً يعود . .

في الليلة نفسها عاد الطفل المرمي في البحر إلى وطنه .

عاد بالوسيلة الوحيدة المتبقية له ، فاسرائيل لم تترك له خياراً . اقتلعته من بيت جده ، وملأت فمه بالدمع والتشرد بدلاً من (البونبون) والشوكولاة ، وأغلقت الحدود في وجهه . كهربت الشواطىء أمام أصابعه النحيلة كعيدان الكبريت . لغمت الأشجار . مزجت التراب بالعبوات الناسفة تحت قدميه الصغيرتين .

ولكنه عاد . جاءها في جسد شاب له اسم آخر . . جاءها راكباً طائرة شراعية . وقد ألقي القبض عليه وحكمت عليه المحكمة الاسرائيلية المركزية في حيفا بالسجن لمدة سبعة أعوام بتهمة « الفدائي الطائر » ، فقد كانت تريده أن يظل هائماً على وجهه مثل (الهولندي الطائر) . .

* * *

وهم في اسرائيل لا يعرفون هذه (التفاصيل الصغيرة) ، كما انهم لا يعرفون ان « الفدائي الطائر » ليس مسجوناً حقاً ، ويقال انه يركض كل فجر على شاطىء حيفا

حصاناً عربياً جميلاً، يطارده جنود اسرائيل عبثاً في محاولة لترويضه وتطويعه، ويرمون على عنقه حبال « كامب ديفيد » ، فيقطعها ، ويتابع ركضه وهو يصهل بصوت يشبه الريح .

* * *

هذه الحكايات (الخرافية) المشبعة بأحداث التقمص وتداخل الأزمنة لا نستطيع أن نثبتها للعالم (المتمدن) ، المتعطش الى سلام استسلامي يريحه من شغب (المتمردين) ، الذين يزلزلون الأرض ، ويهددون الكراسي والقصور بالسقوط كأوراق (ورق اللعب) بكل ما يضم من بنات وملوك وعجائز (ديناري) .

ولكننا نستطيع أن نثبت للعالم (المتمدن) حقيقة واحدة : وهي أن اسرائيل هي التي تقذف بأطفالنا الى البحر ، كما تحاول أن تقذف بنا الى البحر اذا سنحت لها الفرصة ، ثم تذهب وتبكي وتنوح للعالم (المتمدن) وتتهمنا نحن بذلك . وانها مسورة بحقدها ، وبعقدة العظمة لديها الممزوجة بالخوف من ظلها عند الغروب ، ومن ابن اربع سنوات في ضوء الشمس !

* * *

إنها تنسف بيته . تمنعه من الصلاة في المسجد الأقصى . تسجن شقيقه بتهمة إظهار تأييد علني لـ « نشاطات تخريبية » ، وتغلق جامعة شقيقه الآخر . تزج بأهله في سجون التعذيب ، وتحاول إبادة بني قومه بتطبيق (قوانين) لا تطبق إلا على سكان فلسطين الأصليين خصيصاً لابادتهم . إنها تدمر منزل عمه بتهمة الاشتباه في أن ابن جاره يتعامل مع الفدائيين !

إنها تتصرف بغطرسة عدوانية ، وتبذل كل ما بوسعها للاعلان عن عدائها لكل ما هو عربي ، ولكن (عرب كامب ديفيد) يرفضون التصديق ، ويعتبرون ذلك كله من قبيل المزاح العملي (براكتيكل جوكس) ، والمكائد الودية ، و (ضـرب الحبيب زبيب) . . ويشربون بعدها من نبع « كامب ديفيد » برداً وسلاماً كما لو كان ماء « زمزم » .

* * *

طفل عمره أربع سنوات ، يحاكم بتهمة (الخطيئة الأصلية) وهي : « انه ولد فلسطينياً عربياً » وينفذ الحكم به !

وتقرأ الخبر وانت تسمع في إحدى الاذاعات الأجنبية تسميات مضحكة مثل

(العربي المعتدل) و (العربي الراديكالي) و(العربي المتطرف) وتشعر بأن ثمة « عربي » أو « لا عربي » فقط لا غير . أمام إذلال كهذا ، ثمة « صمود » أو « تخاذل » فقط لا غير .

وتشعر أيضاً بأن هذه اللغة الفضفاضة المائعة ، مطلوب منها أن تقودنا إلى متاهة (الاجتهادات) ، بينما تقودنا اسرائيل الى اليقين ، فهي تمارس (النازية الجديدة) بوضوح مطلق ، وعدوانية مفرطة لا مجال للحيرة أمامها ، وتؤكد لنا في كل لحظة ان كل فلسطيني عربي مدان سلفاً منذ لحظة ولادته بتهمة « أنه موجود » ، وكل عربي أيضاً مدان سلفاً بتهمة عدم الخضوع لها ، وتقيم الدليل العملي على ذلك باحتلال الأراضي العربية ، وضرب المفاعل الذري العراقي ، وضرب جنوب لبنان ، والتهديد بضرب الصواريخ السورية في البقاع . . ويظل هناك من يرفض أن يصدق !!

ويقال أن اللبيب من (الاشارة) يفهم ، والبعض لا يريد أن يفهم من (القنبلة) والمدفع والرشاشات والطائرات وهدم المساجد وذبح الأطفال .

الغرباء صدقوا . المستشار النمساوي برونو كرايسكي يقول لنا : « ان في اسرائيل غطرسة امبريالية تعميها » . .

فهل يصدقون الغريب ما داموا لا يصدقون القريب ؟

* * *

لقد قضت اسرائيل عمرها وهي تبتز العالم بأننا نريد (أن نقذف بها إلى البحر) ، بينما كانت طوال الوقت تمارس ذلك ، وتقذف بأطفال العرب إلى البحر والمخيمات والنار والتشرد والمذابح والسجون والقهر . .

وها هي تقذف بابن السنوات الأربع الطفل إلى (صحراء التيه) ، واذا حاول المسكين العودة الى وطنه بعد سنوات ، فستسميه « إرهابياً » وتقتله أو تسجنه ، وهي بأكملها سجينة غطرستها وبالتالي سجينتنا ، واسرائيل سجن كبير يحيط به من الجهات السبع ١٧٠ مليون غاضب ومجروح هم قضبان ذلك السجن . .

واسرائيل تنسى أن الشعب العربي ، المقموع في بعض الأقطار داخل قمقم « كامب ديفيد » بات كاللغم الموقوت . . . وسيخرج ذات يوم مارداً ولوجهه نضارة طفل عمره أربع سنوات . . . وعمر جذوره أكثر من ٤٠٠٠ سنة .

١٩٨١/١٢/٢١

الرشاش أمير الشعراء !
أو* : كتابة (السبعة وذمتها) !

شبان ايطاليون ممددون على الطاولات في غرف العمليات . مخدرون . يحيط بهم الأطباء والممرضون . المقصات والمشارط . الأمصال . أنابيب الأوكسجين . الشاش المعقم .

تتأمل صورهم وتقرأ العنوان : عمليات تجميلية .

تتساءل بحيرة : ولكنهم في ريعان العمر . وجوههم عادية أو وسيمة . ماذا دهى الرجال في هذا الزمن العجيب الغريب ؟

وتقرأ الحكاية التي حملتها وكالة « غاما » مع تحقيقها المصور هذا : «من أجل اقناع الارهابيين بالبوح بما عندهم من معلومات ، قررت الشرطة الايطالية إجراء جراحات لهم بإشراف الدكتور فيشر الاختصاصي في الجراحة التجميلية ، وتتيح الجراحة للارهابي تغيير شكله ، فلا يتعرف عليه رفاقه بعد خروجه من السجن وإفشائه أسرارهم ! » .

* * *

جراحة تبدل ملامح الوجه ، وتتيح للمرء أن يقول ما يشاء ؟؟ . .

وفكرت : ترى هل يلجأ الأديب العربي المقيم في بيروت إلى إجراء جراحة لتبديل ملامح وجهه بعد كل مقالة صدق يكتبها ؟! وبعد كل قصيدة أو رواية يسكب فيهما انفجاره في وجه بشاعة الأشياء (التي يدعمها البعض عبر منطق القوة لا الحق) ، وفي وجه القمع الذي يعانيه كل أعزل (ويشمل ذلك الحرف) ، والحصار الذي يلقاه : حصار النار ، لا حصار الحوار . .

وهل توسع بعض المجلات والصحف قسمها (الفني) ، فتضيف إليه فرعاً خاصاً بتبديل وجوه المحررين وملامحهم بعد (ارتكابهم) فعل كتابة بعض التحقيقات

(*) اترك للقارىء اختيار احد العنوانين ، أو أي عنوان آخر يروق له ! . .

والآراء المفرطة في صدقها ؟

* * *

الرصاصة صارت عندنا في بيروت الناقد الأدبي الأول ، وصار الفنان الأصيل الصادق هو الارهابي الأول في نظر (البعض) . وإذا قلت رأياً لم يعجب حضرة (البعض) ، فإنك ستجد نفسك في (ندوة أدبية) ليلية على رصيف منعزل ، (يناقشك) فيها مسدس نقاشاً (موضوعياً) . .

صارت القنبلة اليدوية مرجعاً فكرياً فذاً ، ومدفع الدوشكا (نهج البلاغة) ، وكاتم الصوت خطيب المنابر ، والرشاش أمير الشعراء . .

ولا أذيع سراً إذا قلت إن المفكر الحر والأديب المبدع يعيشان اليوم في بيروت قمعاً حقيقياً بمعنى ما .

وأنا هنا لا أتحدث عن الكاتب العادي أو الداجن أو المزدهر حياداً و(موضوعية)! . . وإنما أتحدث عن كاتب (الموقف) ،ذلك المبدع الذي كرس نفسه لخدمة الحقيقة والبحث عنها . المبدع الذي يرى الواقع بتناقضاته كلها ، ويرقبه في حالة صيرورته الديناميكية ، لا في حالة سكونية (نيرفانية) سرمدية . المبدع هو الذي تسكنه الرؤى المستقبلية والهواجس التاريخية وفرحة اليقين ، ويقف إلى جانب الحق والعدالة والحرية ، وبالتالي لا يستطيع أن ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً .

فالحق هو « الأخ » الحقيقي والانتماء الأول .

لكن الحقيقة أرملة منبوذة في غير قطر عربي ، وصار على المبدع أن يبدأ مرحلة (العد العكسي) حين تسول له نفسه إبداء وجهة نظر تباين (وجهة نظر) رصاصة المسلح القابع في أحد (الدكاكين) التي تزخر بها بيروت .

* * *

وسائل القمع كثيرة في زمن بيروت (نصف الردىء) ، بكل ما فيه من شهداء وجلادين ، أبرياء وقتلة ، مناضلين وتجار نضال ، أصحاب قضية وأصحاب حوانيت سمسرة للقضية .

وسائل القمع كثيرة ، ألطفها التهديد ، وأرحمها تنفيذ التهديد ، وسعيد من تخترق الرصاصة رأسه وتقتله ، فذلك خير من التخويف المستمر الذي يتحول مع الزمن إلى صوت كابح في داخل ذات المبدع يخوفه من الكتابة بنت (الموقف) ، ويسول له نشدان السلامة في ظل الحياد الميت المقنع بـ (الموضوعية) .

ونحن الآن نردد « رب يوم بكيت منه ، بكيت في يوم عليه » ، ونذكر كم قامت قيامتنا في أوائل السبعينات يوم قدموا للمحاكمة أحد المفكرين العرب وناشره اللبناني بسبب كتاب ، ووجدنا في الأمر اعتداء على (حرية الفكر) من حيث المبدأ .

واليوم نفتش عن القاضي لنلمس رداءه متبركين ، ونشم في عبقه أريج موقف يرضى العقاب فيه بوجود القاضي والمحامي والشهود والرأي العام ، لا الجلاد وحده . .

صار الأدباء اليوم يقتلون أولاً ثم يقدمون إلى المحاكمة . . وصار بعضهم ينتحر سلفاً حين يسكنه صوت كابح يخوفه ، ويشطب له نصف مقالته قبل أن يكتبها ، والنصف الباقي بعد الكتابة !!

* * *

ولا أذيع سراً أيضاً إذا قلت إن خيرة مبدعينا هنا في حال إضراب عن الكتابة ، وبينهم الشاعر الكبير ، ورجل الدين المجدد ، المفكر والاقتصادي والفنان . . والكل يعرف ذلك ، ويشعر بالفراغ المظلم الذي خلفه غياب حروفهم المضيئة .

لقد خرج كل منهم ذات ليلة يأس وقرف ، ليمشي في جنازة ثمانية وعشرين قتيلاً ، هم حروف الأبجدية العربية !

نعم . لم يعد بوسعنا قول (كل) ما نشتهي قوله ونؤمن به . فالحرية أوكسجين الكتابة ، وهي تتناقص يوماً بعد آخر في فضائنا . . ونحن لا نستطيع إجراء جراحة لتبديل ملامح وجوهنا بعد كل كتاب ننشره أو مقالة (نرتكبها) . .

ولا نريد رصاصة تستقر في رؤوسنا الآن ، فالكلمة ليست بحاجة إلى شهداء فقط . إنها أيضاً بحاجة إلى مقاتلين طويلي النفس ، ولأننا لا نريد أن نهاجر ، نحاول أن نتعلم من الأشجار كيفية التعامل مع العاصفة دون أن ننكسر ، ونتعلم من غاليلة كيف نهمس بهدوء (. .ولكن الأرض ما زالت تدور) ريثما نصرخ في مدينة تكاد تسيطر فيها شريعة الغاب الغاشمة .

وأتساءل بحرقة : ترى هل الأديب المقيم في بيروت هو وحده بحاجة إلى إجراء جراحة لتبديل ملامح وجهه بعد كل صرخة حق ، أم ان ذلك ينسحب على وضع الأديب في أقطار عربية أخرى ؟ أنا أتحدث عما أقاسي وأعرف ، فحدثوني أنتم عما تعرفون ـ إذا كان ذلك ممكناً ! ـ .

* * *

كل أسبوع ، هنالك سبعة مواضيع مثلاً يتمنى الأديب كتابة واحد منها ، لكنه غالباً يكتب (الموضوع الثامن) !

والذين قرروا كتابة (السبعة وذمتها) هاجروا ، (لكن بعضهم هاجر ولم يكتب) !

إذن ، لماذا يكتب أحد شيئاً هنا ؟

لأن (المواضيع السبعة) التي لم يكتبها لا تموت . . وإنما تزداد نمواً في تربة القمع ، ورسوخاً في أعماقه . تتحول من نزوة إلى يقين . من مشاكسة إلى قضية . من تساؤ ل إلى جواب . من غضب عابر إلى حقد مقيم . من لحظة قهر إلى دهر إدانة . تلك الخبرات المقموعة كلها ، يرويها الفنان المثابر على الكتابة بغضبه ، ويسقيها مياه الوعي اليومي للقهر ، والخط البياني المتصاعد حتى الطوفان .

* * *

كل أسبوع حين أكتب إليكم ، أشعر انني أحرث أرضي النفسية وأخرج ترابها لشمس الوعي ، وأنكش جراحي القومية بمثابرة . وذلك يحمينا من أن نتخدر ، أو نتبلد ، أو ننسى ، أو نسقط في مشاغل أخرى يومية بديلة .

فالكتابة الأسبوعية استحضار اسبوعي للروح المقاومة ، وللذات الواعية والمقاتلة ، مما يساعدها في حفظ ذاكرتها ولياقتها وشحذ أسلحتها .

الكتابة في الزمن الرديء هي في نظري ضرورة أكثر مما هي كذلك في زمن أقل رداءة !

والافتقار إلى حرية الكلمة ليس مبرراً لدفنها في كفن الهجر أو غبار الصمت ، بل هو مدعاة لاستنفارها كل أسبوع وشحنها بطاقة جديدة من الرفض المكهرب المتصاعد الايقاع .

وبذلك تنضج الكلمة بدلاً من أن تتحنط . وتتابع نموها ولو في باطن الأرض ، بدلاً من أن تتعفن بذورها . . ولعل القمع الناري يستفز المزيد من حروفنا ، فتأتي مختمرة بالزمن ، ناضجة على جمر القهر البطيء المستمر ، وقد تأتي ذات يوم أكثر نمواً واكتمالاً . . فلكل زمن أسلوب قتاله ، والمهم ألا نتوقف عن المحاولة . .

* * *

منذ أسابيع ، وصلتني عريضة كي أشارك في توقيعها ، وهي تتضمن مطالبة باطلاق سراح أحد رفاق القلم ، المعتقل في سجن عربي . . وفي لحظة صدق ، مزقت

العريضة ، وكتبت بدلاً عنها عريضة مضادة ، أطالب فيها باعتقال بقية الأدباء العرب جميعاً بدلاً من إطلاق سراح رفيقنا المناضل .

فما دمنا خارج سجون بعض الأنظمة في زمننا الرديء ، هذا معناه أننا لا نقوم بواجبنا حقاً !!

١٦/ ١١/ ١٩٨١

مقصلة لـ « رأس » السنة . . .

ويأتي العام الجديد على رؤوس أصابعه ، مرتجفاً كلص ، وعلى وجهه قناع يمثل جمجمة . وربما كان القناع المدهون بالابيض هو وجهه الحقيقي . . لم يعد أحد واثقاً من شيء . .

يأتي خائفاً كصبي هارب من المدرسة ، وفي يده كمامة ضد الغازات السامة ، وفي يده الأخرى عريضة وقعها الملايين من سكان الأرض ضد القنابل النيوترونية ، والأسلحة النووية .

يأتي السيد « رأس السنة » مبتلاً بمطر له طعم الدموع ، معمداً بسياط الجلادين وشهقات الابرياء . يمشي في الدروب المعتمة لكوكبنا . وفجأة ، تضاء الأنوار ، ويهجم عليه كالعادة رجال في بزات السموكن ، ونساء مذهبات الشفاه والثياب ، ويرهبونه بالرقص المجنون وزعيق الضحكات المزيفة وحطام كؤوس الشراب . . فيخاف ، وتعتريه دهشة باردة ، وينزوي مغتمًا على الرصيف الثلجي تحت الزينات المسكينة غير الملونة ، فلأغنيات الناس هذه المرة طعم السخرية ، ونبرة المرارة الحاقدة اكثر من اي وقت مضى . . .

* * *

ويحزن السيد « رأس السنة » لهذا اللقاء الهستيري الاسيان . فقد اعتاد ان يلقاه نصف سكان هذا الكوكب بعبارات الأمل والغزل . . لا بمظاهرات الاحتجاج ضد الجـوع المحتمل ، والمـوت (النيوتـروني) ، والارهاب والالم والقمـع والقهر . . و (العصور الوسطى) لعصر الفضاء . .

لقد هرب من المظاهرة الى الكرنفال . . ولكن . . ما الفرق ؟

ها هم يتابعون رقصهم الاحتفالي السوداوي العابث ، ويدوسونه تحت اقدامهم في غمرة اهتمامهم (اللامعقول) بتكريمه . . .

وها هم يجرون السيد « رأس السنة » من رأسه الى المقصلة . . . وينشدون :

قررنا ان نقطع رأسك يا « رأس السنة » قبل ان تقطع نسلنا على هذا الكوكب !

* * *

وهل اقول لكم يا احبائي القراء « كل عام وانتم بخير » ؟ أم اقول لكم كما اهمس لنفسي : كل موت ونحن بخير؟ وهل يعني لكم العام الجديد شيئاً حقاً ؟

ام انكم تجدونه مجرد يوم آخر ، لا يميزه عن سواه غير الضجيج والطقوس المفتعلة ؟

تُراكم ترددون مع السير والتر سكوت : « عام يمضي . . عام يبدأ . . هذا لا يحدث فقط ليلة ٣١ ديسمبر ، ولكنه يحدث كل يوم ، فكل يوم في السنة هو خاتمة للشهور الـ ١٢ المنصرمة » ؟

وهل تنسحبون ليلة وصول السيد « رأس السنة » من الهستيريا الجماعية التقليدية ، الى كهوف القلب الداخلية ، واوكار الذاكرة ؟

* * *

« كل عام وانتم بخير » . . « كل موت وانتم بخير » . . فأياً كانت ميولنا الفردية ، واختياراتنا الذاتية ، ثمة حقيقة جماعية تفرض نفسها : « المناخ العام » . يجد الانسان في ليلة « رأس السنة » مناسبة لمراجعة فواتير العام الماضي . وهو امر ليس رديئاً . « واذا كنت تريد للحاضر ان يكون مختلفاً عن الماضي ، ادرس الماضي - سبينوزا » . وهذا ما تفعله معظم المجلات والصحف ووسائل الاعلام التي تزودنا بـ (روزنامة) لما كان . .

ولكن فتح (الدفاتر العتيقة) ليس امراً مبهجاً على الاغلب فهو يحمل في طياته وعياً غامضاً بالموت على انواعه : الموت السريع للاشياء الجميلة . . . . كالفرح والحب والصداقة والاحلام وبقية (ورود) الحياة السريعة العطب والانكسار . .

وربما لذلك ، يهرب الناس الى تخدير الموسيقى وابتلاع ماء النار والرقص المجنون بلمسته الاحتجاجية ، ونبرته الرافضة كنبرة بدائي يقرع طبوله لأن الحوت ابتلع الشمس او القمر ، وهو يفضل اللجوء الى طبول الغابة والقبيلة ، لأن تعابير مراوغة مثل (خسوف ، كسوف) لم تعد تطمئنه . . وما جدوى تفسير المظاهر ما دام لا يملك لها ولأمره شيئاً ؟

* * *

كل موت وانتم بخير يا احبائي في بيروت . . . فنحن منذ سبعة اعوام لم نبدأ عاماً جديداً .

لقد دخلنا في « عام العنف » منذ سبع دورات للارض حول الشمس ، ومن يومها لم نغادره ، ولم يغادرنا ! ونحن منذ ٨٤ شهراً نعيش عاماً واحداً طويلاً ، لا تشرق شمسه الا على برادات الجثث ، ولا يطلع قمره الا على هول الاغتيال ، وتنهدات الفراق ، وبكاء الاطفال والثكالى والصرخات القادمة من اقبية التعذيب ... وحتى بيوتنا صاوت اقبية تعذيب نفساني من نوع خاص . .

نحن في بيروت نعيش عاماً طويلاً منذ ٨٤ شهراً : عام العنف . عام الشهقة وكلما قالوا لنا انها شهقة الاحتضار نرفض ، ونزداد اصراراً على انها شهقة الولادة ، ونزداد ركضاً داخل البوصلة العربية لندفع بابرتها صوب جهة الايجابيات ، بعيداً عن انواء السلبيات . . . ولكن . . .

* * *

. . كل موت وانتم بخير يا احبائي في بيروت . . فنحن منذ ٨٤ شهراً نموت ميتات يومية صغيرة متكررة على حبال الكهرباء المقددة . وداخل صنابير المياه الجافة وعلى اعتاب قصور المحتكرين وتجار السلاح وسماسرة (الوطن) ومصرع الاحباء ومقتل الابرياء .

ونموت ميتات كبيرة في براري انكسار المد القومي العروبي ، وتحت الاعلام نصف المحروقة لاحلام الثورة التي تكاد تتحول عندنا الى كوابيس ، و (بعض) العرب لا يبالي بموانىء الرغبة في التبديل ، التي تكاد تطيح بزوارقها موجة المجازر والاغتيالات .

* * *

يأتي السيد « رأس السنة » على رؤوس اصابعه في كل مكان . . .

يأتي وله وجه متظاهر ضد الحروب الصغيرة والكبيرة ، المحدودة واللامتناهية ، يأتي ضد التعبئة الذرية ، والصواريخ النووية الاميركية (المخزونة) في اوروبا كجزء من الاستعداد لحرب (هيروشيمية) لا تبقي ولا تذر . . . ويأتي ضد موت اصغر طفل في بيروت . . .

ويهرب السيد « رأس السنة » برأسه من مقصلة الكرنفال ، ويمضي الى الشارع ليمشي مع مليوني متظاهر مذعور . . .

يتأملهم : زوجات . عمال . موظفون . اكاديميون . بشر من الاعمار كلها . . والانماط .

يقرأ اللافتات التي يحملونها : « لسنا فئران اختبار لاميركا » « اطفال اليوم قتلى الغد » «ريغان قنبلتك النيوترونية لن تكون تابوتنا » « انا خائف » . « لا نريد ان نحارب حرب ريغان » .

ويختار السيد « رأس السنة » من بينها لافتة « انا خائف » لبساطتها وشموليتها ، ويركض بها في الشوارع معهم تحت المطر . . في شوارع اسكندنافيا وبلجيكا وانكلترا وايطاليا وفرنسا . . . ثم يتابع عدوه الى بيروت حيث ينام متوسداً لافتته . . . « أنا خائف » ، وكلنا نرددها معه في بيوتنا لاننا لا نجرؤ على الخروج اليه في الشارع خوفاً من . . « القناص » .

* * *

مع الفجر ، يجلس « رأس السنة » على الرصيف وقد وضع « رأسه » بين يديه ، ويقرأ الوجهين لعملة الخوف في احصائية غير ممتعة : يملك الاتحاد السوفياتي (٧٠٠٠ رأس نووي) ، وتملك أميركا (٩٠٠٠ رأس نووي) ويطير رأس ، « رأس السنة » !

تملك روسيا ١٣٧٨ صاروخاً عابراً للقارات و ٩٥٠ صاروخاً بحرياً قاذفاً . تملك اميركا ١٠٤٥ صاروخاً مماثلاً و(٦٠٠ صاروخ بحري قاذف) !

وتملك روسيا ١٥٦ مقاتلة عبر القارات وتملك اميركا ٣٤٨ مقاتلة مشابهة . . ولا يملك رأس السنة للبشر غير الخوف وبعض السخرية : حينما تنشب الحرب ستكون مهرجاناً فذاً للالعاب النارية ، لم يشهده عام من قبل !!

* * *

نحن في بيروت مشغولون بميتاتنا اليومية المختلفة ، ولكن ، حين نخلو الى انفسنا بين موت وآخر ، نشارك العالم كله مخاوفه النووية وقلقه . . وندرك اننا كذلك الرجل المحاصر فوق غصن شجرة وتحته ماء ، وعلى الغصن افعى ، وفي الماء تمساح . . ونضيف الى الحكاية المشهورة بطلاً جديداً هو ذلك (المجهول) الذي اضرم النار بالشجرة . . ولغم حقول المياه !

يأتي « رأس السنة » دامي الرأس ، فيلتفت الناس صوب الماضي ما دام الحاضر هو ابن الماضي ، وتهتم وسائل الاعلام بشجرة عائلة المستقبل (وداخل يومنا هذا يمشي الغد ـ كولريدج) ، وتتحدث عن الأيام الآتية وماضيها ، وما اكثر الدراسات عن سنة

٢٠٠٠ ، والتصورات لمستقبل الانسانية . والمهزلة ان هذا النمط من الدراسات يتزايد مع ازدياد مخاوفنا من الا يكون للانسانية اي مستقبل على الاطلاق !

* * *

ماذا تبقى لنا وسط هذا الحضور المدجج بالميتات المختلفة ؟

وماذا نفعل حين يقول لنا احدهم مداعباً « كل موت وانتم بخير » ، وتبدو التحية لنا منطقية ؟

ماذا سوى ان ننفجر ضاحكين في تفاؤ ل عابث طفولي العناد ، ونقرر ببساطة : ونحن ايضاً سوف (نتمادى) ، ونطمح بما هو افضل مما تسمح به التوقعات المنطقية !

ومبارك رأس السنة الجديدة الذي يكاد يضيع رأسه على مقصلة مخاوفنا . . . ومبارك موتنا الآتي . . .

١٩٨١/١٢/٢٨

الجنرال خطف نفسه

خطفوا الجنرال . قتلوا الجنرال . أعادوا الجنرال ! حاكموه . اعدموه . لم ينفذوا الحكم . وجدت جثته في البحيرة . عاد حياً الى اسرته .

هذه كلها احتمالات قد يقع احدها للجنرال الاميركي المخطوف جيمس دوزيير ، المجهول المصير حتى لحظة كتابة هذه السطور .

وأنا لا احاول ان أتكهن بما قد يحدث للجنرال ، لكنني لا أملك الا التأمل في حادثة الخطف السياسي عبر حكايته .

فالذي يحدث عادة في هذا النمط من القصص ، هو أن الانسان يختطف نفسه ، ثم يروح الجميع باحثين عن المتهم ، متناسين دور (الضحية) !

الاختطاف السياسي كما أراه هو نوع من الخطف الذاتي ، حيث المخطوف شريك للخاطف ، فهو الذي يلعب طوال سنوات دور المحرض ، وهو الذي يلهم خاطفه تنفيذ الفكرة ، وهو بما تقدم من أعماله ، يصدر على نفسه حكم الاعدام .

* * *

الجنرال دوزيير هو شريك الذين اختطفوه . وهو الذي خط بنفسه السطور الأولى لحكاية خطفه أيام (بطولاته) في فييتنام ، وتابع رسم الخطة باتقان على طول تاريخه العسكري (المشرق) . لماذا ؟

لأن الارهاب هو الابن البشع للغطرسة . فالغطرسة تستنبت الارهاب ، كما الرعد يستولد بعض الفطور المسمومة .

وغطرسة الدول (العملاقة) بوجه عام ، والأميركية بوجه خاص ، هي بطاقة دعوة الى العنف الأهوج ، والارهاب البغيض . والأمثلة على غطرسة السياسة الاميركية في مواجهة الشعوب النامية تاريخها طويل . . ولا متناهية .

ان قهر الشعوب ، وإذلال الفقراء والضعفاء هو الأب (الشرعي) لنمو الارهاب

الدولي (غير الشرعي) . إنه وسيلة المقهور (غير العادلة) لمحاكمة القاهر (غير العادل) ، وتمريغ أنفه في وحل التاريخ .

* * *

حينما تستعرض السياسة الأميركية عضلاتها في مناورات (النجم اللامع) ، عليها ان تتوقع اختطاف (الجنرال اللامع) . . وحينما تصر على استعمال (حق الفيتو) لتكريس عدوان (غير لائق) لدولة على أخرى ، وحماية هذا العدوان ، فإن عليها ان تتوقع أعمالاً انتقامية (غير لائقة) أيضاً كالخطف . . كأن الخطف هو (حق الفيتو) لدى المقهورين والغاضبين والرافضين استمرار سياسة الاذلال . . باذلال الآخر !!

الاختطاف من حيث المبدأ عمل كريه لا يستطيع فنان ان يبرره ، ولكن الاسلوب الاميركي (وسواه) في التعامل مع الشعوب هو اكثر بشاعة حتى من الاختطاف نفسه . وهو (يفسر) الخطف ، ولا أقول (يبرره) . ونحن اذن في مجال التفسير ، لا التبرير .

ان اميركا نفسها طالما أقدمت على خطف شعوب بأكملها ، أو ساهمت على الأقل في عملية الخطف الجماعي هذا ، وأيدته ، ودعمته بالقوة الغاشمة .

ولن (أتوسع) في شرح الأمثلة التي يعرفها كل شخص يطالع الصحف ! . . . لكنني سأكتفي بذكر عملية الخطف التي تعرض لها (الأقربون) ، واعني بذلك الشعب الفلسطيني .

أكثر من مليون شخص تم اختطافهم من بيوتهم ، واختطاف أرضهم عن خارطة العدالة . والسياسة الاميركية ما تزال تساهم في حجز حرية هذا الشعب خارج ارضه

قد ينقضي الآن اكثر من شهر على خطف الجنرال الأميركي ، لكن يكاد ينقضي نصف قرن على خطف هذا الشعب وأسره بأكملها ، والسياسة الأميركية مصرة على تكريس (عمليتها) هذه . . . بل انها تشجع ايضاً (خطف) المزيد من الأرض العربية بمن عليها ، وتدعم اسرائيل بكل امكاناتها بصفتها (الخاطف) .

* * *

إن احداً لا يستطيع تبرير العنف والارهاب لأي طرف لكن تفسيره يكاد يكون واجباً . . ان احداً لا يستطيع إلا التعاطف مع صورة زوجة تنتظر عودة زوجها المخطوف على شرفة في « فيرونا » او في « برج البراجنة » .

ولكننا ايضاً لا نستطيع ان ننسى صور النساء اللواتي لم يصورهن احد ، واقفات على الشرفات وفي الدهاليز وعلى أبواب المزارات وقد تسببت السياسة الاميركية في

(خطف) ازواجهن بطريقة او بأخرى .

ويبدو ان (القهر) محرك نفساني أشد ضراوة من الحب او (الجنس) . . . واذا كان روميو (العاشق) قد فشل في خطف جولييت فيرونا منذ قرون بسبب تدخل (جنرالات) العائلة ؛ فإن الجماعة الايطالية (المقهورة) قد نجحت حتى في اختطاف احد (جنرالات) الاسرة الدولية . . .

ولعل (فرويد) لو بعث حياً ، لتخلى عن (الجنس) كدافع اساسي للسلوك البشري ، ولدرس (القهر) السياسي كمحرك اشد ضراوة وشراسة .

* * *

لقد اخضعوا زوجة الجنرال المخطوف للتنويم المغناطيسي كي تتذكر المزيد عن تفاصيل الحادثة ووجوه الذين نفذوا العملية . تراها قالت لهم انها شاهدت نيكسون وفورد وكارتر يخططون بسياساتهم المتعاقبة لعملية الخطف ؟ وانها لمحت ريغان ليلة الحادث يرافقهم في ثياب (الكاوبوي) راكباً حصانه التكساسي خاطفاً الجنرال ؟ . . . تراها شاهدت ايضاً (المهندس) الحنون لخارطة الدول ، العزيز كيسنجر يربط بنفسه الكمامة على فم زوجها ؟

أم تراها كزوجها ، لا تلحظ حقاً دور اميركا في عملية الخطف ؟

الخاطفون لخصوا له الحكاية بقولهم : « اننا نحاكم من خلالك اسس الاحتلال الاميركي العسكري . حلف الأطلسي . السياسات الامبريالية لأميركا حيال الشعوب ، اذلالها وارهابها ، والعدوان على النضال التحرري » . . الى آخره . . ولكن ، هل يحق لأحد ان يحاكم دولة من خلال (موظف) مخلص لدولته ؟ . .

* * *

أكرر : أنا لا أبرر الارهاب والاختطاف والقتل لأحد . ليس ثمة فنان يقدر على ذلك . لكنني أفسره ، واصر على « التفسير » ، لأننا إذا اردنا ان نحول دون الارهاب الذي يجتاح العالم ، علينا ان نلغي الاسباب الداعية اليه . وما دام أربعة رجال يقدرون في كل لحظة على اختطاف (جنرال) في واحدة من اقوى دول العالم ، وما دام كل بشري ممكن الخطف والاذلال والقتل حتى لو كان اميركياً (!) ، اذن لا بد من التعامل بين البشر على اسس جديدة ، هي في جوهرها عتيقة عتق الصراع البشري : العدالة للجميع دون اعطاء احد (حق النهش) لمجرد أنه يملك في فمه أنياباً أكثر . . .

* * *

جدران السجون كلها قابلة للتفجير ، لا جدران سجن « روفيغو » الايطالي وحدها . والجنرالات كلهم (قابلون للخطف) ، والمحاكمة ، والقتل ، لا الجنرال دوزيير وحده .

والأساليب العتيقة لمواجهة (الارهاب الصغير) لم تعد تجدي ، اذا لم يتفق العالم على مكافحة (الارهاب الكبير) للدول القوية ، التي تصر على تحويل اراضي الشعوب الأخرى الى ترسانات نووية ، وتساهم في خطف بلاد بأكملها من ابنائها الاصليين ، وتدعم الخاطف المعتدي ، ثم تقيم الأرض وتقعدها من أجل مواطنها (ابن الست) ، لا (ابن الجارية) كمواطني الشعوب الأخرى !

ان الارهاب الكبير (الشرعي) هو الشرارة التي الهبت موجة الارهاب الصغير (غير الشرعي) الذي يعم عالمنا . . . . ولا علاج للجدول بغير تنقية النبع !

* * *

لقد خصص (أصدقاء) الجنرال الأميركي المخطوف ١,٧ مليون دولار مكافأة لكل من يدلي بمعلومات تساعد في كشف خاطفي الجنرال او مكان احتجازه . .

وانا ارشح (العزيز هنري) للجائزة . فهو يباهي بهندسته للسياسة الأميركية ، التي كانت في جوهرها الخاطف الأول للجنرال . .

أما المكان الذي يحتجز فيه ، فهو طبعاً امريكا نفسها . . فالجنرال سجين سياستها وضحيتها . .

أم تراه سجين ترسانتها النووية التي تصر على ابقائها داخل اوروبا رغم ارادة شعوبها ؟؟

١٩٨٢/٢/١

هل الفن أداة انتقامية ؟

الحكاية تتكرر باستمرار ، وتكاد تكون مضجرة ، لكنها عميقة الدلالة . موهوبان . يلتقيان . يتعاونان . يبدعان . يحلقان . يتزوجان . يتشاجران . (يتطلقان) . بعد الطلاق ، يصير الهم الشاغل لكل منهما أن يكيد لصاحبه ، وفي أنبل الأحوال ، يهمل كل منهما صاحبه فنياً ، ويقاطعه ، ويرفض التعاون معه ابداعياً .

والصحافة تنقل الينا أولاً بأول أخبار (المعارك) بين عشاق الأمس ، والأحلاف الفنية الجديدة التي يكونها كل منهم مع أعداء الماضي . ولأن الحبيب أدرى من سواه بمواطن الضعف والمضرة ، فإن (الجبهات) المتعادية تضم غالباً أكثر أعداء الأمس ضراوة، نكاية بالحبيب السابق أو الحبيبة .

والصحافة الفنية تنقل الينا أخبار متاريسهم وقنصهم وداحسهم وغبرائهم ، وتطلعنا على (جولاتهم) العدائية ، ومكائدهم المتبادلة الطروادية . فالذي يحدث هو أن (الشجار العاطفي) يتحول الى (خبر فني) ، ما دام يصير محركاً أساسياً في حياتهم الابداعية . مما لا شك فيه أن حياتهم الشخصية هي (ملكهم) ، ولكن ، حينما تتدخل الحياة الشخصية للفنان في فنه بصورة رئيسية وحاسمة ، يصير التحدث عنها من بعض التحدث عن فنه . . للأسف . ويتذمر الفنانون غالباً لأن الصحافة (تحشر) نفسها في حياتهم الخاصة ، والواقع أنهم هم الذين (يحشرون) فنهم فيها ، وبالتالي يرغمون الصحافة على تناولها في معرض حديثها عن (ابداعهم) . والدليل أن المجلات قلما تتدخل في السلوك الشخصي لـ « نجوم » لا (يقحمون) حياتهم اليومية داخل مربع فنهم .

* * *

الأمثلة لا تحصى . .

ومعظم الصحف والمجلات العربية تتحدث اليوم عما تدعوه بجبهة « فايزة ـ

بليغ » وجبهة « وردة ـ سلطان » ، ضمن اطار مسلسل المنافسة الشرسة بين الأزواج والزّوجات السابقين والسابقات . والصحف لا تلام ، ما دام الخصام الزوجي قد تحول الى موقف فني له انعكاسه على مسيرة الطرب الشرقي ، وما سيستمع اليه ملايين العرب .

والسؤال الذي يفرض نفسه منذ زمن بعيد هو : لماذا كلما طلق فنان زوجته الفنانة ـ أو العكس ـ تحول الفراق العاطفي الى طلاق فني ؟ ولماذا كلما وقع الهجر الشخصي تحول الى هجر ابداعي ؟

إن الحياة العاطفية لكل فنان هي ملكه وحده ، شرط أن يحافظ هو عليها كذلك . لكنه حين يصير فنه رهينة لذاتيته الدنيا ، ومؤشراً وحيداً لتطوره الابداعي ، يصبح الأمر ظاهرة تستحق البحث على صعيد جاد ، لأنه يعكس أزمة حقيقية في تكوين الفرد العربي بوجه عام ، والفنان بوجه خاص .

فالقطيعة الفنية التي تعقب كل قطيعة عاطفية ، تفسد غالباً مسيرة أصحابها الابداعية ، خصوصاً اذا كانت الدرب التي سبق وقطعاها معاً من قبل طويلة ومليئة بالزخم ، ثم جاء منعطف الفراق حاداً مليئاً بالحقد والكيد والصغائر .

* * *

دعونا لا نختبىء خلف أصابعنا ، بل نسخرها لكتابة الحقيقة عن أحبائنا المبدعين ، الذين تربطنا بهم صداقات تدفع بنا الى الصمت ، ولكن تربطنا بإبداعهم محبة تدفع بنا الى الكلام .

لدينا (نموذج) آخر من بين النماذج الأخرى الكثيرة ، نختاره لقيمته الفنية الكبيرة ، ولما مثله ذات يوم كمحطة ابداعية خالدة في مسيرة العطاء اللبناني والعربي ، وأعني بذلك الصديقة العزيزة فيروز ، والأصدقاء عاصي ومنصور الرحباني . لقد وقع الانفصال العاطفي بينهم . افترقت فيروز عن زوجها . هذا أمر عادي يحدث كل يوم في كل مكان من هذا العالم ، وهو شأنهما وحدهما . لكن المفجع أن هذا الفراق الشخصي تحول الى قطيعة فنية ، وهذا أمر يعني المستمع والناقد وتاريخ الأغنية اللبنانية والعربية ، وبالتالي : الصحافة !

والمدهش أن الجهود كلها انصبت على محاولة اعادة الزواج ، وفرض الصلح العاطفي كما لو كان ذلك شرطاً بدهياً للتعاون الفني . لماذا ؟

* * *

لماذا خيل لأهل الخير أن إعادة فيروز الى البيت الزوجي هي الخطوة المحتومة التي يجب أن تَسبق إعادتها الى اللحن الرحباني ؟ لماذا لا نستطيع أن نتصور امكانية استقلالية الفنان عاطفياً ، وارتباطه فنياً مع أكثر من طرف انطلاقاً من مصلحة الابداع العربي ، لا (الحزازات) والشجار والمرارة الشخصية التي يغذيها الجميع بصورة غير مباشرة حين يوافقون ضمناً على هذا الوضع الهزلي ، دون أن يرتفع صوت يقول لهم : تشاجروا خارج الاستديو ، ولكن امنحونا فناً على المسرح ، لا تصفية حسابات وحصيلة نكايات تجعلون منا مسرحاً لها ! . .

وهذا الخطأ عمره طويل . . يبدأ منذ اليوم الأول للزواج ، حيث يكرس أيضاً بمثابة زواج فني ، فلا تغني المطربة الا لزوجها ، ولا يلحن هو (واسرته) إلا لها ، ـ ما عدا أيام الخصام والشجار ، ـ وبالتالي تستمر الحلقة الجهنمية في التكامل ، فلا يلحن الفنان الا لغير زوجته بعد الطلاق ، ولا تغني الزوجة الا لغير مطلقها ، والأفضلية لمطلق غريمتها اللدود !

* * *

المفجع أن الفنان الغربي بوجه عام استطاع تجاوز هذا (المطب) العاطفي بكثير من الوعي العقلاني ، والاحترام لجوهر عملية الخلق . فالممثلة الكبيرة ليف أولمان مثلاً ما تزال المفضلة فنياً لدى مطلقها المخرج انغمار برغمان .

لقد افترقا زوجياً بكل هدوء ، فهما لا يصلحان للحياة معاً في البيت ، لكنهما لم (يفترقا) ابداعياً ، لأنهما يصلحان للحياة معاً في الأستديو . وأنه لم يطلبها الى (بيت الطاعة) كشرط لادخالها الى (عصمته) في العمل . ولا هي طلبت ولاءه الزوجي كشرط لولائها أمام عدسته . وقد سبق لها أيام كانت زوجة له أن عملت في أفلام لمخرجين آخرين ، وسبق له أن اختار ممثلات سواها ، فهذه قضايا تتدخل فيها الاعتبارات الفنية فقط ، وتحددها ضرورات الخلق لا الكيد والنكاية ووهم الوفاء الزوجي ، فالعمل مع ممثلة أخرى ليس (خيانة زوجية) كما أن العكس ليس (وفاء زوجياً) بل ربما خيانة ابداعية ! . .

هذا السلوك الجميل الراقي ، لماذا تندر ممارسته في وطننا العربي ؟ لماذا يرافق الفراق العاطفي فراقاً فنياً بالضرورة ؟ لماذا يلغي الفنان رفيق دربه ، ولا يلحظ أنه بذلك يلغي مرحلة من عمر عطائه قد تكون هي الأغنى والأجمل ؟ لماذا يستخدم الفن كأداة انتقامية ووسيلة للايذاء ؟ ألا يعني ذلك ضمناً استخفافاً بالابداع ، وبالجمهور ،

وبجوهر عملية الخلق الفني ، وعاطفة الحب على السواء ؟

* * *

هذا الموقف (الطربي) ينسحب تقريباً على حياتنا الفكرية في مجالاتها كافة .

في الحقل الأدبي مثلاً ، نعرف حكايات حب ربطت بين كاتبة وشاعر أو زميل أو ناقد أو رئيس التحرير ـ وهذا أمر ممكن وعادي ولا يستحق الاهتمام ـ . . ما يستحق الاهتمام هو النتائج (الفكرية) لذلك . اذ تشيد هي بالعبقرية الصحافية للزميل أو لرئيس التحرير ، ويشيد هو بإبداعها (الكتابي) . وحين تأتي لحظة الفراق ، يكتشف الأخ فجأة أن الكاتبة غير موهوبة ، وتكتشف الأخت أن الزميل أمّي ! . . ويصير مجرد ذكر اسمها في مجلته محرماً ، كما تذهب هي بالضرورة للعمل في المجلة المنافسة اللدودة ؟

ترى ، أليس بوسع الناقدة مثلاً أن تعجب بغير (ابداع) زوجها ، وتكتب عن سواه ـ لغير اغراض النكاية ـ ؟ أليس بوسع الناقد أن يحترم الطاقة الخلاقة فنياً ، للأديبة الغادرة به عاطفياً ؟؟

ومعظم أهل السياسة ـ عندنا في لبنان على الأقل ـ يمارسون هذا السلوك غير المسؤول . ونجده في جوهر تصرفاتهم نحو سواهم من الزعماء . فهم يحبون (كراهيتهم) أكثر مما يحبون شعبهم . ويخلصون للبغضاء أكثر من اخلاصهم للناس . ويدفع بهم حقدهم على صديق سابق الى الكيد له ، ومحاولة الايقاع به ولو على حساب المصلحة العامة ، والنزاهة الذاهبة باستمرار الى النزهة .

* * *

يخيل الي أن جوهر المشكلة يكمن في عجز الانسان العربي بوجه عام عن التمييز بين « الحب » و« حب الامتلاك » . وهكذا ، فما دام الفنان (مالكاً) لشريكه ، وصك الملكية هنا اسمه « عقد زواج » ، نجده قادراً على حب (ممتلكاته) ، كجزء من حبه لذاته وأنانيته . وهكذا ، حين يقع الطلاق ، ينتهي كل شيء ، لأن أحدهم لم يحب الآخر (فنياً) حقاً ، ولم يقدره كشخص مستقل قائم بذاته ومبدع ، ويستحق الاحترام من أجل قدرته على العطاء الفني الخالص ، بغض النظر عن العطاءات (الأخرى) . كأن « حب الامتلاك » لدينا ما يزال أعظم من حبنا للفن .

ولذا فإن الرغبة في التدمير ترافق الفراق ، بدلاً من حس متبادل بالاحترام ، وبالصداقة ، والامتنان لزمن مشترك من الخصوبة والابداع ، والرغبة في الاستمرار بذلك . لو كانت لدى المبدع العربي الطاقة على الوفاء للفن أكثر من الوفاء لمشاعره

الذاتية ، لتخلصنا من حكايا الاحتكار والقطيعة الفنية التي تقع لأسباب غير فنية . ولتبدلت مسيرة الفن المتعثرة في وطننا العربي الذي (يقع) في الحب ، ولا (يقف) في الحب . فالحب هو الازدهار المشترك لا الاحتكار المتبادل . الحب هو الأفق لا السجن المشترك . الحب هو احترام الآخر ضمن شروطه الخاصة واختياراته .

فهل في وطننا العربي فنان عرف الحب حقاً ؟

وهل فيه فنانة تخلص لفنها أكثر من اخلاصها لحقدها ؟

وهل فيه من يحب الفن لذاته ، فيسمو به عن استخدامه أداة كيد وخنجر فراق ؟

وكيف يمكن للنكاية أن تتحول الى ابداع ؟

ومتى ينضج الانسان العربي عاطفياً ، فيخرج الفنان من المزاجية الى المسؤولية الجادة أمام عطائه ، وجمهوره . . ومتى . . ومتى . .

١٩٨٢/٥/١٠

المرأة هي المعيار

خبر صغير ، لكنه كبير الدلالة ،

يتحدث عن دعوة النساء للالتحاق بجيش الشعب في الأردن . نشرته بعض الصحف العربية ، فيما أهملت أخرى ذلك ، فهو قد يبدو للبعض أقل (جاذبية صحافية) من خبر الرجل الذي عض كلبه مثلاً .

يقول الخبر : النساء الأردنيات سيلتحقن بالتدريب العسكري في جيش الشعب ، ولكن حتى الآن لا يشاركن في القوات المسلحة . رئيس الوزراء دعا النساء قويات البنية الى الالتحاق بها ، ضمن إطار خطة مستقبلية تنص على ممارسة التدريب العسكري لكل المواطنين القادرين على حمل السلاح . وسيكون هذا الجيش الشعبي على شاكلة الجيش الشعبي العراقي الذي تكون في وقت سابق .

* * *

لقد كان أسلوب التعامل و (قضية المرأة) مؤشراً حضارياً لا يخطىء .

فطريقة تعامل أي نظام مع نساء الشعب تعكس موقف هذا النظام لا من المرأة وحدها ، بل من الإنسان ككل ، والسياسة ، والدين ، والتطور والأخلاق مجتمعة .

وخبر انضمام المرأة الى القوات المسلحة في قطر عربي جديد ليس انتصاراً (شوفينياً) تصفق المرأة له وحدها ، بل هو انتصار لوعي القيمين على الأمر .

فقضية المرأة ليست حقاً قضية المرأة فحسب ، بل هي في جوهرها قضية الانسان العربي .

الأقطار العربية التي تحاول اقصاء المرأة عن مناصب وحقول معينة ، تسبب الأذى للوطن ككل ، لا لـ (مشاعر) النساء فقط .

* * *

ولأنني آمنت دوماً بأن تحرير المرأة واحترام طاقاتها واجب وطني وقومي ، كنت

أرفض باستمرار (تأنيث) مشكلتها ، وأجدني بالتالي بعيدة عن محاولات إعتاقها من منطلق نسوي بحت .

ـ ربما كان ذلك ما دفعني الى عدم الانتساب ـ في أي يوم ـ الى جمعية نسائية ، هدفها (تحرير المرأة) . كنت باستمرار على استعداد للانتساب الى جمعية (رجالية) عربية هدفها تحرير المرأة من أجل مصلحة الوطن ، لا منطلقات خيرية أو تبشيرية أخلاقية تهب منها روائح أواخر القرن التاسع عشر .

قضية المرأة هي قضية وعي عام ، لا قضية (صدقة) مهذبة ، لطيفة كالقفازات البيض .

والوعي لا يمكن أن يكون أحادي الجانب ، وإنما هو شبكة من المواقف تشمل مجالات الحياة كافة ، بما في ذلك المرأة .

يقولون أن كل انتصار تسجله المرأة في قطر عربي هو نصر للعربيات جميعاً ، وفاتحة للعدوى في أقطار أخرى . وهذا صحيح ولكنه غير واف .

أقول : كل انتصار للمرأة في مجال انتزاع المزيد من حقوقها هو في جوهره انتصار للانسان العربي في مرحلة عسيرة حقاً .

* * *

« إن قرار تشكيل جيش الشعب يعكس قلق الأردن حيال أمنه عقب غزو اسرائيل للبنان » . . هذا ما ينسبه النبأ الى مصادر سياسية في عمان .

وها هو القلق يتحول الى عمل . الى موقف ايجابي بناء يعي ضرورة توظيف تلك الطاقة العربية الجبارة المهدورة : المرأة .

ها نحن نغادر مستنقعات التورية ، الى أرض الحقيقة الصلبة حيث لا توريات ولا طباق ولا جناس .

ها نحن نخرج من منطق تحويل الهزائم على الأرض ، الى انتصارات إذاعية لغوية ، بأن نواجه تلك الهزيمة بخطوة أخرى في الاتجاه الصحيح .

أن يقودنا القلق الى وعي طاقة المرأة وضرورة توظيفها ، وتنفيذ ذلك : هذه إشارة على طريق .

فقد تعبنا حقاً من اجراء عمليات تجميلية للهزيمة الشمطاء .

هزيمة بعد أخرى ، ومعظمنا يواجهها بالزيف الإعلامي ، أو اختراع كبش فداء ، بالإضافة الى مجموعة من الأغاني الحماسية والكلمات المأجورة . .

أذكر جيداً أننا بعد هزيمة ١٩٦٧ ، أُرغمنا على استعمال تعبير (نكسة) بدلاً من (هزيمة) ، وغيرها من التعابير التي نحتها (لغويو) المناسبات لتحويل الهزائم العسكرية الى انتصارات لغوية حماسية ، تشنق الحقائق بحبل مصنوع من حروف الأبجدية المستباحة .

أذكر أيضاً أن الأضواء سلطت يومئذ على (المجندات الاسرائيليات) باستنكار ساخر ، واختـارت بعض صحافتنا صوراً لمجندات بـ (الميني جوب) لقرن فكرة القتال بالابتذال ، كأن كل مجندة غانية ، وكل سجينة بيت فاضلة بالضرورة !

* * *

إنها لحظة الحقيقة للجميع . للعرب المشرقيين والمغربيين . للفلسـطينيين . للبنانيين . للاسرائيليين . للروس . للأميركان . للعالم كله .

حريق بيروت أحرق معه الأقنعة كلها . نظام بيغن عرى أنيابه . اللغة المأجورة فقدت كل امكانية لتزوير الحقيقة لحساب من يهمهم تزويرها ، بعد أن تعرت المواقف لعيون الشعوب .

إنها لحظة الحقيقة والمواجهة والقرار الأخير .

ماذا نفعل ؟ ننتحر ؟ لا أميل كثيراً لهذا القرار ، على صعيد الشعوب ـ على الأقل ـ !

أفضل خياراً آخر ، على طريقة : « الهدف النهائي هو تدريب نحو من ١٠٠ ٠٠٠ رجلاً وامرأة على استخدام السلاح في الأردن وعلى حرب العصابات»، وهو الخيار الذي تبنته أقطار عربية أخرى .

وهكذا نرى أن تجنيد المرأة ليس حكاية أنثوية (حريمية) . إنه قرار سياسي وقومي ، وموقف ايجابي من الهزائم العربية المتلاحقة التي كان البعض يغطيها بجمال الشعارات ، مع الاستمرار بسلبية الممارسة في ظل أجواء تخديرية طقوسية تستبدل العمل ، بوهم العمل .

كان السؤال شديد البساطة : نريد أن نقاتل حقاً أم لا نريد ؟ المواجهة التي نكرس لها قصائد المديح ، نريدها أم لا نريدها ؟ وكان الجواب غالباً أهزوجة حماسية (تتغزل) بالفعل على نغم (السيكا) وقوفاً على المنابر وهبوطاً على درجات السلم الموسيقي .

* * *

تجنيد المرأة في قطر جديد هو أولاً انتصار سياسي وقومي . لكن ذلك يجب ألا يحجب عن عيوننا جانبه الآخر الاجتماعي الواقعي : إنه انتصار حضاري أيضاً . فنحن نعرف أن واقعنا العربي حساس بصورة إضافية لكل ما يمس قضية المرأة .

ثمة تقاليد متوارثة ترسبت في أعماق المجتمع العربي ، بعضها هزلي وخاطىء ، ولكن كسر هذا (البعض) يتطلب جرأة وشجاعة بسبب ردة الفعل العمياء التي يمكن أن تواجه من يقارعها .

هذا (البعض) المهترىء من التقاليد المتوارثة له مهابة (البقرة) عند احدى الطوائف الهندية ، وبعض مجتمعاتنا تعامل المرأة كما عامل سائق القطار الهندي ركابه حين اعترضت سكته بقرة (مقدسة) تحرم التقاليد المتوارثة قتلها ، فماذا فعل ؟ لقد أوقف القطار فجأة مستعملاً (فرامله) بصورة لا بد وأن تؤدي الى تدهوره . . وهكذا كان ، وتدهور القطار عند جسر نهر « باغماتي » جنوب شرقي نيودلهي وقتل ٣ آلاف راكباً ، ونجت البقرة . . .

ووصف الحادث يومئذ (يوم ١٩٨١/٦/٨) بأنه أسوأ كارثة قطارات في التاريخ ، وكان المسؤول عنه شبحاً لا يجرؤ الكثيرون على مواجهته بالمنطق والعقل ، واسم هذا الشبح : التقاليد . . بالضبط ، الجزء المترهل من التقاليد .

* * *

ثمة جانب آخر للانتصار الحضاري الذي يحققه كل من يجرؤ على الانتصار لقضية المرأة . إنه مواجهة خوف العربي من (الجديد) بمعنى ما .

فالعرب بوجه عام يخافون (الجديد) ويرتابون به ، وينفرون . وهذا الخوف يجعل التعامل وقضية المرأة أكثر صعوبة ، وإن كان لا يخص المرأة وحدها بل يكاد يكون خوفاً شمولياً يتجلى في مجالات أخرى من حياتنا لا تحصى ، بعضها أدبي مثلاً . فكرة الخلافة في الفن لدى العرب هي تعبير عن خوف غامض من الجديد ، أو نفور من ملامسته .

فإذا مات فنان أحببناه ، بحثنا عن (خليفة) له . ويوم ماتت أم كلثوم مثلاً ، كان الهم الذي يشغل بال الجميع : من تخلفها ؟ من تشبهها أكثر من الأخرى ؟ وردة أم فايزة أم فيروز أم نجاح أم سعاد . . ؟ ودب الخلاف ونشأت (الأحزاب) الفنية . ولم يصرخ أحد : لا نريد خليفة لها . نريد فنانة أخرى مختلفة لها عظمتها وتعبر عن روح العصر كما عبرت الرائعة أم كلثوم عن روح عصرها .

يوم مات عبد الحليم حافظ واجهنا الأسطوانة ذاتها : من هو خليفة (العندليب الأسمر) ! . . وتبارى الفنانون في هذا المجال . ولم يطلع مبدع يصرخ : لا أريد أن أكون خليفة لأحد . أنا أمثل نفسي . أنا (النورس الأزرق) أو (الدوري الأصفر) ، وأريد أن أعلمكم حبي كصوت جديد ، لا كمجرد امتداد لصوت آخر مضى .

على صعيد الشعر ، نواجه الأسطوانة ذاتها : يريدون (أميراً) للشعراء . لا يريدون (رئيس جمهورية) للشعر ، أو (ملكاً) للشعر ، أو (ديكتاتوراً عسكرياً) له ، ولا يريدون إلغاء الفكرة الهزلية إياها ، وإنما يريدون (أميراً للشعراء) لأنهم ألفوا ذلك . . . ولا بد من المبايعة ولا بـد من الشجار ، ولا بد من (الأخطل الصغير) إذا مات (الأخطل الكبير) . . أي لا بد من التكرار ، ولا بد للشعراء من (أمير) .

الشعر هو الأمير أيها السادة . الابداع هو (خليفة) أي فنان راحل . لا نريد تكراراً . نريد جديداً . لماذا نخاف الجديد ؟

لا مفر من درب جديدة في كل مجال ، لأن معظم الدروب العتيقة طالما قادتنا الى سكة الهزيمة والندامة .

من هذا المنظور ، يتخذ أي قرار (تجديدي) على صعيد قضية المرأة (الحساسة) قيمة حضارية .

ويكون مؤشراً على تحول نوعي في أسلوب تعاطي الوطن مع روح العصر ، ومع ذاته .

ومن هنا تفرح به إنسانيتنا ومواطنيتنا ، قبل (تاء التأنيث) التي قد يتصادف أن يجدها بعضنا في اسمه ، لكنها لا تحدد وحدها كل آفاقه .

١٩٨٢/٩/١٠

بيروت قصفت بأموال العرب

ثمة أشياء لا تستطيع نسيانها مهما كانت ذاكرتك رديئة ، أو مزدحمة الدهاليز بالوجوه والأصوات الهاربة والحقائق الجارحة . ربما كان أبرز هذا النمط من الأشياء هو ما يمس إنسانيتك ، أو يتهدد هويتك ووطنك العربي . وأنت قد تنسى التفاصيل الصغيرة ، لكن جوهر القضية يظل ماثلاً في ضميرك يستدعيه الوعي من حجرات الذاكرة المغبرة كلما دعت الحاجة .

ومنذ عام تقريباً ، نشرت احدى المجلات تحقيقاً عن مليونير يهودي صهيوني الميول يؤيد اسرائيل ويدعمها مادياً ، هو (السيد نسيم ؟) مالك فندق (نوجا ـ هيلتون) الضخم في جنيف . ولم أعد أذكر بالضبط بقية اسمه ، أو جنسيته ، أو قصة حياته . ضاعت التفاصيل عن شطآن ذاكرتي وبقي الجوهر : المليونير اسرائيلي الهوى ، وهو يعبر عن ذلك بتقديم هدايا مالية (باهظة) لنظام صديقه بيغن . هذه النقود تتحول إلى ثمن لأسلحة فتاكة مكرسة لقتلنا وتهديم بيوتنا فوق رؤوس أطفالنا .

كل عربي قرأ هذا التحقيق الذي نشرته « الدستور » يومئذ ، لا بد وأنه شعر ببعض (الحرج) وهو يدفع (فاتورته) لذلك الفندق قبل مغادرته الى الأبد ، لأنه يعرف أن قسطاً من نقوده تلك سيذهب لرصاصة قد تقتله ، أو قنبلة يدوية قد تبيد أسرته .

وخيل إلي يومئذ أن عربياً لن يبات في هذا الفندق الجميل الضخم ، حتى ولو اضطر الى النوم في المقبرة المجاورة (مدفن برينزويك) ، أو على الرصيف المقابل حيث ينام بجع البحيرة . ثم ان الفنادق الفخمة في جنيف كثيرة ، وليست تضحية كبيرة أن يقدم ثري على استبدال فندق فخم بآخر .

* * *

وصرت إذا دعتني اسرة صديقة للغداء (هناك) ، اقترح مكاناً آخر ، وامتدح بائع السندويش القريب ، ثم اذكر لهم ما قرأته في « الدستور » عن الفندق اياه دونما

تأنيب ضمير ، أو خشية افتراء . فقد كان التحقيق على ما أذكر معززاً بالأرقام والأسماء والوثائق ، ولم يكن من تلك الكتابات المجانية التي تفتري على الناس من قبيل الاثارة .

وصرت إذا قذفت بي المقادير أو ظروف العمل الى جنيف ، أتجنب المرور على رصيف الفندق وأهرب إلى الرصيف الثاني ، خوفاً من عبوة ناسفة قد يضعها عربي محروق الفؤاد كرسالة احتجاج عالية الصوت ، ـ وإن كنت ضد هذا الأسلوب في العمل الذي يقتل الأبرياء من عابري السبيل غالباً ـ .

كنت أتوهم أن الفندق لا يضم عربياً واحداً بعد أن انكشفت حقيقة المكان ، ولم أكن أتصور أن نقوداً عربية لا تحصى تنفق هناك في ذلك « الفندق ـ النفق » إلى محفظة اسرائيل ، ومنها إلى تسليحها ، وبالتالي إلى الاجهاز علينا بنقود عربية . . وقصف بيروت بنقود عربية . . والفاتورة يدفعها بعض العرب .

* * *

وهذا الصيف بالذات ، بينما اسرائيل تبتلع نصف قطر عربي جديد ، وتقصف عاصمته بيروت بوحشية أثارت اشمئزاز العالم وقرف الغريب ، يتوج بعض العرب لا مبالاتهم غير المسؤولة ، فينزلون على الفندق ضيوفاً ، وعلى قلوبنا كرباً ، وينفقون أموالهم في مكان لا يخفي موظفوه استخفافهم بهم وبالعرب ككل ، ويشرحونه بسرور على صفحات صحفهم .

ففي جريدة (فانت كاتر اور) السويسرية ـ الصادرة باللغة الفرنسية ـ العدد رقم ١٨٣ ـ تاريخ ٨٢/٨/٩ ، كتبت الصحافية ايزابيل دومون تحقيقاً عن (شيخ) حدثتنا عن جنسيته وقرابته بالدم لحاكم عربي . لن أنقل اليكم الأسماء ، فليس المقصود من كلمتي هذه التشهير بأشخاص . طموح هذه السطور ، المساهمة في بلورة موقف من العرب الذين يهدرون نقودنا ، والغرباء الذين يبتلعونها ثم يمدون ألسنتهم في وجوهنا ساخرين محتقرين ، بل ومشهرين بنا في الصحف ، ثم يوظفون بعضاً من تلك الأموال في خدمة النظام الصهيوني الدموي الارهابي الذي لا يرى في غير تدميرنا حلاً .

* * *

كنت أتمنى أن أترجم لكم كل ما ورد في تلك القصاصة الجارحة بصورها الثلاث غير المحايدة ، وعنوانها الساخر (العرب في القصر) ، لكنها تطول . وقد اخترت لكم بعض المقاطع (النموذجية) : « حين يصل الشيخ (. . .) وأولاده الـ ١٤ وزوجاته الأربع الشرعيات وسائقه وحارسه وسكرتيره وحاشيته إلى فندق نوجا ـ هيلتون في

جنيف ، تدب الفوضى والضوضاء . هذا هو الصيف الثالث الذي يحجزون له فيه الجناح الشرقي في الطابق السادس من الفندق : ١٣ غرفة بالاضافة إلى الـ (سويت الملكي) ، ليحتويه وعالمه الصغير لمدة أسابيع ستة . عم هذا الشيخ هو حاكم (. . .) . والشيخ زبون جيد . انه ينفق ٢٠٠ ألف فرنك سويسري أجرة لهذه الغرف ـ باستثناء ما تبقى من نفقات الطعام والشراب ـ مما يجعل المدير العام للفندق في غاية السعادة بهبب اولئك الذين يدرون منجمًا من الذهب . فقد ارتفعت نسبة مدخول الفندق حوالي ٢٠٪ منذ العام الماضي ، والفضل للزبائن العرب الذين يمثلون ٣٠٪ من نزلائه . وفي ابريل ١٩٨١ ، أعلنت جريدتنا (فانت كاتر أور) عن مقاطعة فندق نوجا هيلتون من قبل العرب ، بسبب العلاقة الوثيقة بين صاحبه المليونير نسيم ، وحكومة بيغن .

واليوم ، يبتسم المدير العام للفندق السيد فيلي ويقول : « اعتقد أنكم كونتم فكرة عن مدى طاعة العرب لقرارات مقاطعة اسرائيل ! » .

* * *

تتحدث المحررة الى موظفة الاستقبال في الفندق ، وبعض عاملات التنظيف . ثمة اجماع على (البطر) الذي يورثه الآباء للأبناء ، والفساد الذي يلف حياة الجميع : « لقد عاد أولاد الشيخ ذات يوم وقد اشتروا ١٤ دراجة ، وحولوا المدخل الى كاراج » وتقول اخرى « لقد شاهدت أولئك الصغار يلعبون القمار يوماً بأوراق نقدية من فئة الـ ٥٠٠ فرنك » .

وثمة سخرية جارفة من طريقة العرب الهزلية في نقل أسلوب حياتهم الى فندق غربي هو وليد حضارة مختلفة وحاجات مغايرة : « ما تكاد تفتح باب المصعد على الطابق السادس حيث يقيمون ، حتى تدهشك الرائحة الكريهة والمنظر العجيب . انهم يحضرون معهم جلود الخراف ويفرشونها فوق (الموكيت) في ممشى الفندق بين غرفهم ، ويرشونها بالماء » . . « إدارة الفندق كادت تحضر لهم الرمل وتكومه في المرآب كي لا يشعروا بالوحشة لبعدهم عن رمال الوطن » . . « مرة نسوا والدة الشيخ في الفندق . بعد سفرهم اكتشفناها حين جئنا لتنظيف الغرف ، وكانت تبكي مذعورة وعلى وجهها حجاب » . والمقال يحدثنا أيضاً عن العلاقات النسائية النشطة للشيخ مع حريمه السري ـ وأحياناً زوجاته ـ « في الـ (سويت الملكي) الذي ايجاره ١٣٠٠ (فرنك سويسري)

في الليلة فقط لا غير » . .

* * *

الصحافية ايزابيل دومون التي كتبت التحقيق لن نتهمها بأنها من (عملاء الامبريالية) لمجرد أنها نقلت حقيقة مخزية لا نفخر بها .

الجريدة التي نشرت التحقيق ليست بالضرورةُ عدوة للعرب ، لكنها أوضحت بصورة غير مباشرة أن بعض العرب عدو للعرب ، وعدو لنفسه .

ان بعض الأثرياء العرب لا يقفون من قضايا الوطن موقفاً لا مبالياً فحسب ، بل ومؤذياً . وكم يحز في النفس أن ينفق ذلك العربي حوالي ربع مليون (فرنك سويسري) يذهب ربع بعضه ثمناً لسلاح تقصف به بيروت . . أهذه هدية العيد للمدنيين والأبرياء هناك ؟

وهل يلام المستر فيلي ، المدير العام للفندق ، إذا (شمت) بالعرب وأعلن باستخفاف : « أعتقد انكم كونتم فكرة عن مدى طاعة العرب لأوامر المقاطعة » ؟ . .

وهل تلام جريدة (فانت كاتر أور) لأنها أطلعتنا على بعض ما يدور ؟ أم ان الذي يستحق اللوم هو العربي (القريب) قبل (الغريب) ؟

* * *

هل تبقى ما يقال أمام هذه القصة التي تتكرر كل يوم بأسماء مختلفة وفي عواصم مختلفة ؟ ألم نطالب مراراً بتقريع هذا (القريب) وتنبيهه من قبل عقلاء قومه ، وان لم يرتدع فبمحاكمته بتهمة تزوير صورة العربي الحقيقي ، وتهمة الخيانة العظمى ، لأنه يزود حكومة معادية بالمال العربي في زمن الحرب ، بدلاً من انفاقه مثلاً في شراء باخرة أدوية وأغذية تتجه نحو جرحى العرب في بيروت التي أدماها الصمود المنفرد ، وأحرقتها القنابل المحرمة ، واحرقت قلوب أهلها لا مبالاة بعض العرب بها ؟

* * *

بعض اخواننا العرب ، الذين طالما قرعوا المصري (ثم اللبناني) الذي قبل مجرد تصور فكرة إمكانية الصلح مع اسرائيل ، مطالبون أيضاً بتقريع الذين يمولون اسرائيل بشكل غير مباشر بإنفاقهم المهذار على ملذاتهم وسواهم يتضور جوعاً وقهراً ، ويحارب بالنيابة عن بقية العرب حربهم جميعاً .

للناس عيون ترى ، وقلوب تحقد ، وردود فعل ليست دوماً عقلانية . . .

فمتى يصحو بعضنا ؟

١٩٨٢/٩/٦

حريق في غابة العروبة

هل بعض أهل الحكم والساسة العرب مصاب بضعف الذاكرة أم بازدواج الشخصية ؟ هل بعضهم مثل (هاملت) ، يتكلم كثيراً وطويلاً ، ويصرح ويعلن ويهوى تصريف (الأفعال) ، لكنه يعجز عن (الفعل) ؟

وكيف نفسر ذلك الركام الهائل من (الأقوال) حول الحرب والوغى وتدمير العدو والاستشهاد في ساحات الشرف (الى آخر المعزوفة) ، مقابل ذلك الافتقار الى (.الفعل) حين حانت ساعة (الوغى) ، وتساقط القتلى على ارض لبنان بعشرات الآلاف ؟

لماذا لا تطابق بين الأفعال والأقوال عند معظم العرب ؟ ولماذا لا يجدون حرجاً في ذلك ولا غضاضة ، ويستمرون في (معاقرة الكلام) كذباً وحراماً ، امام العيون الشاهدة المفقوءة لضحايا حرب تهربت من مجابهتها أنظمة عربية طالما (تشوقت) لفظيا الى تلقين العدو درساً لا ينسى ؟

* * *

والواضح أن نظام بيغن تعلم درساً لا ينسى ! فهو يتكلم عن السلام ، ويمارس الحرب . . ومعظمنا يتكلم عن الحرب ، ويمارس السلام ! بيغن يمارس (القتل) مدعياً بأنه قتل من أجل (الحياة) ! وبعضنا لا يتحدث الا عن تدمير العدو وسحقه ، وإلقائه في البحر ، وحين يهاجمنا ذلك العدو ، يهرب هو الى بحر الصمت ! لماذا يعتنق بعض ساستنا لغة حربية فضفاضة ، خاضعة لضرورة الشعر ، ولزوم ما لا يلزم ، أكثر من التزامها بالصدق أو بالصمت ؟ ولماذا يقولون ما لا يفعلون ، ويتركوننا نهيم في صحراء التيه السياسي ، العدو يمطرنا بالقنابل الأميركية التي لا تكذب وعداً ، وهم يمطروننا بذكريات الوعود وواقع التخلي عنا ؟ ولماذا التوهم بأن كل ثائر أو عاشق هو بالضرورة شاعر ؟

ان « ديوان الحماسة » الجديد الذي يمكن جمعه من أقوال بعض حكامنا وساستنا يكاد يفوق بزخمه الحماسي ما قاله أجدادنا وأسلافنا أيام كانوا (يفعلون) . هذا الاسراف في القول يلازمه تقتير (هاملتي) في الفعل حين تدعو الحاجة إلى ذلك . فلماذا ؟ وهذه الـ « لماذا » موجهة الى (القول) لا (الفعل) . . .

نحن مواطنون عاديون ، ولسنا من المنظرين السياسيين لنقرر : من كان عليه أن يحارب أو لا يحارب في لبنان . حسناً . لعل من حق الحكام تقرير ذلك بحكمة (على ما نرجوه) . ولكن من حقنا عليهم أن نسأل : لماذا يمطرنا معظمهم بالاشعار الحماسية الكاذبة ؟ لماذا يخدعوننا ؟ لماذا لا يلزمون الصمت بدلاً من تركنا في عراء التاريخ مع ذكرى وعودهم الكاذبة و (دونكيشوتياتهم) . وعنترياتهم الفارغة ؟

* * *

بهذا المعنى ، صار معظم الساسة عندنا (شعراء) ، وتحول معظم الشعراء الى سياسيين ! فالشعراء يكتبون في السياسة اليومية ، وأهل السياسة يتحفوننا ببيانات شعرية تحلق في عالم الخيال والوهم ، كأن همها خلق لغة شاعرية جديدة ، تحملنا على أجنحة الحس الموهوم بالقوة والعظمة . يكاد المرء يتساءل : ألا نكون أفضل حالاً لو استلم أهل الأدب الحكم عوضاً عن معظم حكامنا ، وانصرف بعض أولئك الحكام الى نظم القوافي وكتابة الشعر الحماسي الناري ؟

لماذا لا يتبادلون المواقع ، اذ ربما تتحسن الأحوال ، ما دام ليس بالامكان أسوأ مما هو كائن في بعض الأماكن ؟

* * *

لقد سقط نصف لبنان بعد جنازة غزلية لفظية رائعة ، ازدهر فيها عشق البطولة والدفاع عن العروبة حتى آخر لبناني وفلسطيني (فقط !) ، والتهب (لغوياً) مدفع التهديد والتنديد ، والشجب والاستنكار والاحتجاج . . و. . و. . .

ولم ينتحر مسؤول عربي (من أولئك) او يمرض ، او يعلن استقالته ، ومعظمهم فرح لأن النار لم تشتعل في أرضه ، دون أن يصدق أن حريق لبنان هو حريق في غابة العروبة، وكحرائق الغابات كلها ، لا تدري إلى أين تمتد به الرياح ، وأي الأراضي يلتهم .

لكن الجنازة اللفظية ستستمر ، والحرب اللفظية ضد العدو سيعاودها الازدهار ، ودونما خجل سيعيد بعض المسؤولين العرب قراءة خطبهم العتيقة عن سحق العدو

وتدميره والقذف به الى البحر وغير ذلك .

حسناً . لماذا يضايقنا الأمر ما دمنا نعرف ان الشعب العربي لم يعد يصدق كلمة واحدة من أقاويلهم ، و (الفعل) وحده صار قادراً على إقناعه ، بعدما كشفت له الأيام هزيمة بعد أخرى ، اتقانهم المهني للكذب ؟

لماذا يغيظنا ان معظم ساستنا يهيمون في وادي الحرف ، وينتقون لنا أعذب الكلام وأكذبه ؟

هل هي عداوة (الكار) ؟ غيرة فنية لأنهم يبزوننا في (فن القول) ويخذلوننا في (ساح الفعل) ؟

ليت الأمر كان بهذه البساطة . ليت الأذى الذي تسببه أكاذيبهم لنا تتوقف عند مرحلة (الخداع) ، وهو خداع بطل سحره علينا منذ زمن بعيد .

* * *

الأذى الذي تسببه أكاذيبهم يصيبنا على الصعيد العالمي . انه ببساطة المبرر الذي تتذرع به اسرائيل لتدمير بيوتنا وقتل اطفالنا وتشريدنا من أرضنا . كأنهم يكتبون لها خطبة دفاعها عن نفسها ، بعد كل غارة تحرق فيها حياتنا وزمننا وأجسادنا .

بيغن يرسل جنده لارتكاب الجريمة ، ثم يبررها وأعوانه بمقتطفات من أقوال بعض (ثوريينا) المسالمين ، وبعض حكامنا المهادنين عملياً ، المقاتلين لفظياً و(تهديديا) . . . الذين قضوا الأسابيع الأخيرة ، والنار تلتهم بيوتهم ، والقلق ينهش حياتهم وهم يلاحقون الأخبار من إذاعة الى أخرى ، ومن قناة تلفزيونية الى أخرى ، لا بد وانهم لاحظوا الثمن الباهظ الذي يدفعه الشعب العربي ، مقابل عشق بعض سياسيينا للكلام الحماسي التهديدي الفتاك الألفاظ .

فالذي يحدث هو ان يطرح المذيع الفرنسي على السفير الاسرائيلي في باريس مثلاً استفساراً حول مبررات هذا العدوان الرهيب على لبنان ، وما نجم عنه من سقوط عشرات الاف الضحايا البريئة وتشريد أكثر من نصف مليون بريء . .

بماذا يجيب السفير الاسرائيلي ؟ نتحفز . ننصت . السفير ليس بحاجة الى الاجابة ، انه ببساطة يقرأ مقتطفات من أقوال بعض زعمائنا و(ثوريينا) وحكامنا ، يعلنون فيها عن عزمهم على إبادة الشعب الاسرائيلي وقذفه في البحر . (الى آخر المعزوفة التي نعرفها عن ظهر قلب) . والمفجع أن معظم الأسماء التي ينقل لنا أقوالها الحماسية الحربية ، تصرفت خلال الحرب بلطف العذراء الخجول ، فلم نسمع لها

صوتاً ، ولم نر لجيشها اثراً . . وبخلت علينا بحمرة الخدين . . او الهمس !

هذا الاسلوب في الإجابة ، مارسته الصهيونية في وسائل الاعلام الغربي كعذر أساسي في معرض تبرير حملة الأبادة الفظيعة تلك . . والصحافيون المنحازون لاسرائيل يحملون أرشيفاً يضم مختارات من « ديوان الحماسة » العربي الجديد ، وكلما وجه أحدهم الى اسرائيل اتهاماً ، جابهوه بأقوال عربية تهدد بـ (الفعل) ، والويل والثبور وعظائم الأمور . . . فيقتنع الرأي العام الغربي ، والفرد العادي ، بأن اسرائيل (المسكينة) مرغمة على اداء تلك الحرب البشعة دفاعاً عن نفسها ضد أعدائها (الصناديد) الذين يتحدث معظمهم عن الحرب ، لكنه ـ للاسف ـ يمارس السلم بانضباط قل نظيره . .

* * *

لقد كانت (التصريحات الحربية) الكاذبة لبعضنا أمضى سلاح ضدنا ، فقد شكلت خطبة الدفاع لاسرائيل . ولعب بعض ساستنا دور محامي الدفاع عن بيغن ، دون أن يدري أن عشقه للطباق والجناس والحماس سيكون وثيقة يذبح الأبرياء بموجبها ، وان القاء الكلام على عواهنه أمر خطر مع عدو كإسرائيل . . وان تكرار كليشيهات حماسية تقليدية هرباً من قول لغة جديدة هي (لغة الفعل) او الصدق ، سيودي بنا الى التهلكة ، ولن تبقى لنا غير لغة الرثاء والشفقة على الذات الملازمة لأخلاق الذين يتملقون (الفعل) من بعيد دون ملامسته الا على سبيل (التصريف)!

وقد يتذرع أحدهم بحجة (رفع الروح المعنوية) للشعب ، وهي حجة باطلة أسقطها الزمن ! وتحولت الى تبرير اسرائيلي لـ (قبض ارواح) الشعب .

الصدق وحده صار بوسعه ان يرفع (روحنا المعنوية) بعدما ازهقت آلاف الأرواح على مذبح الأكاذيب وخداع الذات .

* * *

نعم ، تصريحات بعضنا هي أمضى سلاح ضدنا ، والبسطاء في الغرب يجدون فيها وثيقة إدانة لنا . ونجد أمثلة كثيرة لذلك في زوايا بريد القراء في مجلاتهم وصحفهم . مثال : جريدة « هيرالد تريبيون » ـ العدد ١٩٨٢/٦/٢٢ ، يكتب مواطن عادي رسالة من هذا النمط . . . يذكر فيها ببعض أقوال زعماء منظماتنا (الثورية) حول ابادة الشعب الاسرائيلي ، ويرى فيما يدور بلبنان نوعاً من تذوق (الكأس) التي قررنا أن نجرعها لليهود : الاذلال والعذاب .

نحن صرنا نميز الكلام الذي يقال عندنا لـ (الاستهلاك المحلي) ، لكن الغريب لا يميز ، ونظرية الاستهلاك المحلي سقطت في عصر الأقمار الاصطناعية والتلكس ، وانتقال الأقوال بسرعة الضوء . ولم يعد ممكناً للساسة العرب ان يكونوا الـشيء ونقيضه في آن .

الشاعر اللبناني خليل حاوي كتب « قصيدة الصمت » ليلة اغتيال لبنان ، وانتحر مطلقاً النار على رأسه . فأمام حدث كهذا ، حتى الشاعر يجد حرجاً في مقارعة اللغة . وكل ما نتمناه على بعض أهل السياسة هو الخروج من لغة الشعر الى لغة الفعل او الصدق ، او مغادرة (كراسي الحكم) وتركها لشعراء (آخرين) ، يملكون الأصالة على الأقل . . . أصالة . تزويج القول بالفعل . . . وإطلاق رصاصة ! !

١٩٨٢/٧/١٩

كرنفال تحت القصف

توفي الرجل الثري ، فدخلت الأسرة في الطقوس . نصبت الموائد فوق جثته . أحضرت الطعام من أفخر الفنادق . الجرسونات في الثياب الرسمية . النساء في ثياب (الحزن) السوداء الأنيقة . . وبدأت معركة التشاوف البورجوازية على بساط الكفن الأبيض . هذه ثوبها ماركة (ايف سان لوران) ، والأخرى (فالنتينو) ، والثالثة (حلفت) على أسرة الفقيد بأن يكون (الطبخ عليها) يوم (الختم) ، واستعرضت ثراءها في تلك المناسبة ، فكان الطعام الفاخر يقدم في مجموعتها الخرافية الثمن من الفضة المطعمة بالذهب ، والصواني التي تمدد فيها ما لذ وطاب من الخراف والأسماك والدجاج ، وكل ما يخطر بالبال . . وفي أيام (التعزية)، ينسون الفقيد تماماً ، وينصرفون لأمور أخرى منها التنافس في ارتداء الأثمن والأغلى ، وتلاوة الثرثرة عن روح الفقيد ، والتهامس (والقال والقيل) . . . جثة الفقيد ساحة لمعركة التنافس على استعراض النفوذ والثراء . . . وقت مهدور . طاقات مهدورة . نقود تذهب في بالوعة (الأصول) والعادات الموروثة .

وهذا كله يحدث في بيروت ، بينما القصف يدوي في مكان ما ، ومعركة بالرشاشات في الحي المجاور ، وعند سور القصر ، كمن فقراء لاحدى السيارات وسرقوها ، وعلم أهل (حفل الوفاة) بذلك ، ولم يلحظوا العلاقة الوثيقة بين ما يقترفونه (داخل القصر) ، وما اقترفه الفقراء (خارج القصر) !

* * *

وإذا تزوجت ابنة الثري ، كان لا بد وأن يتم الزواج بينها وبين ثري آخر ، لأن النقود تتزوج بعضها بعضاً ! وتتكرر مهزلة البذخ والتشاوف واستعراض الأزياء والثرثرة والطعام المكدس في صواني الفضة والذهب ، المهدور في احتفال مكرس لاستعراض القوة الشرائية لدى العائلة الثرية . . . وتتبع حفلة الاستعراض احتفالات للتنافس بين

أهل العريس والعروس والأقرباء . . .

هذا عشاء لاستعراض تحف القصر وما يضمه من أواني (السيفر) الثمينة و (الجالية) ، والسجاد العجمي والكريستال المطعم بـالفضة . الخزائن الزجاجية الواجهات ، التي كدست فيها الأوعية الفضية والأباريق الذهبية ، تكفي وحدها لافتتاح دكان لبيع الفضيات ! . . . وهذه (صبحية) يقدم فيها طعام الافطار الفخم وحلواه لعجائز مصابات بالسكري والكولسترول والضغط العالي والشراهة نحو كل شيء . . . وهذا حفل شاي أقيم لاستعراض فناجين الشاي (الروزنتال) الثمينة ، و (جاتوه) يكفي ليقيم أود اطفال ميتم لمدة شهر على الأقل ، والنساء مغطيات بـ (آخر صيحات الموضة الباريسية) وبآخر (همسات) الفضائح البيروتية . . . والحوار الذي يدور كأنه مكتوب سلفاً ، وتلقنه كل أم لابنتها ، وهو يتعلق بقضايا مصيرية مثل : الخادمات . الثياب . المجوهرات . الفضائح التي يتوهمونها سرية ، ويروجونها كمجرم مع عملته المزيفة . وإذا تصادف أن أخطأت احداهن وقالت كلمة عن وضع البلد (سياسة) فكل ما سيقال لها هو (ما هذه الحالة السيئة !) . مجرد عبارة استنكارية (للحالة) ونصف محايدة ، كأن عالمهن (النائي) ، المنفي في مستنقعات التقاليد الآسنة ليس مسؤولاً عن أي شيء مما يدور خارج أسوار القصر . . . ولا يملكن له غير الاستنكار شبه اللامبالي .

* * *

هذا كله لا يحدث في بلد مستقر ، أو عاصمة أجنبية تقطنها جالية ثرية مجهولة الأصل والمولد . هذا الكرنفال ما يزال يقام في بيروت تحت القصف، ووسط الموت والدمار والخطف والقتل والسيارات المفخخة . .

وهو (أي الكرنفال) في نظري من بعض رعب المدينة . . . . وأنه الرعب الذي يرتدي قناع اللياقات الاجتماعية ويمشي على سيقان المجاملات ليحمل الدمار الناعم الأفعواني الملمس كيفما تنقل . . .

سبعة أعوام من الأحداث المريرة في هذا الوطن المعذب ، ولم تومض في عيون البعض لحظة وعي اضافية . . . سبعة اعوام من الدمار والخراب ، و (البورجوازية) اللبنانية ما تزال تصر على ممارسة حياتها كما هي ، مثل قطيع من النمل الجرار الذي يمشي بفعل الغريزة ، ولا يتوقف لحظة ليتساءل : الى أين ؟ وماذا بعد ؟ ما (معنى) ما أقوم به ؟

سبعة أعوام ، تبدل فيها وجه المدينة ، ولم تتبدل الخارطة النفسية للبورجوازية البيروتية : وإذا قتل أحد أفرادها في حادث له علاقة بالواقع السياسي اللبناني ، فالأسرة غير معنية بالتوقف ولو لبرهة أمام مدلول هذا الموت ، وجرس الانذار الذي يقرعه ، والبرقية التي يحملها .

سيتابع اتحاد الأسر البورجوازية ممارسة طقوسه المسرحية حتى النهاية ، كما يتابع الانسان الآلي مسيرته وفقاً للبرمجة المسبقة التي أملوها عليه . . . وأولئك تمت (برمجتهم) منذ عصور . . . وزالت مبررات تلك العادات . . . وبقيت هي بعد أن نمت نمواً سرطانياً شوه مدلول جوهرها العتيق .

* * *

من زمان ، كنت أتأمل أولادهم وأقول لنفسي : سيكبر الأولاد ، وسيتبدل الحال . المرعب أن من كبر من الأولاد جاء تكراراً للأهل . . . صورة نفسية وفكرية عن عجائز الأسرة ، وقد تقمصت أجساداً شابة . العقلية نفسها . الممارسات نفسها . فاتحاد الأسرة يكاد يكون مؤسسة لغسيل الدماغ ، وتحصين الأولاد ضد كل فكر جديد ، وتلقيحهم ضد إعادة النظر ، لضمان نموهم ديناصورات طبق الأصل عما سبق .

ويبذل جهد خاص أيضاً ليحمل الأبناء اسماء الأجداد القديمة ذاتها . . ليكتمل التكرار اسمًا ونفساً وأفكاراً : الرأس أداة لابتلاع الطعام وحمل الشعر المصفف ، الجسد أداة لارتداء رموز القوة الشرائية للعائلة ، كالماس والفراء ، وللتكاثر طبعاً . الحياة مكرسة للثرثرة ، والحسد والرياء والشماتة وجمع النقود . . . المزيد من النقود . . دوماً المزيد من النقود . أما الانفاق فقضية أخرى ، والقاعدة الذهبية في هذا المجال ، هي البخل الشديد في التعامل اليومي مع (صغار الناس) ومع الذات ، والبذخ الكبير في المناسبات العلنية على خشبة المسرح الاجتماعي ، أي باختصار ، بخل مع الخادمة الفقيرة ، وبذخ مع الجار الغني .

* * *

وإذا تصادف وشب أحد أولادهم على غير ما شابوا عليه ، لا تدخل الأسرة في (معركة مباشرة) معه .

فالمؤسسة اكتسبت على مر الزمان خبثاً يكاد يكون غريزياً وبهيمياً . لا معركة مع

(النعجة السوداء) خوفاً من شماتة القطيع ، واهمالاً لشأنه ، وتركاً لباب التوبة مفتوحاً أمامه !

فإذا التقط أحد أطفالهم جرثومة الوعي ، ونذر حياته لـ (يقين فكري) فالأسرة ستتحدث عنه بحسرة كأنه مات ، وسيعتبر غيابه عن الطقوس بمثابة عصيان . فالذهاب الى احتفالاتهم لا يعني حقاً (التعزية) بالميت أو (الفرحة) بالعريس ، لكنه فعل انتماء الى العشيرة وولاء لأسلوبها في الحياة ، وموقفها من المجتمع . . . وهذا الموقف مليء بالتعالي المترفع ، الذي يخفي عجرفته خلف قناع (الأعمال الخيرية) العلنية ، أو انضمام النساء الى الجمعيات الخيرية ، حيث تكون الأمور واضحة التمييز بين البشر : هذا فقير نتصدق عليه ، وهو ينتمي الى طبقة أخرى دونية . ثم ان الجمعيات الخيرية فرصة اضافية للتشاوف واستعراض الثراء تحت ستار التبرعات والاعانات و (عمل الخير) الذي لا يخلو أحياناً من شر سري ساطع الخبث ، فالمطلوب انتفاء الحاجة الى الجمعيات الخيرية لا المزيد منها .

* * *

هذه الممارسات اليومية لـ (الهاي سوسايتي) اللبناني ، في بيروت بوجه خاص ـ بصفتها المقر الرئيسي لاتحاد البورجوازية اللبنانية ـ تثير الدهشة والرعب معاً .

ألا يريد أحد منهم أن يرى البعد الطبقي للمأساة اللبنانية ؟ ألن يلحظ أن زنار البؤس الذي كان يحيط بالعاصمة تحول الى زنار من العنف والنار ؟

لماذا لا يتعلم بعض الأثرياء الحكمة الا على المقصلة أو فوق كرسي المشنقة ؟

وسط هذا الموت كله ، وأمام عيون الفقراء والمهجرين والمقاتلين والقتلة ، والأبرياء والأوغاد والعملاء والثوار الأنقياء والصعاليك والشعراء ، وكل ما تفور به بيروت من تجمعات بشرية متناقضة ، تستمر هذه الطبقة في متابعة حياة ما قبل الحرب ، مصرة على أنها الحق والصواب، وكل ما حدث خلال هذه الأعوام الأخيرة يجب أن يمسح من الذاكرة ويتم نسيانه ، ليعود كل شيء كما كان . . . فما داموا هم لم يتبدلوا ، لماذا يتبدل من حولهم ، وما حولهم ؟ . .

ولا تزال (بنات العائلات) في بيروت يذهبن الى مدارس تعليم (الباليه) تحت القصف ! وما زال الصبيان يجلسون الى (البيانو) والملاعق الذهبية تتدلى من أفواههم ليتابعوا دراسة العزف ، لا حباً بشوبان وبيتهوفن ولكن لأن (الأصول) تقضي ذلك

حتى سن معينة ، ولأن الأب سبق له أن عزف على هذا البيانو حتى بلغ سن الفتوة كما تقضي (الأعراف) بذلك ، وبعدها ينصرف الى التنس أو ركوب الخيل وربما التمدد تحت الشمس (لا السباحة) في أحد نوادي الارستقراطية البحرية .

ولعل بعض التجديدات العصرية أدخلت الى الطقوس القديمة ، لكن التجديد اقتصر على الديكور ، ولم يتسلل الى جوهر الممارسات .

من الديكورات المستحدثة مثلاً ، بيوت بيع الثياب المستوردة من عواصم الموضة حيث يكون معروفاً أن السيدة (فلانة) اشترت ودفعت ثروة باهظة ثمناً لفستان ما ، لا لتكتسي به ، ولكن ليقال أنها فعلت ذلك . وثمة ديكور بيع المجوهرات في البيوت ، حيث تجتمع النساء في بيت ثرية مثلهن ، ويتم نوع من المزايدة على (جوهرة) ما ، بحيث يكون معروفاً اسم السيدة التي ابتاعتها ، وكم دفعت لذلك ، فيزداد نجمها بزوغاً ! وحذار من التوهم بأن هذه التفاهات كلها فعاليات (نسائية) . فالرجال هم عماد هذه الممارسات الفارغة ، وهم يزودون النساء بالمال ، ويشدون من أزرهن لمتابعة نمط الحياة هذا ، فتتخدر المرأة ، وتساهم أيضاً في تخدير المجتمع بأسره . ان الاتحاد بين النساء غير الكادحات ، وذكور البورجوازية أمر مرعب على الصعيد الاجتماعي قلما يتطرق اليه الخلل ، وإن كان رجال هذه الطبقة يتنصلون أحياناً من الأمر ، ويتحدثون عنه بعطف أبوي مصطنع !

* * *

الرعب الأعظم هو أن معظم (الفقراء) الذين اغتنوا في سنوات الحرب الأخيرة ، خرجوا من طبقتهم ونسوا ما كان ، وصار همهم الانضمام الى نادي (الهاي سوسايتي) العربي اللبناني ، والبورجوازية - غير الكادح منها . .

في حربنا المركبة سقط عدد كبير من الفقراء شهداء على مذبح الحلم بالعدالة والتبديل الاجتماعي . . . لكن التبدل لم يكن بحجم الخسائر - حتى الآن .

عدد الفقراء قد ازداد . . . وعدد الأثرياء قد ازداد . . والكرنفال ما يزال راكضاً تحت القصف ، يتابع لعبته الأولى ، مع اضافات طفيفة في الأسماء هنا وهناك ، وفي أسماء مرابع اللهو وبعض القيمين على ادارة المقاصف . . .

والبورجوازية العتيقة المحنكة ترحب بهذه المصاهرة مع طبقة الأغنياء الجدد ، كي يتعزز التحالف ضد الفقراء الذين ما زالوا يتناسلون ويتكاثرون ويقتتلون وجثثهم تتراكم حول سور القصر . . . والاحتفال داخله ما يزال قائماً . .

إن البعد الطبقي لجوهر ما يدور في بيروت (دون اهمال الأبعاد الأخرى) يبشرنا بأن الحرب اللبنانية لم تبدأ بعد حقاً . .

وإن ما مضى كان مجرد (افتتاحية) للحركة الأولى في سيمفونية العنف الآتية . . اذا لم . . .

١٩٨٢/٦/٢

وراء كل أديب عظيم . . جلاد

قلب الفنان العربي هذه الأيام ليس على ما يرام . وها نحن نتمزق واحداً بعد الآخر ، كل على طريقته. نحن السذج الذين احترفنا تجميل العالم وتبديله بالقلم (!) واخترنا الأبجدية العزلاء سبيلا ،، كمن اختار الأرنب اللطيف حليفا في عصر الصواريخ النووية .

الزمن الرديء يطحننا، وتلك الحقبة المظلمة من تاريخ العرب في بعض الأقطار تدمي أفئدتنا ، وتعطل مهمتنا . نحن الذين انحزنا للفن ضد البشاعة ، نبدو اليوم كمن اختار موته موزوناً مقفى ، ونصب مشنقته بيديه على (عمود) في صحيفة أو مجلة ، وادخل عنقه في الحبل المجدول بقصائد الأولين ، ممارساً الشنق الذاتي أسبوعياً أو يومياً وفقاً للاتفاقية مع المشرف العام ورئيس التحرير !

* * *

ماذا نكتب ؟

ويلنا من (بعض) الآخرين اذا قلنا الحقيقة كاملة ، وويلنا من أنفسنا اذا لم نقلها .

ويلنا من بعض الأنظمة اذا صارحناها بما يجول في قلوبنا وقلوب الناس من استفسارات تبلغ حد الاتهام ، وويلنا من صمتنا المضغوط المحشو باشارات الاستفهام والتعجب ، التي تواجهها علامات « ممنوع المرور » في درب الحوار ، و « ممنوع الوقوف » على أرصفة الحقيقة ، و « ممنوع التصوير » ، تصوير الواقع والحلم .

لقد كانت السنوات العشر الأخيرة التي عاشها الفنان الأصيل في بيروت وغيرها جحيمًا حقيقياً لكل مبدع لم ينس بعد جوهر مهمته ، فواجه قسوة الغريب والحبيب ، وطعنات الحلفاء والأعداء ، وإذلال بعض الذين يتفق وإياهم في الرأي ، والذين يخالفهم الموقع ، وقمع (الذين) وقف الى جانبهم ، والذين وقف ضدهم . كأنما كان

الاجماع الوحيد بين معظم الفرقاء هو تعطيل الفن الحقيقي ، وبالتالي ذبح الأبجدية من الوريد الى الوريد .

وواكب هذه البشاعة نموسرطاني في (كمية) المطبوعات الدورية ، وتم اختراع (أدباء) لكتابة الكليشيهات المقررة ، و(نقاد) لخلق رغوة مناخ ثقافي ، ومصفقين لتلك (البيانات) بغض النظر عن قيمتها الابداعية . .

وسط هذه (الهمروجات) المتعددة الأصوات والايقاعات ، الهائلة الصخب والتهويش ، الراكضة على الخط بين الترغيب والترهيب ، كان الوطن ينزلق الى هوة العنف والفوضى ، وضياع التطابق بين القيم والممارسات ، وسيادة الغوغائية الغاشمة على الحوار والوعي والنبل الانساني .

وانفجر قلب الفنان العربي . . . .

* * *

خليل حاوي لم يمت منتحراً ولا مقتولاً . كان يحاول تناول جرعة مهدئة للقلب من مسدسه . كان ككل فنان، لا يعرف بالضبط أين يقع قلبه . في جوفه؟ في رأسه؟ في يده ؟ في ساحة قريته ؟ . . ثمة لحظات كثيرة يشعر فيها المرء أن الأشياء كلها تقع داخل رأسه : القلب حين يتعذب ، والكبد حين يثمل ، والنبض حين يجن ، واليد حين تشل . وهو حين أطلق الرصاصة على رأسه ، كان يصوبها نحو قلبه عله يهدىء قليلاً من تسارع الرفض الملحاح .

* * *

قلب شاعر كبير آخر أعلن العصيان هذه الأيام ، هو قلب نزار قباني . حملوه الى المستشفى . قصوا عنه قفص العظام فوجدوا في الداخل عصفوراً حزيناً يبكي . لمعوا ريشه المنتوف ، وزرعوا له شرياناً جديداً قرب جناحيه ، وبدلوا له الماء والدم ، ولكنهم خدروه ، فلم يستطع القول لأطبائه لحظتها ، أن المطلوب هو تبديل أغصان الحديقة المحروقة ، لا تبديل ريش العصفور . نزار قباني ليس مريضاً بالقلب . انه مريض بالوطن ، لأن الوطن يقطن قلب الفنان بكل كوارثه وأفراحه .

وكم كانت أفراحنا نادرة في الحقبة الأخيرة. أولئك الأبرياء كلهم الذين تساقطوا في بيروت ، تساقطوا داخل قلب نزار . تلك البيوت كلها التي انهارت على رؤوس الأطفال وألعابهم وأقلامهم الملونة وزجاجات حليبهم ، انهارت داخل قلب نزار . الذين عذبوا في دهاليز الارهاب والقمع دوت صرخاتهم في أرجاء قلب نزار . شهية الناس للحياة

الطبيعية المعافاة تفجرت آهاتها داخل قلبه . تلك القلوب التي نبضت بجنون توقاً الى الغدالة والحرية والعيش بكرامة ، نقلت ضرباتها المجنونة الى قلبه . مصرع تلك السيدة العربية الرائعة بلقيس الراوي ، زوجة نزار ، لم يكن موتاً عادياً فردياً . . كان موتاً رمزياً شاسعاً يغطي الأفق بالعار . البناء الذي انهار فوق رأسها ومئات الأبرياء كان فاتحة الانهيار الكبير ، ونبوءة المذبحةالشاملة . . وقلب الشاعر يعي ذلك كله حتى الانفجار . .

* * *

خليل (قوَّص)(*) قلبه . نـزار (قوصه) قلبه . فنانون آخرون يواجهون مآس أخرى مع قلبهم الضمير ، وقلبهم الشاهد والمقبرة ، مقبرة الأحباب والأحلام ، وقلبهم المعاند المكابر ، المصر على احتضان حلم بمنقاره ، حتى ولو كان حلمًا صغيراً بحجم حبة القمح .

كل يتعذب على طريقته .

هذا فنان يعيش صقيع المنفى ، وقلبه ما زال يركض في الوطن ، يقرع الأبواب ليلاً ، ويوقظ الأهل من نومهم ، ويمشي داخل كوابيس الأصدقاء ، ويمد لسانه للجلاد . . يكتب سراً ، ويقرأ لزوجته فقط ما يخطه من صدق قاتل ، فتتثاءب ، ويتعذب ممتلئاً بالخواء .

فالكلمة لا تحيا إلا حينما تلامسها أنفاس الناس . ولا تصرخ إلا حين تغادر رحم الظلام والسرية . وتتعذب حين يسجنها صاحبها ، كعذاب ذلك الطفل الذي سجنته أمه في الخزانة تسعة أعوام .

يتذكر الفنان سطوراً خطها في الأعوام الأخيرة ، ثم سجنها في الخزانة خائفاً . . فيشعر بالذنب نحوها ، وبالمهانة .

* * *

هذا قلب فنان اخترقته شظية عند أحد خطوط التماس ، فمات على طريقة الآخرين .

وهذا قلب فنان آخر يتعذب في الوطن ، يمزقه الهم الابداعي والهم المعيشي والهم (البوليسي) الارهابي القمعي . وهذه كاتبة معروفة ذكرت أنها صارت تجد صعوبة في

(*) قوص : أطلق النار عليه (باللهجة الشامية)

الكتابة ، وطبيبها أبلغها أنها مصابة بتسارع في القلب . ذلك وسام فني على صدر إنسانة مرهفة . وأنا أشعر بالخجل من قلبي المعافى مثل قروية ألفت المشقة والعذاب ، وأحس بالذنب لأنني لم أزر طبيباً إلا لأعوده اذا كان هو مريضاً .

كأن القدر يرصدني لانفجار واحد كبير لا رجعة فيه

* * *

ها نحن كالطيور المهاجرة صوب الغربة والموت . . نتساقط واحداً بعد الآخر ، لكننا نتابع مسيرة (الموت أبجدية) . . نشهق بحثاً عن نسمة حرية ، ومن وقت الى آخر يأتينا صوت (كومبيوتري) : أيها الأديب ، ماذا فعلت في الحرب ؟ ماذا فعلت في السلم ؟ فنريه أيدينا المقيدة ، ثم نقول له بصدق أن بعض الأنظمة يتمنى ألا نفعل شيئاً لا في السلم ولا في الحرب (غير التصفيق) واذا حاولنا (الفعل) فسيحول دونه بالأساليب كلها ، بالقبلة وبالقنبلة ، بالملاطفة وبالسوط ، بالهمسة ، وبالصفعة ، بشرائنا كعملاء ، أو ببيعنا للعملاء .

ففي بعض الأقطار ، وراء كل أديب عظيم جلاد .

* * *

لا تسألوا الفنان بعد اليوم ماذا قال وفعل وماذا سيفعل .

لم يعد بوسعه حقاً أن يفعل شيئاً في بعض الأقطار غير أن ينفجر قلبه بطريقة أو بأخرى . .

لا تسألوه لماذا لا يطير محلقاً . اسألوا الذين سلبوه الريح واحترفوا قص جناحيه .

لا تسألوه عن جزر الأعماق السرية . اسألوا الذين سوروا البحر ، وزرعوه بالألغام وأسماك القرش والجثث .

لا تسألوه لماذا لا يبوح . اسألوا الذين استبدلوا حبره بالماء ، واختطفوا العصافير عن الأشجار كلها ، وقصوا الغابات ليصنعوا منها الأقفاص .

لا تسألوا الأديب لماذا لا يكتب ، بل استجوبوا الذين حكموه بانفجار القلب حين استبدلوا كرسي الكتابة بالكرسي الكهربائي ، وهددوه بالتيار اذا لم . .

١٣/٩/١٩٨٢

عن نخلة عراقية

بلقيس الراوي . .

قدمها الي قريبي بالدم ، تشدني اليه اواصر عائلية ، وقريبي بالفكر والروح ، الشاعر الكبير نزار قباني وقال لي : زوجتي .

كانا (عروسين) . وكنا نقف على شرفة بيته البيروتي ، والليل المقمر يتدفق ضياء ماسياً بلا ظلال .

تأملتها . جميلة حقاً . فارعة القامة كنخلة عراقية . شقراء الضفيرة . ناصعة البياض . تسري في عسل عينيها خضرة عذبة حين تضحك .

نضرة وشفافة كبرعم مداري .

قلت لنفسي يومئذ : كأنها حلم شاعر تجسد في امرأة . كأن ملهمة اشعار نزار تخرج من قصيدة ، وترتدي جسد انثى. كأنه هو الذي كتبها حرفاً حرفاً واصبعاً اصبعاً . . سطرها قصيدة خرافية ، ثم ضرب الورق بقلمه ، وصرخ في القصيدة : انطقي . . فخرجت بلقيس من صدفة الشعر .

* * *

لم أكن ادري ليلتها انني قابلت قشرة بلقيس الراوي . تلك القشرة الخارقة الحسن ، التي طالما بهرت عيون الكثيرين ، فسهوا عن تأمل جمالها الاعمق والأكبر : جمال الروح والجوهر . .

كانت بلقيس في نظر الكثيرين تلك الجميلة التي احبها الشاعر الكبير ، وألهمته احلى كلماته الخالدة . . وهي كانت كذلك حقاً ، لكنها ايضاً كانت شيئاً آخر . . كانت ذلك كله ، و (اكثر) .

اسرة نزار ، واصدقاء نزار ومعارفه ، الذين اتاحت لهم الظروف معرفتها عن كثب ، اكتشفوا في بلقيس مزايا اضافية لا تعنى الجميلات غالباً بتنميتها . .

كانت مثقفة من الدرجة الأولى ، وامرأة عاملة ، على جانب كبير من الجدية والعمق والرهافة ، والوعي القومي والانساني ، كان احلى ما في الجميلة حديثها ، ولم تكن ثرثارة . واخصب ما فيها حنانها الذي لم يقتصر على اطفالها الثلاثة : زينب (١٢ سنة) ، وعمر (١٠ سنوات) وعلى رأسهم شاعرنا نزار ، وانما امتد ليشمل كل قريب وصديق .

* * *

ليس بين اصدقاء نزار واحبائه من لم يحترمها ويقدرها ، او يسر اليها يوماً بهمه طالباً مشورتها . كانت لها مكانة كبيرة في نفوس الجميع . الذين اقتربوا منها وعوا كهارب حنانها ،وعفة لسانها ،وصفاء نيتها ،وحسن مشورتها ،وطاقتها النادرة على كتمان السر . . كلهم ، من كبار المبدعين والمشاهير الى أصغر طفل مسته يد طهرها وحنانها . .

وكلهم في هذه اللحظة يبكونها كما ابكيها ، وكلهم خسروها ، وسوف نفتقدها فيها بعد اكثر من الآن . . فموت امرأة كبلقيس جرح من ذلك النوع الذي لا يندمل حقاً مع الأيام ، وانما نزداد وعياً بأبعاده .

* * *

بلقيس احببناها مرتين . . .
مرة كزوجة لنزار ،
ومرة لذاتها .

وعرفناها مرتين . مرة كامرأة جميلة تلهم الشعر ، ومرة كمواطنة نادرة المثال .

فقد كانت مثال السيدة التي استطاعت احتواء شاعر من وزن القباني ، بانفجاراته كلها وبراءته الجامحة . وظلت اوفى له حتى من الابجدية العربية ، وانقى من احلامه نفسها . وفيها وجد المرفأ القادر على احتضان مراكبه الخرافية بعد طول تشرد وصيد وتيه وترحال .

لكن وجه بلقيس الذي طالما بهرني كان وجه المرأة العاملة . كانت بحق النموذج الناصع ، للمرأة العراقية بوجه خاص وللمرأة العربية الواعية بوجه عام .

لو شاءت بلقيس ارتداء تاج (النجومية) الاجتماعية لكانت جوهرته الاندر .

لكنها كانت سيدة عميقة الابعاد ، تجد سلامها النفسي في عملها واسرتها ، لا في اسواق الغرور . . وفي تحقيق مواطنيتها الواعية . . لا في الهرب منها الى صالونات الثرثرة

(النسائية) في بيروت ، التي لم تقلمها الحرب بل زادتها ازدهاراً كما نباتات الخرائب . .

بلقيس كانت نتاج حضارة عريقة . . وكانت تلك الحضارة الانسانية تتمثل في سلوكها ، وفي مظهرها ، وفي قراراتها ، سكوتها المتزن الواعي ، وصراحتها المتناهية اذا نطقت . . تلك الغالية الغالية . . هل سننجح يوماً في اخراجها من دورتنا الدموية ؟

* * *

بلقيس الراوي .

انتظرناها طويلاً ، فلم تعد .

تبدت لي في غيابها ظاهرة انسانية نادرة : انتظار الاطفال لها . لقد كانت بحق حبيبة الأطفال أيضاً . . والاولاد كلهم في مدارس بيروت كانوا يلاحقون مصير بلقيس ، الذين طالما احبتهم ، واهتمت بهم كاهتمامها بأهلهم (الكبار) . وحين اختفت قلقوا من أجلها بلا اقنعة ، وبكوها بصدق مؤثر . وحب بلقيس للاطفال كاد يقتلنا في قصف بيروت المفاجىء مرات عديدة . .

وكم من بعد ظهر كان يبدأ بعبارة من بلقيس « غادة . . حرام الأطفال مسجونون في البيت . . ما رأيك لو نخرج بهم الى السينما » وينتهي بحفلة قصف مفاجئة ننجو منها بأعجوبة . .

وكم خرجت واياها ، وقبيلة من اولادنا واولاد الحي من رفاقهم ، فذهبنا بهم الى السينما لنكتشف ضاحكات اننا اخطأنا الدار ، والفيلم للكبار . . وكان الاطفال يستمتعون بالفيلم ممتنين ، ونغفو نحن ! وفي درب العودة الى البيت ، تعلن بلقيس ان بائع (السندويش) ضرورة (اخلاقية) للاطفال . . فنسابق القصف الى بائع (الشاورما) ، وتنهال عليها الطلبات . . هذا يريد عصيراً . . وهذه تريد عسلاً . . وهذا يريد لبن العصفور . . وهي تعود بصبرها المشهور ـ الى قبيلة الاطفال وقد لبت اوامرهم كلها . . وتقود سيارتها بنا من جديد ، فيغسلون لها جدرانها وارضها باللبن وعصير التفاح ولا تتذمر . .

ومرات كنا ندخل بهم الى المقهى للعشاء ، فنحول المكان الى حضانة اطفال . . كأننا نريد ان يحتل الاطفال المدينة بالبراءة ، ويغسلون عنها بشاعة بعض الكبار . . . آه تفاصيل . . . تفاصيل صغيرة ، تحولت اليوم الى ذكريات ثمينة نادرة ، التقطها عن ارض الزمن البخيل كالدر النادر ، وكنت اظنها ستظل متوافرة كالحصى غير الملحوظ . . .

* * *

بلقيس الراوي كانت اميرة الجرأة .

وفي الاشهر الأخيرة اعلن نزار ببساطة خوفه من (السيارات) ، واعلنت خوفي من الليل ، ولم نعد نغادر بيوتنا بعد (المغرب) ، اما هي فقد كان ايمانها بالله والقضاء والقدر اقوى من الخوف . . مرات كانت تأتي لتزورني ليلاً ساخرة من ذعري ، فلا يهدأ لنا قلب ، نزار وانا ، حتى تعود الى البيت . ومرات كنا نستعيض عن الزيارة بـ (زيارة هاتفية) طويلة . . وكان نزار يقرعنا على استعمالنا (غير الحضاري) للهاتف ـ على حد تعبيره ـ وكنا نعترف بانه على حق ، ثم نتابع الحوار . . فيقرعنا من جديد حتى يضجر من (اصلاحنا) . .

آه لن يرن الهاتف بعد الليلة . مضت الغالية ، ومات الحوار .

تفاصيل . تفاصيل صغيرة .

وبصعوبة يغادر القلب وعر شطآن العاطفة ، الى سهوب الرؤية البانورامية ، والتقويم الموضوعي .

فقد كانت بلقيس تشتعل حباً ازاء الكون الكبير ، وكونها الصغير . . اسرتها . ام ابراهيم . نبال . نجود . . وسواهم من الذين عرفت ، والذين لم اعرف ، احببتهم من خلالها . صديقاتها العراقيات اللواتي طالما حدثتني عنهن بحنين احببتهن عبرها : سلافة . فائزة . معزز . مها . هناء . وسواهن . كلهن التقيت بهن داخل لحظات اشواقها الى بغداد ، حينما كنا نغادر بيروت الى البحر او الغابات . . وكانت لبلقيس (موهبة) عظيمة في نسيان (الحواجز) المسلحة المختلفة ، حين تقود سيارتها بين الموجة والشجرة . ومرة كدنا نقتل لأن المبدع (رودريغو) كان يعزف كونشرتو (آراجويز) للجيتار . . فقد اجتازت الحاجز ولم تلحظه برشاشاته وجنوده ، فاطلقوا رشقة نار للانذار . وقالت لي معلقة ببساطة : محمود درويش واسرته كادوا يقتلون معي في حادث مشابه !!

كان حبها لنزار من بعض حبها للطبيعة الخلابة . . وامام حبها لنزار ، وللطبيعة ، والموسيقى ، كانت تنسى حواجز البشر . . والقدر .

* * *

تفاصيل . تفاصيل . . صغيرة . .

عبثاً يلملم الحبر ذاته داخل عبارات تلخص بلقيس من بعيد ، لقد تحدت

وحوش المدينة وظلت تخرج كل يوم الى عملها بجدية نادرة ، وحس ناضج بالمسؤولية . . حتى . .

وذلك الصباح البائس ، هتفت اليها وقلت لها كالوسواس (غير الخناس) : هل تذهبين معي الى الغابة ؟

قالت كعادتها : « لا استطيع . عندي عمل كثير . فقط في ايام العطلة اذهب » . . .

ولم اكن ادري انها قررت الذهاب هذه المرة الى الغابة الكبيرة الكبيرة . . . وحدها . .

* * *

جرحك عميق يا نزار . . نافذة مفتوحة على سراديب الحزن ، فكيف نخاطبه ؟

والقدر يسرف في امتحانك بالشدائد . . . وما نكاد نهيل رماد السلوان على طعنة ، حتى يسدد الدهر الى قلبك النبيل طعنة اخرى .

يا كبير الشعر والمصائب . . عايشتك عمراً من الأحزان المتلاحقة ، منذ كنا جيراناً في بيوتنا الوادعة العتيقة في دمشق ، حتى صرنا جيراناً في عراء زمن بيروت ، بيوتنا خيمة ذعر ، سقوفنا الموت العشوائي ، وابوابنا اغطية توابيت للمجهول . . هذه المرة ، ذهبت امرأة الخصب وتركتنا لايامنا المالحة . . ذهبت الجميلة وتركتنا نتعذب ، فنحن نعرف جيداً انها لم تكن مجرد جميلة اخرى . . . ذهبت نخلتنا العراقية النادرة . . . آه ، ماذا اقول لك ؟ !

١٩٨٢/١/١٨

بلقيس .. بلقيس

أربعة اعوام ، ولم أنس . لم أنس .

ما يزال الجرح نضراً وحاراً ، وما يزال صوتها متشبثاً بأذني لا يفارقها كهدير الموج في صدفة . ولم يتراكم الغبار على اهداب عينيها البحريتين ، ولم تنبت الطحالب واعشاب النسيان في حنايا شعرها الأشقر الخرافي الممتد الى الخليج كجرحي . . . ولم أنس مصرع صديقتي بلقيس الراوي زوجة نزار قباني . . فموت كل بريء في بيروت يذكرني بها ،وكلما سقطت ضحية جديدة بين فكي رخ العنف الأعمى هناك ، أشعر بأنها قتلت من جديد . . .

تلك السيدة الأم ـ القصيدة ، أضحت في ذاكرتي رمزاً لقتل الابرياء في بيروت على حافة منجل العنف الأرعن . . . وانا حين أبكيها عاماً بعد آخر ، أبكي فيها كل ضحية طاهرة سقطت دونما ذنب في ذلك الزمن المتوحش ، وأشارك بحزني فيها احزان مئات آلاف الأسر التي فجعها القدر بمصرع أحباء ابرياء كبلقيس .

* * *

اتذكر ، اتذكر ، وقلبي لا يشفق علي . أتذكر يوم شاهدتها للمرة الأولى ، وأخبرني نزار أنه اختارها زوجة .. تأملتها طويلاً وقلت في نفسي أنه بالتأكيد ذواقة نساء . لقد اختار أجمل امرأة عربية . . .

ولم أكن ادري أن قريبي الشاعر الكبير يختزن لنا جميعاً مفاجأة ، وأن الجمال الخارجي لتلك النخلة العراقية هو مجرد انعكاس لجمال داخلي كامل البهاء . تلك القامة الشاهقة ، والوجه خارق الحسن ، والبشرة الثلجية الشفافة ، والشقرة المضيئة ليست أكثر من عتبة الى أعماق تنضح وداً ونبلاً وأمومة وحناناً على كل ما يمر بها او يلامسها . . . وعقل راجح متزن يتوج بلقيس نموذجاً للمرأة العربية الأم والزوجة والعاملة والمثقفة والواعية لقضايا أمتها . . . . و . . وماذا أقول ؟

* * *

لقد أحبها عالم نزار . أحببناها جميعاً وتحولنا الى رعايا في مملكة عـظمتها الانسانية ، وسعيد من لم يزر شواطىء حنانها ، لأنه لن يعرف طعم غصتنا بها . . .

كانت صديقة الجميع ، وسيدة الجميع ، اسألوا عنها الاطفال ، والمبدعين والمكسورين . لقد كانت سيدة خارقة لا ينقصها اي شيء . . الا الموت . . وقد أكملت غصتنا بها . . .

* * *

كان لصداقتنا ذلك المذاق الطفولي . معها كنت أعود طالبة دمشقية مهذبة تروي لزميلتها في الاعدادية همومها ببساطة . معها كنت أشعر بالأمان اذا انزلقت ستائر أسراري عن فمي . وقبل مصرعها بأسابيع ذهبنا معاً لزيارة صديقتنا المشتركة المطربة الكبيرة فيروز . . وضحكنا وثرثرنا . . ومنذ غابت بلقيس وانا ارتجف كلما وقفت امام باب فيروز واتساءل : ترى هل سأجد بلقيس في الداخل بانتظاري ؟ . . . كنا نتكاتف معاً في وجه الموت والحزن ، ويوم اختطف المرحوم سليم اللوزي ، وجدنا انفسنا نذهب ثلاثتنا معاً لنتفقد أرملته الصديقة أمية . . كأننا نجد في صداقتنا حلفاً في وجه الموت والقسوة . . وحينما ضاعت منا بلقيس لم نجرؤ على ان نتحدث حول ذلك . . لا فيروز قالت كلمة ولا أنا . . . كمن يخشى أن يتحسس جرحاً موجعاً موجعاً . . .

* * *

كلما التقيت ونزار ، أراها داخل عينيه ، ويراها في عيني ، ولا نجرؤ على ذكر اسمها ، كأن كلاً منا يشفق على جرح الآخر ، ولا يحرك السكين التي يعرف أنها ما زالت مغروسة في أعماقه . . . . وكل لمسة تزيد النزف ألماً . اتطلع الى صورتها التي التقطها الفنان الدكتور صباح شقيق نزار واتذكر كم أحبتها اسرتنا . . هدباء . . رشيد . . معتز . . هيفاء . . بوران . . مها . . رنا . . دمشق كلها أحبت تلك النخلة العراقية وعلى رأسهن خالتي أم معتز رحمها الله ، والدة نزار . . . منذ غادرتنا بلقيس ونحن لم نقل كلمة واحدة عنها . . فحضورها ما يزال يسحقنا لأنه مصحوب بغيابها . . وحينما أرى صور شقيقتها نجود وألحظ الشبه في الملامح المميزة اتذكرها وأغص . . وحينما أرى صور هناء صديقتها تهب رياح الضحكات المشتركة وتجرفني الى شارع الحمراء ببيروت ذات زمن غابر . . وحينما تمر بي ابتسامة غزوة ومها وصبيحة وبقية الصديقات المشتركات اكاد ابكي . . وحين التقي الأديبة ديزي الأمير رفيقتها في غرفة المكتب نبكي معاً . . . وحين أسمع اللهجة العراقية قادمة من صوت انثوي حنون ،

تهاجمني ذكرى نبرتها المحببة ، وأقف على حافة الانتحاب داخل كهف الذهول . . .

* * *

وحين شاهدت زينب وعمر ، طفليها ، في فناء المدرسة الداخلية بسويسرا اختبأت خلف شجرة ، وانتحبت بصمت . . خفت أن يلمحاني ، وأن ألامسهما وتهب منهما رائحتها وملامحها وأفشل في لملمة اشلائي ، وأسبب لهما المزيد من غصات الطفولة . . .

وحين يأتي عيد ميلادي السري كل عام ، أفتقدها وأعرف انها لن تقرع بابي بأسلوبها الخاص المميز ، وتترك لي عند الباب هديتها وتمضي دون ان تراني لأنها تعرف أنني أكتب ولا تريد إفساد ذلك ! . .

شفافة كانت ، مرهفة ، ذكية ، معطاءة . تركت لي مرة امام بابي شجيرة جاردينيا هدية لميلادي ومضت . . ولا أدري لماذا لم تزهر الشجيرة ، وصارت موضوعاً لتندرنا كلما زارتني . . . وظلت نبتة الجاردينيا تسخر منا بأوراقها الخضر . . . وفي العام التالي حملت لي بلقيس قالباً من الحلوى له شكل بومة لأنني أحب البوم . . . كانت طريفة كطفلة وراجحة العقل كفيلسوفة .

* * *

حين اقترب عيد ميلادي في العام التالي لغيابها افتقدتها أكثر . . . وتوجعت . . . وفوجئت ليلة ميلادي بأن نبتة الجاردينيا العصية قد انشقت عن وردة واحدة خرافية الجمال والرائحة . . . وقفت امامها خائفة ومذهولة وانا أحسها هدية قادمة من العالم الآخر ، تحمل رائحة صاحبتها ودفء قلبها الشاسع . . . قطفتها بخشوع ، وهمست في الظلمة : شكراً . . . وكنت أعرف أنها تسمعني . . .

* * *

أربعة أعوام ، ولم أنس .

واعرف أن أساطيل حزني لن تبدل في حركة المد والجزر على شطآن الزمن . . لن تزيدها ولن تنقصها . . ولكني لا املك الا أن أتألم كمن يتآكل من الداخل دونما جدوى . . . . اربعة أعوام ، والجرح حي وساكت كلغم . .

فهل يبلغ حزني سن الرشد ؟ أم ان فجيعة كهذه تظل في رحم الذكريات طفلة الى الأبد ؟ . . .

٨٥/١٢/١٥

غبار النجوم وتراب الوطن

الأرض مسطحة ، محمولة على ظهر أربعة أفيال ، والأفيال واقفة على صدفة سلحفاة ، والسلحفاة في بحر لا أول له ولا آخر . هكذا كان الهندوس القدماء يتصورون الأرض .

وبهذه العبارات بدأت كتابي (السري) عن الفلك ، الذي صدر منذ أعوام دون أن يحمل اسمي . فقد كان جزءاً من مكتبة تثقيفية تعدها إحدى دور النشر لدولة عربية . ويومها ، كان كتاب (عالمنا) من نصيبي . وقد ترجمته عن مصادر مختلفة ، معظمها معاصر ، وأسعدني يومئذ أن أقوم ببحث حول موضوع شغلني منذ طفولتي .

* * *

معظم الذين قضوا طفولتهم ـ أو بعضهـا ـ في قرية ، يكبرون والعلاقة وثيقة جداً بينهم وبين الطبيعة . . والسماء . (واعني هنا السماء بمعناها الحرفي) . .

فسماء القرية في الليل ، لا تمزق قبتها سطوح البنايات الشاهقة ، ولا تفسد إنارتها الخاصة أضواء (النيون) الاعلانية ، ومصابيح الشوارع . وكل من تأمل السماء الصيفية القروية ليلاً في طفولته ، لن ينسى الاف النجوم المضيئة التي تومض بنداء يوقظ في النفس شهيتها لاكتشاف أسرار الكون ، والتحليق بعيداً عن التراب الأرضي .

والذين ناموا أطفالاً على السطوح الطينية للريف ، لن ينسوا محاولاتهم الغابرة لاحصاء النجوم في ليلة صافية السماء ، وتحذير الأجداد لهم من أن ذلك سوف يتسبب في نمو (الثآليل) على البشرة (وغيرها من الخرافات المكرسة ضد الخيال والجوع للمعرفة) . . لكننا كنا نتابع إحصاء النجوم حتى نغفو . وكان أحلى المشاهد الى قلبنا منظر الشهب الراكضة والنجوم الهاوية ، وكنـا نذيع الخبر رغم تهديد الجدات لنا بسوء (الفأل) والطالع ، وكنا نتوق الى تفسير علمي لا علاقة له بالتطير التقليدي .

* * *

وتدحرجت الأعوام فوق صدورنا صخورا من الأسى . . لكن ذلك الشوق العارم لمعرفة أسرار الكون والنجوم لم يمت . . لعله تخدر . .

فالأحداث التي تدور فوق كوكبنا البائس تكاد تنسينا وجود الكواكب الأخرى . .

والمآسي التي تدور على تراب أرضنا العربية ، تسلب منا طاقتنا الطفلة المتوهجة على متابعة أخبار غبار النجوم .

وسجادة الأرض التي يحاولون سرقتها من تحت أقدامنا ، صارت محور همنا وفضولنا .

ولم نعد نلتهب تصفيقاً لآثار الخطى الأولى للانسان على سطح القمر . . اننا مشغولون بالامساك بسجادة الأرض تحت أقدامنا ، وحمايتها من الذين قرروا سرقتها بأي ثمن . وها هم كالقوارض يقضمون منها قطعة بعد أخرى كلما تشتت انتباهنا ، أو شردنا صوب خلافاتنا الداخلية ، او أحلامنا الكونية .

* * *

كأن عصرنا يحرم على جيلنا الفضول أمام القمر والنجوم وقاع البحار وأسرار النباتات وهجرات الطيور ، وكل ما في هذا الكون البديع من مظاهر خارقة لا تحصى ، تثير الشهية الى المعرفة .

انهم لا يحاولون سرقة ارضنا فقط . لقد سرقوا منا طاقتنا على الفرح والتحليق والحلم ، وأرغمونا على النزول الى (حلبة المصارعة) بينما كنا نشتهي التأمل في ظل نجمة ، والابحار الى الأسرار . لقد ثقبوا خابية الفرح العتيق في قلوبنا ، وها هو زيتها يغسل وجوه أحبائنا القتلى ، بدلاً من أن يضيء ليالي بهجتنا واياهم قطرة إثر أخرى . .

لقد رموا بنا الى بئر الأحزان المتدرجة القاع ، وكلما كدنا نلتقط انفاسنا ، عاجلونا بمصرع بريء جديد يهوي بنا من قاع الى آخر . .

* * *

لقد قضيت عمري أكتب تاريخ اليوم بالتقويم الميلادي ، لكن علاقتي والشهر القمري كانت هي الأعمق والأوثق . اينما ذهبت وحينما حللت ، كانت صلتي السرية بالقمر من ركائز وعيي الزمان والمكان .

كنت دوماً أعرف مواعيد شروقه وغروبه ، وزاوية انعكاسه على أمواج شاطىء بيروت ، وموضع غروبه المستمر التبدل ، حتى جاءت الحرب اللبنانية ، فسرقت القمر من قلوبنا ، وشنقته على أسوار الرعب الليلي .

فنحن لم نعد نجرؤ على مغادرة البيت ليلاً ، أو الخروج الى الشرفة ، او المغامرة بالصعود الى (السطح) حيث نكون الهدف المثالي لقناص ، أو لرجل (ميليشيا) يتوهمنا قناصاً مضاداً ، فيطلق علينا النار ، او يسوقنا الى الاستجواب . . ومن يستطيع اليوم في بيروت اقناع أحد بأنه يخرج ليلاً الى شاطىء البحر - او حتى الى سطح داره - ليرقب القمر والنجوم ، لا ليحيك مؤامرة ؟

* * *

وتمر الأعوام . . .

وتأتي الاكتشافات العلمية الأخيرة المذهلة على صعيد الفلك والكواكب والكون .

نقرأ عنها في الصحف والمجلات ببعض الغربة والجفاء ، فنحن غارقون في همومنا السياسية ، وبالأحرى في صراعنا من أجل البقاء .

وكلما طلعت علينا مجلات الغرب بعدد خاص عن غزو الفضاء أقول لنفسي : احتفظي بعدد المجلة ، وستعودين لقراءته فيما بعد ، وتبحرين داخل الأسرار حين (تهدأ الأحوال) . .

وها هي المجلات تتكدس ، وقد تناثرت حولها جثث الشهداء ، والأبرياء الذين لم يثأر لهم .

وكلما اكتشف العالم نجماً ، انشغلنا عنه بأرض جديدة مسروقة من وطننا العربي . . وكلما تطاير من الصفحات غبار النجوم ، وجدنا أنفسنا غارقين في غبار المعركة من أجل وطن يسكنه أبناؤنا دونما ذل . .

* * *

كم تسحرني أسرار مجرة الدوامة اللولبية ، وسديم رأس الحصان ، والمقاطع العرضية للمجرات ، وأنماط الطقس وصور الأرض من الفضاء والرسوم البيانية للشمس وكواكبها وأقمار كواكبها ، والنجيمات ، عشرات الآلاف منها الموجودة في مجرتنا وحدها ، وشمسنا التي ليست أكثر من مجرد نجم متوسط الحجم والتوهج في درب التبانة التي تضم الف مليون نجم آخر ، والسحب الدافقة من الغاز الحي والغبار الكوني .

تلك الأشياء كلها التي تحدثت عنها في كتابي (السري) عن الفلك ما تزال تأسرني ، لكنني عاجزة عن متابعة أخبارها . . وكلما حاولت أن الاحق أخبار رحيل الانسان الى زحل والمريخ وجدتني ساقطة في فخ اخبار السوديكو والمتحف

والأسواق (ونقاط التماس) والتراشق المدفعي والقنص والسيارات المتفجرة وجنوب لبنان والجولان وفلسطين والشهداء المقتولين هنا وهناك ، وثورة الضفة الغربية والأرض المحتلة ، وثورتنا نحن أيضاً في أرضنا المحتلة ، بالقمع والتخلف والتمزق والتشتت في كوكب صغير يكاد يضل طريقه الى السلام اسمه بيروت .

* * *

وسهيل كوجنة الحب في اللون/وقلب المحب في الخفقان (المعري) .

ولطالما شغلت بالحقيقة العلمية للنجم « سهيل » الذي شغل العرب به (شعرياً) وتقصيت أخباره حتى عرفت أنه مجرد جرم عادي يبعد عنا بمقدار ١٠٠ سنة ضوئية فقط (السنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها الضوء في سنة ، وسرعة الضوء هي ١٨٦ ألف ميلاً في الثانية) .

وكم سحرتني قصة حياة مذنب بييلا العاصفة ، الذي كان كبيروت يكثر من اللعب بالنار . . نار الشمس شخصياً ! وقد لوحظ لأول مرة يشاكسها عام ١٧٧٢ . وصار بعدها يعود الى اللعب بنار الشمس والرقص الى جوارها مرة كل ست سنوات ونصف . وعندما ظهر عام ١٨٤٦ ، انقسم فجأة الى مذنبين يتحركان جنباً الى جنب ثم ظهر على هذه الصورة (الانقسامية) مرة أخرى عام ١٨٥٢ . وكان الفلكيون لا يزالون يبحثون عنه بعد عشرين عاماً حين شهدت اوروبا وأميركا الشمالية مطراً من الشهب الدافقة كالألعاب النارية كانت تحترق عند دخولها للغلاف الجوي . وتأكد العلماء ان هذه الشهب كانت بقايا مذنب « بييلا » الأرعن .

وكم أدهشني ان أعرف أن الأرض تصطدم بمائة مليون نيزك صغير ، وبملايين لا تحصى من الشهب الدقيقة كل يوم ، وان ذلك يضيف الى كتلة الأرض ما يزيد عن مليوني طن من المادة سنوياً . . أي الفلاح يحرث تراب النجوم القديمة ممتزجة بتراب الأرض في الفة كونية طحنتها الأمطار والرياح عبر ملايين السنين . . فهل نقرأ « كتاب الأرض » ونتعلم ما دمنا قد أضربنا عن قراءة كتاب التاريخ ؟

* * *

لكن مخاوفنا على الأرض العربية المحتلة (هنا وهناك) صارت تحتلنا ، أكثر من الشهية لمعرفة أسرار الكون . . (وهضاب) الوطن المهددة ، أكثر أهمية عندنا من هضاب النجم سهيل وهضاب نجمة الصبح .

والجزر العربية (الكبرى والصغرى) أهم من مجرة سحابة ماجلان الكبرى ومجرة

سحابة ماجلان الصغرى . . وأسرار المؤامرات على جنوبي لبنان وفلسطين تخطف انتباهنا أكثر من أسرار زحل الجميل بحلقاته الثلجية الغازية وأقماره العشرة . . وكل حفنة تراب من أرض عربية أغلى على قلوبنا من غبار النجوم . .

* * *

لقد تابعنا أخبار الفلسطيني السجين زياد أبو العين أكثر مما شغلتنا أخبار الجرم فوايجر ـ ٢ ، ومغامراته في فلك زحل .

وشغلنا مصرع الشهيد ماجد أبو شرار وسواه من ضحايا الاغتيالات في بيروت والعالم أكثر مما شغلتنا أخبار المكوك الفضائي كولومبيا .

وصارت عيوننا معلقة برموز نضالنا للبقاء والاستمرار ، بدلاً من التأمل في ذلك الخبر المثير الجديد : اكتشاف ثقب في الفضاء مساحته ٣٠٠ مليون سنة ضوئية . . والمدلول الخطير لذلك بالنسبة الى تسف مفاهيمنا الفلكية العتيقة عن شكل الكون وموضع مجرتنا منه .

من زمان ، كان هاجسنا الأوحد البحث عن الحقيقة ، والأسرار الكونيـة للكواكب . . وكائنات الفضاء . . فصار هاجسنا اليوم صراع البقاء . . والأحداث المتسارعة تلتهمنا مثل عنكبوت متوحشة ، والمؤامرات تحيط بنا من كل جانب .

ولم يعد بوسعنا أن نحلم بالمشي فوق الكواكب ، فقد صار همنا المشي فوق أرضنا العربية دون ان يطيح بنا لغم في البراري المفخخة ، ومستنقعات الرمال المتحركة ، والزلازل المحلية والخارجية . .

لقد انكسرت العلاقة بيننا وبين امور كثيرة طالما أثارت فضول القلب وحماسه . . وأحبها . .

لقد بدأ طلاقنا عن غبار النجوم ، ليتكرس التحامنا بطين الوطن .

١٩٨٢/١/٢٥

ألن يشهر أحد حرفاً ؟

حملت الينا وكالات الأنباء خبر رفض مجلس الأمة الكويتي منح النساء حق الاقتراع .

وصحيح اننا في بيروت (غارقون) في بحر من همومنا اليومية المعيشية ، ومآسينا العامة السياسية ، الا ان الجولة التي خسرتها المرأة في الكويت هي خسارة لكل امرأة عربية بوجه خاص ، وخسارة لكل مواطن عربي واع ، بشكل عام .

ان رفض مشروع قانون منح المرأة حق الانتخاب ، هو رفض للمرأة العربية كلها ، وفشل للانسان العربي الطامح للخروج من مأزق التخلف .

لقد تمت محاكمة (نصف الأمة) في مجلس الأمة ، وحكم مجلس الأمة على نصف الأمة بالحرمان من ممارسة الفعالية السياسية ، وبالنفي عن حق تقرير المصير الوطني ، وهو حكم سينعكس سلباً على الوطن ككل . فالطائر العربي لن يتمكن يوماً من التحليق ما دام احد جناحيه في حالة اقامة اجبارية داخل السكون . . واللاثقة . . وهو لن يطير قط بغير جناحيه الاثنين معاً . . وفي كل قطر . .

* * *

لكن الأمر ليس قاتماً ومحبطاً في المطلق . .

فوكالة (رويتر) حملت الينا النبأ مفصلاً بعض الشيء ، والتأمل في التفاصيل له مدلول غير رديء . . (عارض الاقتراح ٢٧ نائباً ، أيده سبعة نواب . امتنع بقية اعضاء المجلس الذي يضم خمسين عضواً عن التصويت على مشروع القانون) .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار العمر الصغير نسبياً لنضال المرأة في مجال انتزاعها لحقوقها ، نجد ان الامتناع عن التصويت ظاهرة غير رديئة مرحلياً . انها تعبر عن الرغبة في إعادة النظر . واعادة النظر هي كل ما نطالب به في الحقول كلها: التراث . الاجتهاد الديني . الفن . الأدب . الفكر . الحياة الاقتصادية . العلاقات

الاجتماعية . التقاليد . انماط السلوك العربية في مواجهة تحديات العصر . مآزقنا الحربية والسياسية . مفاهيمنا عن الأخلاق . . وغير ذلك .

والحق يقال ان قضية المرأة ليست معزولة عن العوامل كلها المذكورة سابقاً ، بل هي مرتبطة بها ارتباطاً عضوياً لا فكاك منه .

الا اذا (ثابرنا) على النظر الى قضية المرأة نظرة (شعرية) سطحية عابرة تجردها بسذاجة من تعقيداتها وتشعباتها ، او اذا أردنا الهرب من مواجهة المشكلة الحقيقية المتداخلة وقضايانا كلها الى اتهام (الرجل) بظلم المرأة ، ونكون بذلك قد بادرنا بالعداء من ليسوا اعداء لنا حقاً .

وانما هم مثلنا : يعيشون مرحلة انتقالية من الحيرة والتفتيش عن حلول ترضي الضمير والماضي والحاضر والمستقبل . .

وتلك قضية ليست سهلة .

واحراق المراحل في قضايا التطور الانساني مستحيل .

لا بد من عنصر الزمن .

ومن الممكن (التعجيل) في عملية التطور ، اما الطفرات (المقسرة) فلن يتأتى عنها فيما بعد غير ردات فعل سلبية .

* * *

ما أسهل الغضب امام خبر كهذا ، وما أقل جدواه !

فالغضب لا يحل عقدة ، ولا يشرح قضية ، ولا يقنع صديقاً ولا عدواً ، ولا يكسب محايداً ، بل يجعلنا نخسر امكانية ربحه ! . .

ما أسهل ان (نحرد) ، ونعلن عن تشكيل حزب نسائي سياسي ضد الرجل في المطلق ، (على طريقة بعض النساء السويسريات اللواتي أعلن عن تشكيل حزب كهذا لقناعتهن بأن رجلهن لن يمنح المرأة حقوقها اذ لم تنتزعها هي بالقوة ، وبالنضال داخل اطار حزب خاص بهن اسوة بغيرهم من المحرومين والمقموعين) ، ولا أدري بالضبط مدى جدوى هذا (الحل السويسري) للنساء هناك، لأنني لست(سويسرية)، فأنا امرأة عربية ، وكعربية أقول ان استيراد هذا الحل (او حتى استلهامه) لا يجدي في مجتمعاتنا .

وان درب المرأة العربية لامتلاك حقوقها في بعض الأقطار لا بد وان تكون مفروشة بشوك الصبر ، وطول النفس ، والاستمرارية الهادئة والمثابرة على طريقة النملة ، لا على

طريقة الصاعقة !

فما أفسدته عصور من التخلف ، لن نستطيع اصلاحه في ربع قرن من الزمن . . .

و(طول النفس) ضرورة لاستمرار اقامتنا تحت المياه الآسنة للتخلف ، دونما أوكسجين ، ودونما خروج مبكر الى سطح الماء نتلقى بعده ضربة على رؤوسنا من مجذاف الرجعية ، وزورقها المصمم على الإبحار عكس تيار العصر . .

وخير لنا المساهمة في ولادة عسيرة ، وإنما معافاة ، لحقوق المرأة ، بدلاً من تعريض ذلك الجنين الثمين للاجهاض ، في ظروف (وضع) لما تنضج بعد فيما يبدو . .

نحلم بسياسة (طول النفس) لا النسيان .

الذاكرة لا التخدير . التعبئة المستمرة لا التحريض الغوغائي .

الحوار المقنع لا النقاش الاستفزازي . هدوء الواثق المتماسك ، لا الشرذمة والشجار السطحي . الطرح الواقعي لجوهر المشكلة ، لا الشعارات (الشاعرية) الملونة كالبالونات ، الخاوية كخوائها !

* * *

الكثيرون ينظرون الى ولادة حقوق المرأة نظرتهم الى ولادة البنت . يتطيرون منها ، يتشاءمون ، ويعتبرونها نذيراً للمتاعب وعنواناً للهدر .

ومن هنا نلحظ أن حماسة البعض لوأد حقوق المرأة تشبه حماسة الجاهليين لوأد المرأة نفسها !! كأن رفض حقوق المرأة هو عملية وأد رمزية للبنات . والحق أن مبعثهما واحد ، وجوهرهما واحد .

وديننا الحنيف حرم وأد البنت ، لكن الاجتهاد الخاطىء ما زال يتابع وأده الرمزي لها عبر وأده لحقوقها في صحاري رفض إعادة النظر . .

ان حرمان الانسان من حق العمل ـ بما في ذلك النشاط السياسي ـ شبيه بحرمانه من حق الحياة ذكراً كان أم أنثى .

ودفن طاقة المرأة على المساهمة في الحياة العامة شبيه بوأدها حية ـ بعد أن تكبر ـ ! فجوهر الحياة هو العمل بكل ما يعنيه ذلك من واجبات . . وحقوق .

إن نفي المرأة من الحياة السياسية العامة شبيه بحكم النفي خارج البلاد الذي يصدر على بعض المذنبين بجرم ما ، فهل جرم المرأة هو ببساطة أن الله خلقها امرأة ؟

* * *

أكرر : الكثيرون ينظرون الى ولادة حقوق المرأة نظرتهم إلى ولادة البنت .

لكن (حقوق المرأة) ليست فعالية (مؤنثة) كما يتوهم البعض ، انها ببساطة فعالية وطنية وقومية .

الفعالية الوطنية مطلوبة من كل قادر على أدائها ، وتعود بالنفع على الجميع . ومنع البعض من أدائها يعود بالخسارة على كل مواطن ، لا على المرأة وحدها . . فالأخطار التي تتهدد سكان هذه المنطقة من الأرض (أعني العرب) ليست خرافات من حكايات الجدات ، أو من اختراع محرري الصحف والأدباء . . والعرافات . وهذه الأخطار تهدف بمجملها الى تنفيذ سيناريو فيلم غير لطيف نلعب فيه نحن العرب دور (الهنود الحمر) الجدد ، المطلوب إبادتهم عن بكرة أبيهم .

كل خطوة سياسية وعسكرية تتم حولنا (وعلينا) ، تؤكد هذا المخطط الذي تنفذه اسرائيل ، ومجموعة من حلفائها الذين ينكشفون لعيوننا واحـدً بعد الآخر .

لكن بعضنا لا يريد أن يصدق . . ويفضل أن ينام على وسادة الأحلام المزيفة . ولا يريد أن يسمع صفارات الانذار . ولعله لن يصدق هذه الأخطار إلا لحظة تتحقق ، وساعتها سيحمل معه مفتاح داره بانتظار العودة ، كما فعل العرب يوم غادروا اسبانيا .

لكننا ـ اذا خسرنا الحرب هذه المرة ـ لن نجد جداراً نعلق عليه المفتاح ، فالمخطط يقضي بهدم كل جدار يحمل شعاراً عربياً .

ولن نجد يداً نعلق بها المفتاح على الجدار ، فالمخطط يقضي بقطع أيدينا وقطع نسلنا .

* * *

من ضمن هذا المنظار لا نملك إلا التحديق إلى قضية المرأة العربية ككل ، وإلى نضال المرأة الكويتية كجزء لا يتجزأ من نضال الفرد العربي من أجل . . حفظ البقاء !!

ومن ضمن هذا المنظار أيضاً ، تبدو المواقف التي تعرقل تفجير طاقات المرأة ووقوفها في الخندق ، (مجيرة) بشكل غير مباشر لصالح أعداء الوطن العربي . إعدام المرأة كفعالية سياسية يساهم ـ بحسن نية ـ في مخطط ضرب الانسان العربي ، وذلك بحرمانه من نصف طاقاته ، وشل قدرات حليفته القوية التي أثبتت جدارتها في كل مجال . .

والحق يقال إن المرأة الكويتية أثبتت جدارتها ـ كما شهد لها بعض أعضاء مجلس

أمتها ـ في الخدمة المدنية والعمل التجاري ، والحقل الأدبي والفكري والعلمي ، وكانت مثالاً يحتذى للعطاء الذي لا يفسده التهتك ، والازدهار المحصن بأصيل التراث وجوهره .

ومن هنا فإن كل ضربة توجه لتطور المرأة الكويتية البناء ، هي ضربة غير مباشرة لتطور الانسان العربي في معركة المصير . ونحن حين نقيد المرأة العربية بأيدينا ، وبحبال من صنع محلي ، نكون ـ بحسن نية ـ قد أهدينا أعداء العرب نصف مقاتلينا الممكنين ، كأسرى ، وذلك بعد تخديرهم ، ومنعهم من شرف العمل والقتال ، كل في مجاله وحقله .

وباختصار : ان خبر عزل المرأة عن الحياة السياسية ليس خبراً معزولاً عن المخططات السياسية التي تبيت لوطننا العربي ويصب في مجراها بحسن نية والنتيجة واحدة .

* * *

خبر كهذا يجب الا يمر به رفيقنا ا لرجل الواعي بـ (اللامبالاة) ، فهو يعني له الكثير . يعني حرمانه من حليف قوي ممكن . والرجل المقهور هو في النهاية الحليف الطبيعي للمقهورين جميعاً وعلى رأسهم المرأة التي تعاني من قمع مركب .

اننا لن نعتمد خطة الندب والشكوى (والنق) ، ولن نقول لهم انهم يضطهدوننا كما يضطهد الزنوج .

لكننا سنقول لهم أن الخسارة مشتركة ، فالقضية واحدة !

وبعد ،

ان خبراً كهذا يضع على محك الصدق والممارسة ، كل الذين يباهون بدفاعهم عن (حقوق المرأة) من سياسيين ومناضلين وأدباء وشعراء ورجال دين واقتصاديين ونجوم سينما ونجوم فكر . .

ألن يرفع أحدهم قلماً ؟ ألن يشهر أحدهم حرفاً ؟

١٩٨٢/٢/٨

الكذب ليس ملح الرجال

شخصية سياسية ، أدلت بحوار صحافي أثار زوبعة احتجاج لدى القراء ، ونقاشاً لما تهدأ آثاره .

وتناقض الآراء ظاهرة طبيعية وصحية .

أما تناقض آراء الشخص ذاته بين ليلة وضحاها ، وتحوله من أقصى العداوة لنظام ما الى أقصى الولاء دونما ابداء تبرير منطقي ، فظاهرة تستحق الوقوف عندها .

ذلك التناقض الشاسع في الآراء ، ساهم في الكشف عنه قارىء (محروق القلب) مثل معظم قراء الشعب العربي ، الذين يسمعون الكلام ونقيضه على لسان الشخص ذاته ، دونما احترام لفكر الآخرين ، ويسمعون ـ في أفضل الأحوال ـ كلاماً غائماً غامضاً (مغمغماً) حول موقف ما . وقد عاد القارىء العربي المقيم في باريس الى أرشيفه كأي صحافي محترف ، واستخرج مقطعاً من كلام الشخصية السياسية ، يعود بتاريخه الى عام ١٩٧٦ ، يحدد فيه بوضوح موقفه العدائي اللامتناهي نحو نظام معين . والطريف (أم المفجع ؟) ان السياسي نفسه أدلى منذ أيام بحوار صحافي آخر ، امتدح فيه النظام نفسه بشكل لامتناه أيضاً .

وهكذا نجد انفسنا أمام ثلاثة آراء للشخصية السياسية في نظام عربي معين :

١ ـ رأي يعود بتاريخه الى عام ١٩٧٦ يعتبر فيه هذا النظام « كاذباً ومزيفاً ومسؤولاً عن آلاف الضحايا » ـ على حد تعبيره ـ .

٢ ـ رأي عام غامض يعود بتاريخه الى ما قبل أسابيع ، يعتب فيه على الأنظمة كلها دونما استثناء .

٣ ـ رأي عمره اسبوع ، يمتدح النظام الذي سبق واعتبره جلاداً ، ويجد فيه ملجأه وملاذه .

ولعل من الطبيعي ،(بل والانساني) ، ان يبدل الانسان رأيه من قضايا كثيرة ،

فالأيام تكشف له المزيد من الحقائق ، (أو الأكاذيب) ، وهكذا فإن تبديل وجهة النظر قد يكون أحياناً ظاهرة نمو صحية ، وليست بالضرورة دجلاً وزيفاً .

* * *

ولكن ،

الشخصية السياسية لم تقل للجماهير العربية ما الذي جعلها تبدل رأيها بزاوية مقدارها ١٨٠ درجة .

فنحن حينما نتهم شخصاً ما بأنه مجرم ، ثم نطوّبه قديساً ، نحمل ضمناً مسؤولية أخلاقية أمام الناس ، هي واجب تفسير المعجزة . .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

الشخصية السياسية أوضحت في البداية لماذا اتهمت ذلك النظام ، وكانت في اتهامها شرسة رفضت أن تدع مجالاً للشك ، إذ أكدت ان ما تقوله (ثابت للرأي العام العربي والعالمي) .

حسناً . ما الذي بدل الأحوال ؟

ألا تجد الشخصية السياسية نفسها مدينة للناس بإيضاح أو باعتذار لمن وثق بها ، وربما ضحى باستقراره وممتلكاته من أجلها ، أو مات شهيد ايمانه برأيها الأول او برأيها الثاني ؟ !

هل تناقض الشخصية السياسية نفسها ؟ أم أنها تتستر على حقيقة ما ؟ تساوم ؟ تساوم ونحن نمنحها أرواحنا ثمناً ؟ هل نحن أداة أم شركاء قضية ؟

ألا يخضع (الثابت والمتحول) لمنطق الحقيقة المجردة أياً كان الثمن ؟ وهل ثمن الصدق في زمننا فوق طاقة البعض ؟

* * *

هذه الحادثة ليست الأولى من نوعها .

إنها حادثة عادية متكررة وشبه مملة تقع في بلادنا باستمرار ، وهذا بالضبط ما يمنحها أهمية وخطورة .

الخطورة هي في صمت الناس على هذا الاسلوب في مخاطبتهم الى حد الاعتياد المرضي ، وإذعان المنوم مغناطيسياً . ولو كانت هذه الحادثة فردية وعابرة لما توقفت عندها ، لكنني أناقشها بألم بصفتها واقعة عربية نموذجية .

إنها تعبر أولاً عن استخفاف شديد بعقل الجماهير العربية ، واحتقار ضمني

للقارىء العربي الى حد أن بعض الساسة لا يجد غضاضة في التصريح بالشيء ونقيضه وفقاً (للمصلحة العامة !) ، كي لا أقول وفقاً لمصلحتهم الخاصة الشخصية .

ولكن ، هل يمكن للمصلحة العامة أن تبنى على مواقف مراوغة زئبقية تهرب باستمرار من الشمس الى الشمعة ومن الوضوح والصدق مستترة بدواعي (التكتيك) ؟

لا استطيع أن أفهم كيف يمكن للتكتيك غير الأخلاقي ان يخدم استراتيجية أخلاقية ، ويخيل اليَّ ان التلاحم العضوي بين التكتيك والاستراتيجية هو أكثر تداخلاً مما يحاول اقناعنا به اختصاصيو (الأدلجة) للكذب .

* * *

الأمثلة في هذا المجال لا تحصى . واي قارىء يحتفظ بأرشيف لأقوال بعض الساسة في الماضي والحاضر ، سيشعر بأنهم يعاملونه كمتخلف عقلي .

بل ان الأمر لا يحتاج الى أرشيف . ففي أعماق (لاوعي) كل قارىء (احساس بالخديعة) ، وبأن ثمة من يخاتله ، ويستخف به ، ويقول في مجلس ، ما لا يقوله في المجلس الآخر ، ويرتدي لساناً مختلفاً لكل لقاء ، ويتبنى لغة مختلفة . واي طبيب نفساني يراقب سلوك بعض ساستنا من الوجهة الطبية العلمية ، يمكنه ان يؤكد إصابتهم بازدواج الشخصية وتعدديتها ، حتى ليبدو أمامهم (الدكتور جيكل والمستر هايد) شخصاً متماسكاً منطقي اللامنطق .

والمفجع في الأمر هو ان الانسان العربي لما يضع حداً لاستخفاف البعض به ، وهو يكاد يكون حائراً في أسلوب المجابهة ، مرتبكاً أمام سياسة (التخوين) ، اي اتهام كل من يناقش (أو يستفسر) بالخيانة وعدم اليقين ، الى آخر المعزوفة إياها . أجل ، انه ممتلىء بالأسى والقرف والرفض ، جائع الى اليقين والصدق والحقيقة ، ولديه قهر شاب راشد يرقب بعض أهله يعاملونه كمتخلف عقلي ، بل ويحاولون اقناعه بأنه كذلك !

* * *

هذا شخص يعلن البعض خيانته ، ويلعنون كل من يجرؤ على التعامل معه . . و (نمسك خاطر) معهم ، ثم نكتشف انهم يتناولون العشاء غير الأخير معه كل ليلة ، وبعضهم يأخذه (بالاحضان) بصفته أحد الأوفياء والمخلصين . لا أحد يكلف نفسه عناء التفسير لنا . هل كان ذلك الشخص خائناً حقاً ، أم ان في الأمر سوء تفاهم ؟ أم أنهم تبينوا حقيقة غابت عن أذهانهم وقتها،وبعد مراجعة ذاتية قرروا انهم غلطوا أو تسرعوا أو كانوا بحاجة الى كبش فداء ووجدوه مناسباً ، أو اي سبب آخر منطقي او غير

منطقي ؟ كل ذلك يحدث باستمرار دون ان يكلف البعض انفسهم عناء ايضاح الاشياء للقارىء العربي المسكين ، والمقاتل ، والأديب الممزق الذي يطالبه البعض بأن يكون الشيء ونقيضه في آن ، على غرارهم . وقد يكون ذلك سهلاً على سياسي (محترف) ، يعتبر ما يفعله (مرونة) أو (مناورة) أو (صفقة بارعة) ، لكن الفرد العربي المسكين يريد ان يفهم ، والأديب المسكين لا يستطيع أن يكره بمرسوم ويحب ببلاغ .

* * *

وهذا مشروع سياسي مثلاً ، نرفضه بشدة في زمن ما ، ثم نعود لنتحمس له بعد ذلك . في البداية نجده لعنة ، ثم يصير طموحاً .

من الطبيعي ان يقبل الانسان في يومه أو غده ، ما سبق له أن رفضه في أمسه ، أو العكس .

فالحياة مبنية على التطور ، لا على الجمود والتحجر .

لكن الاعتراض هو على عدم وضوح بعض الساسة أمام الناس . انهم لا يفسرون لماذا يقبلون اليوم ما رفضوه بالأمس ، او العكس ، بالرغم من ان ذلك واجبهم أمام الجماهير التي تتوق الى تأدية دورها الحقيقي ، لكن ذلك لا يمكن ان يتم في الظلام ، أو في ظلال كواليس المزادات السرية على الشعوب ، وإنما في وضح شمس الحقيقة الساطعة . ثم ان ايضاح الحقائق هو واجب السياسيين أمام اصحاب المشروع المرفوض سابقاً . فالرفض قد يتضمن (تخويناً) ، وبالتالي فالقبول به يجب ألا يتم كما لو انه على مضض ، بل يجب ان يرافقه اعتراف بالخطأ أو اصرار على الصواب .

* * *

من هنا تتخذ بعض النماذج العربية النادرة للتطابق بين السلوك والقول قيمة خاصة .

من الجميل ان يعلن نظام ما عداوته ، أو رفضه لاحتلال بلد آخر لأراضيه مثلاً ، وان يعقب ذلك الاعلان سلوك منطقي كإعلان الحرب لاسباب واضحة مفهومة ، او اعلان الصلح على أسس كريمة وواضحة .

اي ان السياسي الذي يخاطب الناس بصدق صار ظاهرة مفرحة ونادرة . فالذي يحدث عادة ، ان بعض الساسة يعلن عداوته لنظام ما ويمنحه مساعدته في آن . . . أو يعلن عداوته وبدلاً من محاربة العدو نجده يحارب الصديق . كيف؟ لا أحد يبرر لنا

شيئاً، أو يوضح لنا تلك الالتفافات الغامضة المراوغة ، الراكضة على حافة هاوية الصدق والحقيقة .

وهكذا صرنا احياناً نعجز عن الدفاع عن الذين تحبهم ، وكأنهم يبذلون كل ما بوسعهم (لتشويشنا) داخل شبكة الكلمات المتقاطعة السياسية .

أجل . قلائل هم العرب الذين يحاربون عدوهم المعلن ، واذا (ارتكب) احدهم ذلك ، فإن معظم (الباقين) يلومونه . . كأنه خرج على . . اجماع اللامنطق ! . .

* * *

لا أعرف من الذي اخترع المثل الشعبي اللعين « الكذب ملح الرجال » . الكذب ليس ملح الرجال ، لكنه سم الشعوب .

وهذا الاتجاه صوب الاستخفاف بالعقل العربي وتتويهه في دوامة من الأكاذيب والتناقضات يزداد حدة يوماً بعد آخر . . ووعي الفرد العربي المتنامي لن يطيق بعد اليوم بهلوانيات بعض ساسته (المملحين) جداً .

ثم ان سياسة احتقار الجماهير العربية كشريكة ، واستعمالها كأداة مغمضة العينين تجعلنا نخسر أفضل الطاقات التي تعي الخديعة وتحتقرها ، كأننا نقسر الفرد على التحول من ثائر الى حائر ، ومن مقاتل الى ممتلىء بالشك والتساؤلات : لمصلحة من سأموت ؟ لمصلحة وطني العربي حقاً ، أم لمصلحة زعامة السياسي الفلاني ؟

هذا التلفيق للحقائق ، والتناقض بين القول والفعل هو ضمناً محاولة لاغتيال الروح المعنوية للجماهير العربية . وبدلاً من أن يتقدم بعض الساسة خطوة الى الأمام بمصارحة الشعوب العربية بالحقائق (أو بمصارحة انفسهم بها على الأقل) ، نجدهم يثابرون في درب المماحكة والتناقض والتستر على الأخطاء او اتهام الابرياء بها .

* * *

من زمان كنا نرفض القول ان رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة . كنا نعتقد انها يجب ان تبدأ بألف خطوة ، أهمها ممارسة الصدق مع الذات ومع الآخرين في كل مجال .

ثم علمنا الزمن بعض التقشف في أحلامنا ، وصرنا نرضى بأن تبدأ رحلة الألف ميل بخطوة واحدة ، ولكننا لن نرضى أبداً بأن تكون هذه الخطوة . . . الى الوراء .

١٩٨٢/٩/١٧

الاعدام الجماعي للشيوخ

خبر طلاق ، لكنه نشر في الصفحة الأولى من معظم الصحف العالمية

هل المطلقان مشهوران ؟ لا .

اذن لماذا انتقل خبر طلاق انسانين مغمورين من دفاتر الصمت واللامبالاة الى الصفحات الأولى للجرائد ؟

لأنهما في سن الشيخوخة . فالمرأة المطلقة ماتيلد ويرث عمرها (٩١ سنة) ، وزوجها رودولف (٧٩ سنة) . وقد طلبت الزوجة الطلاق بعد زواج دام ٥٢ عاماً ، اكتشفت بعدها ان زوجها يخونها مع اخرى في السبعين .

ان نشر الخبر في الصفحات الأولى يوجز ببساطة الرؤ يا الجماعية الخاطئة لفئة (المسنين) ، اذ يعتبرهم الناس امواتاً مع وقف التنفيذ ، لا يصلحون لشيء ، ولا يحسون بمشاعر الاصغر سناً . . تلك المشاعر المباحة للاحياء الآخرين ، كالحب والغيرة وحب التملك والخيانة والوفاء وغيرها من المظاهر المألوفة للطبيعة البشرية .

وهكذا ، حين يقدم (عجوزان) على التصرف بصورة عادية كبقية الآخرين (زواج . طلاق . خيانة . غيرة . انتقام) ، يبدو الأمر للناس عجيباً ، كما لو انهم شاهدوا فيلاً يحلق ذقنه ، او زرافة تشرب القهوة في المقهى وهي ترتدي جواربها الزرق .

* * *

ستقولون لي ان الخبر نادر ، وهو لندرته يستحق النشر في الصفحة الأولى .

اعترف لكم بذلك ، لكنني سأذهب معكم الى جوهر المشكلة : الخبر نادر لأن الشيوخ يعيشون في ظل ارهاب مجتمعنا المعاصر العالمي ، الذي يعتبر (العجائز) خارج منطقة الحب والكراهية والشوق واللهفة والتوقد والندم ، وغيرها من المشاعر البشرية التي يمارسها الافراد بحرية منذ ولادتهم حتى سن الستين تقريباً . وبعدها يأتي ذلك الحكم (العالمي) المتفق عليه ضمناً ، وهو ان الانسان دخل مرحلة الشيخوخة ولم يعد

صالحاً لغير دور الجد الصالح الجالس قرب المدفأة ليدلل احفاده .

وجميل حقاً ان يدلل الجد احفاده وان يتفرغ لهذه المهمة اذا كان يشعر بالرغبة في ذلك ، ولكن يبدو ان عشرات الشيوخ يشتهون أشياء اخرى ـ بالاضافة الى ذلك ـ كالاستمرار في العمل مثلاً .

* * *

فقد كانت القوانين الى ما قبل اعوام تسلب المسنين حقهم حتى في العمل . وكانوا يحالون الى (التقاعد) رغماً عنهم حيناً ، أو يضطرون احياناً للعمل ضمن شروط تغمطهم حقوقهم ، ويقبلون بذلك كي لا يبقون دونما عمل .

فالتوقف عن العمل هو الموت بمعنى ما . انه الخطوة الأولى الحقيقية نحو القبر . وما اكثر الرجال الذين مرضوا حقاً فجأة حينما ارغموا على التوقف عن العمل لسبب او لآخر ، وشاخوا حقاً وهم على ابواب الخمسين او الأربعين .

وقد تنبه العالم لهذا الظلم البالغ في حق المسنين . فأعلنت الامم المتحدة عام ١٩٨٢ سنة دولية للمسنين . واصدرت منظمة العمل الدولية توصية تتعلق برعاية العمال الأكبر سناً ، وعدم التمييز بينهم وبين الآخرين من حيث الدخل المادي والتقدير المعنوي .

وثمة بلدان عربية عديدة صادقت على هذه التوصية ، كي يتابع المسن عمله اذا كان راغباً في ذلك ، ولم تنس العناية بدور رعاية المسنين التي توفر (للمنسحبين) من الحياة فرصة (خروج) مريحة ولائقة .

اذن لا شكوى لدينا حقاً على الصعيد الرسمي العربي بوجه عام . الشكوى هي على الصعيد الاجتماعي . على صعيد أسلوبنا في النظر الى (الشيخ) ، وصورته الخاطئة في أذهاننا .

* * *

أعترف ان المسن العربي مقبول اجتماعياً ومحبوب اكثر من المسن الغربي ، وما زال الجد لدينا سنديانة العائلة ، يزداد هيمنة كلما تقدم به العمر . وتزداد الاسرة تعلقاً به باعتباره بركة الدار . ويا له من حب باهظ الثمن . ففي اعماق كل شيخ يقطن سراً طفل وصبي وشاب وكهل . والانسان لا يغادر سناً الى اخرى حقاً ، وانما يحتفظ بها كلها مجتمعة في اعماقه . . . اي ان الشيخوخة لا تلغي المشاعر ، ولا تقتلها ، بل ربما تصقلها لدى بعض الناس . . .

ها هي الروح في اعماقهم متأججة مرهفة ، لكن الجسد يخون بعضها ، والناس يقمعون بعضها الآخر . . . وقناع الوجه الذي يتجعد يخفي خلف التجاعيد مذبحة المشاعر .

كأن الانسان لا يشيخ حقاً الا حينما يتخذ قراراً داخلياً بذلك . ومجتمعنا يشجعه على ذلك ، ويواكبه الى قبره باصرار . فإذا مزح الشيخ قيل انه مهذار . واذا غازل تحدثوا عن مباذله وخيانته للوقار . واذا حزن وفاض دمعه اتهم بالخرف . واذا نبض في قلبه حب الكون قيل انه خليع . . . فهم يدخلونه قسراً داخل قالب حديدي لامرئي ، يحدد مجاله الحيوي الذي يحق له ان يمارس حياته داخله . . وكل مبادرة عفوية لمغادرة سجن الشيخوخة تجد عقاباً اجتماعياً رادعاً ، السخرية أقل ادواته .

* * *

المسرحي العظيم شكسبير كان من العباقرة الذين أبدعوا في سبر غور الشيخوخة ورسمها ، فقدم لنا شخصية « الملك لير » ، ذلك الشيخ الحائر كطفل ، الشرس كشاب أرعن ، المستسلم النادم المعذب كأي عاشق ضل الدرب . . .

فالشيخ انسان حي بمعاني الكلمة كلها . في اعماقه حب السلطة ، والحياة ، والعطاء ، وهو اذا انتصر على قمع الناس السري له ، يبدع ويفجر طاقاته . والملفت للنظر ان الذين لا يتوقفون عن العمل ، يبدعون ويتألقون حتى اللحظة الأخيرة . جورج برنارد شو مثلاً ، مات عن ٩٤ عاماً ، ولم يتوقف خلالها عن العمل لحظة واحدة . في عيد ميلاده التسعين قال مقرعاً من حوله : « ان المشكلة الحقيقية ليست في بلوغ الانسان هذه السن المتقدمة ، وإنما في عدم قدرتكم على ان تجعلوا من هذا الانسان شيئاً نافعاً في شيخوخته . . انظروا الى كيف اعمل في شيخوختي . هذا هو الجواب لما تسمونه انتم مشكلة الشيخوخة » .

والواقع ان الانسان يتساءل : لماذا يبذل الطبيب جهده في اطالة عمر المسنين ما دامت (الحياة) محرمة عليهم ؟ (الفكرة لبرنارد شو) .

برتراند راسل عاش شيخوخة شفافة مثمرة للانسانية لأنه ظل يمارس ما يحب حتى النهاية . بريجنيف ليس شاباً جداً ، ومعظم المرشحين لخلافته اصغر سناً منه بقليل ، فهم في السبعين من شبابهم تقريباً .

اديسون لم يتوقف يوماً عن العمل . عاش طويلاً وعميقاً وظل خلاقاً حتى لحظة الاحتضار . اينشتاين استمر مرهفاً ومبدعاً في شيخوخته كما في شبابه . فأشياء قليلة

تموت في الانسان حين يبلغ من العمر (عتياً) ، وهو يستعيض عنها غالباً بمعارف كثيرة مكتسبة منها الحكمة والوعي وبعد النظر والصبر . . وقد لا يفعل !

لكن الشيخوخة بالمعنى العالمي لا تزال تعني حرمان الانسان من حق الخطأ ، اي من حق ممارسة الطبيعة البشرية بخيرها وشرها كبقية الناس . وهذا امر مروع ، يحول اي شيخ يمارس حياته الى خبر يستحق النشر في الصفحات الاولى على سبيل (الطرافة) . . ويا لها من نكتة سوداء ناصعة السواد !

* * *

في احدى المدن الأوروبية ، انشئت « مؤسسة خدمات الجدات » ، وذلك لتوظيف المتقدمات في السن كـ (جدات) ، واعارتهن للاسر التي تحتاج الى خدمات (الجدة) في مجال اداء الدور التقليدي لها كالاهتمام بالاطفال .

لم يسحرني الخبر . فالنساء المسنات ، كالشابات ، ويمكن ان تكون اعماقهن مسرحاً للشر وللخير ، الضغينة والطيبة . كل ما في الأمر ان العجوز محكومة باخفاء ذلك باتقان . واعتبارها (مأمونة) لمجرد انها مسنة لا يخلو من خطأ في حقها ، وفي حق الطفل الغريب الذي يفترض انها قادمة لترعاه . يخيل الي ان علينا التحديق الى جوهر الشيوخ دون ان يخدعنا قناع التجاعيد ، وبعيداً عن النظرة التقليدية اليهم . انهم لا يقسمون الى طيب وشرير . ابيض واسود على طريقة كاوبوي هوليوود . انهم ببساطة كالناس جميعاً ، ويجب ان نعترف بحقهم في ان يكونوا كذلك ، مع الاحتفاظ بحق المجتمع في الثواب والعقاب ولكن دونما (تمييز عنصري) في حق المسن ، المدان سلفاً تقريباً ، والمعاقب ضعف عقاب الشاب في حال الخطأ . . .

فالمجتمع بحاجة اليهم ، والى طاقاتهم الدفينة ، اما كفانا هدراً ؟

* * *

لقد اهتم العرب من زمان بـ (رجوع الشيخ الى صباه) . وما يهمنا اليوم حقاً هو الوعي بأن الشيخ لا يغادر صباه الروحي ليعود اليه ، وانه بحاجة الى ممارسة فعالياته الاجتماعية والقومية والانسانية كلها ، كالعمل والسفر ، والحاجة الى الحنان والمشاركة والصداقة والنجاح والانس . . ولعل سلوكنا نحو شيوخنا يتضمن قسوة بالغة ، حين نحرمهم الحقيقة الانسانية الكامنة داخلهم ، المتأججة ، المستورة بذبول الحياة البيولوجي النسبي .

ليتنا ننظر الى الشيخوخة بمزيد من التفهم والحنان ، أم أن علينا الانتظار ريثما نشيخ كي نصدق ذلك كله عنهم ؟ ولماذا نحرم الوطن من طاقاتهم على العمل ونعطلها غالباً بالقمع والازدراء والسخرية ، والأمثال الشعبية المكرسة لدفن رغبة الشيخوخة في العطاء على كل صعيد ؟

٣١ /٥ /١٩٨٢

الجثث المتأنقة

عدد من الصحافيين والأدباء العرب كتبوا مؤخراً مستنكرين وجود جائزة نوبل للسلام (على عصمة) بيغن جزار بيروت ، وطالب بعضهم بـ (سحبها) منه لأنه لم يستحقها يوماً ، بدءاً بماضيه الارهابي ، وانتهاء بحاضره الدموي الذي روع العالم . شارك في الحملة أكثر من رسام عربي كاريكاتوري ، وربما كانت رسومهم أكثر جدوى ـ في هذا المجال ـ من كل ما كتب بالعربية ، بسبب طبيعة اللوحة الكاريكاتورية التي تتجاوز حواجز اللغة ، وتتحدث بأبجدية الخط العالمية بحيث يستطيع (فك حرفها) أي غريب بغض النظر عن لغته الأم .

وكانت الحملة عادلة . إنها لمهزلة حقاً أن يحمل جائزة نوبل للسلام رجل دولة أسلوبه السياسي قائم على المذابح ، والعنف البالغ ، وإبادة المدنيين والأبرياء . وهذه ليست وجهة نظر عربية منحازة ، لكنها وجهة نظر معظم علماء النفس والرأي العام العالمي ، بل وبعض الرأي العام اليهودي والاسرائيلي .

* * *

حتى هنا كل شيء معقول ومنطقي ومنسجم مع نفسه . بيغن لا يكذب توقعاتنا ، وغضبة المثقف العربي لا تخذلنا ، واللجان المسؤولة عن منح جائزة نوبل لم تحرك ساكناً في اتجاه معاقبة بيغن بعد المجزرة اللبنانية الأخيرة ، وهذا أيضاً لا يدعو الى الدهشة كثيراً ، بالاضافة الى أننا لا نعرف بالضبط (قواعد اللعبة) ، وهل في بنود الجائزة ما ينص على امكانية (سحبها) اذا اساء الفائز (المسالم) استعمال لقبه ، وغير ذلك من الاعتراضات الشكلية التي يستطيع (عشاق) بيغن التذرع بها دفاعاً عن (رقته) !

ما يدعو الى الأسف هو أن صيحة المثقفين والكتاب وأهل الكاريكاتور لم تجد تطبيقاً عملياً لها .

لم يعلن العرب مثلاً مقاطعتهم الترشيح لجائزة نوبل للسلام (لمدة عام على الأقل مثلاً) ، احتجاجاً على حمل بيغن لها ، وإنما ثابروا على موقفهم الهزلي المزمن من جائزة « نوبل » ، الذي يتضمن الرفض والاشتهاء في آن . والأقلام نفسها التي (أدانت) الجائزة تحمل الينا (بشرى) امكانية (فوز) عربي بها في أحد الحقول . . وهذا هو غير المعقول !

* * *

فقد (زفت) الينا بعض الصحف نبأ ترشيح عالم عربي لنيل جائزة نوبل في حقل العلوم (الطب) ، وبأنه اذا فاز بها ، يكون أول عربي يمنح هذه الجائزة . في الخبر جانب سلبي ، وآخر ايجابي .

الجانب الايجابي هو أن (الهيصة) عند العرب كانت قائمة دوماً حول جائزة نوبل للأدب ، والتركيز كان باستمرار يتناول هذا الجانب للجائزة ، متجاوزاً جانبها العلمي في الفيزياء والكيمياء والطب وغيرها من المجالات . والانتعاش العلمي العربي خبر يفرح له القلب في عصر التكنولوجيا الذي ما نزال في معظم أقطارنا نعيش على هامشه ، ونقتات بالفتات ، ونشتري حصيلة حضارة لم نشارك في صنعها وبالتالي نبدع في اساءة استعمال بركتها .

ثم أن الأدمغة العلمية العربية قلما تلقى اهتماماً من صحافتنا يوازي اهتمام بعضها بالفن ، أو بتلك التفاهات المدعوة (فناً) تطاولاً وعدواناً وإثماً .

فالطبيب والمهندس والكيميائي والفيزيائي العربي مظلوم (مع) الصحافة العربية ووسائل الاعلام بوجه عام .

ولعل السبب يرجع الى عزوف تلك الأدمغة العظيمة عن الأضواء من جهة ، والى الجهل النسبي لصحافتنا بهذه الاختصاصات . . وبعض المجلات الجيدة تكرس عدداً من صفحاتها للتحدث عن موضوعات علمية تهم القارىء الشاب حقاً ، ولعلها تفسح المجال أيضاً لمقابلات مع (نجوم) العلوم العربية الذين أتخيل أن الجيل الجديد متشوق الى معرفة منجزاتهم ، والمصاعب التي تقف في طريقهم ، وتسبب هجرة (أدمغتهم) ، أكثر من تشوقه للاطلاع على أسرار حياة بعض راقصات هز البطن و(نجوم) الليل العربي الحالك الظلمة بهم .

* * *

ولعل فوز عالم عربي بجائزة نوبل للعلوم يكون فاتحة لاهتمام جماعي بهذا الجانب

الخطير من حياتنا ، شبه المنسي ، البعيد عن الأضواء كزهرة متواضعة خارقة السحر ، الساقط فريسة لأمزجة بعض الأنظمة القمعية التي تجعل رجل العلم العربي يحمل دماغه ومقصاته ، وأنابيب اختباره ، ومعادلاته الكيمياوية، وأولاده ، ويرحل بذلك كله الى الغربة حيث يجد من يقدره حق قدره ومن يلاحقه باهتمام (غير رجال المخابرات !) .

وقد يكون من نتائج هذا الالتفات الى رجال العلم ، اعادة النظر في العلاقة عندنا بين السلطة والعالِم (بكسر اللام) . هذه هي الناحية الايجابية . أما الناحية السلبية ، فهي أن التصفيق لهذا الترشيح للجائزة يأتي في أعقاب حملة عليها ، وذلك يحمل موقفاً متناقضاً لا انسجام فيه مع الذات والمنطق ، ويثير بالتالي سخرية الغريب والقريب .

* * *

هذه المثابرة على العلاقة الهزلية العربية مع جائزة نوبل لم تعد تطاق . والحكاية ليست جديدة ، ولم يعد فيها ما يؤلم لكثرة ما ألفناها . ولكنها تشكل مثالاً حياً على التناقض مع الذات الذي نمارسه في أكثر من مجال حتى يكاد يصبح تقليداً شائعاً . نعم . حكايتنا المضحكة مع جائزة نوبل للسلام تستحق بحد ذاتها جائزة الأدب بصفتها كوميديا خارقة الهزل الباكي ، والهستيريا الجادة .

إننا دوماً نريدها ونشتمها . عيننا عليها ولساننا ضدها . قلبنا يخفق لها ، ونلعنها. منذ أعوام بعيدة فاز بها الاسرائيلي (اجنون او عجنون ـ ان لم تخن الذاكرة) ، فقامت قيامتنا لأنهم منحوا جائزة نوبل الى برميل من البارود . وقررنا أن اللجنة منحازة الى اسرائيل و (الأمبريالية) ، وأننا ندينها ونرفضها ونلعنها ولا نريدها . وفي العام التالي ، عدنا نغازلها ونتسولها ونشتهيها . وفي العام بعد التالي عدنا نطالب بها لتوفيق الحكيم ، وحين لم يفز بها عدنا نشتمها .

* * *

وحين منحت جائزة نوبل للسلام مناصفة لبيغن والسادات قامت قيامتنا ، ولعلنا كنا على حق . ولكن ، وفي العام التالي عدنا الى سيرتنا الأولى . . نرشح للأدب نجيب محفوظ بعدما رشحنا لها طه حسين مرات نلهث وراءها شهوة ونحن نرجوها ، ثم نلهث غضباً وراءها ونحن نلعنها حين لم تقف في محطة عربية .

والآن ، ما كدنا نلعنها ونطالب بـ (سحبها) من بيغن تحت طائلة مقاطعتها ، حتى عدنا من جديد نغازلها. باختصار: نريدها أم لا نريدها؟ نحترمها أم نحتقرها؟

أليس بوسع سلوكنا أن يكون منطقي التسلسل والتتابع ؟ هل سنتابع (النق) كالأطفال ، نريد ولا نريد في آن معاً ؟ اليس بوسع مواقفنا أن تبلغ مرتبة النضج ، وبالتالي الاعتدال ، فلا نتورط في غضب جارف لن نثابر عليه كي لا نصير أضحوكة العالم ؟ وحتام نركض مثل رقاص الساعة بين شهية الامتلاك وادانة الاحتقار ، دون أن نملك لوعينا امراً ؟

* * *

حكايتنا الهزلية مع جائزة نوبل ليست جوهر المأساة ، وإنما أحد نماذجها .

المأساة هي حالة (الفصام) التي نعيشها دونما فطام عن الطفولية السياسية .

لدينا مواقف معلنة ، ومواقف غير معلنة ، ونتصرف بشكل مغاير للموقفين ، المعلن والسري ! كأن اللامعقول هو جوهر سلوكنا مع ذاتنا والعالم . والأمثلة على التناقض بين سلوك بعضنا وأقوالهم المعلنة ومشاعرهم السرية لا نهاية لها .

بعض العرب يعلن أنه مع العروبة، وحين يخوض بلد عربي حرباً ما من أجل العروبة يتنصلون منه ! بعضهم يشتري الطائرات معلناً أنها للحرب مع اسرائيل ، وحين تقع حرب ما مع اسرائيل ، يحول الطائرات الى أسطول سياحي .

بعضهم يعلن أنه ينتظر بفارغ الصبر تلقين اسرائيل درساً لا تنساه ، وحين تحين المناسبة ، يتجاهل ما يدور تماماً وهو سلوك لن تنساه اسرائيل حقاً حين تضرب ثانية !

بعضهم يعلن غضبه على العرب لأنهم لم يساعدوه في محنته ، لكن هذا الغضب لا يشمل بعض الدول الصديقة الأخرى التي أهملته عملياً وأهالت عليه الرعاية لفظياً . . بل اننا نجده يتطوع أحياناً للدفاع عن اهمال ذلك البلد الصديق .

لماذا مغفورة ذنوب بعض الغرباء ، وملعونة ذنوب العرب ؟

بعضهم يقطع اللقمة عن فم الشعب لشراء المدفع ، وحين يصير استعماله واجباً قومياً ، يحيله الى المتحف العسكري ، ويذهب في رحلة للنقاهة ! . . هل هذا يطاق ؟ ولماذا تتصرف بعض أنظمتنا مثل الدكتور جيكل والمستر هايد ؟

* * *

سلوكنا المراهق أمام جائزة نوبل ليس أكثر من مثال بسيط على سلوكنا الهزلي أمام قضايا مصيرية أكثر تعقيداً وفداحة .

وحتى رجل الشارع الساذج الطيب ، والنساء الأميات ، والأطفال الأبرياء ، صاروا يلحظون هذا التناقض المأساوي بين ما يقال وما يقع . والكاتب الذي عايش

سنوات طويلة أصوات الذين لا صوت لهم ، يعرف جيداً حدة غضبهم المتقشف الخطر وشراسة تساؤلاتهم . وقد اطلع متفرجو التلفزيون على نماذج من هذه الصرخات في التحقيقات التي كان المراسلون الأجانب يصورونها (على الطبيعة) أيام مجزرة جماهير بيروت وسكانها على اختلاف مشاربهم وفئاتهم . الرجال يصرخون أمام الكاميرا مطلقين احتجاجاتهم على هذا الحاكم العربي الذي تخلى عنهم أو ذاك الزعيم . . والنسوة يبدين غضبهن من وعود طالما لعلعت بها بعض وسائل الاعلام ، ولم يتحقق شيء منها حين دقت ساعة الحقيقة ، وسقطت أقنعة البلاغة السياسية عن وجوه الجثث المتأنقة . . وتجلى الرياء السياسي في مرآة الأحداث الجارفة للأقنعة الخطابية .

سلوك بعض الأنظمة العربية المتناقض يذكر بتلك الكائنات الحية القديمة التي قطنت كوكبنا يوماً ثم انقرضت كالديناصور والدبلودكس ، وبكائنات أخرى هائلة الحجم كانت علتها الاساسية في انقطاع الترابط بين أوامر الدماغ وحركات الجسد . . . فهل سينتهي بعضنا كذلك ؟

١٩٨٢/٩/٢٠

أعيدوا الينا الحرب !

للمأساة اللبنانية وجه آخر مدهش العبثية ، لا تملك أمامه غير الانفجار ضحكاً . . ولا يملك «بيكيت » أمامه غير الانحناء إجلالاً في حضرتنا نحن سادة العبث و (اللامعقول) ، وهو الكاتب المسرحي الذي اقترن اسمه بـ (مسرح اللامعقول) ودمغه .

سيأتينا بيكيت ويونيسكو وجينيه وألبي وسواهم من عباقرة هذا النمط المسرحي في وفد خاص ، للاطلاع على المنجزات العفوية الفولكلورية لنا في هذا المجال ، وسيقيمون في مسارحنا المنصوبة في الشوارع والساحات وداخل البيوت ، ملتحقين بدورة دراسية تثقيفية لدى مجانين العنف في بلدنا . . . ومجانين التفاؤل . .

* * *

عن الجانب المضحك من مأساتنا أحدثكم اليوم ، وشر البلية ما يضحك .

ولا أدعي اننا سنضحك بصفاء نبع جبلي ، وسيطفح قلبنا بشراً ، وحبوراً شفافاً مسحوراً كندى برعم ربيعي . . . لكننا سنضحك (ضحكاً ما) ! . .

وكل ما علينا ان نفعله هو التحصن ببعض الجرأة لمغادرة البيت . سترافقني في جولة سياحية على الطريقة البيروتية الحديثة ، حيث نتفقد أماكن الانفجارات التي أيقظتنا مذعورين في الليلة السابقة ، فهذه هواية جديدة من هوايات أهل بيروت ، وتجد زحام السير على أشده في تلك الأماكن المنكوبة ، كأن كلاً منا يذهب ليرى في دمار الآخر موته الشخصي ، ودماره الممكن ـ بل وشبه المحتوم ـ ويجب ان نسارع للقيام بجولتنا ، فلأهل بيروت طاقة خرافية على اصلاح الدمار ، ومتابعة حياتهم اليومية ، أو موتهم اليومي (لم تعد تدري !) . فالأبنية التي عرتها الانفجارات من زجاجها ، تسارع لترتدي حلة جديدة مبطنة بـ (ثري إم) ، الأوراق التي تمنع الشظايا الزجاجية من التحول الى سكاكين متطايرة بعد الانفجار . . . والبيوت التي دفنت قتلاها ، تكفكف

الدمع ، وتحرص على من تبقى منها أكثر من البكاء على ما فات . . . والحوانيت التي احترقت او تهدمت تجدها وقد رممت نفسها بطريقة سحرية ، كأن الحجر نفسه صار في بيروت مادة حية تنبت كلما قطعتها ، وتتابع نموها كالأشجار او الأطفال .

* * *

تقرأ عن تدمير محلات (فلان) لبيع التلفزيون(لأنه لم يدفع الخوة مثلاً) ، وتمر بالمشهد المروع ، فتدهش للخراب الفادح ، لكنك تقرأ في اليوم التالي إعلاناً عن متابعة (بائع التلفزيونات) لأعماله في فرعه الثاني ! وبعد انقضاء شهر أو أقل ، تقرأ من جديد إعلاناً عن ترميم المكان المنسوف، وتمر به فتدهش لهذه الطاقة على الاستمرار . وينسف المحل ثانية ، وتتكرر الحكاية بمراحلها كلها ، وينسف ثالثة وهكذا . . . والكلام ذاته ينسحب على الناس في معظم مجالات عيشهم حتى لتدهش في امرك وأمرهم : أهذه ظاهرة بلادة ام حيوية ؟ وتضحك من نفسك ومنهم ، ومن هذه (السيزيفية) اللامتناهية . دوماً تدحرج الصخرة حتى قمة الجبل . تعود الصخرة لتهوي الى القاع . تعود لترمم بيتك ومتجرك كأنك تدحرج صخرتك من جديد الى القمة ذاتها . وتهوي الصخرة الى القاع ، وتحملها من جديد إلى القمة . . وهكذا الى ما لا نهاية في سيزيفية عبثية ، سيضحكك حقاً وانت ترقب نفسك داخل مرآة الزمن ، وأنت تمارسها بلا توقف بطريقة ما . . .

* * *

واذا كنت مثلي، لا تملك إلاّ ممارسة بعض الضحك في مواجهة الكوارث ـ حتى ولو كان ضحكاً دامعاً ـ ، رافقني في سيارتي التي أكلت عليها الحرب وشربت ، وسنرتكب معاً مغامرة الذهاب لشراء الخبز والزيتون وبقية حاجاتنا المنزلية . . ولن نعدم حادثة نضحك أمامها ـ إذا لم تقتلنا !

لماذا السيارة ؟ لأن المشي في بيروت أضحى مغامرة فتاكة ، والمرور في الشوارع المفروشة بالسيارات الملغومة والرصاص الطائش يستحسن ان يتم بسرعة قدر الامكان . . .

سأمضي بك عبر محلة الروشة ، حيث أطاحت انفجارات الأسابيع الماضية بعشرات الناس وارزاقهم ، لكنني مرغمة على سلوك هذه الطريق بعد انفجار الليلة الماضية في شارع (فردان) الذي تحول هذا الصباح الى منطقة (زيارة سياحية) ، وتحاشياً للزحام الذي يتلو صبيحة كل انفجار ، كهواية عبثية لا معقولة . .

لكن الزحام هنا في محلة الروشة على أشده ايضاً ، وها نحن وسط رتل من السيارات التي توقفت تماماً . ثمة ركض . ذعر . صراخ . مناخ مكهرب . يلعلع الرصاص فننبطح على أرض السيارة . يضرب مسلح زجاج النافذة بأخمص رشاشه . نرتاع . يطلب منا ان نقود السيارة . . . إلى الوراء !!

نعم . هكذا ببساطة ، كنا حوالي ٥٠ سيارة تحركت دفعة واحدة الى الخلف وسط إطلاق الرصاص ، دون أن يصطدم أحدنا بالآخر ، وكان صوت شخص ينادي عبر مكبرات الصوت ، ففهمنا أنهم وجدوا سيارة ملغومة جديدة بالقرب منا ، وهم يعملون على تفكيك عبوتها الناسفة، ويقول لك أحدهم أنها تحتوي خمسين كيلوغراماً من مادة الـ «تي . ان . تي » فقط . . يا للبخل . .

وتقود سيارتك الى الخلف ، كأنك في سباق مجنون ، نظمه فوضوي خرافي ، أو كأنك تحولت الى صورة هوجاء في فيلم للرسوم المتحركة . والعجيب أن سيارة واحدة لم تصطدم بأخرى ! . . . وها نحن نخرج من (النفق) ، وننجو من امكانية الموت بالانفجار . . ننعطف لنمارس السير السوي ، وإذا بالشجار يدب بين سائقين على (أفضلية السير) ومن منهما يمضي قبل الآخر (!!) . . ويشهران المسدسات ، فننبطح ثانية وينهمر الرصاص ثم يصمت . نرفع رؤوسنا ، ونجدهما ممددين على الأرض والدم ينزف منهما ومن بعض المارة ! . . كأنهما لم ينجوا من الموت بالمتفجرة منذ عشر دقائق فقط !!

وتنفجر ضاحكاً معي حتى يغمى عليك ، وتصحو على أهل الخير وهم يسقونك الماء ، ويغسلون وجهك بالدم ، ويفركون أطرافك بالبارود !

* * *

قلة منا تنال شرف الاستشهاد في بيروت ، ومعظمنا صار يموت مصادفة ويحمل لقب ضحية .

« وأفضلية السير » في بيروت صارت (قضية) لها ضحايا يتافسون في كثرتهم ضحايا وشهداء قضايا العرب الأخرى . عدد ضحايا حفظ الكرامة في قضية (أفضلية السير) يكاد يفوق عدد الذين يتساقطون على حدودنا مع اسرائيل ! . . . ذلك طبعاً لا ينفي وجود (أبطال) القضايا الأخرى ، كالخلافات العائلية والشخصية والمالية التي يزكم بعضها الأنوف . وفي مشاجرات كهذه ، يتساقط المارة والأبرياء وعابرو السبيل في مسرحيات عبثية خرافية يقتل خلالها الجميع . . ما عدا أصحاب الشجار !

وأمام واقع كهذا ، يشعر المرء بحاجة ملحة الى إحياء تقليد قديم هو « المبارزة » . . . وبدلاً من هذه الابادة العشوائية التي يتعرض لها (التافهون) أمثالنا من العزل ، حين يتشاجر « أرباب الأوليمب » عندنا من المسلحين ، لماذا لا يحل المسلحون خلافاتهم ضمن إطار « مبارزة » كما كان يحدث في العصور الوسطى ؟ وما دام بعض المسلحين يصرون على العودة إلى « العصور الحجرية » في أسلوب التخاطب بالهراوة النارية ، لماذا لا (يتطورون) الى « العصور الوسطى » ويتبنون أساليب الفروسية في المبارزة ؟

* * *

سنفرد لهم قطعة أرض شاعرية (غير المطار وباصات المدارس والحضانات والمستشفيات والشرفات والشوارع) ، وحينما يدب الخلاف بينهم لا ضرورة لإطلاق النار الفوري . سيطلب أحدهم خصمه الى المبارزة في وقت معين ، ويصطحب معه شهوده وطبيبه وسلاح المبارزة مثل السيف والمدفع الرشاش وقذائف الـ (آر . بي . جي) . وليذهبوا جميعاً الى مكان بعيد حيث يموت فقط الذين يطلقون النار ، لا كما يحدث الآن : يموت الجميع الا القاتل والرصاصة . وقد تلقى هذه المباريات في المبارزة رواجاً ، فهي أكثر نبلاً من القتل غيلة ، وقد يتدفق الناس لمشاهدة هذا المنظر النادر المثال في أيامنا : مصرع المتخاصمين شخصياً ، من دون سقوط عابر السبيل وقاطن الحي وضيوفه ودمار بيوت الجيران .

* * *

إن قلوب الناس التي أكلها الضحك الحامض الكاوي ، وأحرقت حناجرها القهقهات المالحة ، تتطلع الى لحظة يموت فيها القاتل لا الضحية ، وصاحب الشجار ، لا المتفرج الذي تصادف وجوده في مكان الشجار .

إننا على استعداد لشراء البطاقات لنرى مسرحية كلاسيكية كهذه ، وسوف نصفق طويلاً لنرى شخصين يختلفان على قضية ، ويطلق كل منهما النار على الآخر . . والآخر فقط ، لا علينا ! . .

فما رأيكم بأن نغادر عصورنا الحجرية الى العصور الوسطى على الأقل ؟ . .

* * *

وإذا غامرتم بالتسكع معي في بيروت ثانية ، فقد يسعدكم الحظ بمشاهدة مسرحية طريفة كالتي عدت للتو منها .

لقد تشاجر أحدهم وشرطي السير ، فلكمـه . (أي لكم المسلح شرطي السير !) . أجل ، ضربه فقط لا غير ، دون أن يطلق عليه رصاص رشاشه . بدا لي الأمر رومانسياً ولطيفاً وغير مألوف ، وكدت أركض خلف المسلح لأمس يده (الطاهرة) التي لا تطلق الرصاص ، واتبرك بلمته العاطفية الرقيقة ، وشاعريته الأخاذة ، ورهافة شعوره الانساني ، وحسه الوطني الحي . . . لكن انفجاراً غامضاً قطع علي هذه اللحظة المتأججة بمشاعر الحس بالجميل ، ومناخات اللطف في التعامل مع الآخرين . ألا ترون معي أن هذا المسلح الذي اكتفى بلكم شرطي السير ولم يقتله (كما هو مألوف لدينا) يستحق وساماً من الدولة وبعض الأحزاب والتنظيمات والدكاكين التي يصل تعدادها الى ٢٧٣ حتى لحظة كتابة هذه السطور ؟ . .

أيها السادة ، أرجوكم ، أعيدوا إلينا الحرب . فقد كنا يومها نعرف على الأقل اسم الرصاصة التي ستقتلنا ، واتجاه القذيفة التي ستحرق بيتنا ، وكان بوسعنا يومها أن نكون شهداء ، لا ضحايا .

١٩٨٢/٣/٢٩

رحلة في قطار الخيانة

صحيفة عربية معروفة ، ذكرت أن التلفزيون الاسرائيلي بث مقابلة مع نائب وزير الثقافة المصرية ، أعلن خلالها قبول دعوة وجهت إلى عدد من الفنانين المصريين لزيارة إسرائيل ، والمشاركة في تقديم برامج فنية ، ومهرجانات . وذكر التلفزيون أسماء بعض الذين قبلوا الدعوة ، وفيهم الممثل (المحبوب) ، وراقصة هز البطن (اللولبية) ، والموسيقار العربي الكبير عبد الوهاب .

* * *

تقرأ العين أسماء الذين قبلوا الدعوة . ترتعش بأسف ، ثم تدمع أمام اسم عبد الوهاب .

فهذا الفنان يمثل شيئاً كبيراً بالنسبة لقطاع كبير من العرب . . انه رمز من رموزنا الفنية في مرحلة زمنية طويلة . . وحجم الخيانة يعادل حجم الانسان . . . وحجم عبد الوهاب في القلوب كبير ، وبالتالي ستكون ضربته الأكثر إيلاماً .

في البداية نرفض أن نصدق أن عبد الوهاب يمكن أن (يعملها) ! ثم نتذكر دوره التمهيدي كـ (مايسترو السلام) العدواني ، ونخشى أن تكون رحلة الخيانة هذه هي الخطوة الثانية في الدرب إياها .

هذا الفنان الذي مشينا معه (في الليل لما خلي) ، وطربنا يوم (جفنه علم الغزل) ، وغفرنا له (محلاها عيشة الفلاح) التي تجاهلت البلهارسيا والاقطاع ، وساهرناه ليلة (علموه كيف يجفو فجفا) ، وسقطنا معه في سحر (كليوباترة) . . هل يمكن له أن يختم علاقته الطويلة معنا ، برحلة في قطار الخيانة الى إسرائيل ؟ . .

* * *

وركبنا في قطار البراءة والحب مع عبد الوهاب ، وأنشدنا معه بطفولة عذبة (يا وابور قولي رايح على فين) ، فهل الـ (وابور رايح) إلى إسرائيل على سكة الخيانة ؟ . .

وهل سيتابع دربه في تلك الطريق الملعونة ، طريق اللاعودة التي لم يمش فيها عربي إلا وعاذ منها مخلوقاً آخر ، متوجاً بشوك الغضب وعقابه ، حاملاً دمغة اللاغفران تحت جلده ، الشبيهة بدمغة الاجرام والنار التي كانت تكوى فوق بشرة السارقين في العصور الوسطى ؟

وهل من سرقة توازي إثم سلب جواهر محبة الناس ، ثم طرحها أمام الخنازير لتدوسها بأرجلها ثم ترجع علينا وتمزقنا ؟ . .

هل يمكن لـ (وابور) عبد الوهاب الذي سافر من سويداء القلب العربي المفعم بالمحبة ، في رحلة عمرها نصف قرن ونيف ، أن يمضي الى وكر العدوان ؟ . .

وهل يصر عبد الوهاب على الاقلاع بقطاره الى نقطة الانفجار النهائية ، مرتدياً بزة (المايسترو) ، وعلى صدره نياشين السلام الذليل ، عازفاً ألحان الغدر على آلات موسيقية شبت فيها نيران الدمار ؟ . .

غنى لنا عبد الوهاب ذات يوم « الفن مين يعرفه » فهل يعرفه هو حقاً ؟

وهل يعرف مدى مسؤولية الفنان أمام جمهوره والتاريخ ؟

لقد كان الفنانون العظام على مر الزمن حلفاء للقيم الانسانية ، بل وشبه حراس لها ، يقومون على خدمة محرابها رافضين أي إنتهاك لها من قبل القراصنة . . فهل قرر عبد الوهاب أن يتخلى عن الشعب لمصلحة القراصنة ؟

إننا لا نستطيع أن ننسى إنحياز كل فنان عظيم الى جانب الشعوب ضد الغطرسة والعدوان .

ولا نستطيع أن ننسى عبقري الموسيقى بيتهوفن الذي كتب ذات يوم سيمفونيته الثالثة (هيروييكا ـ أي سيمفونية البطولة) وأهداها الى نـابليون بصفتـه « بطل التحرير » . وحين كشف الزمن لبيتهوفن ، الوجه الآخر لنابليون المسكون بشهوة استعباد الشعوب الأخرى المسالمة ، وشهوة العـظمة المتجسـدة في تتويجـه لنفسه أمبراطوراً ، عاقب بيتهوفن نابليون ، ومزق اهداء السيمفونية إليه ، وأعلن سحبها ، وأهداها إلى « البطولة » حيثما وجدت ، لا إلى الغطرسة والعدوان .

* * *

هذا موقف فنان يعرف قيمة فنه ، وقيمة شهادته في دفتر التاريخ ، ويعي مسؤوليته أمام عبقريته والناس الذين منحوه حبهم وثقتهم ولكن عبد الوهاب خذل فنه وخذلنا يوم لم يعاقب السادات كما عاقب بيتهوفن نابليون ، فهل يقوم اليوم من عثرته ،

ويصلح غلطته بمقاطعة نهج السادات وكل من يسير على خطاه لعقد صلح منفرد ؟ . . .

لقد تميز بيتهوفن بذلك العشق الجارف للديمقراطية والعدالة ، والحس العميق بالمسؤولية نحو الناس جميعاً . فهل يقتدي عبد الوهاب ببيتهوفن (خلقياً) ، وهو الذي عرف عنه اعجابه (الفني) به حتى الاقتباس ، بل و (استعارة) بعض المقاطع الموسيقية ؟ كل ما نتمناه هو أن يمتد هذا الاعجاب ، ليشمل المواقف و (الحركات السياسية) لبيتهوفن ، ولا يتوقف عند نقل (الحركات الموسيقية) ، الأولى أو الثانية من بعض السيمفونيات ! ! . .

* * *

« الفن مين يعرفه » .

وعظماء الفن يعرفونه جيداً ، ويعرفون الثمن الأخلاقي الباهظ الذي تدفعه العبقريات حفاظاً على نقائها الانساني .

ان (خوف) عبد الوهاب من عقاب الذين يكتبون (سيمفونية الصلح) الرديئة ، ليس مبرراً له لعزفها.

حسناً. إننا لن نطالبه بكتابة سيمفونية القادسية ولا القدس ، كل ما في الأمر هو أننا نرجوه أن يرتاح في بيته فوق عرش الذكريات . لن نطالبه بأن يقاتل معنا ، كل ما في الأمر أننا نرجوه ألا يقاتل ضدنا . .

والفنان الحقيقي يستطيع أن يصمد في وجه (بعض) الاغراءات . الرسام العبقري « فان كوخ » صمد أمام اغراء المال ومات فقيراً . . وبيعت منذ أعوام إحدى رسائله بمبلغ ٤٠ ألف فرنك ، وكان المسكين قد كتبها ليستدين أربعين فرنكا ! . .

ومايكل انجلو صمد أمام اغراء الوجاهة الاجتماعية والجمال النسائي . . وذات ليلة تابع عمله المبدع ورسمه الخلاق ، ونسي الذهاب الى حفلة خرافية أقامتها إحدى جميلات أسرة مديتشي الحاكمة تكريماً له . .

ونحن لا نطالب عبد الوهاب بأن يعيش فقيراً ، لكننا نطالبه بأن يعيش غنياً بحب الناس له ، ثرياً بكرامته الوطنية والقومية نطالبه بـ (تقليد) فنانه المفضل بيتهوفن ، الذي تروي الحكايا عن سلوكه المترفع أمام الحاكم غير العادل . لقد رافق ذات مرة صديقه الشاعر جوته في رحلة الى كارلسباد وبيلينا وتبليس ، وكان يرفض الانحناء للنبلاء والحكام لمجرد أنهم كذلك ، ويميز بين الحاكم المخلص لشعبه ، والآخر المخلص لنزواته ، ويرفض الانحناء للثاني .

فهل يرضى عبد الوهاب بمتابعة الانحناء لسياسة كامب ديفيد ؟ باسم حبنا له ، لن نتركه يغتال أحلى أيامنا معه ، ولن نتركه يغتال نفسه وفنه ! . .

* * *

ترانا نحمل الأمر من الأهمية أكثر مما يستحق ؟

لا . لكننا نحرص على أن تظل ذاكرة الشعوب حية ونضرة ، تميز بوضوح بين العدو والصديق . والفن يلعب دوراً خطيراً في كسر الحس العفوي لدى الناس بالغربة أمام اسرائيل والتقزز أمام خيانة الصلح المنفرد معها .

الفنانون العرب الذين يذهبون إلى اسرائيل أو تأتي إليهم أو يشاركونها في أعمال فنية هنا وهناك ، يساهمون في تمرير الخيانة بإعطائها وجهاً أليفاً عادياً هو وجه الممارسة اليومية في حقل محبب . . كأن شيئاً لم يكن . . . ذلك يساهم في غسيل دماغ العربي من حقيقة الأشياء . .

إننا نطمح بأن يظل الجدار بين الخيانة والوطنية عالياً كالاهرامات ، واضحاً محدد المعالم كنهر النيل . . وسوف نناضل ضد تحويل هذا الجدار الشاهق إلى خيط رفيع ، يمحى في بعض المواضع ، بحيث تتميع القيم وتختلط المفاهيم وتضيع المعايير ، وتنشط التبريرات اللغوية لاختراع تسميات جديدة لـ (فعل الخيانة) ، تساندها الفعاليات الفنية في تصوير (الخيانة) كما لو كانت مجرد محطة يومية أخرى ذات نبرة عادية بسيطة ، لا وقفة تاريخية لقطار الأمة في محطة الخيانة .

* * *

كل فنان يستطيع أن يساهم في هذه اللعبة ، ولدوره أهمية مهما صغر .

من هنا يأتي حجم الغضب (الكبير) الذي نواجه به المطربات (الصغيرات) فنياً ، والمتوسطات ، اللواتي غنين أو رقصن للخيانة ، أياً كانت المرافعات لتبرئتهن .

لكن الأذى يكون فادحاً حين يتم توظيف فنان كبير من حجم عبد الوهاب في حقل إعطاء الخيانة وجهاً (شعبياً) . ها هو الصوت الأليف (عبد الوهاب) يأتينا مقترناً بالعمل المنفر (الخيانة) . يوماً بعد يوم ، سيتم تقريب (الخيانة) من النفوس عبر اقترانها بأشياء حياتنا اليومية التي طالما أحبها القلب وسكنت في اللاوعي . وبذلك يتم كسو الهيكل العظمي للمؤامرة ، وستره بقناع الفن ، ما دام الفن ينجح في تغطية الاشياء بطابع الاستمرارية الاعتيادية الأنيسة .

من هنا خطورة استعمال الاسماء الفنية العربية الكبيرة في مجال كسر غربة المواطن

المصري ورهبته امام صلح منفرد مع العدو ، بحيث يلعب الاسم (الادبي) او (الطربي) دور المخدر لترويض الحصان العربي الهائج و (المستوحش) في اسطبل الغدر .

* * *

ان المدلول السياسي للدفاع عن الفنانين المتعاملين مع العدو كبير جداً ـ مهما صغروا ـ . فهو يساهم ـ عن حسن نية غالباً ـ في مؤامرة تمييع المفاهيم ، وتطرية النفوس امام الثمرة الفجة للخيانة ، ومن الضروري اليوم التأكيد على انه لم يعد بوسع أحد ان يكون محايداً أو لامبالياً حتى ولو كان نملة . . فكيف بنا إذا كان جبلاً من حجم عبد الوهاب ؟ . .

ما احوجنا في هذه المرحلة الى الصدق الحاسم ، والعقاب الحازم ، والرفض غير المرن .

بعض الحكام العرب يقولون للصلح « لا » ، لكنهم يعانقون المصالحين ! يرفضون إسرائيل لفظياً ، ويلاطفون حلفاءها عملياً ! . .

* * *

هذا الوجه السياسي يكمله وجهه الآخر . . الفني .

ومن هنا نلحظ الاهتمام البالغ في بعض وسائل الاعلام المشبوهة بفنانين سبق لهم التعامل الودي وإسرائيل بطريقة او اخرى . .

وصار الذين يروجون للسلام الاستسلامي ، يتبنون رموزه الفنية ويمتدحونها . والمدلول السياسي لهذا العشق الفني المفاجيء ليس سراً . . ونحن ، لا نريد ان يصبح عبد الوهاب المطرب الرسمي لهذه الاذاعات .

في مجال الفن كما في مجال السياسة ، نطمح إلى ان يظل الخيط الذي يفصل بين الوطنية والخيانة واضحاً لا لبس فيه ولا ابهام .

ترى هل يتحول موسيقار الجيل إلى مايسترو الخيانة ؟

نضم صوتنا إلى صوت عشاق الطرب ، وصوت الآلاف من أسر الشهداء المصريين والعرب الذين قتلوا دفاعاً عن الكرامة القومية في مختلف الجبهات ، ونتمنى ألا يذهب عبد الوهاب ـ بقطاره الذي أحببناه ـ الى محطة الخيانة . .

١٩٨٢/٣/٨

رفاقنا في القمع !

حرب غير خفية تدور رحاها هذه الأيام بين بعض الكتاب والنقاد . وتبادل الرشقات الكلامية يملأ (زوايا) الصحف والمجلات . رسامون . شعراء. روائيون . أعلنوا الحرب على بعض النقد . وهي حرب حضارية ، جنودها الابجدية وديناميتها القلم . ولا تزيد (جولاتها) في أكثر حالاتها تأزماً عن التجاهل المتبادل في المقهى ، وربما جولة من (التلاسن بالأيدي) ، يعقبها تبادل القبلات في اليوم التالي .

وبالرغم من ان خلافاً (في الرأي) على أفضلية السير يمكن أن يسبب جريمة قتل في بيروت ، فإن أحداً لم يقتل بعد ناقده ، ما زال الادباء ونقادهم يشكلون (فصيلة) طفولية البراءة إذا قيست (شرورها) بما يدور حولنا من شرور . ولم يحدث بعد أن أرسل ناقد لمؤلف لم يعجبه عبوة ناسفة ، أو كتاباً نقدياً ملغوماً ، او يضع على باب بيته سيارة متفجرة . كما لم يحدث أن اختطف كاتب ناقداً لم يحب كتابه ، وأطلق عليه الرصاص وشوه جثته . .

الفنان هو الذي أعلن الحرب بعد أن سئم « القنص النقدي » والذبح « على الهوية » الذي يتعرض له نتاجه .

وفي الشهر الماضي قرأنا أكثر من صرخة لفنانين ينعون إلينا مصرع معظم « النقد النقي » .

وقد بدأت (الجولة الأولى) حين فتح رسام مبدع ناره الابجدية على (النقد الارهابي) ناعياً إلينا نقد الفن التشكيلي في معظمه .

وواكبت صيحته أصداء من التذمر بإيقاعات مختلفة ، وانضمت إليه صرخات أبرزها غضبة شاعر مبدع ، أصدر نتاجه الجديد منذ أشهر ، ولم يلق كتابه الجيد الجميل ما يستحق من إهتمام معظم النقاد . فكتب مطالباً بتخريب أوكارهم ، وأعلن صراحة ان المعايير الاساسية التي تتحكم بمعظم نقد هذه الأيام ، لا علاقة لها بالهم (الابداعي) بقدر ما ترتبط بالمعايير العشائرية والسياسية والاجتماعية وسواها .

وتعالت صرخات « نقد النقد » من كل حدب وصوب ، وبلغ السيل الزبى والحناجر ؛ وتدفق فيها يشبه تظاهرة إحتجاج جماعية .

* * *

وفي نيويورك ، تدور فصول (حربية) مشابهة لما يحدث عندنا . . والحرب بين الفنان والناقد لا تخلو أحياناً من الطرافة .

فالممثل « مايكل مورياريتي » مثلاً ، لم يلق عواطف (حارة) نقدية . فماذا فعل ؟ لم يكتف بكتابة « نقد ضد النقد » ، وإنما كتب مسرحية كاملة تسخر من النقاد ، وقام بتمثيلها على أحد مسارح برودواي في نيويورك .

وقد نشرت مجلة « التايم » الخبر في الشهر الماضي تحت عنوان : « مايكل ينتقم من النقاد في مسرحيته دكستر كريد » . وكأن ناقد « التايم » كان شامتاً بأحد زملائه ، إذ ذكر ان المسرحية إياها تتحدث عن (جون سيمون) الناقد الادبي لـ « مجلة نيويورك » الذي علق على المسرحية بقوله : عقاب قاس وغير عادي ! . . ويتساءل محرر «التايم»: العقاب لمن ؟ للمتفرج ، ام للناقد سيمون الذي استلهم الكاتب منه شخصية بطله ، الناقد المضحك البشاعة !

* * *

هذه المعركة بين الممثل والناقد ليست الأولى من نوعها . وتاريخ الادب زاخر بأدباء كرسوا جزءاً كبيراً من أعمالهم لنقد نقادهم ، وظاهرة النقد والنقد المضاد مألوفة . وهي مجدية حين تكون جادة وذات مستوى ، ومسلية حين تكون طريفة . وثمة نموذج آخر لا ينسى من نماذج النقد المضاد هو فيلم « مسرح الدم » ، من اخراج (دوغلاس هيكوك) وتأليف (انتوني جريفيل بيل) .

ويروي الفيلم حكاية ممثل يلعب أدوار شكسبير على المسرح. وذات يوم ، يرشح نفسه لنيل جائزة مسرحية كبيرة ، لكن لجنة من كبار النقاد تقرر حجب الجائزة عنه بالاجماع . فيرمي بنفسه في نهر التايمز منتحراً ، ويظنه الجميع قد مات . لكنه لم يمت ، وإنما قذفت به المياه الى الشاطىء ونجا . وتعلن الصحف نبأ موته ، ويختبىء هو في أطلال مسرحه المقفل ، وهناك يكون فرقة من الممثلين الفاشلين الذين يقررون عرض مسرحيات حية من نوع خاص ، تقع فيها الجرائم عملياً ودونما حيلة مسرحية .

وهكذا يبدأ الممثل انتقامه من النقاد . يأتي بالناقد الذي سبق له وسخر من دوره في مسرحية « تاجر البندقية » فيقتله على طريقة (شايلوك) بقص (اوقية) من اللحم

من صدره ، ويتم القتل عملياً أثناء (تأدية) بعض فصول المسرحية ! . . أما الناقد الذي سبق ان سخر من دوره في مسرحية عطيل ، فيقتل كما انتهى عطيل : بدفعه إلى قتل زوجته ثم الانتحار . .

وناقد آخر يذبح في فراشه . . وآخر يربط إلى ذيل حصان ويرسل به إلى جنازة ناقد آخر سبق قتله خنقاً . . وهكذا ينبش الفيلم وسائل القتل الشكسبيرية كلها ، ويطبقها على النقاد الاعزاء في فيلم رديء . . ويبدو ان الفيلم قد أرعب النقاد حقاً حتى امتدحوه خوفاً من التهديد الضمني الذي حمله لهم ! . .

* * *

وهكذا فحكاية القصف المتبادل بين الكتاب والنقاد قديمة متجددة ، تلتهب حيناً وتخمد أحياناً . . وثمة تفسير جميل لظاهرة قسوة بعض النقاد على أعمال فنية مبدعة . هذا التفسير حملته لنا مجلة«النيوزويك»،ومجمله ان الجمال الخارق يستفز المرء. وهذا الاستفزاز يجد لنفسه متنفساً بأسلوب عدواني أحياناً . والتفسير ينسحب على العصابيين وانصاف الموهوبين الذين يهاجمون الأعمال الفنية الخالدة (جسدياً) محاولين تدميرها ، والذين نقرأ اخبار عدوانهم بين آن وآخر على أعمال رائعة ، كما حدث لتمثال (بياتا) لمايكل انجلو ، ولوحة (الموناليزا) لدافنتشي ، المحفوظة اليوم (كالبياتا) داخل زجاج مضاد للرصاص ، بعد تعرضها مرات لمحاولات الاغتيال .

والنقاد (التدميريون) هم نوع مهذب رصين من أنواع العصابيين الذين يبدون ردة فعل عدوانية حادة أمام الفن الخارق !

* * *

هل يمكن لهذه النظرية تفسير سلوك الموسيقار روبنشتاين نحو صديقه الحميم العبقري تشايكوفسكي ، ومعزوفته الخالدة (بيانو كونشرتو رقم ١) ؟ لقد أسمعها تشايكوفسكي لصديقه (الغالي) روبنشتاين ليلة الميلاد في موسكو عام ١٨٧٤ ، فكرهها الثاني ورفض عزفها ـ وكانت مهداة إليه ـ وقال عنها تعليقات نقدية جارحة آلمت تشايكوفسكي حتى انه سحب الأهداء ، وأهداها إلى هانزفون بولاو الذي عزفها للمرة الأولى في بوسطن عام ١٨٧٥ ونجحت نجاحاً ساحقاً .

ويقال إن روبنشتاين بدل رأيه فيها ـ بعد نجاحها الكبير ! ـ وعزفها بنفسه أكثر من مرة . . تراه كان منذ البداية يعرف أنها رائعة ، وقد استفزته روعتها حتى الشهية التدميرية المشوبة بالعجز عن الاحتواء ، أم ان تفسير الحكاية ممكن ببساطة دونما معونة

علماء النفس ، ويلخصه الناس بكلمة واحدة : الغيرة ! . .

* * *

وهل تفسر هذه الكلمة الموجزة « الغيرة » ، ظاهرة بعض النقاد القساة ـ على سواهم ـ والذين (يرتكبون كتاباً) كسواهم يحمل اسمهم ، ثم يدهشون بعد إصداره لقسوة النقاد الآخرين عليهم ؟ . . تلك الطفولة النقدية ، التي تريد أن تنفرد بأخذ (الحنان) دونما منحه ، الا تذكرنا بافتقار الجو العربي الأدبي بوجه عام إلى (الحنان الانساني) في التعامل مع الأثر الأدبي ؟

ان الانصات إلى حوار (الاصدقاء) الفنانين في المقهى حول (الصديق الغائب) شبيه بالانصات الى عواء قطيع من صغار الذئاب . . وليس في عالمنا الأدبي من لم يبتله الحظ بـ « صديق لدود » يهوى النقد البناء . . على اشلائه !

ان جوهر (الحنان) في ممارسة النقد الأدبي هو « الولاء للفن » وللقيم الفنية أولاً . . وذلك أمر بدأ ينقرض . .

ولكن ، ترى هل تكفي وجهات النظر المذكورة آنفاً ـ بنسب مختلفة ـ لتفسير حرب النقاد والأدباء عندنا ولو جزئياً ؟

ام ان واقعنا المحلي والمرحلي يطرح تفسيراً إضافياً لجوهر ما يدور ؟

* * *

الكاتب والناقد يعانيان من القمع السياسي والفكري في بعض الاقطار العربية . . وفي بيروت بالذات تتأزم هذه الحقيقة ، إذ يمكن لوجهة نظر سياسية معينة ان تواجه نقداً ـ يوقعه مجهول ـ مختصر النص جداً : رصاصة في القلب . متفجرة في المنضدة . . إلى آخره .

في مناخ كهذا ، يخيل إلي أن بعض الكتاب يسقط عدوانيته السياسية (المقموعة) على الأعمال الأدبية ، في صيغة نقد (بناء) .

فالنقد السياسي عندنا قد يكلف صاحبه حياته . والنقد الادبي لن يكلف صاحبه اكثر من غضب الأعزل الصعلوك المسكين : الأديب .

وهكذا فإن الكتابة في « النقد الأدبي » قد تكون في جوهرها ـ لدى البعض ـ عملية تعويض عن القصور في العمل السياسي في ظل غياب الديمقراطية ، او الخوف من ذلك في (اللاوعي) . .

ولعل ذلك يفسر لنا تكاثر (النقاد الارهابيين) الذين يناقشون العمل الأدبي كما لو

كان بياناً سياسياً ، ويناقشون الأديب كما لو كان زعيم (ميليشيا) . انهم في أعماقهم يشتهون مناقشة (زعيم الميليشيا) ولا يجدون في أنفسهم الجرأة الكافية لعمل كهذا ـ ولا أحد يلومهم ـ فيتم (استعمال) الفنان كبش فداء في محرقة الديمقراطية ! . .

* * *

كأن جوهر (النقد التدميري) عندنا هو الهرب من محاكمة المسلح إلى عقاب الأعزل . . . كأن بعض نقاد هذا الزمان هم من فئة السياسيين الهاربين من ساحتها الخطرة إلى ساحة الفن الآمنة نسبياً . . فهم يعرفون عن السياسة أكثر بكثير مما يعرفون عن الأدب ، والأدب لديهم أداة سياسية فقط لا غير ، وهم لا يتدخلون فيما لا يعنيهم كـ (القيمة الفنية) للعمل مثلاً ! . .

ونقل المعركة من حقل ألغام السياسة الى بيادر الأدب تخلق لديهم (وهم العمل) والتعويض دونما حس بالخطر أمام أهل الفن الابرياء ، الذين ما زالوا يدافعون عن انفسهم بأسلحة بدائية جداً هي الحرف فقط لا غير ، حتى في بيروت ! . .

والحصيلة : سياسي جيد (مذعور) يتحول إلى ناقد رديء (مخيف) .

سياسي (مقموع) يفرغ قهره في (الأدب) مرتدياً قناع ناقد . .

ماذا نفعل ؟

لا شيء غير الحنان . .

لا شيء غير التعاطف الانساني مع النقاد ، رفاقنا في (القمع) البيروتي . .

لا شيء غير الاستمرار في العمل .

فالناقد المزيف لا يستطيع قتل فنان حقيقي . .

والفن العظيم يصمد امام أنواع الاضطهاد كلها ، قديمها ومعاصرها ، ويجد دوماً طريقه إلى الناس بالرغم من الصديق اللدود .

١٩٨٢/١/١١

عرب على اللائحة السوداء

دليل سياحي ، يصدر باللغة العربية في عاصمة أوروبية ، يقصر تقصيراً جماً في خدمة السائح العربي والمقيم في باريس وجنيف . انه لا يذكر لهم سوى أسماء المتاحف ، والمعالم التاريخية والجمالية والفنية الابداعية في المدينتين ، وخدمات سياحية أخرى كأسماء السفارات وشركات الطيران والمصارف ومواقعها ، وسواها من العناوين الضرورية للسائح في حالة الطوارىء ، كوجع الاسنان أو خواء المعدة أو الحاجة للطرب النظيف وغير ذلك .

ويبدو أن حرص الدليل على مستواه اللائق لا يروق للبعض ، الذين يطالبونه بذكر أسماء الملاهي التي تقدم استعراضات (الستربتيز) - أي رقصة التخلي عن ورقة التوت - .

وهكذا كتب بعض القراء العرب للدليل يقرعونه على تقصيره في مجال خدمة اللاأخلاق . وجاء رد الدليل (الرجعي) مخزياً لـ (التحرر) ، اذ رفض طلب القراء واستنكره ووصف نفسه بأنه « دليل سياحي راق . . . لن يشار فيه الا الى ما يغذي العقل ويفتح القلب الى الجمال » .

ولو ؟ أهكذا تعاملون شبيبة الوطن العربي ، الذين لا يواجهون أي تحد عدواني ، وبلادهم ليست في خطر ، والعدو لا يتربص بهم الدوائر (والمثلثات أيضاً) ؟ . .

أهكذا تحرمون شبيبة (ليلنا خمر) من عناوين ما تيسر من حانات التخدير والعري الغبي والنسيان ؟ ماذا يقول عنا العالم (المتحضر) اذا فرغت حاناته من فحولة ذكورنا في وغى حلبات الرقص الذي ليس رقصاً ، ولكنه سقوط في البهيمية تحت ستار (الفن) ؟ ألا ترون أن صورتنا كعرب في العالم الغربي لا ينقصها الاحترام والاجلال ، ولمسة مداعبة رعناء صغيرة لن تسيء اليها ؟

* * *

وهل أفشي سراً اذا حدثتكم عن صورة الفرد العربي في أذهان الرأي العام الغربي

والعالمي ؟ باختصار : لقد تحولنا الى نكتة عالمية تقليدية مكرسة في قاموس الهزل من بعض الشعوب . وكما تسخر النكات من (بخل) الاسكتلنديين واليهود ، وافراط الايرلنديين في الشراب والعراك ، وبرود الانكليز ، وغير ذلك من نكات كوكبنا ، صار العرب نموذجاً مكرساً لنكات من نمط معين نراها جلية في أفلامهم ومسارحهم ، ومسلسلاتهم التلفزيونية ومجلاتهم الساخرة ، وصحافتهم السياسية وغيرها . . . القاسم المشترك بينها لصورة العربي هو ما يلي : ثراء مفرط . غباء مفرط في التعامل مع المال والحضارة . شهوانية أمام النساء الشقر خاصة والحريم عامة . الرولز رويس المقترنة بسفينة الصحراء (الجمل) ، والقصور المقترنة بخيام مزاجية أسطورية البذخ والهدر ، وطائرات خاصة مكرسة لافانين الحرام والبطر ، وحرس مأجور أحمق . كل ذلك مغلف بالثوب العربي التقليدي من عباءة وعقال ، وقد أضيفت اليهما مؤخراً لمسة عصرية هي النظارات السوداء .

هذه هي صورة الغني العربي في معظم الإعلام الغربي ، وقد (استحققيناها) عن جدارة ، بفضل رعونة بعض أثريائنا وسوء سلوكهم في المجتمع العالمي . لكن المؤسف أن هذه الصورة تنعكس على العرب جميعاً .

وصورة الفقير العربي ليست أفضل حالاً ، فهم يرسمونه مغطى بالذباب والأمراض والسعال والتسول والتخاذل والجهل . . . وربما التخلف العقلي كمرض سار .

هذه الرؤية تظلم الفقير العربي أكثر مما تظلم معظم الأثرياء العرب ، وتشوه صورة الأكثرية الساحقة لشعبنا العربي ، اذ لا نلمح (حتى من قبيل التلميح) صورة عن الكفاءات العربية العصامية ، والأخلاق والروحانيات العربية ، والنضال العربي . وحتى آلاف المناضلين العرب الذين يضحون بحياتهم من أجل القيم الانسانية نراهم في معظم وسائل الاعلام الغربي (كاريكاتورات) ارهابية لشخصيات مريضة نفسياً ، معقدة وحاقدة ، كريهة الطبع والسلوك ، لديها عدوانية هتلر وقسوة ستالين ومتعة نيرون في الاجرام الفني . .

ووسط هذه الصورة (الجميلة) عن الفرد العربي ، ثمة من يكتب الى دليله السياحي معاتباً . . . كيف لا يذكرون له أسماء نوادي التعرية وعناوينها ، ليتابع هناك تعريته من مسؤولياته ووطنه وقيمه ، ويتابع تمريغ سمعة « الأكثرية الكادحة » في وحل تفاهة الأقلية الجانحة .

* * *

الصورة البشعة التي رسمتها لكم لا تتضمن مبالغة . انها صورة حرفية مثل انعكاس الوجه في مرآة محايدة . ولم يعد المرء بحاجة للبحث عنها ، فهو يصطدم بها في كل لحظة حين يتحرك في أية عاصمة غربية ، أو حين لا يتحرك وإنما يدخل الى احدى دور السينما . كأن يكون ماشياً في شارع (شانتبوليه) في جنيف ، ماراً أمام سينما (بلازا) . سيقرأ اسم الفيلم الجديد (الهدية) ، ويجده كوميدياً مغرياً . كلوديا كاردينالي ، و (بنت) أخرى حلوة جديدة تقول الاعلانات أن اسمها كليو غولد سميث . حسناً . قليل من الضحك ينعش قلب الانسان . يدخل الى السينما ، فيفاجأ بأنه أمام فيلم آخر من نمط « بترول . بترول » . فيه عنصر الأمير العربي الثري كموضع للسخرية مع (ملحقاته) المعروفة . عشيقات أجنبيات . صفقات رعناء يبذر فيها المال العربي باشراف عاهرات غير محليات . في فيلم (الهدية) تجديد في الديكور هو (مدينة البندقية) ، وتجديد في عناصر اذلال العرب .

العنصر الجديد المبتكر لاذلال العرب هو هذه المرة المرأة العربية في (الحريم) . . فالأمير الفاضل يقتني حريماً فيه عشرات النساء السمراوات ولكنه يقضي وقته طبعاً مع غانية أوروبية متحضرة شقراء . فماذا تفعل العربيات (المكبوتات) ؟ نراهن في الفيلم (يفتكن) حباً برجل أجنبي عجوز فرنسي ، رمت به المقادير بين أيديهن الممتلئة فراغاً وكبتاً ، ويتقاسمن ما تبقى من حيويته ! . .

هذه الصورة المؤسفة للمرأة العربية تحز في النفس . المرأة العربية التي نعرف جيداً ، والتي طالما شاهدناها تكدح في الحقل ، بل وتلد أطفالها وحيدة فوق الشوك وتقطع حبل الخلاص بنفسها بحجر ، المرأة التي تتلقى بصدرها رصاص العدو ، وتخرج في المظاهرات ، وتسكن في الصبر والتجلد حين يقتل رجلها أو يسجن ، وتجابه قمع أسرتها ، وقمع مجتمعها كي تساهم في خدمة الأسرة والمجتمع معاً . . . المرأة التي كرمتها بعض الأقطار العربية ومنحتها حقوقها ، فأثبتت جدارتها . هذه الصورة كلها عن الحالات المتعددة للأكثرية الساحقة من نسائنا ، لا أثر لها في معظم الإعلام الغربي المتخلف حقاً في هذا المجال ، فهو ما يزال يلهث ويجتر صورة مزيفة ركيكة هي صورة نساء الحريم المكبوتات الى حد امتصاص الهيكل العظمي لرجل أوروبي ، تعافه قطط حانات الدرجة العاشرة المأجورات .

* * *

هذا الفيلم الجديد ليس حدثاً جديداً ولا نادراً . نهش الصورة العربية يتم في المجالات كلها وعلى كل صعيد ، ونجده أيضاً في بعض الأفلام (التقدمية) . فيلم (شرف كاترينا بلوم الضائع) - وهو فيلم جيد - يرسم صورة العربي البشع بطريقة عفوية جداً وغير متعمدة ، مما يجعلها مؤثرة ومقنعة وذات مدلول .

فرجال التحري في الفيلم يتنكرون بزي راقصات وعشاق سهر أبرزهم فئة (عرب الملذات) . التنكر هو بالعقال والنظارات والسلوك المبتذل أمام النساء . هذا كل شيء ، ولا يدوم في الفيلم أكثر من عدة دقائق ، لكنه شديد البلاغة . انه يعني أن هذه الصورة للعربي في الغرب صارت مكرسة ومقنعة الى حد استخدامها - بكل حسن نية أحياناً - كوسيلة للتنكر لا يرقى اليها الشك .

* * *

مدام جين فوندا التي طالما أساءت الى العرب بزياراتها الدعائية المتكررة لاسرائيل ، تتوج اليوم أمجادها في ايذائنا بفيلمها الجديد (سيدة أعمال) . نضم الفيلم الى لائحة الأفلام التي لا تخلو من اهانة مباشرة أو غير مباشرة للعرب ، تماماً مثل فيلم (القرصان) عن رواية لهارولد روبنز ، وفيلم لولوش (الواحد هو الآخر) وفيلم برغمان (بيضة الأفعى) . والأخيران فيلمان مكرسان لايقاد مشاعر الذنب لدى الأوروبي تجاه (اليهودي) أيام هتلر ، وتجيير هذه المشاعر لمصلحة اسرائيل أي ضد العرب بصورة غير مباشرة وربما غير مقصودة . . . لكن النتيجة واحدة .

الى هذه الفئة ينتمي فيلم « الأطفال القادمون من البرازيل » تمثيل لورانس أوليفييه - جريجوري بيك - جيمس ماسون - وهو يتحدث عما فعله هتلر بأطفال الآخرين اليهود . وبدلاً من أن يأتي ردنا على هذه الأفلام بصورة فيلم جيد مثلاً ، يقول لهم أن هتلر فعل بأطفالهم ما يفعلونه اليوم بأطفالنا في فلسطين ، وجنوب لبنان ، وربما بقية العرب على التوالي لو استطاعوا ، نجد بعض الرد يأتي متسائلاً عن عناوين ملاهي التعرية في باريس لرفع راية فحولة رجالنا عالياً ، ولرقص الديسكو على أنغام « أمجاد يا عرب أمجاد » بتوزيع موسيقي جديد !

* * *

كأننا ألفنا صورتنا البشعة في أذهانهم . كأننا نكاد نرضخ لها في قبول ضمني مستسلم . فالمدام جين فوندا حظيت بتغطية صحافية عربية جيدة لكتابها عن (الريجيم) بدلاً من اهماله عقاباً لها ، وهي التي تدعي (الثورية النضالية) .

صرنا حينما نقرأ أربع صفحات من مجلة (ماد) مكرسة للسخرية منا كعرب ، نكاد نضحك بمرارة ، لكننا لا نفكر بمقاطعة المجلة ، أو المطالبة بذلك . كأننا لم نحقد على برغمان ولا لولوش ولا كلوديا كاردينالي . كأننا بدأنا نركز حقدنا على أبناء بلدنا الذين يسيئون الينا قبل الغرباء . كأننا صرنا نوجه حقدنا نحو الهدف الأساسي والأول : العربي الذي يمرغ سمعة وطنه ، ويسهل بالتالي مهمة الغربي الذي يقدم عملاً (وثائقياً) عن ذلك ، لا أكثر ولا أقل !!

* * *

من السهل الاستمرار في تبني ردة الفعل العربية العتيقة : المقاطعة . كل من يسيء الينا نرمي به الى (اللائحة السوداء) وننساه . لكن تقريب وجوهنا من الصورة يكشف لنا أن اللائحة السوداء يجب أن تضم أولاً أسماء عربية ، هي التي تساهم بصورة فعالة في اصابة الأجنبي مقتلاً من سمعتنا .

ما كل ما يصدر عن العرب ضمن نطاق التشويه هو متعمد ، ويأتي ضمن خطة اسرائيلية مدروسة . بعضه كذلك ، وبعضه الآخر صار يتدفق بطريقة عفوية ناجمة عن الصورة الكاريكاتورية البشعة التي تكرست عنا في أذهان الغرب.

لقد كان (العربي المهذار) هو الحليف الأول لسوء النية الصهيونية ، وهو اليوم المادة الخام لما يصدر عن الغرب مسيئاً للعرب دونما سوء نية متعمدة !

اذن نحن بحاجة الى لائحة سوداء عربية جديدة ، غير اللائحة السوداء التقليدية المخصصة للأجانب . لائحة تضم أسماء عربية ، وتشهر بتلك الأقلية العربية الثرية التي تشوه صورتنا في الغرب والشرق ، وتسرق لقمة جنودنا ، وأقساط مدارس أطفالنا في الأرض المحتلة ، وغير المحتلة ، والتي (برسم الاحتلال) ، لتنفقها على موائد الميسر والعهر والتشاوف والتبذير .

* * *

لقد نشرت مجلات عربية تحقيقاً عن مليونير اسرائيلي عمر فندقاً فخما في احدى عواصم الغرب . فهل قاطع الفندق عرب (ليلنا خمر) ؟ . . على العكس من ذلك . ونجد في ردهته للأسف تجمع فرسان العربدة الليلية العرب ، وغانيات المدينة يقصدنه لصيد الحيتان العرب الذين عظمهم من ذهب .

إن سلوك عدد كبير من رجال الأعمال العرب في عواصم الغرب وحاناته هو الفيلم الأول المضاد للعرب . . وأبطاله من (أهل بلدنا) هم الذين يجب أن يتصدروا

القائمة السوداء جنباً الى جنب - بل وقبل - الغريب. أليس من حقنا أن نعاقب ذوي القربى من بني قومنا الذين يغدرون بنا ويسرقون مال فقيرنا قبل أن نلوم الغريب الذي يشهد على ذلك شامتاً ساخراً ، وأحياناً دونما سوء نية ؟ أليس ظلم القريب أشد مضاضة وأذى من لامبالاة الغريب وربما قسوته ؟

* * *

نتمنى على لجنة مقاطعة إسرائيل تنظيم لائحة جديدة خاصة بمقاطعة (اسرائيل في الداخل) . لائحة تضم أسماء العرب الذين يشوهون سمعة المناضل والكادح والمغترب والمقيم ، بسلوكهم اللامسؤول وتبذيرهم اللامعقول، وتفتيشهم عن أسماء حانات التعري والستربتيز في باريس بدلاً من أسماء القرى العربية التي تبتلعها اسرائيل في لبنان وغير لبنان كلما سنحت لها الفرصة . ويكون من أهداف القائمة السوداء التشهير (بأولئك) واجراء (ستربتيز) اخلاقي لهم يعري حقيقتهم بالاضافة الى عقابهم بادراج (أعمالهم) ومصالحهم وشركاتهم على اللائحة السوداء أسوة بتلك الأجنبية التي رفضت مقاطعة اسرائيل . أليس أبناء قومنا بسلوكهم غير المسؤول - في زمن ثورة الحجارة في الأرض المحتلة - عملاء لأهداف العدو، وخنجراً في لحم نضالنا المرير ؟

في الأساطير الأوروبية الجميلة ، كانت الأميرة الغربية تقبل الضفدع فيتحول الى أمير . ما يحدث لنا اليوم هو أن الغانية هناك تقبل الأمير العربي ، فيتحول الى ضفدع !

١٩٨٢/٥/٢٧

شخير يغطي الحقول

لا تقولوا لي أنكم قد نسيتم من هو ابراهيم درويش ، ذلك الشهيد الذي سقط منذ حوالي شهر مضى ، أيام الانتفاضة الأخيرة للأرض المحتلة ضد العدو الصهيوني، ومخططاته الرامية الى تمرير الادارة المدنية وضم الضفة : أي الى ابتلاع المزيد من الأرض والبشر العرب .

قد تكون ثورة الفلسطينيين في الأرض المحتلة قد هدأت الآن مؤقتاً، كما تهدأ البراكين وهي تستعد لانفجار جديد تقذف فيه بالمزيد من حممها ،

وقد تكون ما تزال مشتعلة تقدم للأرض مهرها من الدم الناري المبذول ،

لندع أولئك الأبطال يواجهون العدو ، ولنواجه أنفسنا ، وبعضنا عدو نفسه !. .

ولنتساءل : ماذا فعلنا حقاً ؟ ماذا غير بدايات النسيان ؟

هل يمكن أن ننسى ؟

وهل سنضم انتفاضة الأرض الفلسطينية في آذار/ نيسان ١٩٨٢ الى روزنامة مناسباتنا الخطابية المحنطة ؟

بعض الدلائل يشير ـ للأسف ـ إلى ذلك. . . حتى لحظة كتابة هذه السطور على الأقل !

* * *

فبينما كان الأطفال يفتتحون « جبهة الحجارة » ضد العدو في فلسطين المحتلة ، والنساء يقاتلن بالنيابة عن بعض الرجال العرب وبعض الرجال العرب يقاتلون بالنيابة عن سواهم على بوابات الوطن العربي ، كانت (قضايا) أخرى (مصيرية) كثيرة تشغل بال عرب التثاؤب بشراهة ، والشخير باتقان . ولعل حادثة صغيرة تلخص خصائص هذا النمط من بعض السادرين في لهوهم عن الخطر الكبير في الجبهات المتعددة .

أجل . وبينما كانت يد الطفل العربي تحصب العدو الاسرائيلي بالحجارة ،

وفي اللحظة التي كان يخطو فيها بسام الشكعة بساقيه المقطوعتين خطوات التحدي في وجه القمع والارهاب والتعذيب والاذلال والقنابل المسيلة للدموع والحقد ، والعدو يهدد على لسان جمعية « أمناء جبل الهيكل » بتفجير المسجد الأقصى ، كان ثمة من يخطو الى حضرة شيخ المشايخ ليسأله أمراً يشغل باله : هل يجوز « الاختلاط » بين النساء والرجال في القبر . نعم ، في القبر .

وأدلى الشيخ بفتواه حول قضية « الاختلاط في القبر»، وهل دفن المرأة والرجل في قبر واحد (جائز) ولم ينس التوصية بتقديم الرجل في القبر ، وجعل المرأة وراءه . وأفادت الصحف التي نقلت الخبر أن « الاجابة كانت مبهمة » . اسمحوا لي باجابة غير مبهمة . اذا ثابرنا على حالة اللامبالاة هذه بالنضال العربي ، لن يدفننا غير العدو .

ويوم يدفن العدو جثثنا ، لن يبالي حقاً بطقوسنا . سيدفنوننا كالكلاب بعد ابتلاعهم لأرضنا . وستكون أعضاؤنا مقطعة بحيث لن نميز جثة الأنثى من الذكر بعد التمثيل بنا . وقد يرمون بنا في مدافن جماعية بعد خنقنا في غرف الغاز . وثمة احتمالات أخرى مشابهة سأحدثكم عنها في خاتمة هذه المصارحة ! . .

* * *

هذا المصير ينتظرنا اذا ثابرت قطاعات عريضة من الشعب العربي على نومها التاريخي ولهوها المدهش عن بحث مشاكل «الأرض كوطن» بدلاً من مشاكل «الأرض كمقبرة » .

الأعداء يحاولون سرقة الوطن من الاتجاهات كلها ، ونحن مشغولون بتفاصيل « حفلة الدفن » عن تفاصيل كيفية المقاومة .

ها هم يقشروننا مثل اجاصة مستسلمة ، ونحن نتابع سياسة « غض الطرف » ، ونمشي الى المقابر الجماعية بانضباط ، وشخيرنا يغطي الحقول كالجراد . . .

سياسة غض النظر (عن مذبحة هنا ، وحرب هناك) ، ستؤدي بنا ذات يوم الى موت ذليل بلا طقوس . . . فمتى يصدق بعض العرب أن ما يحدث في أي قطر عربي له انعكاسه على حياتهم بصورة مباشرة ، وعلى موتهم . وإن المؤامرة على الوطن العربي بأكمله ليست اكذوبة ، وأن الرغبة في ابتلاعه قطعة بعد أخرى أكيدة ، والمعارك مع الطامعين في ذلك متعددة الجبهات والبوابات . . . وأن موت (الآخر) الحالي هو موتنا الشخصي المؤجل ؟

ومتى يوسعون رقعة اهتمامهم من قضية الاختلاط في القبر الى ضرورة النزول الى الخندق قبل أن تضيع الأرض ونخسر القبر والخندق والدار والمدرسة والمسجد ودار الافتاء والمقهى وملعب كرة القدم ؟ . .

حكاية الاختلاط في القبر هذه هي نموذج لبعض ما يشغل بال قطاع كبير من العرب ، بينما تتم سرقة بساط الأرض من تحت أقدامهم وهم لا يلحظون ، ولا يشعرون حتى بالامتنان أو الخجل أمام آلاف الأبطال الذين يقاتلون هنا وهناك لأجل أرض العرب وكرامتهم كلهم .

* * *

يا شيخنا ، حدثهم عن الاختلاط في القبر ! قضية انفجار غضب الشعب العربي في الأرض المحتلة لا تشغل بالهم كثيراً . . . الحروب العربية في مواجهة الأطماع الأجنبية لا تقلقهم .

لقد قاموا بالواجب : مهرجانات خطابية . مسيرات . مظاهرات . اضرابات . شجب . استنكار . استهجان . لوم . أوراق عمل . مقررات . اجتماعات . كلمات . آه كل ذلك لطيف وتقليدي وحسب الأصول ، لكنه لم يعد يطاق، ولم يكن كافياً في أي يوم . .

فيوم الأرض يوم ، ويوم « سرقة الأرض » كل يوم . والأرض تريد عملاً حاسماً على صعيد التضامن مع كل الذين يقاتلون ضد سرقة البيوت العربية (والقبور أيضاً) . فمتى نخرج من اللفظة الى الفعل ؟ ومن المسرحية الى الحياة ؟ ومن الكرنفال الى الواقع ؟ ومن الأهزوجة الى المواجهة ؟

ألم يحن الوقت للقيام بشيء حاسم ؟ بموقف عملي نابع من خارج شطرنج الحسابات الدولية والكومبيوترات السياسية ؟ شيء يفرض نفسه فرضاً على عتق التقاليد الكواليسية ؟ ومتى يفاجىء الفرد العربي نفسه ، بلحظة خجل ؟ أطفال الأرض المحتلة قاتلوا بالنيابة عن بعض الرجال العرب ، ونساؤها صمدن في وجه العدو . . . والأمثلة لم تعد تحصى . . فهل ثمة بعد اليوم من يجرؤ على وصف الرجل الجبان بأنه (كالمرأة) ؟ ليت معظم رجالنا كبعض نسائنا . ليتهم يخرجون من هموم دفنهم في القبر مع المرأة والانتقاص من قيمة جثتهم ، الى هموم عدم دفن الوطن في القبر الكبير الذي يعده لنا أكثر من عدو للوطن وفي أكثر من جبهة . .

أيها الرجال أخرجوا من هموم تقديم جثتكم في القبر على جثة المرأة ، وتقدموا في ساحات الوغى .

* * *

دعا بسام الشكعة الحكومات العربية الى اليقظة . ونحن بدورنا ندعو الشعب العربي الى اليقظة من بعض الحكومات العربية ! بعضها يتابع غض الطرف عن العدو ، ويجهد لدس المخدر عبر وسائل الاعلام ، ونشر مناخ الاسترخاء بين الناس ، وخلق وهم الأمن وتعميم عمى الألوان . .

لقد أقيم في تونس اسبوع « العصا البيضاء » من أجل خدمة فاقدي البصر . .

ولو أراد الاتحاد القومي للمكفوفين التونسيين أن يبسط رعايته على (المكفوفين العرب) من فاقدي البصيرة لا البصر ، لتحول « أسبوع » العصا البيضاء الى « سنوات » ، ولكان عليه توزيع ما يفوق مئة مليون عصا .

* * *

هل يمكن أن ننسى صورة ذلك الصبي الصغير ، الذي لم يبلغ العاشرة من عمره ، وجندي العدو يجره من رقبته الى المخفر لتعليمه مبادىء قراءة أبجدية القهر والاذلال ؟ يقتاده في شوارع الجليل ونابلس وغزة والقدس ورام الله والخليل والناصرة وعكا ، والصبي يتجدد فيها ويتكرر في عشرات القرى الفلسطينية ؟

وهل يمكن أن ننسى مشهد المقصات الاسرائيلية وهي تقص أختام الدكاكين المضربة واقفال الحوانيت العربية ، وتغتصب حرية أصحابها وحقهم في الاضراب؟ ألن يلتفت أحدنا الى قفل باب بيته هلعاً وواعياً أن المقص ذاته سيطال اقفاله شخصيا ذات يوم ؟

وهل يمكن أن ننسى صورة الشهيد ابراهيم درويش بوجهه الذي يشبه صور المسيح ، وجسده النحيل المسجى على منصة أحزان الناس ؟

* * *

تركض الذاكرة بين ابراهيم درويش والصحافيين المضطهدين هناك . . حامل القلم وحامل البندقية . . وكلهم مستهدف والقلم له حصته دوماً من محاولة الكسر .

فاذا كانوا قد قتلوا ابراهيم درويش فانهم حاولوا اغتيال الكلمة حين ألقى البوليس الاسرائيلي القبض على ثمانية عشر كاتباً من الصحافيين الفلسطينيين في بعض الصحف الوطنية « الشعب » و « الفجر » بعد حظر توزيعها في الأرض المحتلة .

وبالرغم من توقيف « الفجر » عن الصدور ، ظل الفجر يطلع من عيون أطفال ثورة الحجارة ، فاسرائيل قد تبيد السنونو ، لكن ذلك لا يعني اغتيال الربيع الفلسطيني .

* * *

وهل يمكن أن ننسى أيضاً أن اسرائيل قامت باغتيال البرتقال بعد اعدام الأقفال ؟ ملايين الوجوه البريئة لثمار البرتقال منعت من العبور في اتجاه الأردن كاجراء انتقامي الغاية منه تدمير معيشة أصحابها العرب وأرزاقهم ، ١٤٠٠ طناً من البرتقال حكمت بالاعدام في إطار الخطة القاضية بتجويع عرب المقاومة في الداخل . وجريدة الفيغارو الفرنسية نقلت أقوال فلسطينيين تحدثوا عن حياتهم داخل الأرض المحتلة فقالوا انها « تزداد بؤساً معيشياً مع مرور الأيام ، بالاضافة الى كرامتهم التي تتعرض للامتهان بصورة مستمرة» . سنتذكر فوراً صور عرب الشراهة في ولائم الأكل والبطر والسهرات والأعراس والبذخ العربي ، ولن نقول لهم : ودامت الأفراح في دياركم عامرة . . . بل سنكتفي بالقول : ودامت دياركم لكم !

أولئك العرب الذين يواجهون حرب التجويع داخل فلسطين المحتلة ، ألا يستحقون قضمة من (تورتة) البطر العربي ؟ ألا يستحق عرب الضفة والقطاع عوناً من المال العربي المهدور تحت شعار ليلنا خمر على موائد الميسر في حانات الغرب ؟

* * *

ويا أعزائي الذين تشغل بالهم كثيراً حكاية «الاختلاط في القبر» وتلهيهم وسواها عن الهم العربي الكبير . . إليهم أزف البشرى بأنهم لن يواجهوا مشكلة تذكر مع القبر . . . فأعداء العرب قد أعدوا لنا ميتات تليق بحياتنا . . مقابر جماعية سيتم احراق جثثنا فيها على الأرجح ، أو جوارح تأكل بقايانا ، أو رياح تحمل رمادنا الى حيث لا ندري . . المهم لن يكون ثمة (اختلاط) في القبر ، وإن كنت غير واثقة من أن الجوارح تقدم الرجل على المرأة في طعامها ، والنار تميز يومئذ بين رجل وامرأة . . ولكن فليطمئنوا . . . لن تقدم امرأة عليهم في القبر . .

والآن ، ماذا عن حياتهم ؟

أي ماذا عن ذلهم ريثما يحين ذلك ؟

١٩٨٢/٥/٣

زلزال من النيل الى الفرات

خبران عربيان ، أحدهما مؤلم ، والثاني مبهج .

من اليمن يأتي الخبر المؤلم : الزلزال . ومن الامارات العربية المتحدة يأتي المبهج ، بمنع (بهجة) الأعياد .

نبدأ بالخبر المؤسف .

نصف دقيقة تغير خلالها تاريخ اليمن الحديث . المشاريع الانمائية الناجحة مستها يد الدمار ، وعادت بالوطن الى مرحلة الاعمار بدلاً من الانماء . الخسائر تحتاج الى ستة أشهر لحصرها وتحديدها ناهيك عن تعويضها . الخسائر البشرية لا تعوض. «كارثة تركت اثرها اقتصادياً وبشرياً على اربعمائة ألف (كيلومتر مربع) ، وثمانمائة ألف شخص » كما ذكر رئيس وزرائها ، والمطلوب الآن نصب ٥٠ ألف خيمة بسرعة .

يا لزمن الخيام العربي الموجع . خيام هنا وهناك في العديد من الاقطار العربية . تعددت الاسباب والخيمة واحدة ؟ لا . الخيمة ليست واحدة .

خيام اليمن دخلت الى البلاد من باب القضاء والقدر . خيام العرب الباقية نصبتها لامبالاة البعض ، واهمالهم لقضاياهم الجوهرية . خيام الفلسطينيين واللبنانيين وصمة عار في جبين معظم الانظمة العربية .

يكاد يصير عمر خيامنا نصف قرن من الزمن ، وكل ما يحدث هو اننا ننقلها من قطر الى آخر ، او نوزعها على الأقطار .

* * *

زلزال اليمن كارثة طبيعية أدمت قلوبنا حقاً . ذلك القطر الشقيق الحبيب ، الذي ما كاد يجد دربه الى الازدهار والبناء والاعمار ، حتى تدخلت أصابع القدر بجبروتها الذي لا يرد ، وأطاحت بخمس امكانات البلاد في ضربة واحدة . . ونحن في لبنان نعرف جيداً معنى « الزلزال » بالمفهوم العملي للعبارة لا « الخطابي » . لدينا صورة حسية عنه ، لا صورة ذهنية . نفهم جيداً معنى ان تفقد انساناً غالياً ، او افراد اسرتك كلهم

دفعة واحدة . . أو تخسر أصدقاءك بالتقسيط . . وليس بيننا من لم يسحق قلبه موت عزيز مسحوق تحت الانقاض . .

اخوتنا في اليمن ، الذين وجدوا انفسهم فجأة بلا مأوى غير الخيام نفهم جيداً معاناتهم . وليس بيننا من لم يجد بيته مدمراً ذات يوم ، بعضه أو كله . نعرف معنى ان تخرج الى العمل صباحاً ، فتعود ظهراً ولا تجد دارك . ولا شجرتك . ولا وسادتك . ولا أحب الناس اليك .

الجوع ، العطش . نعرفهما في غير أشهر الصوم أيضاً .

الذعر ، الذعر الذي ينشب أظافره في القلب دونما رحمة . . الشعور بأن الأرض لم تعد صلبة تحت قدميك . وذلك الاحساس بأنك فريسة اخطبوط ينتظرك في قاع البئر ، وانت تهوي وتهوي في دربك اليه . الوداع الأسيان مع أشياء الحياة الصغيرة العذبة ، التي ينعم بها الناس في معظم أقطار الدنيا الأخرى دون ان يلحظونها ، فقد صارت لديهم عادة مألوفة لا يخطر في بالهم غيابها ، كالكهرباء التي تحولت في لبنان الى (مخطوف) جديد ، وورقة ابتزاز وتهديد ، والهاتف الذي يمنحك بركة التواصل ويحمل من البعيد صوتاً كما الريح المدجنة القادمة عبر ثقوب ، والبريد الذي اختصر سحباً من الحمام الزاجل في طابع بريدي صغير . . هذه كلها نعرف معنى ان نضطر للحياة والعمل والبناء في غيابها . في العصر ذاته الذي مشى فيه الانسان على القمر ، نحن عاجزون عن التواصل مع القرية المجاورة .

مأساة اخواننا في اليمن نعرفها جيداً في لبنان ونعيها ربما اكثر من أي عربي في قطر آخر . فمعاناتهم اليومية في الأيام الثمانية الماضية والآتية ، هي معاناتنا اليومية في الأعوام الثمانية الفائتة . لكننا للأسف سنكون (أعجز) من اي عربي آخر في مجال المساعدة . نذهب الى المطار استعداداً للسفر الى اليمن والمشاركة في رفع الانقاض ؟ في دربنا الى المطار ، تسمع هذه اللحظة صرخات أنين من تحت انقاض البناء الذي انهار البارحة (بناء الاسكندراني في منطقة جامعة بيروت العربية) بطوابقه الثمانية فوق السكان . . والفضل للقذائف الاسرائيلية التي صدعت البناء وخلخلته ، فتهاوى الآن تحت ضربة مطرقة . .

ما نزال هنا نرفع الانقاض يومياً عن جثث قتلانا ، وقد تحولت بيوتنا الى قبور مؤجلة لا ندري متى تطبق علينا .

* * *

اخواننا الأحياء في اليمن ، يخرجون من زلزالهم بالجراح والآلام والكدمات، وضمائرهم ناصعة نقية .

أما نحن ، فنمعن دخولاً في زلزالنا ، وقد تلطخت ضمائرنا والضمير العربي معنا في معظم الاقطار ، بكل ما كان وما سيكون ، فزلزال اليمن من صنع الطبيعة . وزلزالنا من صنع الطبيعة البشرية . زلزالهم دام نصف دقيقة .

زلزالنا دام ثمانية أعوام ولما يهدأ

هم يقبلون القضاء والقدر ، ونحن نلوم صنيع البشر . زلزالهم قادم من قلب الأرض ،وزلزالنا قادم من أرض التناقضات العربية والرياء ، وزيف بعض الانظمة التي تدعي وصلاً بالعروبة ، وحرصاً علينا من المحنة ، لكنها تغذي مأساتنا عبر القنوات الممكنة كلها ، المرئية والسرية .

زلزال اليمن التهم خمس الامكانات هناك ،

وزلزالنا التهم خمس الأنظمة العربية ، وعراها أمام الرأي العام العربي المخدر أو المقيد في تلك الاقطار .

زلزالهم انتهى على ما نرجو ،

زلزالنا بدأ ، ولن يتوقف قبل ان يبتلع المزيد . . واسرائيل حددت بوضوح موقع الزلزال على لوحة غير سرية ، معلقة في الكنيست تقول : « من النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل » ، وبعضنا ما زال مصراً على نسيان القراءة والكتابة ، باستثناء قراءة كراسات النوادي الليلية الفخمة في أوروبا ، وشروط الانتساب اليها . . وما شابه .

زلزال اليمن دمر ٢٢ قرية كلياً ، و٢١٨ قرية جزئياً .

زلزالنا دمر قطراً عربياً من الخارج والداخل . . فاسرائيل تقاتلنا ، ونحن نقاتل بعضنا بعضاً في الوقت ذاته ، ونهدم القرى فوق رؤوسنا في زلزال سياسي مركب .

مراسل (التايم) ذكر انه لم ير في عيون منكوبي اليمن دمعة واحدة ، وانهم كانوا يواجهون قدرهم الصعب بصلابة .

وهذا وحده هو الشيء المشترك بين زلزالهم وزلزالنا . . فنحن أيضاً نواجه مأساتنا بعيون لا دمع فيها . ما جدوى تلك الدمعة المسكينة الهزيلة أمام بحار الأسى والنكبات المحدقة بنا ؟

* * *

زلزالنا كشف تخاذل معظم العرب عن نجدتنا ، ولا مبالاتهم بموتنا . فهل نشهد

في زلزال اليمن بدايات عودة الروح الى التضامن العربي ، والشهامة العربية ؟

وهل يقف العرب كلهم الى جانب ذلك القطر الجريح في محنته، كما لم يقفوا من قبل الى جانب اقطار عربية أخرى ، حاربت وحيدة ، وواجهت محاولات ذبحها صامدة ، بينما معظم بقية (العشيرة) سادرة في تجاهلها ؟

هل يكون زلزال اليمن بداية وعي العرب على الزلازل الأخرى التي تضرب خارطة الأرض العربية ، وتهدد بسقوطها عن موضعها من التاريخ والجغرافيا معاً ؟

الزلزال ليس في اليمن ولا لبنان وحدهما .

الزلزال في صلب وضعنا العربي الممزق .وهو يزداد خطورة يوماً بعد آخر . فهل تصحو بعض الأنظمة ، أم تظل مصرة على مصادقة الزلزال ، والتنظير له ، والتصفيق لطلائعه ، واعطائه تأشيرات دخول والترويج لوجوهه المتعددة ، والاحتفال بأسمائه الكثيرة ؟

لقد هب مسؤولو اليمن لمعالجة الأثار المدمرة للزلزال . ولكن بعض العرب ما زال لاهياً عن الزلزال الكبير . رافضاً مواجهته . واهماً ان زلزال لبنان السياسي قضية محلية ناسياً ان جذور جبال لبنان مرتبطة بجذور (الجبال) العربية كلها ، وان جبال الأطلسي مثلاً ليست حقاً بعيدة عنا آلاف الاميال ، فبينها وبيننا درجة واحدة في مقياس الزلازل القومية ، هي وجبال الأوراس . . ناهيك عن جبل المقطم وجبل عمان وجبل قاسيون وهضبة نجد وغيرها . . وما يحدث في لبنان مقدمة لزلزال يشمل الأرض العربية كلها « من النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل » كما تنص الوصية العدوانية ، التي لا تستثني منابع النيل طبعاً . . فهلا استيقظ البعض من شخيرهم التاريخي قبل ان تتحول بيوتنا الى قبور ، وقبل أن نجد أنفسنا بحاجة ماسة لا إلى ٥٠ ألف خيمة لليمن ، بل الى ١٥٠ مليون خيمة للجميع .

* * *

من اليمن كان النبأ الأليم .

من الامارات العربية المتحدة يأتي الخبر الثاني المبهج . لماذا لم ابدأ الكتابة به ؟ أظن أنها(قلة العادة) أمام الاخبار الحسنة ، فهي لندرتها أنستنا كيفية التعامل معها ، وألف قلمنا الكتابة عن الكوارث ، وصار يذهل أمام الظواهر الايجابية ويكاد يتحجر .

فقد أصدر وكيل وزارة الاعلام والثقافة في الامارات قراراً بمنع مظاهر

الاحتفالات برأس السنة كالكرنفالات التنكرية واطفاء الأضواء منتصف الليل وغيرها من (التقاليد) .

هذا ليس قراراً بمنع (الفرح) كما قد يتبادر الى بعض الاذهان للوهلة الأولى .

انه قرار بمنع الهستيريا الجماعية التي صارت تقليداً يرافق ليلة رأس السنة الميلادية ، كأن المرء يرفض ان يواجه عامه الجديد وهو بكامل وعيه .

لقد تحول « رأس السنة » في البلاد العربية الى تظاهرة مستوردة لمظاهر الفرح والتخدير ، بعيداً عن وعي واقعنا وجذورنا وتاريخنا وزلازلنا .

وتاريخنا يذكرنا بأن بيت المقدس يشهد عيد ميلاد السيد المسيح تحت جزمات الاحتلال الاسرائيلي ، و « بيت لحم » التي شهدت مولد نبي كريم بشر بالسلام ، محرومة اليوم من العدالة والسلام . ولكننا نحن العرب استوردنا الشجرة والإضواء الملونة والمغارة ، وكدنا نسقط في هوة طقوس وثنية جديدة تنسينا جوهر المأساة . . واتهمنا (فرح الاطفال) بذلك ، وفرح أطفالنا هو في تأمين مستقبل كريم لهم على أرض بلا ذل ، وبلا مباهج مزورة .

* * *

قرار المنع هذا حكيم وبعيد النظر .

ففي زمن الزلزال العربي ، يبدو كل ما يساهم في تخدير الحس العام بالخطر مرفوضاً وكريهاً . فنحن بحاجة الى الصحو ، لا الى مزيد من السقوط في هوة ممارسات طقوسية هجينة . لقد احتلت اسرائيل في الأشهر الأخيرة أرضاً عربية جديدة أخرى ، هي الجنوب اللبناني ، وقواتها ترابط على مرمى حجر وشهقة من العاصمة العربية الثانية التي يدوسها العسكر الاسرائيلي ، وهي بيروت بعد القدس . وهذه الأحداث في نظري ليست مناسبة تستدعي اطفاء الاضواء والعربدة وارتداء القبعات التهريجية ، والزعيق في الزمامير كطيور استوائية فقدت رشدها ، لكنها مناسبة تستدعي اضاءة المزيد من الأضواء الكاشفة ، واستنفار المزيد من الصحو في مواجهة الزلزال الذي يتهدد تراثنا وشخصيتنا العربية ووجودنا وحياتنا ، وحياة أطفالنا التي لا يستطيع (بابا نويل) المزعوم انقاذها ، ولسنا بحاجة الى تنميتها في ظل بسمة مقددة كالحة من تحت شاربيه الاصطناعيين ولحيته المهترئة . . وكل خطوة صوب الصحو والوعي القومي نرحب بها .

* * *

منع مظاهر حفلات الميلاد ورأس السنة في الامارات ليس منعاً للفرح ، ولا

حرماناً للاطفال من البهجة ، وانما هو دعوة لشرب الفرح من ينابيعه الحقيقية ، ودعوة لأعياد نستحقها ونصنعها دونما تزوير ولا استيراد ولا تجاهل الواقع المرير .

هذا القرار هو في جوهره دعوة الى زمن من الصحو نواجه به « زمن الخيام » العربي ،

والى وضوح الضوء نواجه به الزلزال المحدق بنا وبقيمنا . واذا كانت الشعوب الأخرى تطفىء الانوار بمناسبة دخول عام جديد ، فحري بنا نحن العرب ان نضيء الأضواء كلها حين نستقبل عاماً جديداً . . فالسكاكين التي تنتظر لحظة ظلام لتنقض علينا كثيرة ، والسارقون الطامعون في أرضنا وتراثنا لا يهادنون .

١٩٨٣/١/١٧

من ضرب عائشة ؟

للتو عدت من المستشفى وانا اشتعل غضباً ، وقد خلفت ورائي امرأة ضربت بشدة ، وكسر عظم وجنتها ، لأنها رفضت ان تترك عملها بناء على امر اصدره اليها احد (ذكور) اسرتها . .

فقد كانت عائشة امرأة عاملة وناجحة في مجالها . تنتمي الى اسرة رقيقة الحال ، ثرية الاخلاق ومعروفة باحترام الناس لها (اي انها تمثل قطاعاً شاسعاً من اسر الشعب العربي) .

مرت الأسرة بأزمة مالية ، فاضطرت (للسماح) لابنتها بالعمل ! ثم زالت غمامة الحاجة الملحة ، فطلبت اليها التوقف عن العمل بعد اعوام خمسة ، ذاقت خلالها طعم المسؤولية واثبات الذات في المجال العام .

كنا نهتف اليها ايام عملها ، فتجيب امها (على الهاتف) وتقول لنا مرتبكة : « عائشة ما زالت في مركز عملها » . ثم تضيف شبه معتذرة : « ماذا بوسعها ان تفعل ؟ انها تتسلى » .

هذه الاجابة كانت نذيراً بأن مفهوم اسرتها عن (عمل المرأة) ليس على ما يرام ، وكانت في الوقت ذاته تلخص مأساة جيل مع الجزء البالي من التقاليد المتوارثة .

* * *

حكاية صديقتنا عائشة مع (الأخ المغوار) ليست نادرة . واجابة والدتها (الهاتفية) ليست فريدة ، وليس بيننا من لم يسمع تعليقاً اعتذارياً مشابهاً من احدى السيدات المسنات في معرض (دفاعها) عن عمل ابنتها .

ما المقصود بعبارة : « ماذا بوسعها ان تفعل ؟ انها تتسلى » ؟ المدلول بدهي : (انها غير متزوجة اي ليس لديها ما تفعله بحياتها ولذا فهي تتسلى بالعمل) .

هذا المنطق يلخص ببساطة مفهومين خاطئين نعاني منهما حقاً ويوديان باستمرار الى

ضرب عائشة ، وهما : ١ ـ عمل المرأة العاملة ليس (عملاً) حقاً ، وانما (تسلية شريفة) مرحلية . ٢ ـ المهنة الاساسية والاصلية للمرأة هي الزواج . انها المهنة الدائمة والا فالمرأة (عانس) لا (عازبة) .

* * *

من ضرب عائشة ؟

المفاهيم البالية المتوارثة هي التي ضربت عائشة ، واستخدمت ذراع شقيقها المنوم مغناطيسياً بالماضي كأداة لتنفيذ المهمة ! ثمة نظرة بالية الى (عمل المرأة) آن الاوان للتحدث عنها بصراحة تمهيداً لنسفها .

عمل المرأة ليس (نقطة اتهامية) ضد ذكور الاسرة الذين (اضطروها) الى ذلك ، ولا ضد المركز الاجتماعي للاسرة ككل . انه الوضع الطبيعي في عصرنا ، في مجتمعنا ، في المرحلة التي تمر بها امتنا . . وهو بالاضافة الى ذلك كله الشرط الانساني لتعيش الكائنات البشرية حياة سوية متوازنة ، ذات معنى على الصعيد الشخصي ، وبناءة على الصعيد العام .

* * *

مجتمعنا يعتبر العمل واجباً على الرجال في الطبقات كلها . وهي نظرة اصيلة وصحيحة ، ومن الضروري ان تنسحب على افراد المجتمع كافة نساء ورجالاً .

لنعقد المقارنة الطريفة التالية :

اسرة ثرية . تعتاش من ريع املاكها الموروثة . ابنها الشاب يميل الى حياة الكسل والاستمتاع بالثروة . في اسرة كهذه نجد كبارها يرغمون الشاب على اتخاذ مهنة ولو رمزية ، كأن يعمل موظفاً (غائباً ، براتب بسيط ، فالراتب غير مهم في هذه الحالة) ، او يستأجرون له مكتباً (لا يفعل شيئاً فيه) . المهم ان حفظ المظاهر الاجتماعية يستدعي ان تكون للرجل (مهنة) ، فمن العيب الا يعمل ، او الا يتظاهر بأنه يعمل !

والعكس صحيح :

اسرة رقيقة الحال ، بحاجة الى عمل كل فرد فيها . الاسرة تبذل كل ما في وسعها كي لا تعمل فتاتها ، واذا (اضطرت) الى العمل ، فالأسرة تعتبر ذلك حالة عابرة وتتستر على الأمر وتداريه ، وتطلق عليه اسماء التورية كـ (التسلية) مثلاً .

* * *

نحن امام مقياس عربي مزدوج للاخلاق : تقاعس الرجل عن العمل في الحقل

العام رذيلة في نظر الطبقات كلها .

تقاعس المرأة عن العمل في الحقل العام امر عادي ومألوف في نظر الجميع تقريباً .

حلم معظم الامهات : انضمام البنات الى فئة المترفات ، وهن اقلية في مجتمعنا تتخذ منهن بعض الامهات والصبايا المضللات مثلاً اعلى ، ويتمنين الانضمام الى فئتهن عن طريق زيجة (سندريللية) . . فئة نساء الكسل ، ونجمات السهرات والبطر والنميمة والصبحيات للعاطلات عن العمل خارج البيت وداخله . لقد اسقطتهن المرحلة في غير قطر عربي ، لكنهن ما زلن يتمتعن بحصانة اجتماعية متوارثة تجعلهن مؤذيات للنشء الطالع ، حيث تحلم بعض الصغيرات بمستقبل مشابه مكرس للترف الكسول وارتداء فاخر الثياب والحلي ، والانشغال بألاعيب الحريم عن واقع الشعب العربي وتطلعاته وكفاحه ، والتلهي في صالونات المساج والسونا والتجميل والازياء والهدر عن همومنا . . و (الأسرة) تبارك ذلك بل وتجد فيه طموحاً . .

* * *

هذا الواقع العام لا ينفي وجود استثناءات فردية ، تكثر في بعض الاقطار العربية التي يشجع نظامها عمل المرأة بحق ، ويمنحها كياناً يعترف بمكانتها وطاقاتها ، ويمنحها فرصاً متكافئة مع رفيقها الرجل ، ويواكب تطورها نحو الأفضل بحيث لا يفقد المجتمع نصف فعالياته لاسباب متوارثة غير مقنعة الا لأهل الأقنعة .

في بلاد عربية كهذه ، يلعب النظام دوراً مشرقاً في التعجيل بعملية التطوير الاجتماعي ، وتبديل النظرة الجماعية المتوارثة بسرعة تواكب عجلة التبدل المعاصرة ، وتطلعات امتنا صوب تغيير واقعنا العربي . . الى الافضل .

* * *

ثمة ملحوظة هامة :

ان التوكيد على عمل المرأة في الحقل العام يجب الا ترافقه نظرة ضمنية فوقية متعالية ضد المهنة الواقعية للاكثرية الساحقة من النساء العربيات ، واعني بذلك : مهنة ربة المنزل !

واذا استثنينا اقلية مترفة لا تعمل داخل البيت ولا خارجه ، ومهنتها الاساسية (النجومية) - وهي اقلية ما تزال تحظى بتغطية اعلامية في بعض اقطارنا ، لكنها في طريقها الى الانقراض الفعلي في غير قطر عربي - يمكننا القول بوجه عام ان الأكثرية

الساحقة لنسائنا العربيات يمثلهن نموذج « المرأة الكادحة » سواء عملت خارج البيت او داخله . والاهتمام (بعمل) المرأة في الميادين العامة ، لا يمكن ان يدفع بنا الى تناسي المرأة الكادحة في ميدان (الأمر الواقع) اي ميدان البيت .

* * *

لكن مهنة (ربة المنزل) التقليدية هي ايضاً بحاجة الى اعادة نظر ـ بعد التوكيد على نبلها واهميتها وتضحيات صاحباتها في مجالهن ـ فربة المنزل موظفة من نوع خاص . لا تقبض راتباً الا الشكر ـ ان وجد ـ لا اجازة لها . لا اضراب عندها . لا نقابة تحميها . لا راتب تقاعدياً . واجتماعياً لا ينظر اليها كمهنة ذات شأن عال كمهنة الطبيبة او المحامية او المهندسة مثلاً . انها بوجه عام مهنة اللواتي لا مهنة لهن ، بالرغم من ان الكثيرات اللواتي انخرطن في سلكها ، كن ذات يوم خامة فذة واعدة لأديبة او طبيبة او استاذة جامعية . وهكذا ، بعد التوكيد على الاحترام الكبير للبطلات السريات المدعوات (ربات بيوت) ، نأتي الى معضلة ثانية تستحق وقفة عصرية . .

* * *

البيت العربي بطقوسه الشاسعة (الرهيبة) ، وبممارساته المتشعبة التقليدية المتوارثة ، يستهلك طاقة اكثر من امرأة واحدة . . .

ومن الضروري اعادة النظر في نمط حياتنا ككل ، من اجل اطلاق يد ربة المنزل (الكادحة المنسية) ، ليكون بوسعها ان تصير امرأة عاملة ايضاً خارج المنزل .

وقد يكون ذلك عسيراً في مرحلة تربية الاطفال بين العشرين والاربعين مثلا من عمر المرأة ، ولكن ماذا عما تبقى من عمرها ؟

بين سن الأربعين والخمسين يزدهر الرجل (عملياً) ، وتذوي المرأة تدريجياً في سجن الكآبة ، اذ تنتهي مهمتها كمربية للاولاد الذين كبروا وتزوجوا وذهبوا . . فلماذا ننهي حياة نصف مجتمعنا مع انتهاء طاقتهن على الانجاب البيولوجي ؟ ولماذا نهدرهن في سن العطاء المكثف الغني بطاقة النضج ؟ ثم ان كون المرأة (جدة) ليس مهنة كافية !!

* * *

ان عمل المرأة العربية في المراحل كلها ضرورة وليس ترفاً . انه ضرورة لوطنها اولاً ولها ثانياً . ومن هذا المنطلق نطرح ضرورة اعادة النظر في « مؤسسة البيت العربي » ككل ، بحيث تتحول مهنة (ادارة المنزل) الى عمل جماعي لافراد الاسرة كلها ، بالاضافة الى مساعدة مؤسسات عامة مستحدثة كدور الحضانة وربما المطاعم الجماعية .

وحينها تتحول مهنة « ربة المنزل » الى عمل عائلي جماعي ، يتحمل كل بعض اعبائه ، يصير بوسع المرأة ان تعمل كأي فرد آخر في المجتمع ، وان تنمو ، وان تعطي ، وتزدهر .

* * *

هذا يستدعي طبعاً محاكمة عادلة لطقوس حياة البيت العربي المكرسة للهدر : طقوس الزواج . الولادة . الموت . الاعياد . السفر . الوداع . الاستقبالات الدورية ، وكل تلك الطقوس التي لم يعد لها اي مبرر عصري ، غير انها موروثة . حتى ليتساءل المرء : اهذا بيت ، ام مؤسسة لغسيل دماغ المرأة واستنزاف الرجل ؟ اهذا عمل يومي ، ام نزف يومي تحت شعارات اليفة ؟ اهذا بيت ، ام سجن مؤبد لطاقات العقل ؟

تراني احلم ؟

ربما . . لقد كنت دوماً حالمة بعالم عربي ، اكثر عدالة مع افراده جميعاً . . .

مع الشاعر . . والمرأة . . والمناضل . . والطفل . . والكادح . . والفنان . . والمجنون . .

١٩٨٢/٣/٢٢

أخرجوا من جرحنا !

عام ينقضي ويولي الادبار مثل سجين فار .

عام جديد يأتي مرتعداً كمن أرغمت طائرته على الهبوط . وتزدهر مهنة التنجيم مع نهاية كل عام . يلعب العرافون دور (القابلة) في توليد العام الجديد . ينادون عليه في ردهة مستشفى الكرة الأرضية : « صبي » أم « بنت » ، ويقررون مستقبله مستلهمين النجوم والكواكب البعيدة .

وقدرنا يصنع على هذه الأرض العربية ، لا في المجرات المنسية . نزفنا مستمر لا في المريخ وزحل والزهرة ونبتون بل في طرابلس وعاليه والشوف والجنوب . لجرحنا روافده القادمة من معظم العواصم العربية ، لا من الضبابات الكونية والأفلاك الراكضة .

وهذا البناء المحروق المقابل لبيتي اخترقته القذائف الاسرائيلية ، لا النيازك والشهب السماوية .

* * *

ولكن ، حتى الكواكب تبدو غير ودية في (تحركاتها المشبوهة) نحو الأرضيين في نظر المنجمين . وهم لا يرون سنة ١٩٨٣ مشرقة من الوجهة الفلكية ، لما ستحمله ـ على ذمتهم ـ من الحروب والاعتداءات وأعمال العنف والأزمات الاقتصادية . هذا ما يتوقعه (أقطاب) التنجيم للعالم كله هذا العام ، بالاضافة الى الهزات الأرضية والبراكين والزلازل والفيضانات وغيرها من الكوارث . ولبنان له نصيبه من هذه النبوءات (المبهجة) .

ونحن لا نصدق ما يقوله منجم سلباً أو ايجاباً ، ولكننا نصدق ما تراه عيننا من خسوف سياسي وكسوف عربي في غير قطر ، لا في مدارات الكواكب النائية .

هل ستنسحب اسرائيل هذا العام من الأراضي اللبنانية التي احتلتها في العام الماضي ؟

هل ستستبدل احتلالها العسكري باحتلال سياسي واقتصادي ؟

* * *

« أخرجوا من أرضنا » هي الصرخة التي أطلقتها هذا الأسبوع تظاهرة من النساء والأطفال في إحدى القرى اللبنانية ، بعد أن اعتقل الجنود الاسرائيليون رجال القرية .

وهذه الصرخة تلخص جوهر ما يدور في لبنان .

ولكن ، بين الصراخ والفعل مسافة ، كالهوة بين الواقع والحلم . « أخرجوا من أرضنا » شعار ترفعه الشعوب ، وتقاتل بالوسائل كلها من سلمية وحربية وديبلوماسية لتحقيقه . . فماذا نفعل نحن ؟

اننا نغرق في الظلام .

لا أتحدث عن الظلام (المادي) المحيط بي الآن ، في هذه اللحظة ، وأنا أخط هذه السطور قبل ساعات من انقضاء ليلة رأس السنة على ضوء شمعة كما في العصور الوسطى . أتحدث عن ظلمات أخرى عديدة تحتل رقعتنا النفسية ، ونحن للأسف نستضيفها ونغذي احتلالها لنا ، وصيحة « أخرجوا من أرضنا » غير مجدية اذا لم ترافقها صيحة أخرى موازية لإخراج الداء الكامن فينا ، قبل الداء الخارجي القادم الينا . ما حكاية هذه (الظلمات) ؟

لنبدأ بالظلام (المادي) الذي أخط لكم هذه السطور على ضوئه ! أكتب في حضرة شمعة ، لا لأسباب رومانسية ، أو اداء لطقوس كتابية هزلية . ولكن خطوط (التوتر العالي) والقتال الدائر في جبال لبنان ، والقذائف المتبادلة تمنع فرق الصيانة من الوصول الى الاعطال لاصلاحها .

هل المعارك التي قطعت أسلاك الكهرباء تدور بيننا وبين اسرائيل ؟ لا . المعارك تدور بين اللبنانيين أنفسهم ، والقوات الاسرائيلية المحتلة يحلو لها أن تلعب أحياناً دور الحكم !

هذا هو الظلام الحقيقي . شجارنا فيما بيننا لا العتمة . اقتتالنا ، واسرائيل تحتل نصف أرضنا ، والجهل يحتل نصف رقعتنا النفسية بظلمته الدامسة .

هل نحن بحاجة الى بصارة كي نقول أن الأشهر القادمة لا تدعو الى التفاؤل ؟

* * *

مقابل كل قتيل اسرائيلي من جنود الاحتلال يسقط على أرضنا ، يسقط خمسون قتيلاً لبنانياً في الحروب الداخلية فيما بيننا ، في طرابلس حيث اندلعت حرب (الأشقاء) ، وفي عاليه والشوف حيث (داحس وغبراء) طائفية المظهر ، جوهرها ظلام في الرؤيا يقودنا الى التقاتل والتشنج ، بدلاً من التحلي بالتعقل واليقظة مهما اختلفت الانتماءات . فثمة انتماء (جوهري) يربطنا جميعاً : الانتماء الى هذه الأرض التي نصرخ بالجميع « اخرجوا منها » فيما نحن نتابع تدميرها وزلزلتها تحت أقدامنا .

لقد عادت أخبار القتل والخطف والمذابح تحتل الصفحات الأولى في روزنامة أيامنا ، منتقلة من بيروت الى طرابلس والشوف وعاليه . هذه أسرة تذبح بأكملها في ممارسات انتقامية متبادلة . ورجال يعذبون وترمى جثثهم المشوهة في مرقد عنزة . القناص عاد يمارس لعبته الدموية . الحواجز المسلحة . التراشق المدفعي . التهجير الجماعي . التفجير . ذلك كله عاد إلينا .

كأننا درنا دورة كاملة فوق أرض العنف ورجعنا الى نقطة البداية ، لنعاود الدورة . كرة ثانية .

فما يدور اليوم بيننا ، شبيه ببداياتنا الدامية عام ١٩٧٥ . كأننا لم نتعلم من هذا الزمان شيئاً غير مهنة ذبح المخطوفين وحفر القبور وصناعة اليتم والترمل ، وحرفة بناء المتاريس وتهديم البيوت ، وتحويل الشجر الأخضر الى مشانق .

هذا الظلام المسائي الدامس الذي نغرق فيه ليس مصادفة ، وليس مرده الى انقطاع التيار الكهربائي وحده ، بل هو رمز لغرقنا في عتمة ممارسات غرائزية لا عقلانية ، قائمة على ردود فعل طفولية تغفل الخطر العام الكبير ، لصالح الغرور الخاص الصغير .

اننا لا نتشاءم من انقطاع التيار الكهربائي ، لكننا نجد فيه تلخيصاً رمزياً للظلام الذي نتخبط فيه على غير صعيد . وهذه كلها ليست مؤشرات تبشر بعام سعيد . ولسنا بحاجة الى عراف ليقول لنا ذلك .

* * *

لا أعرف ما هو رأي العراف في حوادث التسمم الجماعي التي نتعرض لها في لبنان ، وكان آخرها نقل ٤٠ حالة تسمم .. « من تناول لحم فاسد » الى المستشفى الاسلامي في طرابلس .

لقد فسد الملح والخبز واللحم ، وتحول طعامنا الى سموم . انقطاع التيار

الكهربائي يفسد لحومنا ؟ أجل ، كما الغش وانعدام الضمير . المعلبات الخاصة بإطعام الكلاب والقطط وغيرها من الحيوانات ، يعاد لفها في (أمبالاج) جديد ، وتباع لنا على انها لحوم لإطعام بشر مساكين مثلنا ، لا القانون بقادر على ردعهم ، ولا وازع في صدور اثرياء بؤسنا .

لقد تحولنا ، لا إلى مختبر لتجريب الأسلحة فحسب ، بل لتجريب الطاقة البشرية على البقاء في ظل ظروف معيشية مذلة أقلها (تعاطي) علف الحيوانات . واللحوم التي ترفض دولة ما إطعامها لمواطنيها حرصاً عليهم ، يتم تصديرها إلينا بفضل بعض تجارنا أصحاب (الهمة والضمير) .

الأطعمة والمعلبات التي نشتريها لا تذكر تاريخ صنعها وصلاحيتها معتمدة على حاسة (الشم) لدى المستهلك المسكين ، وان فعلت فمعظمها مزيف .

واذا تسممنا أو مرضنا ولجأنا الى الدواء ، فالدواء مزور خصيصاً من أجلنا . ومعظم الأدوية التي تباع في أسواقنا مقلدة ، بفضل (مافيا) تعتاش من جرحنا ، وفقدان الرقابة الفعالة عندنا ، فتقوم بغش الأدوية واللقاحات وتبيعنا أدوية لامفعول لها .

لقد أصيب عدد من أطفال جنوب لبنان بالشلل (كأن نكبة الاحتلال لا تكفيهم) بفضل إعطائهم اللقاح الواقي من الشلل ، الذي لم يكن واقياً لأنه كان مزوراً ومقلداً . فمأساة اللبناني ليست مع العدو الخارجي فحسب ، بل مع الوجوه العديدة للعدو الداخلي .

وصدق المثل العربي الشعبي « دود الخل منه وفيه » .

* * *

هذه أمثلة على واقع نتعثر به في المجالات كلها . وحدنا حين نقرأ أخباراً لطيفة عن (موفد الصندوق العربي للانماء يؤكد الاستعداد لدعم إعمار لبنان) ، نتنهد بغصة ، لأن العالم كله لا يستطيع تعمير وطن يعمل بعض أبنائه على تهديمه باتقان .

مع واقع كهذا ، هل نحن بحاجة الى منجم يبشرنا بالمزيد من العذاب والتخبط ؟

ولو جاءتنا بصارة بخبر عن نصر عظيم نحرزه ، وشمس فرح تبزغ في سمائنا هذا العام قرأت تباشيرها في خطوط الطول والعرض للمريخ ، هل نصدقها ، أم نصدق هذا الظلام الموجع الذي نرتع فيه على خطوط العرض والطول لأيامنا في الانهيار؟

وهل نلعن الظلام الذي غرقنا فيه أواخر السنة القديمة ومطلع الجديدة ، أم

نشكره كمرآة صادقة عن واقعنا المخزي ؟

* * *

نشكر الظلام ونحمده لأنه خرج بنا من الداء الجديد الذي صرنا نعاني منه هنا : عزلة اللامبالاة . السنوات الثماني للحرب والقمع والقهر بدلت ردود الفعل (الطبيعية) للناس أمام الكوارث . وصارت اللامبالاة هي الصفة الغالبة علينا في موقفنا إزاء الموت والخراب والدمار . كأننا قطيع من النمل ، تدوسه قدم عملاقة وتقتل من تقتل ، ومن ينجو يتابع دربه الى المقهى والملهى ، والى حفل زفافه أو محكمة طلاقه ، دون أن تحين منه التفاتة الى القتلى الآخرين أو مدلول مصرعهم .

لقد سقط معظمنا في عزلة اللامبالاة . جسده حدود وطنه . بيته عالمه . شارعه كرته الأرضية . وكل ما يحدث خارج مجالها الحيوي لم يعد يستفزه . لقد ضربوا على أوتار أعصابه عاماً بعد آخر حتى انقطعت واهترأت ولم تعد قادرة على التوتر أمام أي حدث لا يمس صاحبها مباشرة بالمعنى المعيشي اليومي الصغير للكلمة . كأن طاقتنا المدهشة على الاستمرار، هي في جوهرها اللامبالاة.

وشعارنا الأغنية الشعبية (خربت ، عمرت ، حايدة عن ظهري ، بسيطة) .

وكثيرون في بيروت المنهكة بالاحتلالات المتوالية للشعارات والأحباء والأعداء ، لم يعد بوسعهم الاهتمام حقاً بما يدور في طرابلس وعاليه والشوف .

لم يعد بمقدورهم الاهتمام بأكثر من شرفات بيوتهم التي دمرت مرات بيد التقاتل بين الصديق والصديق ، ثم العدو .

همهم الملح صار زجاج بيوتهم التي حطمتها مراراً قذائف اقتتال الأشقاء ، ثم قذائف الأعداء .

* * *

ولعل انقطاع التيار الكهربائي عن بيروت في مطلع العام الجديد ، يكون فاتحة (اتصال) الوجدان الشعبي ، اللامبالي بغيره في بقية القرى والمدن ، كعاليه والشوف وطرابلس . وقد يكون بمقدورنا أن نرى في هذا الظلام الدامس مدلوله المضيء : لن يكون بوسع أحد في هذا الوطن ان يكون سعيداً بمفرده ، او منتصراً بمفرده ، او مهزوماً بمفرده .

وكل ضربة ينزلها احدنا بجاره ، تفتح ثغرة إضافية في باخرة الوطن المثقوبة التي بدأت المياه الاسرائيلية تتدفق اليها .

فهل نصحو قبل لحظة الغرق ؟

وهل نحن بحاجة الى كرة البصارة المضيئة لتقول لنا ذلك ، ام تكفينا كرة المصباح الكهربائي المنطفئة لنتقن قراءة الظلام ؟ وكيف نقول لهم « اخرجوا من أرضنا » ، ونحن نفعل كل ما بوسعنا لإخـراج أرضنا عن خارطة العالم المتمدن ؟

١٩٨٢/١٢/٣١

ملعون هذا الزمن العربي

حسناً . سنقولها لكم ملء فمنا وبأسلوب مباشر : نرجوكم أن تعفونا من حبكم العذري لحروبنا . وإذا كنتم على هذه الدرجة من القناعة بعدالة قضيتنا ، وضرورة موتنا فداء لها ، فشرفونا وموتوا معنا مثلاً . او افعلوا شيئاً آخر . افعلوا أي شيء . المهم الخروج من الكلمة المهترئة كالخرقة الى الفعل .

أجل ، سنقولها لكم دونما مواربة : تعبنا من هذه الكتابات القادمة من دهاليز التثاؤب والغبار ، التي تتحدث عن بيروت ومآسيها ومذابحها بصورة (شاعرية) هلامية غائمة ، وتضيف الى موتنا الحربي ، موت الفن الأدبي .

لا أتحدث طبعاً عن الأعمال الابداعية النادرة التي ألمت بمأساة بيروت وخلدت ملحمتها بحق، لأن الفن العظيم هو صنو الفعل: انه فعل عطاء وخلود. لكنني ألفت الى ذلك الفيض الهائل من (موضة) الكتابة عن بيروت . حينما يقرأ ابن بيروت معظم ما يكتب عنها في بعض الصحف والمجلات العربية يشعر بقهر حقيقي أمام (صرعة) ركوب الموجة البيروتية الدامية .

معظم الكتابات يسطرها أشخاص يصلحون للحرب او لا يصلحون لها ، ولكنهم لا يصلحون للكتابة على أية حال . وتتجلى في سطورهم الفضفاضة ، العنتريات النظرية ، والكليشيهات الشعرية التي تؤسس لـ « عمود الشعر العربي الحديث » . حيث يخاطب الكاتب الوطن على أنه الحبيبة ، وتتحول بيروت الى الحبيبة الشريرة البريئة ، الزانية القديسة ، وغيرها من الصور الممجوجة لكثرة التكرار . وبعد التغزل ببيروت في مطلع (الكتابة الابداعية) ، ينتقل المؤلف ، فيمتدح موتنا (الجميل) في بيروت ، ويحسدنا عليه ، كأن المذبحة جميلة في المطلق ، والى مدى لا يجوز معه إيقافها !. . ونكاد نعتذر من كاتبها لتوقفنا عن الموت أحياناً ، وانصرافنا

لقضاء حاجات تافهة مثل اعداد الخبز ومداواة الجرحى وتهدئة روع الأطفال ودفن الموتى .

* * *

كأن الموت في بيروت صار غاية شعرية بدلاً من وسيلة سياسية ونضالية .

كأن الاستشهاد صار مطلوباً لذاته ، لا كوسيلة الى حياة أفضل . كأننا في بيروت شهداء عشق الموت للموت .

نحن مثل البشر جميعاً ، نكره الفوضى والغوغاء والعنف والحرب ، لكننا نكره الذل أكثر من كرهنا للحرب . ونحن مثلهم جميعاً ، نخاف ، ونتعذب ، ونفضل ضوء الكهرباء على ضوء الشموع ، ونشتهي الحصول يومياً على مياه الشرب والاستحمام ، ولم نصب بـ « الماسوكية السياسية » ، ونريد أن نعيش وأولادنا حياة كريمة ، ونمشي في شوارع نظيفة وآمنة. ولكن ضيوفنا العابرين المتغزلين بالموت الجميل يكتبون عن النساء الماشيات في الشوارع (ببطولة)، حاملات جثث القتلى دونما حزن أو دموع. معقول يا أخي؟ لو عشت يوماً واحداً في بيروت لما زورت كلاماً كهذا . فنحن نجلس في الملاجىء ونرتجف ونبكي لهول يبكي أمامه أقسى الرجال . إننا بشر (أسوياء) نتوق الى الحياة الصحية الطبيعية المعافاة ، وربما كان ذلك بالذات ما يمنح أفعالنا قيمة حين نضطر للخروج الى الشوارع وحمل جثث قتلانا ونتمزق حسرة وغصات . إننا نعرف ما نخسر ، وبماذا نضحي ، ولماذا نقاسي ، ولسنا مجموعة من الحمقى الذين لا يميزون بين حبيب ميت أو حي . ان أسلوب البعض في امتداحنا يجردنا من انسانيتنا ، ومن حقيقتنا البشرية ، فيصير لمبالغاته أقرب الى الشتيمة !! .

إننا نكره الحرب ، وكل ما في الأمر هو أننا أيضاً نكره العيش في الذل أكثر من كرهنا للموت في الحرب . اننا نتوق لسلم عادل يحفظ كرامتنا ، ولكن ما حيلتنا أمام آلة حربية عدوانية غاشمة مصرة على التسلط ؟ وما حيلتنا مع حلفاء يصفقون لقتالنا ولا يقاتلون معنا ، ويؤيدون الحرب شرط أن تدور في أرض سواهم ، ولا يستشهد فيها أبناؤهم ومعارفهم ؟

* * *

نتوسل اليكم ان تعفونا من هذا (الاعجاب) القاسي ، الجاهل لطبيعة جرحنا ، وغير الملم بأبعاده ووجوهه المتعددة . نحن الذين شهدنا ميتات مفرطة البشاعة ، وأخرى معجونة بالنبل . واختلطت على أرضنا جثث الثوار الأصيلين بجثث القتلة

الارهابيين وحثالة الدنيا . نحن ؟ المتوجون بالاهمال العربي . النازفون على أبواب المحافل الدولية . الممزقة احلامنا على أيدي الأحباء والأعداء . تعاقب على إذلالنا القريب والبعيد ، وانهكنا الحبيب قبل الغريب . نحن ؟ المدججون بجراح معقدة متوالية مركبة .

كأن معظمكم أدباء التغزل بالمأساة من الخارج ، لا أدباء الالتحام بحقيقتها من الداخل ، وحروفكم بالتالي تعبر عن حب الفنان لعبثه اللغوي في موضوع جديد ، لا عن تعاطف حقيقي مع جرحنا بمعنى فهمه ، ووعي أبعاده ومدلوله وخطورته ومدى تورطكم فيه شئتم أم أبيتم . كتابات لا معلومات فيها ولا رؤ يا دقيقة ، وانما مجرد احباطات ذاتية تتخذ من اسم بيروت مشجبا لتعليق (الدُّوارات) الخاصة تحت ستار قضية عربية وطنية . . واهمة أنها تستطيع أن تظل تُنظّر أو تنظم القصيدة وهي بمنأى عن الحريق ما دام يحدث في بيت (الجيران) .

حينما تقرأ قصائد او مقالات كهذه ، لا تعرف عن موتك غير اسم احد قاتليك ، ولا يعي كتّابها أن رأسهم مطلوب بعد رأسك)، تشعر بالرغبة في سنّ قانون «التجربة الاجبارية » للكاتب - مقابل قانون الخدمة الاجباري للجندي - وبموجب هذا القانون يساق (المبدع) او (المنظر الفكري) لزيارة اجبارية للمكان الذي يكتب عنه ولو مرة واحدة . اعرف ان زيارة لن تبدل غير المبدع الى مبدع ، لكنها تكفي لتدبيج مقالات اقل إغاظة ، وقصائد أقل مبالغة ، وروايات أقل بعداً عن المناخ النفسي للناس هنا - كما هم على حقيقتهم - لا كما يحلو للبعض تفصيل نظرية لهم ثم يقسرهم على (الانحشار) داخلها ! المؤسف ان معظم أصحاب هذه الكتابات لم يسمع يوماً صوت طلقة ، ناهيك عن آلاف الطلقات (المتعددة الجنسيات) التي انطلقت في سمائنا . وهي تفتقر الى الحد الأدنى للمعرفة (الميدانية) بالشيء الذي تتناوله (الكتابة عن صيد حوت مثلاً تستدعي معرفة بعالم الأسماك والصيادين كما في رواية موبي ديك للمبدع ملفيل مثلاً) ، كما تفتقر الى الوعي بأن كل عربي يقاتل اليوم ، هو بمثابة خط دفاع اول في وجه نار العدوان ، واذا سقط سينتقل الحريق الى القطر الذي يليه مثل نار تركض في غابة . . ولن تبقى أشجار يصنعون منها أوراقاً لكتابة روائعهم .

* * *

ما يقهرنا في معظم حصاد (موضة) الكتابة عن بيروت هو غياب الابداع - الا فيما ندر - من جهة ، وغياب الوعي السياسي من جهة أخرى . . أنها خاوية كفن ،

وغير واعية كسياسة . تلامس الحرب بخفر بنات المدارس ، وتمارس التنظير من بعيد دونما بعد نظر . . ونحن في محنتنا قد نتسامح هذه الأيام مع السقوط الفني و(الفنتازيا) الوجدانية الممجوجة ، لكن انحطاط الرؤ يا السياسية ، وضعف البصر التاريخي والحول الايديولوجي مظاهر تتهدد حياتنا بصورة مباشرة .

الانتماء العربي يعني الانتماء الى الموت العربي أينما كان ، قولاً وفعلاً . .

لا التبريرات الطائفية ، ولا اللوحات المعممة ، ولا النزوات الفكرية الهشة يمكنها أن تلغي هذه الحقيقة البسيطة الصلبة . وبالمقابل ، التبسيط لا يجدي مع حرب مركبة ومعقدة كالتي دارت في بيروت ثمانية أعوام ، ثم (توجها) الاحتلال الاسرائيلي . لا بد من مواجهة الوقائع التاريخية جيدها وبغيضها ، وفهمها دون انحياز مسبق وسلفي ، ولا بد من سماع عشرات الصرخات المتناقضة او المتكاملة قبل أن يمضي الكاتب الى حصان حماسته المعصوب العينين ، ويسقط في اللغة المجوفة وهو يحاول استعمالها كأداة للنضال البعيد المدى (النضال ريموت كونترول) ، أو يقدم على الكتابة التي لا يحسنها ، تكفيراً عن الفعل - الذي قد يحسنه - ممجداً نضال بيروت للتعتيم على أنه لم يخرج حتى في مظاهرة تأييد لكفاح اولئك الذين يدعي تقديسهم وتمجيدهم .

* * *

ستقولون لي أن معظم السلطات العربية تحرم حق التظاهر في الشوارع . أعرف ذلك ، ولكن ما دام بعض الكتاب يؤ يدون الى هذا المدى الكفاح حتى الموت ، لماذا لا يشاركوننا في استشهادنا البيروتي مرة كل سنة ، بخروجهم في مظاهرة تأييد ، وتحضيرهم لها ، وتحريضهم على ما يجدونه حقاً وخلوداً (ليسا حكراً علينا) ؟

أم ان كلاً منهم يطالب سواه بأن يكون الشهيد ، وهو الشاهد ، ويرفض تبادل الأدوار (في السنة مرة) ؟

أم أننا في بيروت مطالبون بالاستشهاد ، وسوانا يتخصص في كتابة شاهدة القبر ، مطالباً غيره بالذهاب الى الوغى دفاعاً عن شرف العرب ، ويقبع هو في بيته ، ولا يغامر بالذهاب الى مظاهرة في الشارع ، او تظاهرة في المنتدى ؟

وكيف يجرؤ انسان على تقديم وصفة الموت لسواه ، وهو مصر على أن يتذوق وجبة الحياة حتى الثمالة ، ولو بملعقة الذل ؟

* * *

لماذا معظم العرب شعراء سـراً أو علناً ؟ ربما لاضطرارهـم الى الهرب من الفعل الى القول . .

متى نخرج من الكلمة الى الشارع ؟ متى نخرج من حروف التسويف والسين وسوف ؟

متى نخرج من (الأفعال الناقصة) ، ونرفض (الأفعال المتعدية) ؟ متى نخرج من ليت ولعل وكان ولسوف ولربما ؟

متى نخرج من (الضمير المستتر) الى الضمير الحي ؟ من (اعراب الحال) الى مواجهة واقـع الحال ؟ من (النصب) الى العـطاء ، ومن (الجر) الى مشـاركة (المجرور) ، ومن حروف (العطف) الى حروف البذل ، ومن (المضاف اليه) و(المفعول به) الى الفاعل ؟

آه اخرجوا من الكلمة الى الشوارع . اطلقوا ولو صيحة احتجاج يتيمة . اخرجوا وليقتل بعضكم برصاص القمع . دمكم ليس أغلى من دماء المقاتلين العرب الذي يريقونه على حدود أوطانهم ، وليس أرخص منه الا اذا تركتموه يتخثر في شرايين اللامبالاة .

اخرجوا من متاريس اللغة المتعثرة الى الشوارع ، دمكم ليس أغلى من دم الفلسطيني الطالب سمير تفلق (١٨ سنة) الذي قتل في مظاهرة بنابلس ، ولا من دماء رفاقه الذين يتكررون في كل مظاهرة بالأرض المحتلة . . وما أكثر أراضينا (المحتلة) هذه الأيام ببعض الأنظمة . .

واذا كنتم لا ترغبون في الفعل ، نرجوكم وفروا علينا وعليكم عناء القول . . لا نريد لموتنا في بيروت مديحاً ولا سجعاً ولا طباقاً ولا جناساً .

شاركونا موتنا ، كل في خندقه ، او دعونا نموت بسلام .

ويكفينا من هذا الزمان ، ان البعض يجد لغة يبرر بها للعدو عدوانه ، والبعض الآخر يؤيد موتنا ، دفاعاً عن حياته (هو) في أمان ، داخل قميصه المضاد للرصاص .

* * *

ملعون هذا الزمن العربي . .

آلاف الشهداء يتساقطون هنا وهناك دفاعاً عن أرض العرب وكرامتهم وبقائهم البيولوجي ، والآلاف سواهم لا يجدون في دورتهم الدموية من الدم (الفائر) ما يكفي للخروج ولو في تظاهرة تأييد لأخوتهم المقاتلين .

وبعض الكتاب الذين يفترض انهم طليعة الوعي ، يستسلمون لسلبية بعض الأنظمة ، ويؤدون قسطهم (للعلى) في عجالة هنا ، وكلمة خجول هناك ، بدلاً من لعب دور التحريض و (التخجيل) ، وتوعية الآخرين على زمن العار العربي هذا المفعم بـ (التنبلة) . ملعون هذا الزمان الذي خرجت فيه تظاهرة اسرائيلية في تل أبيب نفسها لوقف موتنا اللبناني والفلسطيني قوامها ٢٠٠ ألف اسرائيلي (أي اسرائيلي واحد من أصل ١٢ فرد عندهم) ولم تخرج للمناسبة ذاتها مظاهرة عربية تليق بالمقام ، إلا . . في الأرض المحتلة .

أما بعض الأراضي العربية ، المحتلة بالقمع والبؤس والاذلال ، فلم يرف لبعض الناس فيها جفن ، بينما أراضي عربية أخرى تقاتل وتدفع ضريبة الدم . وقياساً على مظاهرة اسرائيل التي خرج فيها ١٢/١ من السكان ، كان يفترض ان تخرج على الأقل مظاهرة عربية قوامها ١٢ مليون (متظاهر عربي) . . فأين انتم يا اخواننا العرب ؟

١٩٨٣/٢/٧

وطن في « غرفة العناية الفائقة »

الآن ، هدأت الضجة الدعائية لديهم ، وبدأت مرحلة التأمل لدينا .

المجلة الأميركية الشهيرة ، اختارت « رجل العام » على عادتها ، فجاء اسمه « الكومبيوتر » هذه المرة .

وكما في كل مرة ، تنقسم الآراء عندهم ، ويقف البعض ضد هذا الانتقاء ، ويؤيده البعض الآخر ، ثم يتعب الجميع ويضجرون ، وينام المؤيد مسنداً رأسه على كتف كومبيوتره ، ويغرس المعارض دبابيسه السحرية في قلب دمية قماشية صنعها للكومبيوتر ، ثم ينام هو أيضاً ويحلم به مشنوقاً في إحدى الساحات العامة العتيقة ، متدلياً من شجرة الى جانب جثث بقية المجرمين في حق المجتمع . . أو مربوطاً الى كرسي الاعدام بالغاز .

وفي صباح الشهر التالي ينسون الحكاية ، في حين نبدأ نحن بوعي مدلولها .

نلحظ اننا على مائدة الحضارة ، كاليتيم في وليمة الغريب (لا اللئيم بالضرورة) .

إننا نقطن كوكباً واحداً ، لكننا لا نتعايش في عصر واحد . وما أسهل تبني موقف الرافض المتعالي ، ومواجهة القضية بالعجرفة الزائفة والتجاهل المزور : الكومبيوتر ؟ نحن نحتقر الآلات . نحن شعوب الروحانيات !

لكن الآلة لم تلغ الروحانيات يوماً . بل انها حين توفر المزيد من الوقت للانسان ، قد تكون دعوة إلى دخول عالم الروحانيات . وكل شيء يتوقف على أسلوب استعمال الآلة ، أية آلة ،أو أي اختراع حديث . وكما يقول الأديب المبدع د . هـ. لورانس : « أكثر الأمم مثالية هي التي تخترع أكثر الآلات » .

* * *

ها هي آلة أخرى تخطو داخل الكهف البشري ، لتساهم في تطوير حياته .

الكومبيوتر هو ضيف العام في البيوت الأميركية . في المدارس . المؤسسات. المكاتب المهنية الحرة . المستشفيات . المزارع . المراصد . المجلات. المعامل. محطات اطلاق الصواريخ . صوامع الأدباء ، وحتى في دور العبادة .

إنها تنضم الى الثلاجة والتلفزيون والهاتف والراديو وسواها من الاختراعات التي لم تكن على وجه هذا الكوكب منذ ١٥٠ سنة ، والتي نتعايش معها كما لو كانت هنا أبداً .

ويبدي أولادنا الصغار دهشة بالغة حين يروي لهم الأجداد عن حياتهم (السعيدة) قبل وصولها متسائلين : كيف استطعتم الحياة بدونها . . بدون المصباح الكهربائي . . وماكينة (الجوك بوكس)؟!

والكومبيوتر يتقدم بخطى ثابتة وسريعة جداً ، إذا قيست بسواها من صناعة الآلات . (أول كومبيوتر صنع ، كان في جامعة بنسلفانيا عام ١٩٥٠ ، وزنه ٣٠ طن ويحتوي على ١٨ ألف أنبوبة مفرغة من الهواء ، وكلفته حوالي ٤٨٧ ألف دولار . أما اليوم ، فالكومبيوتر العادي ماركة « آي . بي. إم » يكلف ٤٠٠٠ دولار ، والكومبيوتر ماركة « تايمكس سانت كلير ١٠٠٠ » ثمنه حوالي ٧٨ دولار فقط . أي أن هذه الصناعة تطورت بسرعة خاطفة بالنسبة لصناعة السيارات مثلاً ، ولو أن (الرولز رويس) تنامت بالنسبة نفسها لكان ثمن السيارة منها ٣ دولارات فقط ، ولسارت ٣ ملايين ميل بوقود قدره تنكة نفط واحدة !).

هذا ما أثبتته دراسات العلماء حول التطور الخرافي لهذا الاختراع العلمي .

سيقول البعض : ما بالها هذه الكاتبة ، دوماً غاضبة ؟ الأموال العربية كفيلة بشراء مئات (الكومبيوترز)، بل آلافها ، وما دام ثمن الكومبيوتر (المنزلي) يتراوح بين ٤٠٠٠ و٧٨ دولار ، فلن تعجز الأموال العربية عن شراء ما يلزم وما لا يلزم ، كما سبق ان اشترينا الرولز رويس والتلفزيون الملون والفيديو وسواها من الاختراعات الحديثة التي لا تحصى .

ببساطة : هذا ما يقلقني .

اختراع آخر يجتاح العالم ، وعلاقتنا به هي علاقة الزبون الثري ، بالمخترع العبقري .

اختراع جديد ، ونحن نقف على أبواب الحضارات ، نحاول مقايضة العلم بالذهب ، والعمل بالشطارة ، والكد العلمي بـ (الفهلوة) ، والخلق بالامتلاك . هم

يصنعون الآلة ، ويمتلكون بالتالي ما هو أهم منها . يمتلكون المهارات العقلية التي ترافق عملية الاختراع ، والآفاق الفكرية والفلسفية التي يولدها كل قدح جديد لصوان الفكر الانساني ، ونحن ندخل هذه الورشة الخلاقة لنشتري الحصيلة المعدنية لتلك العملية المبدعة ، من دون أن نكتسب ما يرافق ولادتها من تطور على صعيد المعرفة ، إننا نشتري البراغي والأنابيب والبلاستيك والأسلاك والكراس الكرتوني الملون لكيفية الاستعمال ، ولكننا لا نشتري الروح التي صنعت هذه الآلة ، والحاجات المتطورة التي أملت ضرورة التوصل إليها . إن شراء الماكينة هو البديل البائس المتواضع عن المشاركة في صنعها ، ومجرد امتلاك لمظهر عصري لن يبدل الكثير حقاً في جوهر حياتنا ، وقد يستخدم بعضنا الحضارة لخدمة التخلف ! سنكون كمن اشترى شهادة جامعية ، وهو ما زال يتعلم مبادىء القراءة والكتابة أو كمن امتلك مختبراً وهو يجهل ان (الأسيد) يأكل الحديد .

* * *

إن شراء أدوات الحضارة من الضمانات لإساءة استعمالها . اتخيل بعض البلاد العربية ذات (الحكم البوليسي) تستورد الكومبيوتر . ماذا ستفعل به ؟ ستوظفه على الأرجح في خدمة أجهزة المخابرات لاحصاء أنفاس الناس باتقان ، والزج بالمزيد منهم في أقبية تعذيب العصور الوسطى .

اختراع الـ (توكي ووكي) يستعمل في بعض أقطارنا على أيدي رجال العصابات و(القبضايات) لتنفيذ العمليات الاجرامية ، أكثر مما يستعمله الأطباء مثلاً لانقاذ مرضاهم ليل نهار .

ومرة ، ألقى رجال الجمارك في لبنان القبض على كومبيوتر محشو بالحشيش والأفيون ، وقد استعمل كوسيلة مبتكرة للتمويه وتهريب المخدرات .

فحين يكون الوطن ممدداً في « غرفة العناية الفائقة » ، فان الآلات الحديثة كلها لا تجدي ما دام طبيبه المعالج يدعى « التخلف » .

* * *

استيراد الكومبيوتر لن يلغي المشكلة ، وقد يزيدها تعقيداً . فالمأساة أبعد غوراً . إنها مأزق العالم الثالث الذي يعجز عن المساهمة في خلق الآلة لكنه يحاول امتلاكها : تظل العلاقة سطحية ، هامشية ، مزيفة، وأحياناً مؤذية .

كمواطنة عربية ، استطيع أن أتذكر غير تجربة بائسة ، لا يخلو منها خاطر عربي (احتك) ببركة الكومبيوتر المستورد .

في بيروت مثلاً ، كانت الكهرباء مقطوعة عن بيوتنا خلال أشهر الحصار الاسرائيلي كما يعرف الجميع . لكن بعضنا يستلم اليوم فواتير الكهرباء التي سطرها الكومبيوتر ، وهي تطالب المواطنين بدفع مبالغ باهظة عن تلك الفترة . كيف والكهرباء كانت مقطوعة ؟ ادفع ثم اعترض . الكومبيوتر المقدس (معصوم) عن الخطأ ومكفول وممتاز الصنع .

نقول لهم « الفرس من الفارس » ، والكومبيوتر في يد غير خبيرة أداة جهل ، والانسان هو الأصل ، والآلة التي يشتريها لا تحل محله ، لكنها تزيد ما هو فيه من مسيرة الى الأمام أو الخلف .

وصحيح أن الكومبيوتر قد يخطىء في كل مكان ، والنكات (المتعددة الجنسيات) حوله تعكس ذلك ، لكن نسبة الخطأ المرتفعة عندنا هي القاعدة لا الشواذ . من هنا تستطيع ان تضحك ملء قلبك لنكاتهم عن الكومبيوتر ، وتبكي لها هنا .

يحكون في جنيف مثلاً عن عجوز معمرة عمرها ١٠٧ سنوات تلقت رسالة موجهة الى (أولياء أمرها) تطالبهم بدفع مخالفة ، لأنهم لم يبعثوا بها الى الحضانة رغم تجاوزها سن السبع سنوات ، فالذي برمج الكومبيوتر فاته اصدار التعليمات بشأن المعمرين ، وهكذا أسقط (الكومبيوتر) قرناً من عمر السيدة . .

* * *

حكايانا مع الكومبيوتر لا تدعو الى الضحك ، بل الى وعي مدى غربتنا عن الآلات التي نملك ثمنها ولا (نستوعبها) .

فالطفل الأميركي مثلاً يفتح عينيه منذ صغره على الماكينات المبثوثة في كل مكان ، والدمى الألكترونية التي هي « الابن الشرعي » لحضارته ، لا طفيليات مستوردة، وهذه الدمى تنسجم بالتالي مع مجمل هذه الحياة بكل دقائقها وتفاصيلها اليومية وتتكامل مع ما يتعلمه في المدرسة وهو لا يشعر بالغربة أمام الآلة فجده اخترعها ، ووالده صنعها ، وهي حقاً من أهل البيت . وحين يكبر سيحسن التعامل معها عاملاً او عالماً او مستهلكاً . الأمر يختلف جذرياً عندنا ، وبالتالي النتائج .

وككاتبة عربية عانيت من الكومبيوتر في تجربة حضارية او (تخلفية) لا تنسى . لقد بدأت حياتي الأدبية في مطبعة بحي الخندق الغميق في بيروت ، تصف الحروف على طريقة (المونوتيب) وهي أبسط الطرق الطباعية . وكنت أجلس (داخل) غبار المطبعة وأصحح أخطاء صف حروف كتبي الأولى بهذا الأسلوب شبه البدائي .

وبعدها قررت أن أتطور مع العالم ، وكانت تجربتي البائسة مع اسلوب (الأنترتيب) الأكثر تعقيداً من الطريقة الأولى ، والأكثر سرعة (كما هو مفترض) .

فالذي يحدث هو ان هذه الوسيلة الطباعية المتطورة نسبياً ، تتطلب عاملاً أكثر مهارة ، لأنك حين تصحح كلمة في النص ، يضطر العامل الى (فك السطر) بأكمله لتصحيحها . فماذا كان يفعل العامل المغترب عن الماكينة الجديدة ؟ كان يصحح الكلمة ، ويرتكب أخطاء جديدة في السطر نفسه لم تكن فيه من قبل . وأعود الى تصحيحها فيعود الى الخطأ في سواها ، وهكذا الى ما لا نهاية . . كما في الكوابيس . وبدلاً من العودة الى القديم (المونوتيب) ، قذفني حبي للتطور الى مطبعة حديثة مستوردة تصف (على الكومبيوتر) . وزادت الأهوال مع ازدياد الآلة تطوراً ، فالخطأ يتعاظم كلما ازدادت الماكينة تعقيداً والعامل جهلاً بها . وأصبح تصحيح كتبي عملية تعذيب حقيقية ، حتى بدأت أتساءل : أليس ارتكاب الأدب حماقة في هذه المرحلة من تاريخنا ؟ ولمن نكتب والذين نكتب لأجلهم يجهلون كيف يصفون حرفاً ؟ لقد أهديت روايتي « كوابيس بيروت » الى « عمال المطبعة » ، بالرغم من انهم ارتكبوا في صف الاهداء على ماكينة (الانترتيب) مجموعة من الأخطاء ! وصححت الاهداء لهم مرات عديدة !

وكيف ألوم عمال المطبعة ، وأنا نفسي ما زلت عاجزة عن استعمال الآلة الكاتبة ؟

* * *

من السهل أن أعزي نفسي بالقول أن شكسبير لم يكتب مثلاً روائعه بالكومبيوتر كما يفعل محرر التايم فيليب فافليك على كومبيوتره (آبل ٢) أو كما يفعل المحرر الآخر غولدن على كومبيوتر ماركة (ت. ر. س ٨٠ موديل ٣) وسواهما ، وانما كتبها بالريشة والحبر ، وان الحضارة الآلية لم تقدم للانسان الكثير حقاً . . فمنذ قرن ونيف كان الانسان يقطع المسافة من قوس النصر بالشانزليزيه في باريس حتى ميدان الكونكورد على حماره في نصف ساعة مثلاً ، وهي اليوم تستغرق منه الوقت ذاته بالسيارة وسط زحام السير (بالرغم من العبقري المخترع فورد) . أجل من السهل جداً تبني الاعتراضات كلها التي يسوقها المتحضرون تكنولوجياً ضد حضارتهم . لكنهم ينقدون الأشياء من موقع القوي ، لا من موقع فاقد الشيء الذي ينادي : « هذا حصرم رأيته في حلب » !

ثمة حقيقة لا نستطيع أن نلغيها : هنالك تطور علمي خلاب على هذا الكوكب ، ونحن ما نزال نقع خارجه .

* * *

من الواضح ان تطورنا العلمي لا يسعد العدو . وان كل خطوة حقيقية لنا على صعيد بناء مجتمع علمي متطور ، تتهدد بشكل مباشر أصحاب المطامع في أرضنا .

أجد في ضرب اسرائيل للمفاعل الذري العراقي نموذجاً لا ينسى . التبرير السياسي لهذا العمل لم يخف حقيقة أخرى باهرة الوضوح : الانسان العربي المتطور علمياً ، المثقف حضارياً ، الذي يستعمل عقله داخل مختبر حديث هو ما يخيف اسرائيل .

هذا الركام من الكتابات الأدبية لا يبدو انه يقلقها حقاً بقدر ما يحلو لنا نحن الأدباء ان نتوهم ، والدليل انها لم تقدم مرة على قصف اتحادات الكتاب العربية ، لكنها أقدمت على قصف مركز علمي للاشعاع العربي هو بمثابة نواة حضارية لانسان معاصر .

ان اسرائيل لم تكن تقصد فقط هدر أموال الشعب العراقي المدفوعة ثمناً للمفاعل ، بل كانت تبغي سحق خلية ابداعية عربية . هل تقبلون مني مزيداً من المصارحة ؟ حسناً . يخيل الي أحياناً أن الأدباء الذين قتلتهم اسرائيل في عملياتها امثال غسان كنفاني وكمال ناصر ، تم اغتيالهم بسبب فعاليتهم السياسية لا الأدبية . ولكن ذلك كله خارج الموضوع .

* * *

لا . ذلك كله ليس خارج الموضوع . نحن العرب ما نزال بوجه عام نولي أمور الأدب أهمية تستحقها منا أيضاً أمور العلم .

وقليلة هي الأقطار العربية التي وعت ذلك . ربما لأن الأديب بحكم مهنته كثير الضجيج ، بينما يميل العلماء الى الصمت في ظلال مختبراتهم بعيداً عن صناعة الكلام .

وهكذا فان أي أديب نصف موهوب ، يقيم الأرض ويقعدها اذا لم نحطه بالدلال والرفاه في كل لحظة ، بينما تهاجر من بعض أقطارنا أدمغة علمية عربية الى الخارج بكل صمت ودونما تنهدة شكوى أو دمعة تغسل منابر الاعلام .

ان انتخاب « الكومبيوتر » كرجل العام ، يذكرنا بهجرة الأدمغة العلمية العربية او تهجيرها في غير قطر . ويذكرنا أيضاً بالعالم المقيم الصامد بيننا . . وهي مناسبة لتكريم من تبقى لنا ، ومحاولة استعادة المهاجر .

فهذا عصر العلم والذرة والالكترون والفضاء ، وصحيح أن بعض القصائد العربيّة المبدعة قد تطير بنا الى الفضاء على أجنحة عبقريتها الأدبية ، لكتنا لن نملك بعدها الا الصحو على رياح الواقع البارد ، لنلحظ أقدامنا الموسخة بالطين ، المتخبطة في مستنقعات التخلف .

١٩٨٣/٢/١٤

« ديزني لاند » و « شاتيلا لاند »

اعتقلت قوى الأمن في بيروت طالباً (١٤ سنة) بتهمة تفجير سيارة المدرسة .
لماذا ؟

لسوء تفاهم بينه وبين ثانويته ، وضع تحت (الاوتوكار) عبوة ناسفة ، واعتبر الحوار منتهياً .

لن أذكر اسم الطالب ـ رغم ان الصحف المحلية ذكرته ـ . اسمه لا يهم حقاً . فهو رمز للفتى اللبناني الذي فتح عينيه على الحرب منذ طفولته ، وتخرج من مدرسة الحوار بالمتفجرات ـ التي ربيناه فيها ـ برتبة (بروفسور) . كنا قدوة له ، وكل ما فعله المسكين هو انه حفظ الدرس جيداً . ونفذه باتقان .

صبي في هذه السن المبكرة ، يستطيع الحصول على عبوة ناسفة ، كما يحصل أي صبي آخر في وطن هادىء على علبة (بونبون) ، ويعرف كيفية زرع العبوة وتفجيرها ـ كأي عسكري محترف ـ لكنه لا يعرف ـ للأسف ـ أين يزرعها .

كيف نلومه ونقرعه ونحاكمه ، ونحن قتلنا (الحوار) على حاجز العنف ، وعرضنا جثته أمام أبواب المدارس والبيوت والمؤسسات ليكون عبرة لمن لا يعتبر ؟ وقد (اعتبر) الفتى ، ولم يلجأ إلى الحوار القتيل ، وإنما اقتدى بنا ، وتبنى أبجديتنا المتداولة : صراخ التفجير بدلاً من همس التفاهم الانساني .

* * *

هذه الحادثة ليست نادرة . انها نموذجية ، وتتكرر كل يوم في أماكن كثيرة وبأسماء مختلفة . جرائم يرتجف لها القلب (أو بقاياه) تقع كل يوم ، ولم نعد نتوقف أمامها لكثرتها ، وربما لأننا الفناها كما ألفنا كل بشاعة حولنا .

معظم أبطالها في سن المراهقة أو الصبا ـ تؤكد ذلك تقارير رجال الأمن ـ ، أي من الذين فتحوا عيونهم على حروبنا في لبنان حيث اختلط دم الشهداء النبلاء بدم حثالة

الأرض من المجرمين .

بعضهم كان طفلاً منذ ثماني سنوات . بعضهم كان مراهقاً . وكلهم شاهد في تلك المرحلة الحاسمة من بناء شخصيته وتبلورها ، ما تقشعر لهوله الأبدان من مشاهد العنف والقسوة واللاعدالة ، التضحية والوضاعة ، ومختلف أوضاع عري الطبيعة البشرية بكل ما فيها من جمال ومن قبح أيضاً .

وها نحن اليوم نزرع حصاد تلك البذور، التي نمت في ظل عاصفة النار والزلزال والصواعق ، وأمطار الحنان وأمطار الدم .

ها نحن أمام جيل من الأطفال الضحايا . القاتل فيهم ضحية . المريض النفساني ضحية . المكتئب اللامبالي ضحية .

الأطفال وحدهم ـ لا النساء أو أهل الحياد ـ هم الضحية البريئة لمسرحية الصخب والعنف التي قمنا بأدائها على شواطىء هذا الوطن الحزين وجباله ، بمشاركة ممثلين (متعددي الجنسيات) .

* * *

منذ زمن ليس ببعيد ، اختطف تلامذة مراهقون طفلاً ، وطلبوا من أسرته فدية ، ثم ارتبكوا وخافوا وقتلوا المخطوف . جريمة بشعة ضج لها الناس ، لكن أحداً لم يفكر بمدى مسؤوليته عن هذه الجريمة .

مجتمع العنف لم يخطر بباله انه شريك محرض أينما كان .

المراهقون القتلة لم يستوعبوا بالضبط معنى ما أقدموا عليه . فكرة القتل كانت غائمة في أذهانهم . ولكثرة ما شاهدوا (فعل القتل) أو سمعوا به، ألفوه كأسلوب عادي من أساليب الحياة في مجتمعهم .

إن من يراجع تقارير الشرطة أو اخبار الصحف ، يدهش لارتفاع نسبة جرائم الأحداث وعنفها وبشاعتها . .

* * *

ليت محاكمة « صبيان الجريمة » تتحول مرة إلى محاكمة لمجتمعنا ككل . ما ذنب أطفالنا إذا كنا نجرعهم العنف كمخدر إرغامي ؟ وهل هي كثيرة بلدان الدنيا التي يتقن فيها أبناء الـ (١٤ سنة) تفكيك عبوة ناسفة وتركيبها وتوقيت انفجار الـ (تي . إن . تي) ناهيك عن الحصول على هذه المواد كما لو كانت علبة (شيكلتس) ؟

ألسنا نحن الذين أقنعنا أولادنا بمذهب (الجيمسبوندية) في الحياة بدلاً من مذهب (الآدمية) ؟ ألا نقدم لهم البرهان كل يوم على ان (الزعران) يرثون الأرض ، و (القبضايات) ملوك الحي بكل من فيه من اساتذة وأدباء ومثقفين وكادحين وجائعين ؟ ألم نعلمهم كل يوم ، و (بالقلم العريض) ، ان « الجريمة تنفع وتدفع » ، والمشي في درب الاستقامة يوصل إلى (سكة الندامة) ؟

* * *

بعض (المثقفين) المغتربين عن الوطن جسداً وروحاً ، أو روحاً فقط ، يحلو له أن ينحو باللائمة على برامج التلفزيون تشبهاً بأهل الأولاد في أوروبا واميركا وغيرها من البلدان المرفهة .

يبدو لي ذلك التفسير في لبنان مضحكاً . أي تلفزيون (يا ناس) ، وأية مسلسلات أجنبية مفسدة أو محلية ؟ من يشرب البحر لا يغص بالساقية ، وأطفالنا يشهدون ارغامياً على شاشة الوطن مسلسلات إجرامية سادية تعرض على النوافذ والشوارع وداخل البيوت والمدارس منذ أعوام .

لقد شاهد آلاف الأطفال في لبنان آباءهم أو جيرانهم يذبحون ويمثل بجثثهم أمام أعينهم لا على شاشة التلفزيون ، وبعضهم نجا من الذبح لأنه خاف واختبأ ، وبعضهم شاهد اعضاء جسده تتطاير في الانفجار . . ساق هنا . . وذراع هناك .

الطفل في لبنان شاهد والده يذل على يدي (قبضاي) الحي ، ويصفع ويهجر من بيته ، وشاهد والدته تنتحب على ضوء شمعة القهر أو تقتل (ليلة البارحة مثلاً شاهد أطفال السيدة نهى . ب . ع أمهم تقتل أمام أعينهم على أيدي مسلحين اقتحموا البيت) . ورأى شقيقه يختطف وتعاد جثته مشوهة في صندوق السيارة ، وسيارة جاره تفجر لأنه لم يدفع الخوة ، ورفيق ابن عمه يقتل لأنه كان مناضلاً حقيقياً شريفاً ، وابن خالته يقتل لأنه كان لصاً تشاجر مع بقية اللصوص . .

لقد اختلطت الميتات في رأسه الطفل ، نبيلها وحقيرها ، ورسخت في دماغه البريء صورة العنف والتشرد والتهجير والاذلال القمعي مثل ستارة حمراء مسدلة على المرئيات كلها .

لقد اعتاد العنف . صار يراه مألوفاً مثل قلم الرصاص والمبراة ودفتر المدرسة وكأس الحليب وصدر الأم . لم يعد يشعر أمامه بالرهبة سلباً أو إيجاباً . لم يعد يحترم الموت لكثرة ما تكومت الجثث أمام عينيه خارج شاشة التلفزيون لا داخلها ، وهو بالتالي

لم يعد يحترم حياة الآخرين ولا حياته ، ولم يعد يتذكر مذاق العلاقات المعافاة الصحية الهادئة لأن المسكين لم يجربها بعد .

* * *

التلفزيون ؟ تبدو لنا أفلام العنف فيه ترفاً ورقة أمام الذعر الملموس المحيط بحياتنا . ادغار آلن بو يكاد يكون كاتباً فكاهياً اذا قيست مناخات الرعب الراقية في قصصه بمذاق العنف الوحشي الداهم المحدق بنا في كل لحظة في مدينتنا ، تحت ضوء الشمس لا في عتمة الاقبية وحدها .

كأن الأحداث التي تعاقبت في بيروت وسواها خلفت في شوارع الليل كهاربها الخاصة الغامضة ، ومناخاتها المشحونة بذعر خفي مكهرب .

كأن آلاف القتلى الذين تساقطوا في الشوارع ، ما زالوا يئنون ليلاً ويتابعون نواحهم الاحتضاري المرير ، حين لم يجرؤ أحد على الاقتراب من موتهم . كأن آلاف الذين عذبوا في الأقبية ، وذبحوا تحت الجسور ما زالوا يتابعون صرخات الألم المتنهد . كأن أصوات القصف الرهيب ما تزال تتابع إنفجاراتها في سماء بيروت ، داخل رؤوس الناس . كأن الصوت لا يموت ، لكنه يدخل إلى الذاكرة ليتابع حياته متقمصاً الصدى .

هذا هو المناخ النفسي الداخلي لأطفالنا . إنهم يتحركون في عالم من الذعر والقسوة وتوقع الشر الوحشي ، ويتعاملون مع مجتمع الكبار انصاف المجانين ، فالكل في حالة هستيرية من القلق والغضب المكبوت والاضطراب الجارف .

هذا ما زودهم به زمنهم الرديء ، فكيف نطالبهم اليوم بأن يكونوا على شاكلة (الخلفاء الراشدين) ؟

* * *

يتحدث الناس المرفهون في بلاد البشر السعداء عن « ديزني لاند » ، ويحملون أطفالهم إليها للاستمتاع بمباهجها .

ونحن لم نملك لأطفالنا ما هو أفضل من مذابح « شاتيلا لاند » و « صبرا لاند » و« فتح لاند » . . ورعب القصف في « بيروت لاند » و «طرابلس لاند » وسواها . .

ولكن بعض مثقفينا مصر على استيراد (تشخيص الأمراض) من (ديزني لاند) لأطفال عصر « صبرا وشاتيلا لاند » .

ما ذنب مربع التلفزيون الصغير وحكاياه المتحفظة العنف أمام مربع تلفزيوني

مساحته ١٠٤٥٢كم٢ تعرض على شاشته أفلام العنف والوضاعة والنبل والشراسة وصراع البقاء ، ليل نهار دونما توقف ؟

* * *

ثم ان الجانب الاجرامي من مأساة أطفالنا وفتياننا يغطي جزءاً من دراما شاسعة الأبعاد والوجوه .

بؤس أطفالنا يتعدى سقوط بعضهم في وهدة (البورصة) المحلية للاجرام . .

انهم يسقطون أيضاً في العزلة ، لأننا طالما منعناهم من مغادرة البيوت ولقاء الطبيعة خوفاً عليهم من الموت في الشوارع والحقول . انهم ينهارون في فخ العقد النفسية لكثرة ما حوصروا في الملاجىء لقصف عدو أو صديق . صار الرعد كفيلاً بإثارة ذعر مجنون في نفوسهم ، ومرور طائرة يودي بهم أحياناً إلى الهلع ، كأن كل ما يعبر سماءنا ، سيقصفنا بالضرورة حتى ولو كان سرباً من السنونو أو النوارس !

أطفالنا يقتلون يومياً بالقنابل العنقودية التي ما زالت تملأ بؤر بيروت ، أو بالقنابل اليدوية وسواها التي يرميها أصحابها (الأوادم) في الشوارع مع النفايات تخلصاً منها قبل تفتيش البيوت . .

كل اسبوع يسقط الاطفال صرعى (نفايات) الكبار المتفجرة ، يتحسسون تلك الأجسام (الغامضة) بدهشتهم البكر فتطيح بهم .

وما يدمي الفؤاد تظاهرات الطلاب الفقراء الذين يدرسون السعال تحت الخيام ، وطلبهم للدفء والكرامة وتحسين الاوضاع الصحية والتربوية في وطن الأحزان .

* * *

هذه البنت اللبنانية المسلمة المراهقة (ل . ح - ١٧ سنة) - ولن أذكر اسمها هي أيضاً رغم ان صحفنا المحلية فعلت ذلك - ، (ملكة الجمال) إياها التي تزور الآن إسرائيل بدعوة (سياحية) أو (خيانية ؟) ، هل نلومها ؟

أم نلوم امها التي ترافقها ؟

تقول صحفنا إن البنت تقطن بيروت الغربية ، فهل كانت هنا يوم قصفتها إسرائيل ؟

وهل ذهبت إلى هناك ، من باب علاقات الحب المريضة (السادو - ماسوكية) التي تنشأ أحياناً بين الجلاد والضحية ؟ أم ان لها حكاية اخرى ؟

١٩٨٣/٢/٢٨

أيها العربي . . هل انت ثري ام ارهابي ؟

تقع بغداد على شاطىء بحر صاخب الأمواج . صخرى المرافىء . تجد السفن صعوبة في الوصول اليها سالمة ، إلا إذا استرشدت بـ « دلفين » ولحقت به وهو يسبح بين المضائق الوعرة .

وتحيط ببغداد جبال شاهقة مكللة بالثلوج ، تزين أطراف الواحات الملتهبة شموساً .

ستقول لي يا أخي القارىء انك لم تكن تعلم ان بغداد تقع على شاطىء البحر ، بالقرب من جبال تكللها الثلوج ؟

وأنا ايضاً لم أكن اعرف ذلك قبل أن أشاهد فيلم « سندباد وخليفة بغداد » ! ولم أكن أدري أن الناس ارتدوا (الطرابيش) أيام العباسيين ، لا كما (يتوهم) المؤرخون الذين يظنون الطربوش بدعة عثمانية مستوحاة من (البلقان) . وكنت أجهل أيضاً ان اللباس الرسمي للأميرات العربيات المسلمات هو «المايوه البيكيني » ، وان الطعام الشعبي في ذلك الزمان لم يكن « الثريد » أو « الأذاذ » او « اللوزينج » ، وانما « السباجيتي مع الميتبول » ! . . وكنت أيضاً أجهل أن الخلفاء والوزراء يضعون في آذانهم اقراطاً ذهبية تتدلى مثل أقراط (البانك) و (البيتنكس) ، وان ألسنة الخدم في البلاط كانت تقطع كي لا يروي أحدهم الفضائح التي يشهدها في القصر ، ويراها معه ملايين المتفرجين الغربيين .

شاهدت هذا الفيلم مصادفة ودهشت : ألم تكن المرأة العربية تعرف الثياب في ذلك العصر ؟ ولماذا لا نراها فيه إلا عارية ؟ ولماذا تتصرف الأميرة الصغيرة المسلمة بحنكة صاحبة كاباريه في لوس انجيلوس مثلاً ؟ واذا كان الفيلم بأكمله خرافياً ، ومخرجه «بيترو فرانشيسكي » لا يقصد غير الترفيه البريء ، لماذا يبدأ الفيلم بمشهد « صلاة الجماعة » الاسلامية ، ونداء الله أكبر ؟ ولماذا هذه الصور الاسلامية المضللة ،

كقول أحدهم « أريد حريماً رائعاً كجنة الله الاسلامي » ؟ ألا يساهم ذلك كله في ربط صورة الاسلام بصور التخلف والبذاءة في ذهن المتفرج الأوروبي الذي قد يجهل كل شيء عنا غير ما يراه ؟

* * *

اذا كنت فضولياً ، وطاردت صورة العربي في السينما الغربية منذ البداية ، ستجد ان معظم هذه الأفلام يختار بغداد مسرحاً له بصفتها عاصمة عوالم ألف ليلة وليلة ، ويستوحي أساطير السندباد و (علي بابا والأربعين حرامي) ، وعلاء الدين ، ومرجانة وشهرزاد ، ويقدمها في (كوكتيل) تهريجي رخيص يزيف الجغرافيا والتاريخ معاً ، ويرسم صورة كاذبة عن الدين الاسلامي ويزور حقيقة الانسان العربي ، معظمها حسن النية ، كسول ومقصر في معرض البحث (الفولكلوري) ، وبعضها سيء النية ، عميق الايذاء . ولكن المحصلة واحدة : تزويد المتفرج الأوروبي والعالمي ، ـ على طول ربع قرن مضى ـ بفكرة خاطئة عن الانسان العربي وتراثه وماضيه وجوهر شخصيته .

سترصد معي عشرات من هذه الافلام ، ومن أصل مادة تصلح لكتابة أطروحة جامعية ، يمكن ان نعرض (دزينة) من الأمثلة النموذجية ، ساهمت في تشويه صورة « الانسان العربي » وهو أمر تحرص عليه الصهيونية العالمية كأحد مصادر دعم الرأي العام المتحضر لها في صراعها ضد (الهمجية) ، و (قوى التخلف والشر) في ظلمات الأصقاع العربية .

* * *

في فيلم «علي بابا والتاج المقدس » ترى صورة مظلمة للانسان العربي . الرجل مخادع . مهذار . همه التنقل من مخدع انثى الى خيمة أخرى . والمرأة لا تفعل شيئاً غير الرقص والجنس والتفاهات . . حتى انها لا تمرض ولا تأكل ولا تنجب !

الشعوب العربية في الفيلم قبائل سادية ، والعلماء العرب مهمتهم اختراع آلات للتعذيب مثل أرجوحة السكاكين وماكينات الشنق بالساعات الرملية وغيرها . السحر مزدهر حتى ان الجدران العربية كلها في المدن تتحرك اذا تفوهت أمامها بالكلمات السحرية المناسبة ، المنحدرة من (افتح يا سمسم) ، أما باب الاسطورة الأصلية (افتح يا سمسم) فله سر آخر ، إذ انه مربوط من الداخل الى حبال تحركها البغال ، ويفتح بناء على أوامر (الأربعين حرامية) من النساء الشقراوات الأوروبيات الجمال اللواتي حللن محل عصابة (علي بابا) ، الراكضات الى الحرب بثياب راقصات باليه البولشوي

(كما في فيلم شهرزاد) . .

ليس في « علي بابا والتاج المقدس » من العرب غير الاسماء : رشيد . حميد . مجيد . وليس فيه من هو حميد الأخلاق أو رشيد السلوك .

وسط خليط تاريخي هزلي ، نرى علي بابا راكضاً حاملاً هراوة هرقل الاغريقي ، منادياً روح السندباد (الساحر الأعظم ودراكولا الفيلم وفاوست العرب !) بقوله : « يا روح سندباد . يا ملك الظلمات . أنا علي بابا في وادي الأموات » . .

وكعربي يعرف جوهر هذه الأساطير وروحها تكاد تنفجر ضاحكاً وانت تسمع النداء قادماً من قاع الضباب الأوروبي ممتزجاً مع أصداء انشودة اوبرالية مستوردة من دار اوبرا (لاسكالا) في ميلانو مثلاً . .

السخرية من!(الرب العربي) تغطي كل ما في الشريط مثل ستارة سوداء مسدلة على المرئيات . اسم الله يستباح دونما مبرر ، فإذا قرعوا الطبول للتعذيب أسموها « طبول الله » ، واذا مارسوا الخطايا أو السحر الأسود لم يوفروا اسم الله الكريم . والملحوظ ان السينما العربية ـ رغم سقطاتها ـ لم تسخر يوماً من أديان الآخرين أو معتقداتهم .

* * *

الفسيفساء التهريجية نفسها نجدها في فيلم عتيق (سندباد ـ بطولة مورين اوهارا) من الواضح انه لا يتعمد الاساءة الى الاسلام لكنه يفعل ذلك بصورة غير مباشرة حين يقرن فكرة المجتمع الاسلامي والحكم ، بالسحر الأسود على يدي ساحر البلاط جالجو وخصمه الخليفة المغتصب لشعب مغلوب على أمره ، مستلب الارادة دائماً في هذه الأفلام . ويغادر المتفرج دار السينما أو « جهاز الفيديو » (مرعوباً) من الحكام المسلمين الذين يحترفون السحر ، وتحويل البشر الى عصافير أو فئران أو طيور مفترسة ترمي المراكب بالصخور ، ويكاد يتهم المسلمين بأنهم سبب غرق السفينة (بوسايدون) ، والكوارث في « مثلث برمودا » . . ولم لا وهم يشكلون حزباً دينياً ارهابياً منظماً في الفيليبين كما يدعي فيلم « عذراء رأس الموت ـ تمثيل لاري وورد وجوك جانيير » ؟

الفيلم جديد ، ويتحدث عن طائفة الاسلام المحترمة في الفيليبين ، والمشهورة بحسن المعاملة والأخلاق في ممارستها للتجارة .

لكن المخرج حولها الى طائفة مجرمة ، تمارس السحر الأسود ، وتقتل العذارى وتقدمهن ضحايا بشرية وثنية ، فداء لأميرة مسلمة سجنت ظلماً وما تزال جثتها غارقة في أحد خلجان الفيليبين .

أما ميدالية (ما شاء الله) التي نحملها على سبيل البركة لا الايذاء للآخرين ، فقد تحولت في الفيلم الى قلادة تستدعي الشر ، ويحتل لابسها شيطان يفتك بالنساء على طريقة (جاك ذي ريبر) ، ويساعده في أداء تلك المهمة (المقدسة) كهنة مسلمون يسهلون له (عبادة) الاجهاز على الضحية ، ويقتلون كل من يعترض سبيله .

* * *

فيلم « شهرزاد ـ تمثيل آنا كارينا » ينتمي الى هذا النمط البالغ الايذاء ، رغم نعومته الظاهرية أو ربما بسببها . فهو يروي حكاية حب أعمق من الموت ، بين شهرزاد وضابط فرنسي هو سفير شارلمان الى هارون الرشيد ، وصراعهما على امتلاك قلبها .

وجوهر الفيلم هو ان الرجل العربي عاجز عن الحب ، وراغب في الامتلاك . شهرزاد لم تجد رجلاً يذيقها طعم الحب بمعنى الرقة والحنان والتضحية والرهافة غير السفير الأوروبي (المتحضر) ، في حين لم تذق من الرجال العرب غير (الانحطاط) الروحي والشهوة الجسدية ، والرغبة في امتلاك حسنها الخارجي ، وعجزهم عن التواصل المتبادل الذي ذاقت طعمه مع (سفير الحب) الأوروبي ولم تعد ترضى عنه بديلاً .

وهذا التفوق الغربي في ميدان الحب يرافقه تفوق في ميدان الحرب . فالحامية الفرنسية هي التي انقذت عرش هارون الرشيد من البرامكة . والفرنسي جسد (النبل الأوروبي) في مواجهة (الغدر العربي) حين ضحى بحياته لانقاذ هارون الرشيد بالرغم من ان الرشيد سبق وحكم عليه بالموت !

في الفيلم صورة عجيبة عن اسلوب الخلفاء في انتقاء الزوجات حيث تخضع الأميرات المسلمات المتنافسات لقواعد مباريات شبيهة بانتخاب ملكات جمال العالم المعاصرة . وفي حضور ذكور البلاط جميعاً من حراس ووزراء و (عقلاء) ، تتعرى « شيرين أميرة البصرة » ، و « جميلة أميرة القاهرة » وسواهن ، وتؤخذ مقاييسهن ، وبعد امتحان الذكاء ، يأتي امتحان رقص (هز البطن) بينما الوزير يحشر اسم الله الكريم في هذه المهزلة المزيفة قائلاً لهارون الرشيد : « دع الله يختار» !

التحقير للمرأة المسلمة نجده شائعاً في هذا النمط من السينما . **في فيلم «ليلة في** حريم ـ تمثيل سالي فورست وفنسنت برايس » يلتقي عمر الخيام والسندباد وبقية العناصر التهريجية والـ (جادجيتس) الهوليوودية والبهارات الجنسية المتوافرة في أفلام (سباجيتي ألف ليلة وليلة) .

اميرات مسلمات يقدمن وصلة رقص (هز البطن) للخاطب الغريب، أو اللص، او للترفيه عن ضيوف الوالد او الزوج، وجاريات عاريات يركضن في البلاط العربي وينشدن الأوبرا تحت الخيام على طريقة (ماريا كالاس)! . . مقاتلون في ثياب العصور الوسطى الأوروبية وقبعات (الفايكينغ)، وخمرة في كؤوس (رومانية) وطقوس (جرمانية) سحرية . . هذا هو المجتمع الاسلامي كما يقدمونه لملايين المتفرجين!

* * *

في فيلم «الأمير الذي كان لصاً - تمثيل توني كورتيس» يرتكب الخليفة جريمة قتل طفل ويبررها بقوله: «انها مشيئة الله»! الشر كله يبرر (بالمكتوب)، مما يرسخ في ذهن المتفرج الغريب فكرة خاطئة عن (القدرية الاسلامية)، والاتكال على الله، وتنفيذ (المكتوب على الجبين) من المعاصي . .

ويتم أيضاً تزوير تاريخنا الديني . فالقتل يتم من أجل الاستيلاء على ما يدعونه «لؤلؤة فاطمة أخت الرسول!» التي يؤكد الفيلم انها جوهرة الحكم، ومن يستولي عليها يخضع الناس له . ولم ينس كاتب السيناريو أن يسخر من (الديباجات) المطولة التي يتملق بها الناس الخليفة مرددين اسم (الله) دونما مسوغ وفي سياق تهريجي، على طريقة النكتة المعاصرة المشهورة عن شيوعي عربي قال مؤكداً: «أقسم بالله انني ملحد»!

وفي بعض الأفلام التي تتحدث عن أجدادنا، تنافس السلطانة زوجها في الاثم «كازانوفا وشركاه - تمثيل أنيتا أكبرغ وتوني كورتيس»، ويمتنع السلطان أحمد عن توقيع عقد (نفطي) مع البندقية، اذا لم يذعن حاكمها لمشيئة السلطانة الشهوانية: احضار كازانوفا من السجن اليها، لتمارس الحب واياه مرة، بعد أن سمعت الكثير عن مواهبه (أياها) . . . وبعدها سيتم بالطبع (خصيه) كما تقضي التقاليد الاسلامية لحماية ممارسات (الست المحترمة) . . هذه الخزعبلات عن (الأصول الجنسية لحياتنا) يبتلعها المتفرج داخل (برشامة) ملونة من الهزل والعري والبهارات الهوليوودية الحريفة .

* * *

وحتى الأفلام الجميلة عن أساطيرنا العربية مثل فيلم (مغامرات علاء الدين - انتاج ستوديو غوركي) الذي تدور احداثه في بغداد، وفيه جهد رائع في نقل صورة متقنة عن ذلك العصر، نجدها تسقط في مطب ما يسهو عنه المستشار المستشرق . فالمفروض ان الأميرة المسلمة قذرة جداً حتى ان جرها الى (الحمام) يتطلب موكباً

وشجاراً ودموعاً وصراخاً امام الشعب . وما لم يتذكره الخبير المستشرق هو ان الأميرة المسلمة لا تستطيع ان تكون قذرة الى هذا المدى ، فما دامت تصلي ، فهي مضطرة للوضوء يومياً خمس مرات على الأقل !!

أما فيلم «المومياء ـ تمثيل بيتر كاشينغ ـ كريستوفر لي » فهو يدافع بشكل غير مباشر عن سرقة متاحف الغرب للتراث العربي ، ويبالغ في أمر شرورنا الطقوسية حتى يتوهم المتفرج ان المتحف البريطاني يؤدي خدمة للعدالة ولاسكتلنديارد حين يسجن داخل قاعاته المومياءات المصرية ، التي هي في (حقيقتها) مكرسة للقتل اذا تركت طليقة . وشخصية العربي المصري في الفيلم وثنية ، لامنطقية، لا تحترم العلم ولا العلماء ، وتفضل تسخير التراث في خدمة السحر الأسود والجريمة والانتقام بدلاً من الانسانية .

* * *

هذا غيض من فيض ، نكتفي به لضيق المجال . ومن الضروري التنويه بأن هذه الأفلام المشوهة لتراثنا (وسواها لا يحصى) لعبت دوراً مهمًا في تأليب الرأي العام-العالمي ضد (العربي البشع) ، ومن صلبها ينحدر جيل جديد من الأفلام الأكثر عدوانية ، .وسيتكاثر ما دمنا لا نعترض سبيله بالرصد والدرس والعقاب ، وسيتابع تشويهه لحاضرنا ـ بعد ماضينا ـ .

ونرى العربي فيه (ثرياً) نفطياً لا مبالياً بالقيم ، أو (فقيراً) ارهابياً يجهل جوهر الحضارة والانسانية . ولا نرى أثراً للانسان العربي الحقيقي المتواجد على هذا الكوكب ، المتحلي بالقيم الانسانية ـ او ببعضها ! ـ العاشق للعلم والمعرفة ، الكادح من أجل لقمة عدالة وخبز . هذه الصورة مطموسة تماماً . ومعظم الأوروبيين ما زال ينظر اليك بنفور حين يقدمك أحد إليه كعربي ، ويتذكر صورتيك : الثري المبذر ، والمفلس الارهابي . فما دمت عربياً ، لا بد وان تنتمي الى احدى الفصيلتين . . وهو لا يعرف صورة الاكثرية الساحقة : العربي الكادح النقي ، وقد يسألك صراحة : عربي ؟ تشرفنا . هل أنت ثري أم ارهابي ؟

١٩٨٣/٣/٧

الموت صمتاً !

قافلة من الباحثين عن الحقيقة .

ركبوا أحصنة دون كيشوت ، واستلوا أقلامهم الشبيهة برمحه ، ومضوا في حقول البيرو لينقلوا إلى الناس حقيقة ما يحدث في جبال الأنديز (على بعد ٦٠٠ كيلومتر جنوب شرق العاصمة ليما) .

المنطقة مضطربة . فلاحون ومنظمات ثورية وزجال أمن وفرقة مكافحة الشغب في الحرس المدني ، وصدامات ،

ولكل منهم حقيقته ووجهة نظره . . والصحافيون الثمانية ذهبوا لرسم صورة عما يدور . فماذا حدث لهم ؟ فقدوا منذ أسبوع ، ثم وجدت جثثهم ودليلهم مدفونة في مقبرة جماعية ، في الجبال التي ذهبوا إليها لاستنطاق صخرها ، وكشف أمرها .

ماذا حدث ؟

الرواية الرسمية تتهم (فلاحين مذعورين) بإعدامهم خطأ ، وذبحهم على سبيل (الغلطة المطبعية)، وذلك بعد أن حذرتهم شرطة مكافحة الشغب من رجال بلا زي موحد ، يصلون سيراً على الأقدام إلى قريتهم ، وسيكونون مجموعة من (الثوار) يجب قتلهم !

ووصل الصحافيون ، فتم استقبالهم في حفل إبادة جماعية !

* * *

هذه ألطف الروايات عن مذبحة الصحافة .

وثمة رواية أخرى تتهم الشرطة بإعدامهم ، بعد أن سبق وهددت الصحافيين بالقتل في حال استمرارهم في كتابة التقارير عن نشاط الثوار . ولاحظت الرابطة الوطنية للصحافيين في البيرو أن معظم قتلاها كانوا يعملون في صحف معارضة . . والله أعلم .

ثمة شيء نعرفه على وجه التأكيد ، وهو أن ثمانية صحافيين قتلوا ودفنوا خلال تأدية مهمة عتيقة هي البحث عن الحقيقة ، دون أن يهتز جفن الكرة الأرضية . وهم ليسوا أول من يقتل بتهمة محاولة سرقة النار المقدسة ، نار المعرفة ، ولا آخرهم .

ولعل من سخرية القدر ، أنه قبل شهر من وقوع هذه الحادثة ، قتل ثمانية صحافيين حرقاً حتى الموت في فنزويلا ، يوم انفجرت المحطة الحرارية التي تزود كاراكاس بالكهرباء . . فقد سارع الصحافيون إلى مكان الانفجار كعادتهم ، لنقل الحقيقة إلى الناس ، وداهمهم انفجار ثان أطاح بهم وبأقلامهم وأصابعهم وكاميراتهم .

وقد نسيهم الناس ولما ينقض شهر على سقوطهم .

فنزويلا بعيدة ؟ البيرو بعيدة ؟ لكننا لسنا بعيدين عن جوهر ما يدور .

الصحافيون يلقون المصير ذاته في معظم أرجاء العالم .

يقتلون بالمصادفة أثناء تأدية الواجب ، ويقتلون عمداً لأنهم يؤدونه ، ويقتلون بوسائل أخرى كثيرة (ألطفها) العنف المباشر ، و(أبشعها) القتل البطيء البارد المنظم المحنك .

* * *

الموت حرقاً . الموت ذبحاً . ما هذا بكل شيء .

هنالك الموت صمتاً . الموت قمعاً . الموت إذلالاً وقهراً .

هذه أيضاً يعرف الصحافي طعمها في مختلف أرجاء الدنيا ، وفي غير قطر عربي .

في القاهرة مثلاً ، واجه أحد الصحافيين مأساة الموت صمتاً ، لكن القضاء المصري أنصفه ، والعراقة الديمقراطية المصرية انتصرت له .

فمنذ أسابيع ، أيدت محكمة استئناف القاهرة حكماً بإلزام مؤسسة محترمة صحافية دفع تعويض كبير (٣٢ ألف جنيه مصري) إلى صحافي خبير بالشؤون الاسرائيلية ، لأن رئيس التحرير منعه من الكتابة ، ورفض نشر كتاباته لمدة عامين .

وقيل إنها المرة الأولى في تاريخ القضاء المصري ، التي يحكم فيها لصحافي بمثل هذا التعويض إثر منعه من الكتابة من قبل الصحيفة التي يعمل بها .

وهذا الحكم العادل ، يحمل اعترافاً ضمنياً بحقيقة أساسية : الصحافي لا يموت حرقاً أو ذبحاً فقط . . إنه يموت صمتاً . إقساره على السكوت جريمة في حق إنسانيته ، تستحق التعويض لصاحبها ، والعقاب لمسببها .

وإذا كان زميلنا الصحافي م . ع قد وجد محكمة تنصفه ، كم من صحافي

عربي في غير قطر لم يجد غير صمت جدران الزنزانات قاضياً . ومحظوظ ذلك الذي يقمع علناً داخل السجن .

وما أتعس أولئك الذين يسقطون فريسة تحالفات اخطبوطية بين السلطات البوليسية لبلادهم ، وزبانية الترغيب والترهيب من خبراء تطويع المواهب ببطء واستمرار ، بأساليب غير مباشرة ولكن مدمرة . . الهدف منها جعل الكاتب يدمر نفسه بنفسه ، ويحتضن رقيبه في أعماقه . يسكنه حنايا روحه مذعوراً ، ويصير صوت الرقيب الداخلي أعلى من صوت الحقيقة في ذات الكاتب . . يملي عليه ما يقول . . ويشطب له أهم ما يسطر .

* * *

لعل أخطر عملية يتعرض لها الصحافي هي عملية زرع الرقيب موضع قلبه وضميره .

في البداية ، يرفض الكاتب ذلك الحضور الغريب المقحم على عالمه ،

ثم تساهم ضغوط أخرى في تآلفه مع واقع الحال ، منها مخاطر التجويع والتهجير والتعتيم .

وإذا كانت للكاتب أسرة كبيرة من «زغب الحواصل»، يتحول رزق تلك الأسرة إلى سلاح بيد السلطة للضغط غير المباشر على ربها . وكثيرون هم الشرفاء الذين تحدوا الضغوط هذه كلها ، ورفضوا أساليب الترغيب والترهيب ، وطاولات عمليات زرع الرقيب ، وعانقوا الفقر مغادرين أقطارهم التي صادرت الشمس ، ومنعت البحر ـ لأنه يشبه محبرة كبيرة ولونه أزرق كالحبر ـ ، ومضوا في دروب الهجرة الوعرة كي يقولوا كلمتهم كما ولدتها أمها الحقيقة . .

وليكن ما يكون .

* * *

ما من أديب عمل في الصحافة إلا ويعي مدى الضغوط الشرسة التي تمارس على أبناء هذه المهنة . . كأن يفاجأ بمنع كتبه في قطر ما دونما ذنب او تبرير أو تفسير . . أو كأن تتدخل بعض أجهزة الارهاب ، وتسدي اليه (نصيحة) بتبديل موقع عمله . وإذا فعل ، فستتدخل أجهزة مضادة لتسدي إليه النصيحة ذاتها . وإذا نفذ ، ستعترضه الصحيفة المضادة لتعاتبه لأنه لم ينضم إلى أسرتها ، واذا قبل أو لم يقبل ، سيجد نفسه حطباً للعبة (الأمم) الصحافية ، وهو الذي لا يطلب أكثر من منبر إعلامي يوصل عبره

الحقيقة ـ كما يراها ـ للناس .

سيكتشف فجأة أنه حصد أعداء يحبهم ، وأصدقاء قد لا يحبهم ! سيدهش لأنهم يحولونه ـ بالارغام ـ إلى حجر في لعبة شطرنج الصحافة ، وهو الذي لا يحلم بأكثر من نافذة حنان يفتحها على دنيا الناس .

ويزيد الأمر قسوة أن بعض الصحافيين يمارسون فيما بينهم الدروس القمعية التي يتعلمونها من بعض السلطات . وجوهر العلاقة بين معظم الصحف والمجلات عدواني لا ودي .

ثمة (تحازب) لا (تجاذب) . والعداوة تحل محل المنافسة الشريفة بروح رياضية نقية .

والصحافي المسكين يقع بين نارين ، نار العدو ، ونار الحليف ، بين جهنم بعض السلطات ، وجحيم (حب) بعض الأصحاب ، ولسان حاله يقول : اللهم نجني من أصدقائي ، وأنا كفيل بأعدائي .

* * *

وبالرغم من التجاور والتداخل بين مهنة الصحافي ، ومهن إبداعية أخرى كالمسرح والسينما والأدب والتلفزيون ، فإن صورة الصحافي في هذه الأعمال الابداعية هي غالباً كاريكاتورية . مشبوهة . غير مشرقة ولا مشوقة ولا مشرفة . هزلية ، وأحياناً تدعو إلى الاحتقار .

انه انتهازي . لا يبالي بموت إنسان ، مقابل تحويل هذا الموت إلى نصر صحافي . لا يحترم أسرته ، ولا يدين بالولاء لغير (الصرعة) الصحافية ، وهو مستعد لبيع جلد رأس أطفاله مقابل (خبطة) صحافية . هذه هي (الصورة العامة) . .

ونحن لا نستطيع الادعاء بأن عالم الصحافة هو المدينة الفاضلة أو مجمع القديسين ،

ولا ننكر وجود فئة لا بأس بها من الطفيليين والانتهازيين والمزيفين كما في حرم كل مهنة أخرى ،

لكن ذلك لا يجوز بحال ان يطمس الصورة المشرقة لمئات الكتاب المكافحين من أجل الكشف عن الحقيقة ونقلها إلى الناس ، الباذلين كل شيء من أجل حفنة من الصدق . . أولئك الذين يموتون حرقاً بالمصادفة ، ويسقطون قتلى في ساحات الحروب وهم لا يحملون غير الكاميرا أو القلم ، ويذبحون خطأ على يد البسطاء ، او عمداً

بفضل الخبث القمعي ، ويواجهون فوق ذلك كله أقسى الميتات : الموت صمتاً . وهي ميتة أسوأ من الموت بمسدس صامت مزود بكاتم للصوت .

* * *

لست بحاجة الى التذكير بضحايا الصحافة العربية الذين سقطوا في بيروت وسواها في الأعوام الأخيرة في ميتات عنيفة إرهابية ، كان المقصود منها ترويعنا وتخويفنا (وقد خفنا والحق يقال) .

لكنني أحب التذكير بأولئك الأحياء الأموات ، الكتاب الذين يذوون صمتاً ، ويموتون كمداً والصدأ ينتشر في أصابعهم ، والطحالب تتكاثر داخل حناجرهم ، وتبتلعهم مؤامرات الاحتواء والوصاية ، فيهربون إلى صحاري الصمت والنسيان .

ذلك الصحافي المصري المحظوظ ، وجد محكمة تمنحه تعويضاً عن صمته لمدة عامين (٣٢ ألف جنيه مصري) .

ترى ، لو قاضى الصحافيون العرب في بعض الأقطار ظالميهم ، وطالبوهم بتعويض عن سنوات طويلة من الصمت الإرغامي - بالوسائل المباشرة وغير المباشرة ، العلنية والسرية ، الترهيبية والترغيبية -، هل تكفي أموال العرب وثرواتهم للتعويض عن ذلك كله ؟

ما عقوبة الاعدام المعنوي ؟ ما عقوبة ربط الموهبة الى الكرسي الكهربائي ؟
ما عقوبة إلصاق حنجرة الابداع والصدق إلى سكين المقصلة ؟

١٩٨٣/٢/٢١

الجارية . . لماذا ترفض الحرية ؟

حينما أقرأ كتب التراث ، وحكايا الخلفاء والشعراء وأهل البلاط ، يمتلىء قلبي نقمة على بعض أجدادي الذين جعلوا من المرأة جارية ، ومن الجارية هدية تمنح لشاعر أبدع ، أو مقاتل أبلى بلاء حسناً ، أو وزير أفلح في عمله ، بدلاً من اهدائهم ناقة أو بغلاً . حصاناً . قطة . خاتماً . حذاء . كيساً من الذهب ، وغير ذلك من العطايا .

وحكاية الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مع الفضل بن قدامة ليست فريدة في بابها . وتكاد تكون تكراراً لمواقف مشابهة تزخر كتب التراث بحكاياها .

يجتمع الشعراء العرب عند الخليفة ـ تصادف هذه المرة أنه ابن عبد الملك ـ ، فيأمرهم بقول القصيد في موضوع معين ـ هو في قصتنا هذه الفخر ، وذكر مآثر القوم دونما كذب ـ فينشده كل منهم ما لديه ، وأشعرهم يربح الجائزة : الجارية !

ويقرأ الفضل بن قدامة أبياته ، فيفوز بإعجاب الفرزدق والخليفة معاً ، وتصدر الأوامر العليا : « ادفع اليه بالجارية » .

هذه الهدايا البشرية من الجواري والخصيان ، تثير في النفس حساسية خاصة . وحتى القارىء الذي ألف قراءة التراث العربي غثه وسمينه، لن يألف هذا النمط من المواقف المهينة لانسانية المرء . سيجد نفسه كل مرة يفكر بهذه الجارية المهداة أو تلك المباعة ، المستلبة الانسانية والحرية ، المحرومة من حق الحياة السوية ، واختيار شريك الليل ناهيك عن شريك العمر . وسيبذل جهداً ما ، كي لا يفسد ذلك الخاطر متعة قراءة حكايا التراث ، وما يزخر به بعضها من الطرائف والنوادر والشعر القديم الجزل ، والنبض البطولي الفذ ، وعنفوان الأجداد . .

* * *

لكن أحداث الحاضر تلقي أحياناً بضوئها على الماضي ، فتتبدل المرئيات ، ويبدو الجلاد ضحية، والضحية جلاداً، حتى لنتساءل: هل كان شهريار جلاداً حقاً، أم أنه

أخطأ مرة واحدة فقط ، حين لم يقطع رأس شهرزاد أيضاً بعد الليلة الأولى ؟

فسلوك بعض النساء العربيات المعاصرات ، وتمسكهن بمهنة « الجارية » ، يدفع بالمرء إلى إعادة النظر في أحكامه .

ثمة نساء يرفضن الحرية ، يلتصقن بدور بعض (جداتنا) من الجواري ، بعد رفع لافتات إجتماعية محببة إلينا ، لكنها لا تنطبق على جوهر حياتهن .

إليكم هذا النموذج الشائع في مجتمعاتنا العربية ، والذي نجد له صورة يومية في صحافتنا .

سيدة « مخملية » متزوجة من ثري عربي . تعلن في حوار صحافي وقوفها ضد « تحرر المرأة » ، وتنادي بضرورة تفرغها للبيت والزوج والأولاد الذين نراهم يحيطون بها في الصورة .

كلام جميل لا غبار عليه ، لو صح حقاً !

لكننا نعرف ـ والسيدة تعرف ـ أن المربية هي التي تعتني بأولادها ، والخادمة هي التي تشرف على شؤون المنزل ، والطباخة هي التي تتولى الطهي . . وكلهن نساء عاملات باستثنائها .

فهي وحدها العاطلة عن أي عمل ، تقضي أوقاتها في الثرثرة والكسل والمساج (والمانيكور والبيديكور) والسهرات الاجتماعية ولعب الورق والتشاوف وهدر المال في أسواق الغرور والرياء ، واقتناء (آخر الصرعات) من الأزياء الثمينة التي يكفي ثمنها في موسم واحد لتعليم طالب عربي فقير من الحضانة حتى التخرج . . وهي قلما تلتقي بأولادها إلّا في المناسبات العامة، ولا تضمهم إلا في الصور الصحافية .

مثل هذه النماذج ليس نادراً في حياتنا العربية ، بل هو شائع في الطبقات (العليا) الثرية ، تنقل صحافتنا أخباره ، ويكاد يكون طموحاً .

الجدات ، والأمهات يفتشن للبنات باستمرار عن عريس (لقطة) يستطيع أن يمنحهن حياة (مثالية) كهذه : حياة جارية مرفهة !

* * *

بحذق أنثوي ماكر تندس (جواري الأثرياء) الملقبات بالزوجات في صف نساء كادحات هن ربات البيوت . فمن المعروف أن حرف « ربة المنزل » من المهن الشاقة التي تستحق التقدير والاحترام . وهي مهنة تستغرق من صاحبتها الوقت كله (فولتايم جوب) ، ولا تترك لها مزيداً من الساعات لأداء عمل إضافي ، ناهيك عن الراحة ،

خصوصاً في السنوات الأولى من الزواج ، حين يكون الأولاد صغاراً وفي حاجة إلى الرعاية المستمرة .

وفي البلاد (المتحضرة) ، تسجل الزوجة (المتفرغة) في بطاقات تأشيرات الدخول بالمراكز الحدودية عبارة « ربة منزل » عند خانة : المهنة . وهي مهنة محترمة تعني أن صاحبتها تؤدي مجاناً أعمال طباخ وكواء وماسح زجاج وعاملة منزلية ومربية ، وتقوم بها وحدها مجتمعة . وهي عادة مهن تدر على أصحابها نقوداً وفيرة في البلاد التي تفتقر إلى اليد العاملة في (المهن الدنيا) ، والاختصاص شرطها الأول ، إذ يرفض منظف الزجاج مثلاً القيام بأعمال أخرى خارج إختصاصه ـ كالطبخ ـ كما يرفض العمل خارج ساعات دوامه .

والزوجة العاملة كربة منزل تقوم بذلك كله . ساعات دوامها من الفجر إلى الفجر التالي ، دونما مكافآت شهرية أو رواتب تقاعدية ولا تعويضات ولا إجازات ، وأحياناً دونما كلمة شكر واحدة ! . .

* * *

ولأنني أكن احتراماً عميقاً لفئة « ربات البيوت » الكادحات ، ومهنتهن الشاقة المليئة بنكران الذات كما الممرضة ، والتفهم لأمزجة الجميع كما الطبيب النفساني ، والعطاء الوفي اللامتناهي امتلىء غضباً حينما أرى جارية ملفوفة بالذهب والتثاؤب والحرير والكسل من رأسها الى أخمص قدميها تحاول أن تندس في صفوف النسوة العاملات حقاً في خدمة بيوتهن وأسرهن .

ومن الطبيعي أن ترفض إمرأة كهذه « تحرير المرأة » لأن ذلك يعني ضمناً أداء عمل ما ، وهي ببساطة تستمتع بكونها عاطلة عن العمل ، وتخشى حياة المسؤولية والحركة دونما حماية الزوج والثراء .

إنها لا تريد تقديم أي جهد لا داخل البيت ولا خارجه . لذا ترفض خدمة أسرتها وتشتري خادمات (بديلات) عنها في هذا المجال .

لكنها أيضاً (جارية) ذكية محنكة ، تتظاهر بأنها « زوجة محافظة » كي تحافظ على حياة الاسترخاء ، والكسل ، وجوهر سلوكها ينضح بالاستهتار بكل شيء ، بما في ذلك الزوج المسكين الذي يكدح خارج البيت لأجلها ، والخادمات يكدحن داخله لأجلها أيضاً .

* * *

نساء من هذا النمط لا يحق لهن أصلاً الحديث عن « تـحرر المرأة » ، والتي تختار الاقامة داخل علبة ذهبية ، متقلبة بين الوسائد الحريرية والستائر المخملية والحفلات ، ضيوفها الثرثرة والرياء والتفاهة والتشاوف المغرور ، لا يحق لها أن تتحدث عن الأفق والبراري والسنابل والحصاد والأطفال والبسطاء والبحر والرياح . .

إمرأة كهذه تدافع عن نفسها ضد عدو اسمه « تحرير المرأة » يتهدد كيانها الطفيلي ، ويضطرها إلى التخلي عن (مكاسبها) ، ويجرها من شعرها إلى دخول الحياة من الباب الضيق : باب العمل والمسؤولية . ومن البدهي أن تكون المرفهة الكسول الجارية حليفاً للسجان ، ما دامت لا تريد مغادرة سجن الدلال إلى العمل .

هذا النموذج الشائع عربياً يذكرني ببعض السجناء المرضى نفسانياً في سويسرا ، الذين كانوا يرفضون مغادرة السجن المريح الباذخ المتلفز هناك ، ويبذلون جهودهم للعودة إلى ملكوته اذا طردوا منه بعد إنتهاء مدة العقوبة !

من لا يعمل لا يأكل ، باستثناء الشيوخ والأطفال .

هذه هي القاعدة في مجتمعات العالم الثالث التي تمر بطور النمو . وهذه المرأة تريد أن تقلد « نجمات » مجتمعات لها ظروف مغايرة ، مثلها الأعلى ماري انطوانيت ، وتأكل نصيب عشرات الجياع ، وترتدي ثيابهم التي تضمها خزائنها المزدحمة ، وتستولي على أحذية عشرات الحفاة من بلادي، ولا تريد أن تقدم عملاً نافعاً لمجتمعها عبر خدمة أسرتها أو خدمة الناس ، وتريد منا أن لا نحرر المرأة التي نحن بأمس الحاجة الى طاقاتها المهـدورة ، وتريد منا أيضاً أن نزين صدرها بالأوسمة في القمقم ، لأنها مكتفية ببيتها ـ وهي لا تمر به إلا لتبديل مجوهراتها وأحذيتها وثيابها وتقـريع خادماتها ـ !! . . إنـها تقدم للمجتمع العربي المحافظ رشوة لم تعد تنطلي على أحد : ادعاء الطاعة .

* * *

طاعة الجارية الكسول هذه لا أحد بحاجة إليها .

طاعة الرياء النسوي المداهن ، المتقنع بريش التقاليد كما مخالب القطة المختبئة داخل نعومة مزورة .

طاعة الخبث التاريخي المتوارث لم يعد يقنع أحداً .

الوطن بحاجة الى توظيف طاقاته كلها في العمل الجدي ، داخل البيت أو خارجه ، ولا مكان في هذه المرحلة للكسالى والأفواه اللامجدية والجواري والخصيان ،

تحت أي اسم أدرجوا أنفسهم أو أية خانة ، بما في ذلك لقب « سيدة المجتمع المخملي » .

العار يكاد ينمو على خارطة الوطن العربي كالطحالب والصدأ ، ولم يعد من السهل أن تتملق اعجابنا الجواري المعاصرات حفيدات بعض جداتنا (اللواتي كن أكثر صدقاً ، يمارسن مهنتهن دون تستر خلف قناع الزوجية) ، وفئة « ربة المنزل » ، الجارية المعاصرة « ربة السهرة » ، وأميرة اللامبالاة بواقع الوطن ، المثابرة على الدوام في (محاضرات) عروض الأزياء الأوروبية ، تجعلنا نعيد النظر في حكايا التراث ، وبدلاً من لوم الخليفة ، نتساءل : هل كانت الجارية تصلح لغير ما اختصها به أجدادنا ؟

* * *

في الصين ، يواجهون اليوم مشكلة تجاوزها العرب منذ قرون بفضل الاسلام ، هي وأد البنات .

فالقانون الجديد يحدد النسل - كي لا يزيد تعداد سكان الصين عن المليار الحالي ! - ويسمح بالتالي للأسرة بإنجاب مولود واحد ، يفضله الفلاحون ذكراً ، لأنه يساعد أسرته في مواجهة صعوبات الحياة ، بينما تتحول الأنثى غالباً إلى عالة أو مشروع (جارية) . وهكذا شاعت في المقاطعات الفقيرة عادة وأد البنات على الطريقة الصينية في الترع المائية بدلاً من القفار الرملية . . ويمارسها عدد كبير من الفقراء طمعاً في أن يكون المولود اللاحق صبياً .

لا أحد يستطيع (تبرير) وحشية وأد البنات ، لكن الجميع يستطيعون تفسيرها في تلك المقاطعات الفلاحية البائسة . إنها ببساطة الامتداد لقانون الفلاح : النبتة التي لا تعطي ثماراً ولا تؤكل تعتبر طفيلية وتقتلع .

الحلول (التبشيرية) كلها في قضية وأد الآخرين للمرأة ، ووأدها الذاتي لنفسها ، ستظل حبراً على ورق إذا لم تقم المرأة نفسها بنقلة بسيطة : القفز من خانة المستهلك إلى خانة المنتج .

أعرف أن القضية ليست بسيطة ، بل مركبة ومرتبطة بعوامل متشابكة تاريخية وإجتماعية ودينية وإقتصادية وتراثية . . إلى آخره . لكن الشرارة الوحيدة التي يمكن أن توقد درب الحل هي أن تعي المرأة جوهر المذبحة : ضرورة العمل .

لا مكان لمزيد من الأفواه اللامجدية على هذا الكوكب . . انها حقيقة قد تكون

مؤسفة ، لكنها تستحق الالتفات ما دامت تدفع مئات الآباء الصينيين إلى وأد بناتهن . (لعل الأمهات يشاركن في ذلك أحياناً، لكن الرجل المسكين هو المتهم تاريخياً وتقليدياً بهذه الجريمة النكراء) .

* * *

جيوفاني فيغليوتو ، تزوج من ٨٣ سيدة فقط لا غير ، وكان يختارهن ثريات وعاطلات عن العمل على نمط الجواري المعاصرات .

مثل أمام محكمة بنساكولا الفيدرالية (ولاية فلوريدا) ، فأودعته السجن ، وأبطلت زيجاته .

كأن القاضي أشفق عليه وأنقذه من ورطته. أليست (حياة) السجن أفضل من (الحياة) مع ٨٣ جارية دفعة واحدة ؟ . .

١٩٨٣/٣/١٤

غرباء في أوطاننا

منذ أسابيع ، حين طردت نيجيريا الغرباء من أرضها في واحدة من أضخم الهجرات الجماعية في القرن العشرين ، امتلأت حنجرتي شوكاً وملحاً ، كأنني وقفت في طوابير الذل والطرد ، وسوط رجال السلطة يلسعني ، وزاحمت عشرات الآلاف في لاغوس على مقعد في باخرة تعود بي الى الوطن . داستني الحشود البشرية المطرودة مثلي . سرقت رغيفاً لآكل ، وسرقني رجل الجمارك ليأكل أولاده ، وتوفيت مرة حين اصطدمت سيارتنا على الحدود بين بنين وتوغو ، وقتلت مرة أخرى حين دفعتني الجموع في الميناء وانسحقت بين السفينة والرصيف وجرفت المياه جثتي، ثم مت مرة ثالثة مرضاً حين التهبت بالحمى ، ولم أقو على اللحاق بشاحنة غطاها رفاقي من النمل البشري المبعد .

ولم اكتب حرفاً يومئذ ،

فالقضية تخص نيجيريا والتشاد وغانا والكاميرون ، ولا أميل كثيراً الى الذين يكتبون دراسات تحليلية عن حالة الطقس في زيمبابوي ، ونيكاراغوا وجزر القمر ، هرباً من تسطير حرف عن ابن الجيران الذي مات في قبو للتعذيب ، أو ابناء الحي المجاورالذين ذبحوا في مجزرة . كما أنني لا أميل للكتابات المتفرغة للكفاح ضد كل (طاغية) ، شرط أن يكون بعيداً آلاف الكيلومترات ، في حين يتجاهل صاحبها بعض (الطغاة) العرب الجالسين على قمة رأسه وهو يكتب .

* * *

ولكن تلك القافلة من مئات آلاف البشر المعذبين المطرودين من نيجيريا، تحرك في قلب العربي أحزانه الخاصة . تذكره بالتشرد الذي يتهدده في كل لحظة . الهجرة المحتملة والطرد الممكن . تعيد الى ذاكرته صور الهجرات الارغامية التي طالما تعرض لها ، والجديدة التي يبدو أنها تنتظره . فيحس بمذاق الغربة على لسانه كالعلقم . طعم

(الغربات) يهاجمه ، البسيط منها والمركب . الواضح والمبطن ، وعلى رأسها تلك الغربة التي يعايش كل يوم في وطنه العربي الكبير ، بين بعض الذين يفترض أنهم أهله وخلانه أو على الأقل (حلفاؤه) .

ونحن في لبنان نعرف جيداً طعم (الغربات) كلها . وليس بيننا من لم يضطر لمغادرة بيته خلال ساعة ، مخلفاً كل شيء وراءه الا الذعر والخوف ، مقهوراً (مكسور الخاطر) متنقلاً بين بيوت الأصحاب ريثما تهدم على رؤوسهم ورأسه ، والفنادق ريثما تدمر ، والشقق المفروشة الموحشة ، وربما النوم في سيارته مذعوراً من انفجار السيارة الملاصقة . ليس بيننا من لا يعرف معنى أن تقف أمام جنى عمرك لتقرر خلال عشر دقائق ما الذي ستحمله منها ، وأيها ستختار : أوراقك أو ثيابك أو حليب طفلك ؟ وما أضعف فرص الاختيار البائس هذا ، وعليك أن تركض بأطفالك وأشيائك تحت القصف أو التهديد أو الاذلال . . وهل تفضل أن تترك للنيران أو اللصوص أوراقك أم لوحاتك أم معطفك والدنيا شتاء ؟ وعليك أن تقرر بسرعة وهدوء وسط جنون الاقتتال الصديق أو العدو . . وكنا غالباً نهاجر ، ولا نحمل في أيدينا غير الذعر والحلم بالنسيان والريح . والذين هربوا من جحيم الأحداث في لبنان الى (نعيم) بعض الأقطار العربية ، يعرفون جيداً مدى مصداقية مقولة (بلاد العرب أوطاني) من المنظور العملي لا الشعري للكلمة .

* * *

موجع أن تهاجر من بلدك الى أرض غريبة أو قريبة ، وموجع أن تطرد منها فيما بعد .

وما أكثر العرب الذين اختاروا غصات المهجر على غصات الوطن ، واذلال الحصول على اجازة عمل وبطاقة اقامة في دهاليز المؤسسات المسؤولة عن استجوابه هناك ، بدلاً من اذلال بعض قومه له في دهاليز العوز والفاقة .

وما أكثر العرب الذين اختاروا بالمقابل علقم بلدهم ولا عسل الغريب ، و (زيوان البلد ولا قمح الجلب) ، فعاشوا غرباء في أوطانهم المحتلة بظلم ذوي القربى (أي بعض الأنظمة العربية باللغة العصرية !) .

* * *

قافلة مئات آلاف المطرودين من نيجيريا ، الأبرياء والسفلة ، الأنقياء واللصوص الأوغاد ، تبدو على خط الأفق العربي صورة داخل مرآة لزمن يتهدده . .

يرى فيها القلب جرحه،

لوعته اذا رحل، ومأساته اذا لم يرحل. ومخاوفه اذا ظل محتاراً. العربي غريب حين يهاجر ، لكنه أيضاً غريب حين لا يهاجر ! ومسكين هو الغريب المهاجر ،

ما أسهل ترويعه وتهديده واقتلاعه وابتزازه وطرده . . ناهيك عن استغلاله .

والغربة تفسد بعض حواسه ، كأن يأتيه مطرب فاشل ويغني له انشودة بلغته الأم، فيثمل نشوة بالحنين و (النوستالجيا) ، ويمنحه نصف ما في الجيب . . ويقدمون له في مطعم ما وجبته المحلية ، فيتذكر طبخ أمه وجدته ويعطيهم ما في الجيب والغيب أيضاً . يعيش في المهجر وعينه على خارطة الوطن . . وقد يعود يوماً الى مسقط رأسه أو لا يعود ، لكن القلب نورس مشاكس يطير كل ليلة راجعاً الى تلك الأماكن نصف المنسية التي فارق ، يتحسس الشوارع العتيقة والجدران والوجوه التي طالما أحب والأهل والـجيران . . . وفي الصباح يتعذب لأن أولاده لا يتقنون قراءة اللغة العربية ولا يقولون له صباح الخير الا بلغة غريبة .

يغترب ، ويرضى بالهم ، لكن الهم قد لا يرضى به ، ويطرد فجأة لينضم الى تلك القافلة من الغرباء التي (تزنر) الكرة الأرضية . ويظل أفضل حالاً من الغرباء في أوطانهم . . ولك أن تختار (غربتك المفضلة) !

* * *

لعل غربة الفرد العربي في وطنه الكبير هي من أقسى الغربات الجماعية في القرن العشرين . والغريب أنها تتنامى كلما ازداد كلامنا عن الوحدة .

ثمة انفصام عجيب بين الأحلام الوحدوية الشهية ، والواقع الانفصالي الأليم الحالي .

لا أعرف بالضبط مبعث هذه الهوة بين شعاراتنا المعلنة على الورق وممارسات بعضنا على الأرض . وهل الشعوب هي المسؤولة بسبب رعونة عدد من الأفراد، واساءتهم لاستخدام الحرية في معرض نشر الفوضى أم أن بعض الحكام يحبون العروبة ويكرهون العرب ؟ لست كاتبة سياسية لأطلق الأحكام . أنا مواطنة مقهورة أتحدث عن جرحي .

لقد فتحت عيني على الحلم الوحدوي الكبير : وطن واحد يضم ١٥٠ مليون مواطن حر . ويوماً بعد يوم انكسر الحلم قطعة بعد أخرى ، مثل مرآة تتدحرج على حد جبل ، وصرت أخشى أن نستيقظ ذات يوم فنجد في تلك الرقعة الغالية من المحيط الى

الخليج ١٥٠ مليون جمهورية عربية ، حيث يعلن كل فرد نفسه دولة مستقلة انعزالية ، وتتحول (بلاد العرب أوطاني) الى ١٥٠ مليون ديكتاتورية صغيرة مسورة بالعزلة والشك والحذر والوحشة كسجن انفرادي .

* * *

حين نكون صغاراً ، لا نلحظ مدلول الأحداث العابرة الخطرة .

ويوم بدأت الكتابة ، كنت أرى أن الدورة الدموية لحروفي مرتبطة بالآخرين من بني قومي . وهكذا زرت وطني سوريا قرية قرية ومدينة مدينة وغابة وصحراء ونهراً وجبلاً . . بعدها بدأت اكتشف ذاتي العربية عبر الرحيل الى وطني العربي : القاهرة . . الكويت . . السعودية . . العراق . . اليمن . . تونس . . وسواها . . وبعد ذلك وقع الخطأ (وربما الصواب) ، حين قررت أن أتجول في الوطن العربي دونما دعوات واستقبالات وأصدقاء ينتظرون في المطار ويساعدون ، وإنما كمواطنة طبيعية في وطن معافى . .

وطرت إلى عاصمة عربية كسائحة بدلاً من انفاق نقودي في الغرب ، فاحتجزت في المطار للتحقيق ، أنا التي لم تعمل يوماً في حقل السياسة ! وتكرر الأمر في عواصم عربية أخرى ، وكان سراحي يطلق دائمًا مع اعتذار لطيف . . ولكن العين تفتحت على الجرح وفات الأوان .

كنت قد التقيت بالعشرات الذين يقهرون في مراكز بعض الحدود العربية ، ويذلون حينما يتنقلون بين (بلاد العرب أوطاني) ، كما التقيت ببعض المقيمين والمهاجرين العرب في غير أقطارهم ، واستمعت الى حكاياهم المحزنة ، وذقت معهم خبز القهر وملحه وسمه .

* * *

أليس مؤسفاً أن الفرد العربي يستطيع أن ينال تأشيرة سياحية الى الأقطار الأوروبية بسهولة أكبر من **الحصول على تأشيرة أقطار عربية** ؟ ناهيك عن تأشيرة وإقامة أو هجرة ، يعامل أثرها كمواطن من الدرجة الثانية من (أبناء الجارية) لا (أولاد الست) .

لقد قضينا قروناً ونحن نبكي على الأندلس ، ويبدو أن الوصول الى بعض الأقطار العربية صار أصعب من العودة الى الأندلس !

هلا خرج بعض أهل السلطة العرب الى حدود بلادهم وشاهدوا كيف يعامل

المواطن هناك بما يناقض الشعارات المعلنة ؟

هلا زاروا سفاراتهم ، وعاينوا مرحلة القفز العالي التي على المسافر أن يقطعها بين مدخل السفارة وغرفة التأشيرات ؟

* * *

من زمان ، حين كان الحلم الوحدوي ما يزال ناصعاً كقمر منتصف رمضان ، كنا ننتهز كل فرصة للرحيل داخل الأنس والألفة ، أي داخل الوطن العربي .

ثم انتهى شهر العسل مع الحلم ، وهاجمنا الواقع عاماً بعد آخر كالقوارض وصار الكثيرون يرتجفون لفكرة الاقتراب من مركز عربي للحدود ، لطول ما عانوا بين جدران بعضها ، وعلى أبوابها . وساحوا بعدها مثلي في الصين والهند والسند ، وجابوا القارات ، وتحاشوا الرحيل الى بعض الأقطار العربية خوفاً من تكرار ما كان . فنحن غرباء في الصين ، وهذا بدهي ولا يؤلمنا . ولكن ، لماذا نكون غرباء في أوطاننا ؟

ولماذا يستقبلني موظف الحدود في بانكوك أو هونغ كونغ أو سنغافورة أو مانيلا بكل احترام ،

ويحتجزني آخر في وطني العربي لمجرد أنني لست غريبة ، ويستجوبني بل ويكاد يستجوب طفلي وأنا حامل به (كما حدث لي ذات مرة) ؟

* * *

كأنما هناك خطة شريرة للتصدي ضد الوحدة ، والصمود في وجه أية محاولة يقوم بها الفرد للاقتراب من أخوانه العرب في مجالات التواصل اليومية العادية ، كالسياحة والعمل وتبادل الآراء والصحف والمجلات والمعارف والكتب والرحلات الجامعية والكشفية والرياضية والمعارض وسواها . كأنما لا اجماع الا على القطيعة . على أن نكون غرباء في أوطاننا .

غرباء فيما بيننا . غرباء عن أنفسنا . .

نحن العرب ، اشتاق بعضنا الى بعض .

وهذا قطر يمنع كتبنا ويقطع نسل حروفنا ، وآخر يقطع رأسنا معنوياً ، وثالث يقطع رزقنا . . ورابع (يقطع قلبنا) خوفاً . . أننا نختنق . نهوي الى قاع بئر مظلمة جافة الا من المخاوف والعزلة والاحباط والذل والغربات .

ونكاد نحسد (إي . تي) القادم من كوكب آخر ، لأنه وجد من يتعاطف وإياه في كوكب غريب ، ونحن قلما نحظى بذلك في وطننا الحبيب . .

* * *

لماذا يعاملون الضيف العربي (المهاجر أو الطالب أو السائح) في بعض أقطار وطنه العربي الكبير كما عاملت نيجيريا قافلة الغرباء الطارئة ؟ لماذا يلقى الجفاء والريبة والقسوة وافتراض سوء النية كما لو كان غريباً مثل (إي . تي) ؟ ألم يشاهدوا عربياً آخر من قبل الا في الأغاني والصور والشعارات ؟

في هذا الزمن الرديء ، غربتنا في أوطاننا أكبر من غربة (إي . تي) على كوكبنا . .

فمتى تعود « بلاد العرب أوطاني » ؟؟

١٩٨٣/٣/٢١

صباح الخير يا أسماك القرش

هل يراودك « الحس بالخطر » ؟

هل تحدس وجود الصيادين والجزارين في الغابة ، وهم ينصبون الفخاخ لك في ليل التاريخ ؟

وحين تتأمل طفلك نائمًا ، هل تشعر بالقلق على مستقبله ؟ هل تتساءل : من سيحكمه ؟ وهل سيذله عدو ؟

هل تحلم ببيتك ، وقد اجتاحته العاصفة ، وثيابك تتطاير في الريح مع أوراقك ، وحبات سبحتك ، وتبغك وقاتك ونوافذك وريش وسادتك ؟

هل تشرب قهوة الصباح منوماً ، أم تلحظ أسماك القرش التي تسبح داخل فنجانك ؟

* * *

هل في أعماقك صفارة انذار تنبهك الى المخاطر الوشيكة الوقوع ؟

الخيول العربية الأصيلة تعي الزلزال قبل حدوثه ، فتصهل وتنطلق راكضة لتواجه الخطر .

العناكب تسارع الى توسيع بيوتها لحظة تجمع السحب الداكنة ، لمواجهة المطر الآتي . . وحاسة ما ترشدها الى الخطر الداهم . النمل أيضاً يسارع الى إحاطة بيوته بتلال الرمال قبل سقوط المطر بقليل . هذا ما لاحظه القرويون .

العجول والأبقار ، تقفز وتجري فجأة في الحقول قبل هبوب العواصف الماطرة ، والمزارعون يسترشدون بسلوك مخلوقات الله حولهم ، ويعتمدونها كمؤشر دقيق على هبوب الرياح والأمطار ينافس آلات التنبؤ بالطقس .

الضفادع نفسها تهدأ نسبياً في الأمسيات السابقة ليوم عاصف ماطر ، كأنها تتأمل في سبل مواجهة امكانية الجوع والعجز عن الصيد ، بينما يعلو نقيقها في الأمسيات التي

تسبق يوم صحو ، كأنها تقدم مهرجاناً احتفالياً للطقس الجميل المتوقع .

كائنات الطبيعة تحارب المخاطر مسترشدة بوعيها السابق لوقوعها ، وهذا الوعي هو من أهم أسلحتها للبقاء والاستمرار .

فماذا عن وعي الانسان العربي ؟

* * *

هل يدل ايقاع الحياة العربية على الحس بالخطر ؟

هذه الجبهات العربية النازفة ، هل ندعمها بالاتحاد في وجه العدو الخارجي ، أم نتوج النزف بالتفكك الداخلي بين بعض ابناء الأمة الواحدة ؟

السلوك اليومي الشخصي لمعظم الناس ، هل يتضمن وعياً حقيقياً ضمنياً (بحالة طوارىء) يمر بها وطننا (كي لا نقول بحالة حرب) ؟ . .

نحن في لبنان ، لسنا بحاجة الى الحدس لنعي الخطر المحدق بنا .

يكفي أن نحاول التجول في أرجاء وطننا ، لتستوقفنا الحواجز المتعددة الجنسيات ، فالاسرائيلية .

نزهة صغيرة ، ونقرأ في دروبنا لافتات بالعبرية لم تكن موجودة قبل ستة أشهر .
لمن نصبت علامات الدرب العبرية هذه ؟ لعابر سبيل أم مقيم ؟

نحن هنا نلامس الخطر يومياً ونصافحه ، ونركع له ونتلقى صفعاته وترغيبه وترهيبه، ونأكل مصنوعاته ونشتري بضائعه ونرتجف أمام منشوراته، وننفذ أوامر مكبرات صوته ، ونرتدي ثيابه وكدنا منذ أيام نحضر عرضاً لأزيائه في فنادقنا . كأننا فصيلة جديدة مرشحة للانقراض أسوة بعدد من الفصائل الأخرى من مخلوقات الله المهددة بالزوال عن كوكبنا والتي تجد من يدافع عن بقائها ، بينما لا نجد بين أخوتنا العرب إلا قلة تساندنا بغير الدعم اللفظي والقصف الخطابي والحرب البلاغية . ثمانية أعوام جحيمية . . عشناها وكأننا في سبيلنا للانضمام الى « شعب الله المنهار » لا « شعب الله المختار » ، وقوامه حتى اليوم أكثر من مليوني شخص قتلوا في السنوات العشر الأخيرة في العالم ، بسبب معتقداتهم السياسية والأيديولوجية والدينية والفكرية ، كما أعلنت « الأمم المتحدة » .

وكما ترون ، فإن مخاوفنا هنا ليست بحاجة الى الحدس والتنجيم ، بل الى التحديق فيما حولنا ماضياً وحاضراً ، وربما قراءة بعض الاحصاءات والتقارير .

* * *

أحد تقارير « الأمم المتحدة » حول « القتل التعسفي» في العالم ، أورد هذه الاحصائية المقلقة عن مليوني قتيل كضحايا لحرية الرأي والمعتقد . وأثار ذلك ضجة مرتاعة ، موجة كبيرة من ردود الفعل في أروقة الأمم المتحدة بين الوفود التي تستعد لمناقشته . وأشرف على وضع هذا التقرير الخطير القانوني الكيني السيد أموس واكو ، وهو يدرج ضمن « القتل التعسفي » الاعدامات كلها التي تمت مباشرة أو مداورة بسبب حرية الفكر ، والتي تقف وراءها حكومات ومنظمات تستهدف تصفية اشكال المعارضة كلها ، وإبادتها بالوسائل المختلفة .

وقد سقط على أرضنا في لبنان ـ في الأعوام الثمانية الأخيرة ـ آلاف الضحايا الذين ينطبق عليهم وصف « القتل التعسفي » ، وكانت تقف خلف التنفيذ أجهزة وحكومات ومنظمات ومؤسسات ومكائد وحكايا وأسرار ولصوص وثوار . .

وما زلنا نخاف المزيد (من ذلك) ونخشى أن يكون (المخبّى أعظم) .

* * *

نفتقر إلى أشياء كثيرة في لبنان ، الحس بالخطر ليس من بينها !

نحن الذين نعيش في مناطق (ساخنة) حالياً أو سابقاً ، وعلى خطوط تماس قديمة أو مرشحة للالتهاب . . . فوق جراح بركانية متفجرة او شبه مندملة وقابلة لـ (التجديد) .

والى جانب الحس بالخطر ، لدينا شعور بالدهشة من سلوك بعض اخوتنا العرب ، الذين لا يلحظون ان النار الملتهبة واحدة ، والنار التي تأكل بيتي اليوم هي النار نفسها التي ستمتد الى بيتك غداً ، والسكين التي تجز عنقي الآن ، قد تكون نفسها المرشحة للالتصاق بعنقك بعد أشهر . الرجل الذي قتل جاري منذ أعوام يخطط الآن لقتلك شخصياً وجارك معاً .

ثمة نقلة نوعية مطلوبة في الرؤيا العربية ،

هي الانتقال من التوهم بأنهم يشهدون فيلمًا سينمائياً (على) شاشة جدرانهم ، الى الوعي بأن ما يدور داخل ذلك الفيلم المرعب ، يقع (بين) جدرانهم لا (فوقها) .

ما يرونه ليس مجرد صور تتلاحق على الدهان الأبيض للجدار ، بل مخاطر حقيقية صارت تشاركهم الدار .

* * *

ولعل يقيننا هذا ، جعلنا لا نخلو من الفظاظة في مواجهة (لطافات) العالم

المتحضر ، وتظاهرات (الرقة) المنتشرة في أسواق (الرفاهية) المتحضرة !

إننا مثلاً لا نشعر بالتعاطف مع (إنسانية) بعض رموز التخدير ، أثناء ممارستهم لـ (كفاحهم) من أجل رفاه الحيوان !

بريجيت باردو مثلاً ، (المناضلة) في حقل رفع كلمة المواء ، عالياً ، والتعامل المهذب مع الكلاب والدواجن ، والفصائل المهددة بالانقراض من مخلوقات الله ـ سوانا ـ لا تحرك اعجابنا ، ولا تستدر دموعنا .

تكريسها لحياتها الغالية المعطرة الملفوفة بالحرير والمخمل والموسلين ، من أجل إسعاد القطط المهدورة الحقوق ، والكلاب المضطهدة الممنوعة من العواء ، وحيوانات الفقمة المسلوخة الفراء ، لا تثير في نفوسنا مشاعر التقدير المفترضة . ربما لأننا نتذكر الفقراء المسلوخي الجلد حولنا ، وعشرات الأيتام المقصوفين في ملاجئنا ولا أحد يبالي بعوائهم وجعاً ، وآلاف الأطفال المنتحبين كالمواء الخافت ، الذين لم يجدوا من يضمد جراحهم بالقطن والشاش والسبيرتو ناهيك عن الحرير والبارفـان والشعر الأشقر .

أما بطولة (المناضلة) باردو ، حين دخلت محكمة الجنح الفرنسية دفاعاً عن مصرع المغدورة القطة ميسي ، واغتيالها عن سابق تصميم وتصور على يدي بائعة الأزهار (السفاحة) مدام أوديت جيرو ، فلا تثير في أعماقنا المكوية بالآلام والمصفحة بالمآسي الكبيرة ، غير ابتسامة صفراء ذاوية .

لم يعد بوسعنا التصفيق لتحويل موت قط الى قضية ، والقفز من فوق قضية موت شعب . . ولن نتقن بعد الآن الاحتفال المهذب بقضية موت كلب ، نحن الذين شهدنا موت القضايا الكبيرة ، وعايشنا مصرع مئات الرجال النبلاء والسفهاء في دهاليز الاغتيال والتعذيب وتقاسم المغانم، على يدي القريب والغريب، والمعلوم والمجهول، والفارس والقرصان ، والصديق والعدو ، حتى اختلطت في رأسنا دوامة الميتات والأسباب والنتائج وبقي الحس بالقهر العام .

* * *

ربما نشأت لدينا « حساسية مضادة » نحو الناس (الرقيقين) الذين يكرسون حياتهم للدفاع عن أطفال الذئاب والقطط والحراذين والسحالي بدلاً من أطفال البشر . . وأطفال شعبنا .

وصارت مشاعرنا المتألمة وأعصابنا المهترئة تضيق بتكبير الصغائر وتصغير الكبائر ، ولا تـطيق مسرحيـات (الرهـافات) السطحية .

قلوبنا (الفظة) ، لم ترتجف خشوعاً ـ مثلاً ـ أمام التظاهرة التي خرجت في عاصمة أوروبية دفاعاً عن حياة حمامها ، ومشاعرنا (المتلبدة) لم تعد تستطيع أن تفهم ، كيف تخرج للدفاع عن موت حمامة ، ولا نسمع منك كلمة عن حمامة السلام التي تذبح في بلدنا كل يوم . . وكيف تبكي لموت قطة ، ولا يرف لك جفن أمام موت آلاف المضطهدين من شعوب الأرض في غير قطر .

ولما كان الأقربون أولى بالمعروف ، فإن عتبنا على العرب أكبر من عتبنا على العجم ، ولومنا للشباب العربي الطالع أكبر من لومنا للممثلات الغربيات المتقاعدات .

* * *

مليونا إنسان قتلوا في أرجاء الأرض ـ حتى الآن ـ بسبب معتقداتهم ، وقناعاتهم الفكرية .

فهل يضاف اليهم قريباً عدد كبير من اللبنانيين غير القانعين بالزواج الارغامي بين وطنهم و« بيغن »؟ العريس « بيغن » يصر على عقد القران ، والمجتمع الدولي يمارس ضغوطه ، والمجتمع العربي لا يفعل شيئاً لنجدتنا غير الصراخ « إياك إياك أن تبتل بالماء »، وهو الذي ألقى بلبنان في اليم مكتوفاً ، بمعنى أو بآخر .

بعض العرب ما زال يقف من مأساتنا موقف المتفرج او العاتب او الشامت او اللامبالي او الناصح ، دون ان يمد يداً لمساعدتنا ، ودون ان يخطر له ببال أن حاضرنا هو مستقبله ، وعذابنا اليوم هو حزنه الآتي . .

فهل يشهد العالم مجزرة جماعية جديدة ، بينما (الانتليجنسيا) و(الرهافات) الفنية العالمية مشغولة بالدفاع عن الحيوانات العربية المهددة بالانقراض ـ باستثناء الانسان العربي ـ كالاهتمام بمصير الظبي الأبيض، وحيد القرن الصحراوي (المارية)، الذي انقذه الصندوق العالمي للمحافظة على الحياة البرية هذة الصيف بدلاً منا ؟ ومن يساهم في انقاذ الانسان العربي ؟

يقال ان (المارية) العربية تستطيع اكتشاف سقوط المطر على مسافات بعيدة .

والعربي اليوم يكاد لا يـلحظ العواصف التي تلطم وجهه ، والصواعق التي تحرق بيته ،

فهل هذا هو سبب الاهتمام بإنقاذ (المارية) وتفضيلها على الانسان العربي ؟

* * *

العناكب والضفادع والمارية والعجول والأحصنة والنمل وغيرها ، تستعد لمواجهة

العاصفة وتحدس قرب حلولها . وبعض العرب ما زال مصراً على مواجهة العاصفة بتجاهلها ، محاولاً اقناع نفسه (والناس) بأنه مواطن عالمي في مجتمع الـ (جيت سيت) ، وأحد « البورجوازيين الكونيين » ، المشغولين بالهموم الدانتيلية الناعمة مثل قضية قط مضطهد أو كلب (معضوض) أو (إي . تي) شارد ، او غزال منقرض . . هارباً من مواجهة الآلاف المذبوحين من بني قومه هنا وهناك .

وبعض الذين لا يتجاهلون العاصفة ، ينحازون صوب منطق تحويل الهزائم على الأرض الى انتصارات في الوهم . يدمرون البوصلة ، ويجرون للواقع البشع عمليات تجميل ، كمن يزين الجثث المعدة للعرض أمام الجماهير .

فمتى نخرج من دور الضحية المسكونة بحس موهوم بالعظمة ، الى دور المدافع حقاً عن وجود مسالم ولكن بكرامة ؟

أم أننا سنتحول الى « شعب الله المنهار » على يدي « شعب الله المختار »؟

وهل تذهب « أرض الأجداد » ضحية « أرض الميعاد » ؟

١٩٨٣/٣/٢٨

الساحر . . . لماذا ؟

فراق الذين نحبهم موت صغير ، وكذلك فراق الكاتب مع ابطال قصة ما ، سكنوا وسادته واصابعه وجوارحه واحلامه وكوابيسه عاماً ونيفاً في حياة مشتركة حميمة. وها انا اودع ابطال روايتي «ليلة المليار» كمن يزف اولاده الى كوكب آخر . ولن يعرف عنهم شيئاً . . واتركهم يتابعون حياتهم وموتهم معكم وبكم .

* * *

وقبل أن أغادر عشقي وكراهيتي وجنوني بهم الى الأبد ، لا بد لي من كلمة صغيرة حول « الساحر وطفان » الذي تلتقون جرحه في «ليلة المليار » . . اخشى عليه من سوء الفهم المسبق ، شبه المشروع في زمننا هذا المشحون بالحساسيات .

ثمة سؤال يطرح نفسه : لماذا الساحر ؟

الجواب ببساطة : لأنه حقيقة واقعية في حياتنا السرية العربية . وانا ارسم (الواقعي) طمعاً في التقدم صوب (المثالي) . لكنني ارفض تزوير الواقع او تجميله او (غض النظر) عنه ، ولا ارى ان درب التطور الصحي ، تمر في مقبرة تجاهل حقائق الحياة السرية العربية ، الزاخرة بالمحرمات و (التابو) ، وبالممارسات المختلفة لها ، وعلى رأسها حكاية « السحر » . وانا مصرة على تعرية حياتنا العربية تحت ضوء الشمس قبل أن تتعفن جراحنا ، لنناقش كبواتها دونما (عقد) . .

* * *

ثمة ايمان بالغيبيات المتوارثة في عالمنا العربي . . . وهي بحاجة الى غربلة ، ونبذ ما يهدر الطاقات ، والتمسك بجوهر ما قد يساهم في اغناء حياتنا وتطويرها نحو الافضل . . وهذه « الغيبيات » محاطة بسور من الهمس ، بحيث نكاد لا نميز صالحها من طالحها . . وهذا بالذات ما دفعني الى ارتكاب الكتابة عن الساحر ، ومعاقرة الكلمات الطقوسية التي تزخر بها المكتبة الشعبية السحرية العربية .

* * *

لا اذيع سراً اذا قلت ان بعض رجال السياسة العرب الذين يتحكمون بمصيرنا ، طالما استشاروا عرافات شهيرات او فلكيين . ناهيك عن النساء اللاجئات الى حمى (البصارة) و (قارئة الفنجان) او (ضارب المندل) لجلب المحبوب او تنكيد حياة الغريمة او انجاب الصبي او التفتيش عن الذهب الضائع وفك المربوط وربط المفكوك الى آخره ، مروراً بكشف الطالع عبر الحسابات العربية الفلكية القديمة والابراج المدونة في كتبنا الشعبية العتيقة المتوارثة . .

ما دام ذلك يحدث كل يوم ، لماذا ممارسته سراً مقبولة ، ومناقشته علناً غير مستحبة ؟ هل يتهدد ذلك مصالح المعتاشين من احزان الشعب العربي ، الحريصين على استمرار تخديره ؟ يمارسون (الحرام) ، واذا تحدثنا عن تلك الممارسة ، يشهرون علينا سيف (التحريم) ؟

* * *

صدامي الأول الواعي مع عالم السحر يعود الفضل فيه الى عملي الصحافي . يومئذ ذهبت لكتابة تحقيق عن « السحر في بيروت » ، ورافقتني الى مجاهل ذلك العالم بعض الصديقات . . وفوجئنا بمدى انتشار تلك الممارسة ، وكيف تحرص الأمية على قراءة بختها والمتعلمة ايضاً ، واذهلنا اختلاط (البصار) المزيف بقارىء الافكار الاصيل . . وكما كان تحقيقي عن « الصيادين » وخروجي معهم الى البحر ، البذرة الأولى لروايتي «بيروت ٧٥ » ، كذلك كان لخروجي الى بحر السحر البيروتي فالعربي ، البذرة الأولى لروايتي «ليلة المليار » وشخصية الشيخ وطفان . . . .

احسست يومها انني اواجه ظاهرة من ظواهر الايمان الخطر بالغيبيات ، واقول (الخطر) لأننا لا نحارب عدواً من الجان ، بل عدواً واضحاً محدد المعالم . . ولا تتهددنا قوى شر خفية ، بل قوى واضحة مباشرة من الحديد والنار . وكل سقوط في فخ الغيبيات هو استسلام للتخدير المرفوض . . فالسحر افيون من مجموعة الافيونات السرية والعلنية في حياتنا العربية الزاخرة بالغيبيات .

* * *

ولكن السقوط في فخ التبسيط المبالغ به مرفوض ايضاً . . وثمة ظواهر طبيعية خارقة لا تدخل في باب التخدير والدجل ، بل تنتمي الى العلم الحديث الذي يكتشف المزيد كل يوم عن اسرار النفس البشرية المذهلة ، وحواسها النائمة او التي نجهل استعمالها كالحاسة السادسة والسابعة والثامنة ، تلك التي قد تبدو من الخارج مجرد

خوارق ، لكن الابحاث العلمية المعاصرة في المختبرات المتطورة تحاول فهمها ضمن قوانين الحقيقة الموضوعية ، ودراسات «باراسايكولوجية » نجد المئات منها اليوم في كتب جادة رصينة ، تتحدث عن اسرار الدماغ البشري ، وطاقاته الخارقة «اللامكتشفة » التي انعم الله بها على الانسان . . .

وهكذا يصبح من العدالة عدم اضاعة الخيط الفاصل بين العلم والتزوير ، بين المعرفة والتخدير ، بين الخارق والمصطنع ، وبين الحقيقي والدجال . . . .

اين يقع « الشيخ وطفان » من ذلك كله ؟ هذا ما اترك لكم اكتشافه . . .

وريثما تفعلون ، هل تسمحون لي (بدلق) الماء المغلي على العتبة ، دون مخافة ظهور الجان ؟

واذا ظهر الجني ، هل نخسر شيئاً من محاولة استجوابه دونما ذعر ؟

١٩٨٤/٩/٢٤

تحرير المرأة . . . من عقلها !

في العشرين من عمرها ، كتبت الى الاطباء تشكو (مأساتها) . . ومأساة هذه الصبية العربية ، ليست في احتلال الاسرائيليين لأرضها كما حدث في فلسطين ، ولا في اقتحامهم لقريتها كما حدث لصبايا جنوب لبنان ، ولا في مصرع شقيقها على ايدي زبانية الارهاب في قطر ما ، ولا في استحالة متابعتها التحصيل العلمي لضائقة مالية تعاني منها ملايين الأسر العربية . . لا . . مأساتها اكبر من ذلك بكثير . . مأساتها كبيرة بحجم ردفيها ، فهي محرومة من الاستحمام في حمامات السباحة لأنها تخجل من امتلائهما . . وقد كتبت الى الطبيب الذي يرد على بريد القراء في احدى الصحف العربية شارحة (مأساتها) ، وقرأ الحكاية عشرات الآلاف وذرفوا الدمع حزناً على ذلك (الزلزال) في حياة فتاة «لها ردف اذا قامت اقعدها» . . .

* * *

الطبيب تعامل واياها بسلوكية مهنية عصرية ، قال لها ان الجراحة تعالج حالتها بآلة (تشفط) الدهن الزائد ، وارشدها الى ما بشر به المؤتمر الدولي الأخير في باريس حول تلك الطرق المتطورة ، كما ارشد «معذبتين» في الأرض العربية ، تشكو الأولى من ضخامة الثدي ، والثانية من صغره ، وتريدان اصلاح الأمر بالجراحة ! . .

الطبيب لا يلام . عالج الأمر من الزاوية المهنية بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى ، فهل تسمحون لنا بالحديث عن (الاعتبارات الأخرى) ؟ . . كأن نتساءل : اما تزال المرأة العربية تتوهم ان مستقبلها معلق على اردافها ، وأن (جغرافية) جسمها هي التي ستقرر (تاريخ) حياتها ؟

* * *

. . . وما جدوى استيراد التكنولوجيا (المتطورة) لتصحيح (ارداف) حياتنا الاجتماعية (المتخلفة) في وجوه كثيرة ، ابرزها علاقتنا مع الاكل ؟ . . .

ما جدوى استئصال مظهر الداء ، والحفاظ على أسبابه ؟

بعبارة اخرى ، ما جدوى الجراحة ما دام نمط حياتنا (الالتهامي) الشره مستمراً ، وسينبت للأخت المعذبة ردفان بعد عام من اجراء العملية ؟ . . فهل سنجري لنساء الوطن العربي ورجاله عمليات دورية ، ام سنفكر قليلاً بأسباب هذه الحالة التي تؤدي بوجه عام الى السمنة ؟

* * *

اترك للاطباء تحديد اسباب السمنة المعروفة . غدد . حريرات . شراهة . ادوية تسبب السمنة الى آخره . . . . والفت الى عادات اجتماعية وتقاليد تساهم في تنمية الارداف العربية ، ويستحسن استئصال هذه العادات من جذورها والتخلص من نفقاتها الباهظة ، بدلاً من اضافة نفقات جديدة لاصلاح آثار الهدر بهدر جديد . . . فالمال العربي الوافر قلما ينفق فيما ينفع الناس . . . واسلوبنا في هدره من أجل متع البطن لا يفوقه رداءة غير هدر المزيد من اجل ازالة آثار عدوان الشراهة . . .

* * *

لدينا عادة اجتماعية مكرسة : تكريم المرء بإطعامه . وحين تسافر الى اي بلد ، وتقول لصديقك « صباح الخير » ، يسألك «متى نأكل معاً » ؟ . . . اننا نقيس حبنا للناس بكمية العلف الذي نقدمه لهم ، ونقيس حبهم لنا بمقدار شراهتهم يوم الدعوة ، ونقول (الأكل على قدر المحبة) ! . . .

معظم اعيادنا تنصب تقاليده على صنع انواع معينة من المعجنات تتعب ميزانية الفقير والدولة معاً . . فهل نجرؤ على طرح (تقاليدنا الأكلية) على بساط النقاش الهادىء دون اعتبار ذلك مساً بالتقاليد العربية المرتبطة بأعياد دينية او متوارثات تراثية ؟ . . .

* * *

حقيقة اخرى لا مفر من مواجهتها : يكاد الاكل يكون اللذة العربية الوحيدة غير المحرمة ، والتي تمارس فردياً وجماعياً سراً وعلناً . . . فبلادنا بوجه عام محرومة من متع العقل والحرية والروح . . . متاحفنا الفنية محدودة ، ومعظم آثارنا تمت سرقته ايام الاستعمار ، والموسيقى الحقيقية تلعب دوراً محدوداً في حياتنا ، وكذلك المسرح الراقي والمكتبات غير المحاصرة وغيرها . . . في أعماقنا بركان من الرغبات والمشاعر الجياشة قلما تجد لنفسها مصرفاً صحياً ، لأن القمع بوجه عام هو القاعدة . . . القمع في الحب وفي التفكير وفي التنفس الروحي . . . والمطبخ هو الحرية الوحيدة واللامحدودة في

حياتنا . . . وحده رايته مرفوعة ، كغاية ، لا كوسيلة للتزود بالوقود . . .

وها نحن امام جيل من الفتيات يقلد اباطرة روما الذين كانوا لا يشبعون من لذة الأكل ، (فيلفظون) ما أكلوه بوسيلة اصطناعية ليعاودوا الالتهام من جديد . . . و (شفاطة) التكنولوجيا المعاصرة حلت اليوم محل الاساليب القديمة . . . وما يكاد يتم استئصال ردف حتى يحل آخر محله . . .

من يفتح عيني مريضات الوهم على مآسينا العربية الحقيقية وهمومنا الشاسعة على طول جرح من المحيط الى الخليج الى الذاكرة القومية المذبوحة من الوريد الى الوريد . . ؟ . .

* * *

أما آن لاختي العربية ان تفكر بتنمية جناحيها بدلاً من استئصال ردفيها ؟ . . . ومن قال بأن تحرير المرأة العربية يعني تحريرها . . . من عقلها ؟ . . .

١٣/ ١٠/ ٨٤

فلسطين !

لا تخافوا من العنوان .

لن اضجركم .

اعرف انكم سئمتم الكتابات الشاعرية الانشائية المجانية حول فلسطين ، والحفلات (النواحية) والمآتم السياسية . . . اعرف ان الكلمات العاطفية الجياشة كلها التي يمكن ان تقال قد قيلت ، بشكل مبدع او رديء ، لكنها قيلت . . .

اعرف ان (موضة) الكتابة عن فلسطين التي ازدهرت في الستينات قد ذوت . . .

واعرف ان فلسطين لم تعد وحدها الهاجس ، بعدما توسعت الأراضي العربية التي ابتلعتها اسرائيل - او تسعى لابتلاعها - ، وتكاثرت الجبهات على أمتنا . . .

* * *

فلسطين . . .

اكتب عنها لا لأوقظ حباً منسياً ، او شبه مخدر . . . فقلة الكلام الشاعري عن فلسطين مؤخراً هي ظاهرة صحية في نظري ، وقد تكون مؤشراً الى الانتقال من مرحلة ، « التفريغ اللغوي » للقهر ، الى « مرحلة الفعل » . . .

لا تخافوا . . .

لن تجدوا انفسكم امام مقطوعة وجدانية من نمط فلسطين في القلب شظية حب . . الى آخره . . (وان كانت هذه حقيقة موجعة !) . .

اكتب لأطرح سؤالاً مباشراً عملياً يكاد يكون اقتصادياً ، وقد يتضمن كل شيء الا العواطف . . .

* * *

اريد ان اسأل : هل لأحد من العرب عامة واللبنانيين خاصة مصلحة في مساعدة

اسرائيل على الخروج من ورطتها الاقتصادية الراهنة ؟

ليس سراً ان اسرائيل تعاني الآن «من اعلى معدل تضخم في العالم » وانه يبلغ « ٨٠٠ بالمائة حسب تقديرات خبراء الاقتصاد الصهاينة انفسهم » كما تقول الصفحات الاقتصادية في الصحف الاجنبية والعربية ، بلغة اكثر بساطة :

اسرائيل مفلسة .

فهل لعربي مصلحة في المساهمة بتمويلها ؟

* * *

لن انقل اليكم رأي محمود درويش في اسرائيل مثلاً ، لكنني سأنقل اليكم رأي لبناني سياسي هو الرئيس كميل شمعون الذي اعلن ان « الاحتلال الاسرائيلي لا يطاق » . لن أحدثكم عن فلسطين التي لا يزال قلبي يرتجف قهراً حينما أرى رمانها في اسواق اوروبا ، وعليه ماركة « كرمل » ـ مصنوعات اسرائيل . . . ولن احدثكم عن حقيقة موضوعية مخزية وهي ان مليون فلسطيني عربي ما زالوا مشردين يضربون في الأرض ، وهو أمر يجب الا نألفه مهما مر الزمن ، ولن احدثكم عما يقاسيه اهل جنوب لبنان في ظل الاحتلال الاسرائيلي (عملياً) لثلث هذا الوطن الغالي . . ولا عن خطط اسرائيل المعلنة ، على جدار الكنيست (لوطنها القومي) ، من النيل الى الفرات ـ حتى اشعار آخر ـ ، ولا عن شهية نظامها لابتلاع كل ما يمكن افتراسه من ارض عربية ، وتدمير كل ما يهدد هذه العدوانية (كتدميرها للمفاعل الذري العراقي) . . . لن أحدثكم عن هذا . . .

فذلك كله خارج الموضوع !! . . . . كل ما اود ان اقوله هو التساؤ ل (بدون براءة الاطفال في عيني) : لماذا نسهم في تمويل اسرائيل بصورة غير مباشرة ؟ . . .

* * *

لماذا نثابر على الشراء من مخازن اكتشفنا ان صاحبها يموِّل اسرائيل ؟ اننا لن نسقط في فخ العنصرية ونقاطع (اليهود) ، ولكن ماذا عن اليهود العنصريين الذين يمولون الصهيونية ؟ لماذا تصب ثرواتنا في اقتصادهم عبر قناة (الشوبينغ) اللعينة ؟

ولماذا نثابر على التردد عليها ـ تلك المخازن ـ حتى بعد ان تذلنا ، وتتهم بعض نسائنا بالسرقة منها ؟ ولماذا نتنصل من (السرقة) بكل خجل ، ولا نجد طبيباً نفسانياً او مثقفاً ـ من المختصين بالدفاع عن عقدة الذنب الأوروبية نحو اليهود ـ يصرخ في وجه الدنيا : لنفترض جدلاً ان هذه السيدة سرقت حقاً من المخزن الصهيوني اياه . . . انها

بريئة ، فهي تسرق من السارق . واللاوعي عندها يرد الضربة بطرق بدائية . اسألوا فرويد . لقد سرقت اسرائيل ارضنا وزمننا واعيادنا واشجارنا وافراحنا ، وقد يمارس أحدنا سلوكاً رمزياً في احد اوكارها . . .

ولماذا لا نختار الحل المباشر الشريف : نقاطع هذه القنوات التي تمول اسرائيل ؟

* * *

في جنيف فندق فاخر صاحبه يهودي يباهي على صفحات الصحف بتمويله لاسرائيل ومساعداته لها . . . لكن نصف غرفه يحتلها عرب حتى اليوم رغم كل ما كتبناه حول ذلك الفندق الفاخر . . . والمزادات العلنية لبيع السجاد التي تقام في ردهاته ـ ويتقاضى عمولة عليها وعلى تأجير القاعة طبعاً ـ معظم زبائنها من العرب . الكافيتيريا في الفندق هي المكان المفضل للقاء اللبنانيين . . . لماذا ؟ . . .

لماذا نساعد اميركا في دفع فواتير الاسلحة الاسرائيلية المعدة اصلاً لقتلنا ؟ . . . الا يفكر الثري العربي وهو يدفع فاتورة الفندق انه منح اسرائيل ثمن القنبلة التي ستقتل ذات يوم اولاده وتهدم بيته ؟ اللبناني الذي ينفق مئات الآلاف في (لوبي) الفندق وموائد قماره ، لماذا يسهم في نفقات احتلال جنوب لبنان « الذي لا يطاق » كما وصفه الرئيس شمعون ؟ لماذا هذه اللامبالاة القومية والاسترخاء الوطني ؟

* * *

الحكاية ليست حكاية (رمانة) بل قلوب (مليانة) اي قلوب ممتلئة كما يقول المثل الشعبي اللبناني .

انها ليست حكاية رمان (كرمل) وبرتقال (يافا) وافوكادو (ازرابيل) واوتيل (نوجا) ، والكراس السياحي المغري لزيارة اسرائيل ، والعلم الاسرائيلي المرفوع بين ثمانية اعلام دولية مقابل كنيسة نوتردام على شاطىء نهر السين . . والاعلان في ملحق « الفيغارو » العدد ١٢٤٧٧ على طول صفحة كاملة ملونة عن زيارة اسرائيل « ارض المشاعر » والبحرين الاحمر والمتوسط . . ولا سلسلة « وول واج » و « كومرلي اند فراي » و «بارثولوميو » للخرائط السياحية التي لا تخلو واحدة منها من خرائط ارض فلسطين للسياحة في « اسرائيل » ، والتي يتعثر بها كل عاشق مكتبات مثلي صباحاً ومساء . . انها ليست حكاية احتلال سياحي ، تحتل فيه اسرائيل مكانة لبنان السياحية . .

بل هي حكاية ارض وبشر واذلال يومي للمقيم والمسافر معاً . . .

* * *

اجل انها ليست حكاية (رمانة) ، بل حكاية السلوك العربي (في الخارج على الأقل) ، الذي لا يخلو من الاسترخاء في مواجهة رموز الاغتصاب الاسرائيلي . .

فكيف لا يبقى الجرح حياً نابضاً ؟ . وكيف يتحول الى ندبة منسية واسرائيل لا تزال تدير خنجرها في جرحنا وتمعن في اذلالنا في جنوب لبنان وغير جنوبه ؟؟ .

١٨/ ١٠/ ٨٤

شماتة !

فتاة كانت تستقل القطار في فرنسا . هاجمها ركاب مقصورتها الشبان واغتصبوها واحداً بعد الآخـر . تم ذلك على مرأى ومسمع بقية الركاب ، لكن احداً لم يتدخل في غير (شأنه) . بعضهم انصرف الى متابعة قراءة صحيفته ، وبعضهم الآخر تابع حديث الطقس وجاره ، وربما اختلس نظرات فاترة صوب الفتاة التي كانت تصرخ وتستغيث بصوت مقلق للراحة والبروتوكول .

* * *

في مباراة لكرة القدم بين فريقي ليفربول البريطاني ويوفنتوس الايطالي ، سقط ٤١ هدفاً من الاحياء قتلى ، و (شاط) العنف ٤٥٧ جريحاً . وتم تأجيل المباراة ريثما يتزود الفريقان والمتفرجون بالاسلحة المعاصرة التي تليق بشجار غير بدائي حرصاً على سمعة الدول المعنية .

* * *

الغرب يزودنا كل يوم بأمثلة لامتناهية عن الاجواء الروحية المضطربة التي يعيشها ، والتي تنعكس في الملاعب عنفاً وفي القطارات جنساً وفي فضائح الرقيق الابيض لصبيان صغار يتم اختطافهم وتجنيدهم الارغـامي في سوق الانحـراف والمخدرات ، وفي مآسي الشبان وخيباتهم داخل عالم الطوائف (الدينية) الملفقة . يلجأون اليها جوعاً الى قيم روحانية مزقتها حضارة الآلة ولم تلغ توق الناس اليها حتى احصوا في فرنسا وحدها ٩١٦ طائفة تزعم انها اديان جديدة . وتشرف عليها مافيا استنزاف « شهية اليقين » لدى الشاب الغربي ، وتوظيفها في دهاليز الجنس والمال والارهاب المعلبة داخل كبسولات وهم صوفية روحانية غامضة .

* * *

والصحف الغربية لا تضن علينا يومياً بهذه النماذج من الأخبار . ونحن نتلقفها

بما يشبه الغبطة الخفية ، ونسوقها بكل فخر الى الشبيبة العربية ، كأننا نقول لهم : انظروا الى مخازي الحرية الغربية ! . . . . تعالوا (نشمت) بهم ونشتم الحضارة الغربية ، والسلام . موقف لا غبار عليه ، لكنه يؤثر اختيار السهولة ، والمبالغة في تبسيط الرؤيا طلباً للسلامة .

* * *

الفتاة التي اغتصبت في قطار اللامبالاة الاوروبي ، ثار لها القاضي وعاقب نموذج « المتفرج » في حكم قاس ، يعتبر موقفاً رافضاً هذا الامعان في (الفردية) أمام موت الآخر . والشغب البريطاني في الملاعب عوقب بالحرمان والطرد . . . ولكن ذلك كله خارج الموضوع . . .

اقتطاع (خزعات) من مخازي الحياة الغربية ووضعها تحت مجهر الشماتة هو جوهر الموضوع .

اننا نمارس ذلك جميعاً ، صحافة ومجتمعات واحاديث مقهى ، لنصل الى مقولة واحدة خاطئة هي : انظروا الى مساوىء الحرية ، واقنعوا بما انتم فيه .

* * *

نعم ، نحن نعرف مساوىء الحرية في الغرب لكننا لا نعرف بدقة مساوىء كبتها في اقطار اخرى ، لأن احداً ليس حراً هناك في نشر (الغسيل القذر) لمجتمعات السرية الارغامية ، كما اننا لا نملك احصاءات دقيقة عن الاغتصاب في بلادنا العربية ايضاً ، لأن الافراد يمارسون على انفسهم (القمع الذاتي) تحت تأثير سطوة المجتمع والخوف من مفاهيمه الهزلية عن العار احياناً ، بحيث يلحق ذلك العار غالباً بالضحية قبل مغتصبها .

* * *

إننا نطرب للحديث عن مرض (الايدز) الذي يسببه التهتك الجنسي لكننا نتوقف عند مرحلة الشماتة بأولئك الاباحيين ، ولا نتوقف قليلاً عند (الكبت) العام الذي يعاني منه الانسان العربي في غير مجال وقطر . هنالك الكبت الجنسي الذي يزيد في استفحاله امراضنا الاجتماعية ، كعدم تزويج الشاب اذا لم يكن ثرياً ولديه (فيلا) وسيارة وخادمة ومكنسة كهربائية ومجوهرات لائقة . وبدلاً من الاعتراف بأمراض الكبت لدينا نروح نمجد ذلك الكبت في معرض التخويف من الاباحية . كأن ليس في الحياة إلا (التفلت) او (القمع) . وبدلاً من ان تجعلنا اباحية الآخرين نتذكر المرادف

التدميري له عندنا ، (الكبت) ، لنعالجه بوضوح وصراحة تحت الشمس ، نكتفي بموقف (الشامت الجنسي) دون ان نتطرق الى بقية زوايا حياتنا التي يفترسها جوعنا الى حريات اخرى كثيرة نعاني منها في ظل (الكبت الاقتصادي) و (الكبت الفكري) وغيرهما من امراضنا المحلية .

* * *

في تراثنا العربي الكثير من القيم التي نستطيع ان نمنحها للغرب الجائع الى يقين ، الغرب سيد التكنولوجيا ، وشحاذ الايمان . . ولكن فاقد الشيء لا يعطيه ، وقبل ان نمنح انفسنا جوهر تراثنا لا القشور لا خلاص لنا وربما لا لسوانا .

فاعلان الغرب عن امراضه ببساطة ، دليل عافية ديمقراطية نفتقر اليها ، هذا اولاً ، فيما نتستر نحن على امراضنا ويخترع لها بعض كتابنا الفتاوي حرصاً على ارضاء المعتاشين من ضعف الشخصية العربية ، فهم يعون انها اذا ثارت ، فسيكون ذلك ضدهم كخطوة اولى .

* * *

معظم ممارساتنا الحالية بعيد عن جوهر تراثنا العربي الحقيقي الذي شهد لنا العالم به (ما عرف العالم فاتحاً ارحم من العرب) . . . فأين الرحمة في سلوكنا القتالي فيما بيننا ، اسلاماً وعرباً ؟ . . . وأين أخلاقية المقاتل العربي القديم الذي لا ينتهك اعراض الغرباء قبل الانسباء ؟ واين حقن الدماء بين الاسلام في حرب تزيد في ازدهار تجار السلاح ؟ . . . وكيف نلعب دورنا في العالم ونحن نلعب بقدرنا بعبث الاطفال حتى اننا لم نعد نستحق تراثنا ، ولو عاد اجدادنا العرب الاوائل وشاهدوا ما نحن فيه لتبرأوا من هذه السلالة الملعونة . . .

* * *

إننا بحاجة الى لحظة صدق ، نغادر فيها موقف الشامت ببعض امراض امم تنعم بالديمقراطية والحرية ، وتقاسي من امراضها في آن معاً ، الى موقف من ينقد ذاته ويواجه جوهر امراضه وعلله ، ويكف عن التغزل بأخطائه في ظل مناخ من القمع الفكري العام يحرمنا من كل شيء الا من حرية تمجيد عيوبنا بالاسلوب الذي نشاء ، بالاضافة طبعاً الى التركيز على مآسي المجتمعات الأخرى . وكما يقول المثل الشامي القديم (الجمل لو شاف حردبته ، لوقع وانكسرت رقبته) . . . ولماذا لا نقول ببساطة : (ناس) الغرب

ليسوا افضل من (ناسنا) ، لكن ظروفهم افضل ، وظروفنا تدمر طاقاتنا بدلاً من تنميتها ؟

* * *

متى نقوم بتلك النقلة النوعية في رؤيتنا للعالم الخارجي : الانتقال من دور الشامت الى دور الناقد الذاتي ؟ ومن دور المتفرج الى دور الفاعل في حياته وحياة سواه ؟ متى نعي ان لا نمو لماضينا المجيد إلا في ظل حاضر تكلله شمس الديمقراطية الواعية والحرية المنبثقة من جوهر تراثنا الحقيقي ؟

لدينا الكثير نمنحه للغرب القوي والضال ، ولكن متى نمنحه لأنفسنا اولاً ؟

٣/٦/٨٥

قراءة بعيون مفخخة

ثمة اخبار تبدو وكأنها لا تخصنا . . نطالعها بكثير من اللامبالاة وقد نستمتع بطرافتها ، كهذا الخبر مثلاً عن امرأة امريكية رفضت مغادرة السجن حين اطلق سراحها ، فقد ألفته حتى صار كبيتها ! فقد ارتكبت آنا زينان جريمة قتل ، وحكمت بالسجن المؤبد . سبعة وخمسون عاماً انقضت والمرأة سجينة ، حتى قرروا اطلاقها لأسباب إنسانية لكنها رفضت وبقيت فيه حتى صار عمرها مائة عام من الذل ، وجاء الموت ليطلق سراحها بالرغم منها . .

* * *

وثمة أيام يتدخل وجدانك فيها ليشاركك القراءة ، ويصحو قلبك من سباته ، ويتربص بك عند منعطفات جريدتك ، فتجده تحت السطور متلبساً بشدك من شعرك ليسمرك تحت (الدوش) البارد للصحو . . . لتعيدا قراءة الخبر السابق معاً ، ثم تأتي اصواته من اعماقك : ما اكثر النساء اللواتي يرفضن مغادرة سجونهن اليومية ، الى رقعة المسؤولية . في الاعوام الأولى تتمرد لحظات الصدق والصحو ، ثم يألفن صوت مفاتيح السجان في قفل الباب ، وضربات سوط الترويض بيد الأهل ـ بصفتهم صوت الرأي العام ـ وقد يلعب بكاء الأطفال دور الفاليوم اليومي . . وتمر الأعوام ، وتعتني (السجينة) بازهار الحديقة ، كما كانت تفعل تلك التي رفضت مغادرة سجنها ، وتقنع نفسها بأنها تحب أسرتها و (أسرها) بعدما صار بيتها ، وأنها ليست حقاً أسيرة بل هي اختارت ذلك . . بل ان تلك السجينة القاتلة المعمرة قد تكون أكثر صدقاً مع ذاتها لأنها اعترفت بأنها باقية حيث هي لأنها عاجزة عن اعالة نفسها ، ولا أهل لها .

وما اكثر سجينات الخوف اللواتي لا يجرؤن على ارتكاب محاولة اعالة انفسهن كخطوة اساسية في درب الحرية . . . هل يرفض السجين الحرية ؟ للأسف نعم . حين لا تكون الجدران وحدها سجناً له ، بل يكون سجين مخاوفه وهواجسه . . .

* * *

تقرأ خبراً آخر (طريفاً) في جريدة الصباح ، عن اعداد « متحف الجريمة » بمصر ، الذي سيضم صور بعض المجرمين المشهورين امثال « ريا وسكينة » ، وسواهما من القتلة والنصابين . . وهذا النمط من المتاحف منتشر في العالم ، لكنها المرة الأولى التي يؤسس فيها متحف للجريمة في الشرق الأوسط .

وقبل ان تنتقل الى خبر آخر ، يتدخل قلبك هامسا من بين السطور : لماذا لا يضم المتحف جناحاً خاصاً بالمجرمين العرب الكبار الحقيقيين . . . بسفاحي شعوبهم ، وجلادي المواطنين المساكين ؟ ام ان جناحاً واحداً لن يكفيهم ، وما اكثرهم بين الساسة ؟ . . لماذا تضم المتاحف اولئك المجرمين الصغار المساكين الذين لم يقتل احدهم اكثر من عشرة أشخاص ، ولا نرى في « متحف الجريمة » صور المسؤولين عن المذابح وموت المئات من الناس والاطفال ؟

* * *

تقول لقلبك كمن يخاطب صبياً مشاكساً : اذهب والعب بالكرة في الزقاق ، ودعني وشأني استمتع بقراءة صحيفتي . لكنه لا يبالي بك ، ويدس بلفافتك في فمه ، وبصوت مرتفع يعلق متوجعاً على نبأ عودة العلاقات الديبلوماسية بين اسبانيا واسرائيل . . . وينتحب صارخاً كصفارة انذار . . .

حين كنا صغاراً علمونا ان نقول « اسرائيل المزعومة » ، ونشأنا على ذلك ، فهل كانوا يسخرون منا طوال الوقت ؟ وها نحن نتشرد من بيوتنا قطراً بعد آخر ، ونغرق في المذابح بلداً بعد آخر ، واسرائيل تتصرف وكأنها في بيتها لأن أهل البيت يتابعون الشجار (الأخوي) . . وتنتزع اعتراف العالم بها قطراً بعد آخر حتى وصلت الى اسبانيا . .

وداعاً يا زمان المجد في الاندلس ، وصباح الليل يا زمان الوصل بين اسبانيا واسرائيل . . .

وتغص بدمعة متحجرة لها مذاق الشوك ، وتتلاحق أمام عينيك (الهفوات) التي أوصلتنا الى هذا الدرك ، بينما يتابع قلبك القراءة دونما شفقة . . .

* * *

الصهيوني كاهانا يعلن بفخر : سأصير رئيساً للوزراء وسآمر بطرد العرب من اسرائيل ! . . .

هل يجرؤ ؟ ولماذا لا يجرؤ ؟ . . . لقد فعلوها من قبل ، ولا شيء يمنع من التكرار . . .

اتخيل قوافل اللاجئين ، والخيام ، والذباب ، والبطولات الفردية التي تسحق داخل ماكينة ضخمة غاشمة لم نصح بعد لنواجهها ، ما دمنا نمعن ضياعاً ونشكك حتى في هويتنا العربية . . . أتخيل برقيات الاستنكار بعدها ، وبيانات الشجب . . وقصائد الندب وملاحم الوقوف على الاطلال . . وضجيج حربنا (اللفظية) التي سنشنها معززة بآليات السجع وطائرات الطباق والجناس وصواريخ المحسنات البديعية . . .

وسيمر الزمان كما مر بعد كارثة عام ١٩٤٨ وهزيمة عام ١٩٦٧ . . فمتى المرحلة الثالثة لاذلالنا ؟

ولماذا نلوم كاهانا وكل ما في سلوكنا يشجعه على سرقة المال السائب ؟ أليس القتيل شريكاً في الجريمة بمعنى ما ؟ . . ألا يغطي دم العرب شفاهنا نحن ايضاً ؟ . . .

* * *

تكف عن قراءة صحيفتك ، لكن قلبك يتابع بصوت مرتفع تلاوة السطور . . .

ثلاثون الف شخص يفقدون حاسة البصر في بنغلادش كل عام بسبب سوء التغذية والفقر والمرض . . مليون اعمى في بنغلادش الآن . . .

وتكاد تحسدهم . . . فهم على الأقل يعرفون (أعماهم) من مبصرهم ، أما نحن فنواجه عشرات ملايين العميان المنتشرين من خليج الجرح الى محيط القلب ، ومعظمهم يلعب دور الدليل السياسي لقافلة من عميان الطائفية والتخلف . . والحلم العربي الكبير يدنس في غير قطر . . فمن يزرع قرنية جماعية ، قومية الرؤية ، لقبيلة العميان ؟

* * *

تكف عن القراءة لكن قلبك لا يبالي بك ويتابع بعيون مفخخة مطالعته : ام يابانية كانت في غيبوبة منذ انجابها طفلاً قبل احدى وعشرين سنة ، توفت ، دون ان تسترد وعيها . ما لي وللسيدة ايواكو ايتو ؟

يقرعك قلبك : انت تكاد تكون هي . . . وهي تذكرني بكم ! . . لقد دخل بعض العرب في مرحلة الـ (كوما) منذ عام ١٩٤٨ ، وربما قبل ذلك . وحتى اليوم لم يصح بعضهم ، رغم الضربات والكوارث والسقوط في غير مكان . . . . والآن ، أجدني أفكر بالرومان ، وبحضارة اليونان ، وببقية حضارات الدنيا القديمة التي بادت . . فهل تستمر مرحلة فقدان الوعي وتنتهي بالموت ؟ ام نشهد كعرب مرحلة

عودة الوعي ؟ . . . متى نغادر نفق الـ « كوما » ؟

* * *

يرمي قلبك بالصحيفة في وجهك ، فتقرأ ذلك الخبر عن جزيرة جديدة ولدت في المحيط بعد ثورة مفاجئة لبركان ، وخرجت من رحم النار والدخان والهشيم ، فتؤكد لنفسك : مخاض العناصر النارية هو ما يحدث لنا . . انها الولادة لا الاحتضار ، وسنخرج من رحم الحمم . . يبتسم قلبك ساخراً من عقلك الذي فقد بروده وحياده ، وانحاز الى الرومانسية المتفائلة ، فتصرخ بأعلى صوتك : من يوصد باب الأمل ، هو كمن يوصد باب الحياة !

* * *

فهل ترغب يا قارئي بمطالعة جريدة الصباح معي ثانية بعيون مفخخة ؟

وهل كنت اقرأ صحيفتي اليومية ، أم كنت اهرول في حقل من الألغام وأنا اعمل على تفكيك متفجرة يدوية ؟

١٩٨٦/١/٢٨

نفق الى حبك

بحزن واعجاب أطالع أخبار ذلك النفق الذي يشيدونه تحت المانش بين « كاليه » و « دوفر » ، ليربط فرنسا وبريطانيا بقطار سريع .

الاعجاب لأن الانسان استطاع ترويض مياه البحر مرة جديدة ، وها هو يمد تحتها جسراً حضارياً من نمط فريد . انه انتصار « هندسي » جميل . . والأجمل هو أن هذا النفق هوأيضاً انتصار على صعيد المحبة . وما سيعبره ليس مجرد قطار تجاري وقوافل سلع ، بل هو أيضاً شريان تواصل ، وعربات ود تربط قطرين طالما نشبت بينهما حروب طويلة غطت قروناً من الحرائق والمذابح والأساطيل المدمرة والأهوال والسبايا . . .

وها هو عصر جديد من الوعي يسود بينهما ، وهذا النفق هو مجرد خطوة أولى في درب توحيد كوكبنا الهزلي الصغير الراكض في مجرات الله اللامتناهية . . .

أما الحزن ، فلأن ذلك لا يحدث لنا !!

* * *

الحزن لأن « الوحدة الأوروبية » تكاد تصير حقيقة عملية مكرسة على الأرض ، أما « الوحدة العربية » فما تزال حكاية حب عذرية . . .

الحزن لأن حلم الفنانين والرسامين والمهندسين المبدعين والشعراء في فرنسا وبريطانيا تحقق ، والرسوم القديمة التي طالما تخيل أصحابها جسراً فوق الماء أو تحت الماء في أحلام مستحيلة أضحت اليوم واقعاً . . .

وحلمنا ما زال مكسور النوافذ والأبواب . . الوحدة العربية ، حلم الجماهير الهادرة ، حلم العرب المشتتين ، حلم الأبرياء والتلامذة والأنقياء والمقاتلين ، حلم الساسة والتاريخ ، يمعن هرباً من بين أصابعنا كسمكة ذهبية يزداد ملمسها زئبقية . . .

لماذا استطاع بلدان غربيان ، لا ينطقان لغة واحدة ، ولم يدعيا مرة أنهما جزء من أمة واحدة ، مد نفق بينهما تعبيراً عن وحدة ما ، في حين فشلنا نحن حتى في تحقيق أبسط

مظاهر الوحدة ، والنفق بين معظم الأقطار العربية مهدم ، أو مسدود بكافة مظاهر الانشقاق والفخوخ والعداء ؟ . . .

أليس ذلك النفق البحري بين « كاليه » و « دوفر » ، رسالة من تحت الماء لنا ، تذكرنا بما انحدرت إليه أحوالنا ؟

* * *

لماذا نجد « العلاقات المميزة » حقيقة واقعية في صلات فرنسا بجيرانها الأوروبيين ، ولا نجد شيئاً مشابهاً حقاً في واقع حياتنا العربية ؟ ـ باستثناء الكراهية المميزة ! ـ .

لماذا نجد النفق بين جنيف وباريس مفروشاً بالدلال والاحترام للمسافرين ، وزيادة في التكريم تذهب الجمارك الفرنسية اليك ، حتى جنيف بدلاً من ازعاجك بالمرور عبرها في فرنسا ، ويختمون لك جواز سفرك بتأشيرة الدخول حتى قبل أن تركب الطائرة ، فتصل الى باريس وكأنك في رحلة داخلية من أية مدينة فرنسية ؟ لماذا يحدث ذلك لهم ، في حين نجد النفق بين معظم الأقطار العربية مدججاً بالاذلال للمواطن الذي يفترض أنه لم يغادر وطنه العربي الكبير ؟ لماذا أنفاقنا العربية مفروشة بالتحقيقات والارهاب والتخويف واذلال الانسان العربي في رزقه وكرامته ، وكل مواطن جاسوس حتى يثبت براءته ؟ وعلام نتجسس اذا كنا جميعاً ابناء وطن عربي واحد ؟ . . .

* * *

لماذا تتحول أبسط أحلامنا الى كوابيس ، وتتحول أكثر أحلامهم جنوناً الى حقيقة ؟ لماذا صارت السوق الأوروبية المشتركة واقعاً ، وكل يوم تنضم اليها دولة جديدة ، كاسبانيا والبرتغال مؤخراً ؟ ولماذا تنهار أسواقنا وبيوتنا وأحلامنا ، ولا نتفق على رأي في حرب أو سلم ، ولا نتفق حتى على عدو مشترك وحرب مشتركة أو سلم مشترك ؟ لماذا نضيع طويلاً في أنفاق الرياء والتضليل ، ويكاد الفرد منا لا يعرف ذاته بعد حين ، ولا يتوحد بها ، ولا يجد جسراً اليها ؟ وكيف نحقق وحدة بين بلد وآخر ، قبل أن نحقق وحدة الشخص مع ذاته ؟ بل مع « ذواته » ووجوهه وألسنته وانتماءاته المتناقضة وأجساده وهواجسه وزوجاته وأقنعته اللامتناهية وخطوط « رجعاته » وولاءاته المتضاربة ، وحيواته المتعددة المتناثرة في دروب الانهيار؟ . . .

* * *

لماذا يمضي البريد بين الأقطار الأوروبية يسيراً ويأتي كما الكلمات على لسان

العاشق ، ويتعثر بريدنا ويراقب ويدمغ وترفع الكلمات عن السطور ويتم التفتيش تحتها ، وتحفر جدران الصفحات البيض خوفاً من المتفجرات ؟ . . .

لماذا يمضي هذا العالم في درب التفاهم والوعي والمصارحة ويمد أنفاقاً تحت الماء وجسوراً تحت الشمس ونحن لا نزال نمتهن صناعة الفخاخ لبعضنا بعضاً ؟

* * *

لماذا أي خلاف في الرأي بينهم ينتهي باحتوائه في القنوات الدبلوماسية داخل بيوت الديمقراطية ثم يعاقب المسؤول المذنب ، في حين يسبب خلاف الرأي بيننا المذابح التي يعاقب فيها البريء وتزداد بعدها سطوة المسؤول المذنب ؟

لماذا حين نختلف على الحاكم لا نذهب الى صناديق الاقتراع بل الى الأسلحة التي سبق أن استوردناها لصد العدو ، ويصير « العدو » هو صاحب الرأي المختلف ، وتنصب الحمم على أبناء الوطن الواحد ؟ لماذا أي خلاف يتحول الى مجزرة يذهب ضحية لها آلاف القتلى في الجبهات الداخلية ، ويتناقص يوماً بعد يوم عدد الذين يعون حروبنا مع العدو الخارجي على بوابات الوطن ؟ . . ولماذا يربط القطار السريع بين باريس ولندن وليس بين بيروت ودمشق وبغداد والرياض والدار البيضاء والقاهرة وعدن والخرطوم وتونس وطرابلس . . (واترك القارىء ليعبىء الفراغ ببقية الأسماء) ؟

* * *

ولماذا لا أحزن وأنا أرى غرباء أوروبا يتفاهمون ويلتقون ويعمرون ويزدهرون ويمدون الانفاق فيما بينهم ، ونحن نأكل بعضنا بعضاً في حفلات «الالتهام الأخوي» ، وندمر آلاف الانفاق العربية التي ورثناها ، ونقطع الشرايين التي تربطنا فعلاً منذ أقدم العصور ؟ لماذا لا أحزن وأنا أرى الدورة الدموية العربية مليئة « بالجلطات » ، وبالنزيف الداخلي ، وبحاجة الى عملية « نقل دم » من النوع « الواعي » أياً كانت فئته ، وكلنا مهدد « بالايدز » القومي ، ومرض فقدان المناعة العقلية ؟ . .

أيها الحبيب العسير ، يا وطني العربي الكبير ، كيف نشق نفقاً الى حبك وقلبك ؟

٨٦/١/٢٢

زوربا العربي

مأساتكم انتم العرب أن هناك شيئاً ما في داخلكم يجعلكم قادرين على أكل بعضكم بعضاً . . . ابحثوا عن هذا الشيء لتنقذوا أنفسكم قبل أن تستفحل المأساة .

هذا الكلام لم يقله أحد أعدائنا ، بل فنان كبير يحبنا هو الموسيقار اليوناني ميكيس تيودوراكيس . ولا أحد يستطيع اتهام هذا الرجل بأنه عميل الاستعمار والأمبريالية ـ كما هي عادة البعض في مواجهة كل كلام لا يتملقنا ، بدلاً من الاعتراف بالحقيقة المرة ـ فتيودوراكيس يحب العرب ويتعاطف بعمق وقضاياهم ويعلن أن « قضية الشعب الفلسطيني هي قضية النصف الثاني من القرن العشرين » .

* * *

نعم . نحن نأكل بعضنا بعضاً ، والمبدع تيودوراكيس لخص مأساتنا العربية التي تفوق كل ما في الدراما الأغريقية القديمة مأساوية وتدميراً للذات .

ولعل ما حدث في بيروت ، هو مجرد ارتسام دموي لحقيقة عربية شاسعة : غريزة الالتهام الوحشي المتبادل في غير قطر وساحل وغابة وصحراء . . .

وإذا كانت بيروت قد أحبت ذات يوم « زوربا اليوناني » للموسيقار تيودوراكيس ، فإنها منذ ذلك اليوم وهي تشهد « زوربا العربي » يمارس في شوارعها رقصة الموت والحرب والتدمير الذاتي بدلاً من طقوس الفرح بالحياة وحب الكون والآخرين ، وحب الحرية والكرامة الانسانية وغيرها من القيم المستباحة في رقصة زوربا العربي الهستيرية على أطلال بيروت .

* * *

هل يمكن وصف نوبات العنف الدورية البيروتية بغير « أكل بعضنا بعضاً » على حد تعبير المبدع اليوناني ؟ ما معنى أن يستعمل المسلح بيت أخيه متراساً ، وأطفاله مجرد رهائن في حرب عبثية بلا نهاية ؟ ولماذا تحرير بيروت من الكرامة والحياة ، بدلاً من تحرير

القدس من العدو الاسرائيلي ؟ ولماذا تتحول شوارع بيروت الى « محاور قتالية » بدلاً من أن تكون المحاور في تل أبيب ويافا وحيفا وكل ميلليمتر في فلسطين المحتلة ؟ . . ولماذا نقتل مواطنين عرباً أبرياء تحت ركام بيوت بيروت ، ويسقط منهم عشرات أضعاف ما سقط من الاسرائيليين في الحروب العربية مجتمعة ؟ . .

هل ثمة من تفسير لهذا الوضع المأساوي غير ما قاله تيودوراكيس ببساطة فتاكة : « مأساة العرب أنهم يأكلون بعضهم بعضاً » ؟ . .

* * *

وإذا كانت أحوال بيروت صورة ملتهبة عارية لواقع العرب ، فإن الالتهام الأخوي المتبادل يتم في بعض الأقطار الأخرى على « نار هادئة » وبالقفازات البيض الدبلوماسية ، ليعبر عن واقع متوتر يفتقر الى الثقة المتبادلة وينعكس على مصالح آلاف الناس الذين يقاسون حرب تأشيرات الدخول وحرب الطرد وقطع الرزق وحرب « النكايات » والحزازات والشماتة بالأخ الجريح ومد خصمه بالسكاكين بدلاً من مد يد العون اليه .

وينصحنا تيودوراكيس بأن نفتش عن « العلة النفسية » في أعماقنا قبل أن تستفحل المأساة . . . فهل نجرؤ على تأمل جراح الخارطة العربية ومواجهة « زوربا العربي » بقسوة ، واستجوابه عن مدلول سلوكه المتناقض الهزلي ؟

* * *

لماذا يقول زوربا العربي غير ما يفعل؟ لماذا يعلن الجميع أن قضية فلسطين هي قضية العرب القومية الأولى ، ثم تبادر الأطراف الى التهام بعضها بعضاً بدلاً من التهام اسرائيل مثلاً ؟ . . . هل أعماقنا محتلة بالكراهية ؟

لماذا تجمع الأطراف التي تقتتل في بيروت على مبادىء واحدة ، ثم تتابع قتالها ، و « زوربا العربي » يوجه سلاحه نحو الحي المواجه له باعتباره العدو ؟ . . . . لماذا يقول أنه يكره بيغن حتى الموت ، ثم نجده يشتبك حتى الموت مع، شقيقه في كراهية بيغن ؟ . .

أهي الازدواجية ؟ هل يبطن « زوربا العرب » غير ما يظهر ؟ هل هو غير مخلص في كراهيته لاسرائيل اخلاصه في كراهيته لأخيه في المواطنية ؟ . . . أم أن زوربا العربي يشبه عطيل شكسبير : يحب كثيراً لكنه يجهل « فن المحبة » ؟

* * *

علاقات الالتهام هي السائدة في حقول حياتنا العربية ، ونحن باستمرار أقرب الى التحامل على بعضنا بعضاً من التفهم ومحاولة التفاهم . . كأننا نجد الكراهية أسهل من الصبر على بناء المحبة الواعية . .

في حقل العلاقات الشخصية ، ينتشر نموذج « الصديق اللدود » ، وإذا نجح شخص ما في عمله فانه يتحول تلقائياً الى عدو نموذجي . .

زوربا العربي لا يعرف كيف يحب رفاقه لأنه قد يحب وطنه بجنون ولكن هذا الحب يفتقر الى الوعي . . .

زوربا العربي في حقل الفن والفكر والأدب لا يبدي غالباً سلوكاً واعياً نحو رفاقه . . يرفض أن يعي أن نجاح أي رفيق يشكل ربحاً شخصياً له ، لأن كل مكسب يصب في النهاية داخل قناة الوطن ، والوطن للجميع . . . . في البلدان الواعية ، يجد المبدع سنداً له في مؤسسات وطنه وأفرادها ، لأن ما يحققه من نجاح ليس كسباً ذاتياً بل عطاء للوطن كله . . . و « زوربا العربي » يرى في حبه للفن مثلاً ، مبرراً لكراهيته لبقية الفنانين . . . وذلك ينسحب على مجالات حياتنا كافة ، بما في ذلك حقول السياسة . . .

* * *

تيودوراكيس قدم لنا النصيحة الاغريقية الفلسفية الشهيرة : « اعرف ذاتك » . . فمن خلال هذه المعرفة وحدها نستطيع أن نكتشف كيف نكف عن تدمير ذاتنا والتهام بعضنا بعضاً . .

فهل جوهر مأساتنا هو أننا نحب بصدق ولكن برعونة ؟ وأن رد الفعل الجاهلي اللاعقلاني هو الذي يتحكم في سلوكنا ؟

نحن لا نلتهم بعضنا بعضاً فقط ، بل نلتهم أحلامنا وقيمنا وتراثنا وعروبتنا وتاريخنا ونقدم لأعدائنا خدمات جلى حين نقف فوق أطلال بيوت رفاق هدمناها ونرفع أمام الكاميرا شارات النصر بكل فخر !

فهل يتعلم « زوربا العربي » الحوار والحنان والتواضع والمشاركة والاخلاص والانسانية ، وغيرها من القيم العربية القديمة المهجورة ؟ . . .

أم أنه سيتابع جولة الجنون حتى يلتهم آخر طفل عربي داخل رحم أمه ؟ . . .

١٩٨٥/١١/٢٥

صباح الليل يا غريب !

غادرت سيدة المجتمع المعروفة بيروت منذ أعوام الى أميركا ، هرباً من الحرب، حاملة معها في احدى فترات الهدوء ما يزخر به قصرها من تحف وكنوز خوفاً عليها من السرقة والدمار ، وقد حولت جسدها الى (فيترينة) لعرض مجوهرات الأسرة . . وفي منفاها الأميركي مارست متعة التشاوف بثرائها ، (مستسلمة لوهم الأمن الأكيد) كما يروق ذلك لعدد كبير من العرب الذين رياضتهم استعراض الثراء والوجاهة .

وذهبت ذات شهر في إجازة . . وحين عادت، وجدت سارقي البلدة وقد (نظفوا) لها البيت حتى من الستائر الحريرية . . وعادت مفلسة الى منزلها الذي لم تمسه قذيفة في بيروت ، كسيدة المجتمع الأخرى التي فعلت الشيء ذاته في (نيس)، وبعد (تنظيف) السارق لبيتها من كل ما تملكه ، عادت الى بيروت ، وهي اليوم لا تجد ثمن تذكرة السفر للذهاب الى بيتها في (نيس) وبيعه ! ومعظم العرب من سواح ومقيمين في الغربة تعرضوا لخطف حقائبهم أو سرقتها من الشقة المفروشة بعدما أنجزوا (الشوبينغ) واستعدوا للعودة بها الى الوطن !! . . فجاء السارق ووجد الحاجيات الجديدة موضبة في الحقائب كأنما لتسهيل مهمته !!

* * *

حكايا العرب في أوروبا وأميركا مع السرقات يمكن أن تملأ مجلداً ، أو تحقيقاً صحافياً على الأقل فيه سطور ضاحكة وأخرى مؤسفة . .

ولعل التحذير الذي وجهه اللواء يوسف الخرافي وكيل وزارة الداخلية في الكويت الى مواطنيه ، يصح أن يلتزم به كل مواطن عربي . .

فقد حذر الكويتيين من التباهي بأموالهم ومجوهراتهم في الخارج لأن ذلك يؤدي الى سرقات كثيرة . .

وهذا الكلام ينسحب على العرب جميعاً . . وهو أيضاً عميق المدلول .

فتباهي بعضهم بالثراء العربي هو بحد ذاته سرقة . . .انه سرقة لسمعة الأكثرية العربية الكادحة والمتوسطة والمثقفة ، البعيدة عن التشاوف ، الغارقة في هموم الوطن العربي حتى الثمالة . . .

* * *

سرقة الأثرياء العرب في الغرب هي السرقات الوحيدة التي قد يستحق فيها المسروق العقاب ! . . .

فالمسروق هو في جوهر الحكاية السارق الحقيقي . . لقد سرق منا احترام الرأي العام العالمي لنا، بتبجحه بالمال كما لو كان القيمة الوحيدة في الدنيا. . وجعله يظن العرب جميعاً أثرياء حرفتهم التبذير ، أو فقراء حرفتهم الارهاب . . . صار الأجنبي يتوهم كل عربي ثرياً أو ارهابياً . . وتم التعتيم على الأكثرية الساحقة من مواطني الشعب العربي ، من الطلاب ، والمثقفين ، التجار متوسطي الحال ، (الأوادم) ، السواح العاديين ، المغتربين الشرفاء وغيرهم من الهاربين الفكريين والمطرودين واللاجئين والفقراء الشرفاء الذين قذفت بهم أمواج الزمن الى سواحل بحار الظلمات والتشرد .

* * *

نستطيع أن نغض النظر عن المال العربي (السائب) ، ونركز على ارتفاع معدل السرقات، والعنف في غرب يتوهمه بعض العرب جنة الأمانة ومكارم الأخلاق. . لكن ذلك ليس شأننا ، ولكل وطن متاعبه ، وليست وظيفتنا التشاغل بحل مشاكل دول أخرى هرباً من مواجهة مستنقع الأخطاء والهفوات الذي يكاد يبتلعنا . .

وكم من أسرة لبنانية هربت من جحيم الحرب في بيروت ، واهمة أنها وصلت الى بر السلامة في أوروبا أو أميركا ، وصحت صباح اليوم التالي وقد تمت سرقة (تحويشة العمر) في الفندق ، يوم خروجها الأول لاستنشاق فجر الحرية . .

وحكايا السرقات المنظمة والعشوائية التي يتعرض لها العرب في الغرب كمسلسل دالاس . . لا تنتهي . . ولن تنتهي الا بصحونا من الانبهار العتيق بالغرب . . . وخروجنا من لعبة التشاوف بالثراء التي تسبب في سرقة الأثرياء والفقراء العرب في آن معاً . . .

* * *

أحد زملائي الصحافيين كتب منذ أسابيع في صحيفة كبيرة معبراً عن خجله من نشر (مقابلة مع ملياردير عربي حفلت بمظاهر البذخ والاسراف مما لا يعرف مثله الا في

أساطير ألف ليلة وليلة . .) ، وأضاف الزميل « الرجل حر في ماله غير أننا ندافع عن أنفسنا باستمرار ازاء تهمة الثراء والاسراف » . . . ولأنني لا أعرف عمن يتحدث زميلي ، أقول ببساطة : هذا الاسراف هو بطاقة دعوة لسرقة العرب واحتقارهم أينما حلوا غنيهم وفقيرهم عاقلهم وتافههم . . والرجل حر بماله ، ولكن ضمن اطار مصلحة مجتمعه . . . وصرخة انذار وكيل وزارة الداخلية في الكويت لا تحمي الغني فقط ، بل تحمي المواطنين جميعاً من سوء الفهم الاعلامي ، وتحمي العربي الفقير من السرقة تحت وطأة التوهم بأنه بالضرورة غني وأحمق ومهذار . فالسطو ليس منظمًا دائمًا للأسف ، والسرقة العشوائية التي يتعرض لها متوسطو الحال ، تهد (حيلهم) ، وقد تدمر مستقبل بعضهم .

* * *

نخرج من أوطاننا لنقول: صباح الخير أيتها الحرية . . . نواجه سلسلة من سوء الفهم المسبق لنا . . . نتعذب . . . نلتقي ولا نلتقي بمرفأ سلام .·. نقول بغصة : صباح الليل يا غربة . . . صباح الليل يا غريباً مثلي ، أينما كنت وكيفما كنت . . .

٥/١٢/ ٨٤

أسر أم أسرة ؟

توهم البوليس أن الطفلة ماتت ضرباً لوجود كدمات في جسدها الرقيق ،وعمرها ثلاثة أشهر ! . . .

ثم كشف تشريح الجثة أن الطفلة ماتت جوعاً ، رغم توافر الطعام الخاص بها في المنزل . الوالدان اعتقلا ووجهت اليهما تهمة القتل عمداً . حكاية بشعة جداً حملتها وكالات الأنباء من تكساس ، تشبه عدداً كبيراً من مثيلاتها التي تتحدث عن جرائم قتل الأطفال والأولاد بيد أحد الوالدين أو كليهما . وما من انسان سوي ـ أو نصف مجنون ـ الا ويشعر بالهول أمام هذه الفظاعات الشيطانية . . . كحكاية تلك الأم الفرنسية التي سجنت طفلتها في الخزانة أعواماً . . وأخرى عن أسرة سجنت الابنة في قبو وغير ذلك . .

* * *

ولكن الأطفال لا يموتون جوعاً الى الأكل فقط . . . انهم يموتون أحياناً بصمت ، جوعاً الى الحنان والتفهم والرعاية من غير أن يلحظ أهلهم ذلك أو يتعمدوه . . .

وأولادنا لا يغادرون طفولتهم بالضرورة حين يصير حجم أجسادهم منافساً لنا ، ومقاس أحذيتهم مساوياً لمقاس آبائهم . . .

كثيرون يتوهمون ذلك . . .

ويتوهمون أنهم يمنحون أولادهم (كل شيء) ، وهذه الـ (كل شيء) تنصب غالباً على وصف المقتنيات المادية العصرية في الدرجة الأولى .

ويتوهمون أن لا مجال للمقارنة بينهم كآباء ، وبين أولئك الوحوش الذين يقتلون أولادهم قسوة أو جوعاً . . .

ولكن ، هل الصفعة وحدها هي التعبير الأوحد عن القسوة ؟

* * *

من الصعب أن نعثر في حياتنا العربية على حوادث قتل بشعة مباشرة للأطفال ، فعزلة الأسرة مستحيلة ، وحتى لو جنت الأم أو الأب ، فلا بد من جارة تسمع ، وخالة تمر وترى ، ورقابة اجتماعية يومية هي من صلب الحياة الاجتماعية العربية . . .

فالأسرة لدينا مؤسسة عتيقة ، ولأنها كذلك ، فهي أيضاً تضم محاسن المؤسسات العريقة ومساوئها . . .

ولنتجاوز عقدة نرسيس وامتداح الذات ، ولنتحدث عن المساوىء كخطوة في درب التطوير والتبديل . . .

وصحيح أننا لا نرتكب في حق أولادنا جرائم دراماتيكية تقشعر لها الأبدان، لكننا أحياناً نحاصرهم بالمحبة العمياء ، ونقمعهم بالرعاية الموهومة ، ونجلدهم باللامبالاة بمشاكلهم الحقيقية ، ونضربهم بعصا تجاهل حاجات جيلهم ، ونسورهم في سجن المتوارثات ، ونحول بعض بيوتنا الى « بيت الطاعة » للأولاد ، وبعض أسرنا الى « مؤسسات ارهابية»، وخلايا مافيا اغتيالية اسمها الحركي (أسرة) ! . . .

* * *

كلما كانت العلاقات العاطفية أكثر عمقاً ، كلما كانت أكثر خطراً على الطرفين ، وامكانيات تأزمها أكبر . . . بيتهوفن مثلاً دفع بإبنه المتبنى (ابن أخيه) الى الانتحار لكثرة حبه المجنون له الذي تحول الى قيد للشاب ، وإلى هم جثم على صدره كحجر القبر وجره الى القبر . . وكلاوس مان ابن الكاتب الكبير توماس مان مات منتحراً بعد علاقة (صعبة) مع أبيه .

وكثيرون من عباقرة التاريخ أودوا بأولادهم الى الجنون والانتحار أو الى الهرب منهم . . . فالمحبة العمياء سيل يجرف ويدمر . . . كأي جنون مطلق السراح . . .

وجرائمنا العائلية العربية معظمها من هذا النمط . . لكنها لا تتخذ بالضرورة شكلاً مسرحياً ينتحر فيه الابن أو يجن الأب وغير ذلك من الحوادث النادرة والمعروفة عندنا . . .

جرائمنا العائلية الأخطر والأعظم هي تلك التي تتم بصمت وهدوء ، في بيوت تتوهم انها (يا بيت العز يا بيتنا) ، ويترنم معظم من فيها بالسعادة الأسرية ، والعلاقة داخلها هي في جوهرها علاقة أسر ، لا اسرة ! . . .

* * *

الأسرة العربية بعيدة بوجه عام عن (الديمقراطية) . القرارات يتخذها غالباً فرد

هو الأقوى ، وليس بالضرورة الأب . فكرة التصويت وابداء الآراء في اتخاذ القرارات الحاسمة التي تخص مجموع الأسرة غير موجودة . . . كأنها المكان الخاص بتفريخ (الديكتاتور) ، والفرد البعيد عن روح احترام حرية الآخر . . . والمؤهل ليكون فرداً صالحاً في مجتمع غير صالح مبني على قبول القمع أو قبول ممارسته على الآخر . . . أسرة تعلم الابن كيف يكون الزعيم الأوحد ، أو كيف يعبده ! . . .

* * *

الأسرة العربية بوجه عام تمارس الازدواجية . . . وحتى العائلات (التقدمية) نجدها تتمزق أحياناً بين التقاليد الراسخة ، والأفكار الحديثة والشعارات الآتية عبر قناعات عقلية والمفتقرةالى نضج الممارسة . . وكم من زوج نظم ندوة عن تحرر المرأة ومنع زوجته من حضورها ، وكم من أم كانت من دعاة التحرر ، تغلي في صباها حياة وثورة ، وحين صارت أماً تحولت الى متزمتة تحرم ابنتها من أبسط شروط الحرية التي طالما اغتصبتها هي سراً أو علناً . وما أكثر ما نتحدث عن رعاية الأطفال ، لكننا نتخلى عن طفولتهم لحظة يخطون في سن المراهقة ، وتنفتح بيننا « هوة الأجيال » المختلفة العقلية . لماذا ينسى الأب أنه كان ذات يوم مراهقاً ساخطاً على انقطاع صلة والده بعالمه ، ولماذا تنسى الأم خطاياها (المغفورة) في صباها وتعجز عن فهم منطق ابنتها ؟ . . .

لماذا تظل الطفلة (دلوعة) الوالد الى أن تكبر وتتحول الى صبية ، ويتخذ بعض الآباء منها موقفاً يشبه القطيعة . . . فالطفلة « براءة » ، والصبية « تهديد بإمكانية فضيحة » ! . . . ولا يسود السلام ثانية الا بعد تحول الصبية الى زوجة . .

الوأد ليس بالضرورة دفن طفلة في الصحراء . انه أيضاً دفن هموم الصبية في رمال التجاهل الصامت القسوة ، ودفن مستقبلها في قالب فصلناه على مقاس مصالحنا ، وهو في نظرها تابوتها ! . . .

* * *

وماذا نقول عن تلك العائلات التي تدفع بأولادها أحياناً الى دخول ميليشيات عبثية تدمر الوطن ولا تفيد الانسانية ما دامت مكرسة للحقد والتعصب الأعمى واغتصاب حقوق الآخرين وحرياتهم ؟ . . .

أليس في ذلك ذروة التجويع الروحي القاتل ، والضرب المعنوي في صميم انسانية الشاب الطالع الى . . . قبره ؟ . . .

* * *

اننا نتبجح كثيراً بالأسرة العربية ، ونبدي دهشة خارقة أمام ما يتعرض له أطفال الغرب أحياناً من قسوة وسادية تتطلب تدخل البوليس . . .

فهل نؤذي شعور أحد من الآباء والأمهات اذا تحدثنا عن بعض الخصائص العربية للقسوة الأسرية السرية، الشاسعة الشائعة المتوارثة دونما رقيب وتركنا للأهل والأبناء مهمة تعداد ما لم نذكره في هذه العجالة ؟ وهل نذيع سراً اذا تحدثنا بحرية عن همس الآباء الحميم حول الأساليب التقليدية لتدجين الذرية في عصورنا الفضائية ؟ . . .

٨٥/٣/١٨

تعالوا نتعارف بحنان

أديب ناشىء . اصدر كتابه الأول منذ أعوام . فرح به . أهداه الى الأدباء العرب الأقرب الى قلبه وفكره . كتب الاهداء بحرص عاشق يسطر قصيدة لعيني الحبيبة . لم يلق الكتاب صدى لدى بعض (الكبار) ، لكن القراء أقبلوا عليه ، ونجح الأديب الناشىء . . وعاماً بعد عام داهمته الشهرة ، وصار ركنا في نادي الأدباء المعروفين .

* * *

ومنذ أسابيع ، جاءه ساعي البريد بكتاب ـ هدية . فتح المظروف ، فوجد فيه كتابه الأول في طبعته الأولى العتيقة . فتح صفحة الاهداء ، ففوجىء فيها بخطه ، وبالحبر الأخضر الذي كان يكتب به منذ أيام بعيدة . . وصعق وهو يقرأ إهداءه هو شخصياً للكتاب الى كاتب عربي كبير كان يجله في ذلك الزمان . مع الهدية رسالة من قارىء ، اشترى الكتاب مصادفة من احدى (بسطات) الكتب العتيقة ، ولأنه يحب المؤلف فقد حزن لأجله ، وأعاده اليه . وزوده ببعض المعلومات المجانية التي استقاها من البائع : الكاتب العربي الكبير هذا ، يبيعه باستمرار اكواماً من « الكتب ـ الهدايا » التي تصل اليه .

قال الأديب الذي لم يعد ناشئاً : حسناً ، وماذا في ذلك؟ لعل بيته ضيق ولا متسع فيه لمزيد من الكتب بعد قراءتها . ولعله بخيل يحرص على أي قرش ممكن ، وسلوكه الشخصي قضية خاصة غير أدبية .

وكم كانت صدمة الأديب كبيرة ، حين قلب صفحات الكتاب ، ففوجىء بها غير مفتوحة ولا مقصوصة . . . أي أن أديبه المفضل لم يتفضل بفض الصفحات وقراءة المهدى اليه !! . . ولم يكلف نفسه عناء تمزيق الاهداء قبل بيع الكتاب . وتذكر أيضاً أن الكاتب الكبير ذاته كان أقد أبدى رأياً سلبياً بأعماله في احدى المناسبات !! . .

* * *

لم يعد سراً أن بعض (النقاد) لا يطالع الكتب التي يكتب عنها في عجالات عابرة . . وقد قيل الكثير حول (النقد) الذي يهدف الى ملء فراغات في أعمدة بعض الصحف ، لا الى امتلاء ثقافي واشباع ذهني للقارىء . . . النقد المرتكز على الهوية الحزبية أو الطائفية للكاتب ، أو (واسطته) الاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي تتحكم في بعض التقويم للكتب . . . والأدباء جميعاً يشكون من (النقاد) الذين يمارسون فعاليات غير أدبية تحت ستار النقد . . . ولكن ، من قال أن الأدباء في هذا المجال خير من النقاد ؟ ومن قال أن بعض الكتاب الكبار الذين يشكون من تقصير بعض النقاد في القراءة،لا يمارسون بأنفسهم التقصير ذاته ، وينهون عن خلق ويأتون بمثله ؟ ما حيلتنا مع تلك الأعماق المحتلة بالكسل والغرور واللامبالاة وعدم احترام الآخر ؟

* * *

ثمة غربة بين بعض الأدباء والكتب . غربة تسهم في تنشيط (النقد الشفهي) . . . معظم الأدباء الكبار قلما يذهبون الى المكتبة لشراء انتاج سواهم ، وبصورة خاصة ما يكتبه الجيل الطالع ، وحتى الكتب التي تهدى اليهم ، قلما يتكرمون بمطالعتها . وقد لا يبلغ بهم الأمر الى بيعها لأصحاب البسطات ، ولكنه قد لا يتعدى تقليب الكتاب وقراءة بعض سطوره ، والخروج عنه (بانطباع) ، يتحول الى رأي مزاجي في جلسة ، قد ينقله صحافي ، ويقرأه ناقد ، فينقلب هذا (النقد الشفهي) المزاجي ، بالتواتر ، الى حكم نقدي عام ، حتى تكاد (الشائعة) في حياتنا الثقافية تنافس النقد الجاد وتحل محله . . .

* * *

وباستثناء بعض المثقفين النادرين المشرفين على صفحات ثقافية ، وبعض النقاد الذين يمكن احصاؤهم على أصابع اليد(الواحدة)،فإن (النقد الشفهي)المبني على الشائعات والامزجة الشخصية والاعتبارات العشائرية والطائفية والاجتماعية والطبقية والايديولوجية هو السائد في مجال التقويم بين الأدباء بعضهم بعضاً ، لا بينهم وبين النقاد فقط . . . وبعض الصحافيين يعتمدون (النقد الشفهي) مرجعاً ويذهبون للحوار الأدبي مع مبدعين لم يقرأوا انتاجهم ، ويجهلون حتى أسماء كتبهم (وقد تذمر الأستاذ توفيق الحكيم من ذلك في حوار صحافي) . . .

* * *

الشاعر الكبير نزار قباني كتب إلي مرة من اسبانيا ، وكنت أعد أطروحتي للأدب الانكليزي عن « مسرح اللامعقول » ، وطلب مني أن أزوده ببعض أعمال بيكيت ويونيسكو وجينيه وسواهم لأنه لم يجدها في أسواق مدريد ، ولأنه يريد الاطلاع على هذه الحركة المسرحية .

ومنذ أسابيع ، عاتب نزار قباني (شفهياً) ناقداً زاره لأنه لا يقرأ لكاتب يحبه ـ أي الناقد ـ !! وقال له : كيف تقول أنك تحب الكاتب (فلاناً) ، وأنت لا تتابعه ؟ . .

الفنان الكبير هو دوماً قارىء كبير . . يقرأ لسواه ، ويلاحق انتاج الجيل الطالع ، وهذا ما عرفته عن نزار ، وهذا من بعض أسرار أهميته الفنية واستمرارية جمهوريته الشعرية . . .

اننا بحاجة الى أن نتعارف بحنان . ان نطالع عطاء الآخرين . الخطوة الأولى نحو الوحدة العربية الثقافية هي أرضية واضحة بعيدة عن الشائعات الأدبية والنقد الشفهي . . القراءة فعل محبة ، وحدها تقود الى النقد البناء غير الانفعالي . . حيث تحل المنافسة العذبة محل المناكدة ، والمناصرة بدل (المناحرة) . . . بالقراءة وحدها نلتقي بالآخر في جوهره ، لا في مقهاه . . بالقراءة وحدها يحق لنا أن نرفض الآخر أو نقبله . . وبقراءة أعمال الجيل الطالع بالذات نتواصل وننمو في مناخ صحي ونلتقي ولا تنقطع استمرارية العطاء . . ونكافح (شهية الافتراس) المنتشرة في (مقاهي المثقفين) و (سهراتهم) وجلساتهم (الافتراسية) غالبا . . .

فالنقد الشفهي الرديء هو النتيجة المباشرة لعزوف بعض النقاد والكتاب عن القراءة . . وأسباب البعد عن المطالعة معروفة وكثيرة ولها علاقة بالعصر أيضاً وايقاع الأحداث ، ومقبولة بالنسبة للقارىء العادي ، لكنها تفسر ، ولا تبرر ، سلوك الناقد والأديب معاً . . فالقراءة حرفتهما . . .

* * *

أليس من المخجل أن القارىء العادي هو أفضل من حيث بعده عن (النقد الشفهي) ، من بعض الأدباء (الكبار) والنقاد المحترفين ؟ . .

ومتى يحب بعض الكتاب ، القراءة ؟ . . . ومتى يغادرون مستنقع (الثرثرة الثقافية) الى (الثقافة) نفسها ؟ ومتى نتعارف حقاً بحنان وعمق ، نحن الذين نلتقي منذ زمن بعيد من غير أن نلتقي ، ونتوهم أننا نعرف بعضنا بعضاً ؟ . . .

ومتى نمارس العدالة والمحبة والصفاء والصدق والرقة ، والقيم الانسانية كلها ، فيما بيننا ، نحن الذين حرفتنا التحدث عنها والترويج لها ؟

٢٤/ ٢/ ٨٥

سنوات ضوئية من الظلام

ماذا تفعل يا قارئي اذا قرع بابك الآن رجلان من الشرطة ، وطلبا منك تبديل اسمك المسلم الى اسم مسيحي ، أو اسمك المسيحي الى اسم مسلم ، وامهلاك ثلاثة أيام لتنفذ ذلك وأسرتك بأكملها ، والا . . . ؟

لا تقل لي أن ذلك لا يمكن أن يحدث على كوكبنا في الربع الأخير من القرن العشرين ، لأنه يحدث الآن بالذات في بلغاريا لأكثر من ثلاثة أرباع المليون انسان ، بالضبط لـ ٨٠٠ الف كائن حي لهم أسماء ألفوها وتمثل جزءاً من مقوماتهم الثقافية وأصولهم .

* * *

هل تفعل مثل محمد الذي بدل اسمه الى ميخائيل لأن الذين أمروه بذلك لديهم البنادق ، ولديه هو أسرة (كما صرح لجريدة الواشنطن بوست) ؟

أم تتمرد مثل علي يوسف وترفض ، وينفذ القمع وعيده ويقتل ابنك ، فتذعن وتبدل اسمك الى أوليانوف ، الاسم السلافي الذي أرادته الدولة لك ؟ . .

وماذا تقول لابنتك عائشة التي اضطررت الى تبديل اسمها فصار تاتيانا ، وهي ألفت اسم عائشة وتبكي ، ولا تريد له بديلاً ؟ . . .

هل تعدها بمناداتها سراً باسمها الأصلي كما فعل والدها ميخائيل (محمد سابقاً) ؟ أم تشرح لها لماذا يحدث ذلك على كوكبنا ؟

* * *

وكيف تشرح لفتاة في العاشرة من عمرها، لماذا لم يعد بوسعها أن تكتب اسمها عائشة على دفاترها المدرسية بالأقلام الملونة ؟

هل ستعطيها قصاصة صحيفة (الواشنطن بوست) التي تفسر الأبعاد السياسية لهذا القرار غيرالانساني ؟ هل ستقول لها أن البشر ليسوا أكثر من وقود لصراع الأنظمة ؟

وهل ستشرح لها أن كل شجار بين واشنطن وموسكو يؤدي الى شد حبال يشنق عليها مئات آلاف الأبرياء هنا وهناك على وجه كوكبنا المظلم القلب ؟ هل ستشرح لها أبعاد العملية الأقليمية، من أخذ ورد بين تركيا وبلغاريا حول الأقلية المسلمة المطلوب «بلغرتها»، وأولى الخطوات في تلك الدرب هي قطع الناس من جذورهم، ومسح الأجداد من أدمغتهم بحرمانهم من تراثهم، وخصي أسمائهم ؟..

* * *

وإذا سألتك ابنتك عائشة عن رأي رجال الدين بذلك، فهل ستقول لها أن وكالة الأنباء البلغارية وزعت نص رسالة قالت انها من « أئمة منطقة سيليسترا البلغارية » الى « مفتي بلغاريا في صوفيا » تؤيد خطوة النظام الشيوعي هناك، وترفض مساعدة أحد كي لا يصير اسمها تاتيانا ؟ (جريدة النهار ٧ - ٤ - ٨٥).

وكيف تشرح لها هذا الهراء كله ؟ كيف تقنعها بأن رجل الدين يستطيع أن يقف هكذا علناً ضد روح دينه نفسها، فالدين الاسلامي يرفض قمع الآخرين، فكيف يرضى بقمع أبنائه أنفسهم ؟.. الدين الاسلامي جاء ليكرس كرامة الانسان، واحترام أهل الكتاب والأديان والطوائف الأخرى، فكيف تفسر لعائشة هذا القمع باسم الدين الاسلامي نفسه أيضاً، وكيف تشرح لها تلك الحالة الشاذة، حين يصير الدين ضد الانسان (بفضل) أشخاص يسيئون تفسيره، ويوظفونه في خدمة إذلال البشر وغمرهم ببحار الظلام، وهو الذي جاء أصلاً كالديانات السماوية كلها، للخروج من الظلمات الى النور ؟

* * *

وإذا سألتك اين بقية الاسلام على هذا الكوكب، ولماذا لا يفعلون شيئاً، هل ستقول لها أن كلمتهم مشتتة، يتحاربون فيما بينهم ويسقط مئات آلاف الضحايا وثمة من يرفض وقف هذه الحرب الجهنمية ؟

وهل ستقول لها أن أبشع المجازر التي ارتكبت على هذا الكوكب الدامس النهارات، كانت باسم الدين، وجوهر الدين بريء منها ؟

هل ستقول لها أن حكاماً يشنقون ويقطعون أيدي الفقراء باسم الدين الاسلامي دام حكمهم أحياناً حوالي عقد ونصف العقد من الزمن قبل أن يطيح الشعب بهم، بعدما شوهوا صورة الاسلام في عين شعوب الأرض الأخرى ؟

وهل ستحدث المسكينة عائشة عن المذابح الطائفية في لبنان، وكيف ستشرح لها

أيضاً حكاية (السنة) و (الشيعة) هناك ؟ . . .

أليس من الأفضل لك أن تظل صامتاً أمام ابنتك حفظاً لماء وجهك كمسلم ؟ . . .

* * *

هل ستقول لها أن القضايا الانسانية كلها تم تسييسها؟ . . وأن من يقف ضد القمع على هذا الكوكب فهو متهم سلفاً بالعمالة ، فإذا اقترفت القمع روسيا ورفضه فهو بالتأكيد عميل لأميركا . واذا اقترفته أميركا ووقف ضد قمعها هذا ، فهو بالتأكيد عميل لروسيا ؟

كيف تفسر لعائشة أن الكثيرين من أصحاب الضمائر الحية يتحاشون الخوض في هذه المواضيع لأن أحداً لا يبالي بجوهر الموضوع (ارغام انسان على تبديل اسمه ، أياً كان دينه ، أينما كان وطنه) ، ولكن الاهتمام يتركز على التفاهات مثل لماذا يدافع عنهم هذا الكاتب الوغد ؟ هل يقبض من أميركا ؟ من روسيا ؟ . . واذا فرضنا أن أميركا تدافع عن مسلمي بلغاريا لغرض في نفسها هو الكيد لبلغاريا الشيوعية لا حباً بالاسلام ، ـ بدليل لامبالاتها بوقف الحرب بين العراق وايران ـ فهل يبرر ذلك صمتنا عن مأساة الاسلام في بلغاريا نكاية بأميركا ؟ . . ومن يستطيع أن يبرر الآن ، بعد عشرات القرون ، رمي المسيحيين القدامى في روما الى الوحوش لتلتهمهم ، والنيصر وأتباعه من الوثنيين يهتفون ؟ فلماذا يكرر هذا الكوكب الأحمق نفسه ؟ وهل تجرؤ على أن تروي لعائشة هذا الذعر كله وتاريخ أبناء الديانات كلها مع الاضطهاد ؟

* * *

وكيف تشرح يا ميخائيل المسكين لابنتك عائشة أن كوكبنا يعيش كل يوم سنوات ضوئية من الظلمة الانسانية ؟ . . . وأن الأعماق المحتلة بحب القمع والغطرسة مأساة للإنسانية ؟

وكيف تقول لها أن القمع الديني يتعرض له الناس من الملل والأديان كافة ، وأن الانسانية ـ من حيث المبدأ ـ تعني اعتبار أي قمع يتعرض له انسان ما على هذا الكوكب قضية تخص أي انسان آخر بغض النظر عن هويته وجنسيته ودينه ؟ . .

وأن الدفاع عن الحرية واجب الديانات كلها والمجتمعات كلها ؟ . .

* * *

أم أنك ستكتفي بالقول : قلبك سيظل اسمه عائشة ، وستناديني في أحلامك باسم محمد ريثما تنقضي تلك السنوات الضوئية من القمع للجميع على وجه كوكبنا الموسخ بالقسوة ؟ . . .

٨٥/٤/٢٥

عيون القاهرة الشاسعة

العرس في الصالة الفخمة للفندق القاهري الكبير. (الزفة) تظاهرة بذخ شرقية ، تتبعها (أوركسترا) غربية تعزف لحظة قطع كعكة الزفاف المؤلفة من ١٥ طبقة من جاتوه (المرحومة) ماري انطوانيت ، وألا تلطخ الزفاف بالعار . . . والأخبار حملتها احدى وكالات الأنباء ونشرتها صحف أجنبية عن ظاهرة الأعراس (التبذيرية) في الفنادق القاهرية .

ويقول التحقيق « أن كل فتاة في العاصمة المصرية تحلم بليلة زفاف في أحد الفنادق الفخمة المطلة على النيل على الرغم من أن الاقتصاد المصري ليس في حال ازدهار ، وأن تكاليف حفلات الزفاف سجلت ارتفاعاً كبيراً » .

* * *

ما ذنب عيون القاهرة الجميلة الشاسعة التي تستوعب العرب جميعاً ، فترتسم على شاشتها لحظات سموهم ، وسقطاتهم أيضاً ؟ . . .

ما ذنب عيونها الحلوة ، التي تطل منها أمجاد الفراعنة ، وأحزان العرب وانتصاراتهم وطموحاتهم ، اذا احتضنت بعض فنادقها ظاهرة عربية عامة ، وهي حب استعراض الثراء والوجاهة والتشاوف ؟ . .

* * *

صحيح أن الوطن العربي يختنق بملايين الفقراء ، ولكن فنادق القاهرة ليست مسؤولة عن سوء توزيع الثروة العربية ، وفتيات القاهرة الحالمات بعرس خرافي لسن مذنبات بقدر ما هن من بعض ضحايا زمن متوحش استبدل القلب بكيس نقود ، واقتلع عيون الحب ليزرع الماس في موضعها ، وهرول في (زفة التخدير) راقصاً في جنازة الانفصال عن واقعه وواقع الشعب العربي ، أي في (زفة الطلاق) عن واقع أمة . . . لا (زفة) الفرح . . .

* * *

فنادق القاهرة مجرد شاشة لمرض اجتماعي يكاد يفترس قيمنا هو « الوثنية الجديدة » . . . وهو مرض شديد العدوى كالزكام ، وصعب العلاج كالسرطان ، العقل عدوه الأول ، فهل نسلط نظرة عقلانية على ما يدور ؟ . . .

يتحدث تحقيق الوكالة عن تفاصيل (بذخية) تثير غضب الانسان حين يتذكر أن مليون طفل عربي يموتون كل عام لافتقارهم الى الرعاية الطبية . . واذا تابع قراءة الاحصاءات (النادرة) عن ضحايا الفقر في عالمنا العربي يتحول غضبه الى ثورة . . واذا تذكر مئات الآلاف من الطلاب الذين تتحطم حياتهم بصمت لعجزهم عن متابعة الدراسة أو معالجة ذويهم لأسباب مادية ، يتحول غضبه الى خطة لتحويل سرير العرس الى مشنقة للعروسين المبذرين . ولكن المسؤول الحقيقي عن حكايا الاسراف العربية هو مجتمعنا العربي المعاصر . . . كلنا مسؤول ، لا صبايا القاهرة وحدهن ، ولا أثرياء الخليج وحدهم الذين تحدث عنهم التحقيق وعن أساليب بذخهم (متعددة الجنسيات) ، الهادرة للدولارات .

* * *

القيم العربية الاجتماعية السائدة تمجد الثراء ـ حتى ولو كان حصيلة امتصاص دم الفقراء ـ وتحتقر الشرفاء الكادحين ومتوسطي الحال احتقاراً سرياً ضمنياً يعرفه كل شاب عفيف الكف طلب يد فتاته للزواج فلم يسأله أحد عن أخلاقه بل عن ماله . .

وقد شهد العقد الأخير من الزمن موجة تصعيد رهيبة صوب عبادة الثراء : «وثنية العرب » الجديدة ، وقد تغذت هذه الموجة من الانفتاح على أسوأ ما في الحضارة الغربية ، بحيث استوردنا عشق الماديات في ظل تمجيد الحياة الاستهلاكية . . وعاماً بعد عام ، اتسعت هذه الموجة ، البعيدة عن جوهر الحياة العربية الروحية ، وكادت تلتهم كل شيء . . وكاد المرض يتحول الى عادة . . وكاد التيار يجرف الجميع . . . ولم يعد ثمة من يتوقف بخجل اجتماعي صارخاً : لن أنفق ماية ألف دولاراً للتشاوف، في وطن الفقراء المهدد بالاستعمار والصهيونية ، لأنه حين يأتي الطوفان ، سيجرفني مع سواي ، ولن يكون دولاب نجاتي يومئذ كعكة الزفاف الطافية الآن وسط بركة السباحة في الفندق الباذخ . . (وهذه احدى مظاهر البذخ التي وصفها تحقيق الوكالة حيث يخطو العروسان على جسر حتى وسط البركة لقص الكعكة ، وبالونات من الهليوم تحمل اسميهما تطير في الفضاء) .

* * *

حفلات الزفاف هذه هي أيضاً جزء من مظاهرة توظيف شؤون القلب في أمور العمل . وهكذا يحضر (الزفة) حشد من الوجوه السياسية ، مما يؤكد قيمة أهل (العرسان) في بورصة (البيزنسمان) ،ويساهم وقت الصفقات في تعديل كفة الميزان . . .

* * *

انها ظاهرة عربية شاملة ، لا صورة قاهرية مريضة . . .

فعيون القاهرة العظيمة تضم آلاف المثقفين والشرفاء والكادحين والأدباء والفنانين والرافضين . . . وتضم تاريخنا العربي كله مع النضال والعطاء ومحاولة بناء انسان عربي جديد . . .

فغلطة التبذير عربية . . . وعيون القاهرة الغاضبة تعرف دائمًا متى تستيقظ ، ومتى يومض البرق في نظرتها العظيمة كالاهرامات ، الغامضة كصمت أبي الهول . . .

* * *

متى تقول المرأة العربية : ارفعوا أيديكم عن زفافي ؟. . . خذوا حماقاتكم وخواء حياتكم وحاجتكم الى التشاوف ودعوني وشأني ؟ دعوني مع شريك حياة ، لا أريدها صورة عن حياتكم الموسخة بالمباريات المادية ، بالسلاح الأحمر والأخضر في زفة مجتمع مهترىء ، لا في زفة عروس ؟. . .

متى ترفض المرأة العربية التبذير كطموح ، أوكأسلوب في الحياة يعبر عن الفراغ الداخلي الموجع وبالتالي التعلق بالقشور ؟ متى تحرر أعماقها المحتلة بحب المظاهر ؟

متى ترمي العروس بالزفة في وجه مجتمع الطاووس وتركض الى فرحها مثل مهرة ناصعة في براري العطاء والانتماء الى أوجاع الآخرين في وطن الأنبياء شبه المنسيين ؟. . . أم أن « الوثنية » المادية ستظل مرفوعة الرايات على أشلاء تراثنا الانساني كعرب ؟

١٩٨٥/٥/١٧

فلتهطل أمطار المحبة

جيف كيث (٢٢ سنة) اصيب بسرطان العظام في طفولته، فقطعوا ساقه اليمنى. وحين كبر، مشى بساقه الاصطناعية مسافة لا بأس بها، هي القارة الاميركية من شرقها الى غربها، ومن المحيط الى المحيط... بالضبط، لم يكتف بالمشي، بل ركض الى التحدي والأمل آلاف الاميال ليقول للناس: لا مستحيل مع العناد الانساني.

* * *

في طوكيو، نجح كفيفان في امتحان خاص جداً... ليس في امتحان تعلم القراءة بطريقة برايل، وانما في اصعب امتحانات رسمية عامة لبرمجة العقل الالكتروني، وقد رسب في الامتحان ذاته ٨٥ بالمائة من المبصرين الذين تقدموا اليه ـ كما أعلنت وزارة الصناعة هناك ـ. الرجلان في الثلاثين من عمرهما.

وقد اتقنا مهارات استخدام العقل الالكتروني على لوحة مفاتيح خاصة صنعت على طريقة برايل... وقالا للعالم في الوقت ذاته ان الطاقة البشرية بلا حدود شرط ان تدعمها الارادة، وان العين تقاوم المخرز احياناً.

* * *

كل ذي عاهة جبار.

ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن نظرة بين سطور حكايا اولئك (المعاقين) المنتصرين، تكشف ان ذلك الانتصار لم يكن انجازاً فردياً فحسب، بل رافقته عملية احتضان جماعية..

فمقطوع الساق الذي ركض الولايات المتحدة من خليج التحدي الى خليج الأمل، رعته جمعية السرطان في اميركا، وتطوع شبانها طوال الاشهر الستة التي استغرقها الحج الى المستحيل لمرافقته.. وحين وصل الى بوسطن، منحوه حقنة محبة

ازكت نار مرجل الأمل في صدره ، حين وجد صفوفاً من الناس في استقباله ، نظمهم متطوعو جمعية السرطان ، اطلقوا البالونات التي تحمل اسمه وصورته ، وهتف اليه رئيس الجمهورية ريغان مهنئاً كما منحته نانسي ريغان اعذب ابتساماتها الهاتفية وقالت له انها صلت من أجله .

* * *

الكفيفان اليابانيان المنتصران ، وجدا من يصنع لهما ضاربة الكومبيوتر على طريقة برايل ، ووجدا أذناً صاغية من المسؤولين الذين عدلوا القانون فصار يبيح للمكفوفين دخول هذا النمط من المسابقات بعدما كان حكراً على المبصرين في الأعوام السابقة . ولولا هذا الاحتضان الرسمي والجماعي للمعاقين لما تمكنا من تسجيل انتصارهما .

* * *

هذا الكلام ليس المقصود منه الانتقاص من قيمة انتصارهم . . .

ولا للتقليل من حجم عظمتهم كأفراد ، وانما اقول ذلك توكيداً على مسؤوليتنا كجماعات في احتضان (عاهات) المحيطين بنا .

واكرره وامامي صورة كمبودي مبتور الساق ، منشورة في العدد ذاته الذي حمل نبأ انتصار الاميركي على عاهة قطع ساقه .

صورة الكمبودي تثير الشفقة . يحمل على كتفه طفلاً ، ويتكىء بعصاه على الارض دونما ساق اصطناعية ، وهو يمشي ، بل يقفز ، رحلة العذاب من جحيم الحرب الى مخيم جديد للاجئين في تايلند .

هذا الرجل المجهول قد يكون جباراً ككل ذي عاهة ، لكن الظروف القاسية المحيطة به قد تنصر قواه كارثة بعد اخرى . . . قد يكون له قلب نسر قادر على قطع القارة الآسيوية بقدم اصطناعية ، ولكن من يصنعها له ، ومن يبالي به ، ومن يشجعه ؟

* * *

اعتقد ان الأمل صناعة جماعية . . والمحبة ورشة يجب ان نحيط بها الاحياء المعاقين ، وما اكثرهم اليوم في لبنان الحرب . . .

هل سنظل ننظر الى المعاق على انه انسان مجهض ، ام سنراه من جديد امكانية نصر كبير ، لأن العضو الذي بترته الحرب ، قد اعاد نموه في اعماقه بذرة تصميم على

توكيد الذات ؟ . . . وهل تهطل امطار المحبة والاحترام والتأييد. المادي (لا المعنوي واللفظي فقط) ، من قلوب المحيطين بالمعاقين ، وجيوب الجمعيات الانسانية والقنوات (المنظماتية) الرسمية ؟ ام ان النقود مكرسة لشراء مزيد من الاسلحة للحصول على مزيد من المعاقين في جمهورية الحزن الملقبة بلبنان ؟ . . .

٢٥/٢/٨٥

ايها السياف تعال نقرأ معاً . .

ماذا تفعل يا قارئي اذا كنت مستغرقاً معي في قراءة كتاب شيق ، ووجدت فوق بعض السطور ورقة حمراء الصقت باتقان لتحجب ما تحتها ؟

في البداية ، لن تصدق عينيك مثلي ، وستقرر ان هذه الشريطة الحمراء الصقيلة الورق هي من بعض مبتكرات المخرج الفني للكتاب الانيق . . . وقد تتابع القراءة ، وتنسى ذلك الهاجس المضحك الذي استولى عليك ، والذي يجعلك تتوهم خلف كل صخرة مغارة « افتح يا سمسم » ، وخلف كل سطر طلاسم غير مكتوبة ، ووراء كل شريط ديكوري اسرار الدنيا . . . (والذي الصق هذا الشريط فعل ذلك وكله حسن ظن بانعدام فضول القارئ ونمو حس الكسل لديه ، بحيث يتابع القراءة وينسى سر الشريط الأحمر) . . .

ولكننا يا قارئي لن نكون عند حسن ظن المؤلف ، ومخرج الكتاب الانيق عن سويسرا الذي يحمل غلافاً مختلفاً عن بقية الكراسات السياحية ، شجعنا على شرائه ، هو صورة جامع جنيف . . .

* * *

في البداية ، سنعلن ذلك الصوت الداخلي الجائع دوماً الى اكتشاف حقيقة مكبوتة ، وسنقرأ الكتاب الذي ألفه دكتور عربي في الفلسفة ، ووعدنا فيه بارشادنا الى سويسرا الثقافة والفكر والتراث لا سويسرا الأزياء والحانات والمباهج السطحية ، فنجده قد بر بوعده . . وسنقرر اننا قرأنا اكثر مما ينبغي من الكتب البوليسية حين توقفنا عند « سر الشريط الأحمر» .

لكننا سنعود ثانية الى تلك الصفحة نتأمل « سر الشريط الأحمر » ، سنتأكد من انه ليس مجرد لون ديكوري ، فهو يرتفع عن سطح الورق جزءاً من الميليمترات يكفي لادخال طرف ظفرنا تحته . . . وسنفعل . . وبصعوبة ، سنرفع الشريط الأحمر الملصق

باتقان . . . نتخلص منه ببطء ، كي لا تتمزق الورقة تحته ، وبشهية من يكتشف كتابة سرية . . .

وسنفاجأ بوجود اربعة سطور كان من المفترض الا نقرأها . . .

وبالتأكيد سنفعل بشهية !! . . . وحين نفعل سنشهق بدهشة الاكتشاف ، لكننا سنتعاطف ايضاً مع دكتور الفلسفة المؤلف .

* * *

لن اذكر لكم اسمه ، فليس المقصود من هذه السطور التشهير به ، او بالذين تشهر كلماته بهم . . . ولكنني سأنقل لكم (الفقرة السرية) بعد ان اضع بدوري شريطاً احمر على الاسماء احتراماً لارادة صاحبه .

الفقرة السرية مكتوبة بصدق ، وتتحدث عن اسف المؤلف لعدم احترام رغبته باصدار دليل سياحي جاد يحترم فكر الانسان العربي وحاجاته الروحية والانسانية لا (الانفاقية والنسائية والاكلية واللهوية) كما في معظم الكراسات التي تخاطب العرب ، ويكتب ويشطب : « عقبات جمة اعترضت طريقي لا يمكنني الا ان اذكر احداها ، يوم عرضت المشروع على (. . . . .) في جنيف ، جاوبني (. . . . . . .) لما هذا ؟ اهل يحسن العرب القراءة ؟ وقال هذا بنوع من الازدراء ثم نهض وخرج . هذا من غير ان آتي على ذكر بعض الغربيين الذين ينظرون اليك وكأن آخر همومك الاطلاع والمعرفة » .

* * *

هذه هي يا قارئي العبارة (المحجوبة) ، وهي للأسف أهم ما في الكتاب لأنها تكشف عن الدافع الذي جعل مواطناً عربياً مثقفاً ، واستاذاً لأجيال يفكر بأن يقدم للناس ما ينفعهم غير عالم (ليلنا خمر) الذي تهتم معظم الكراسات بتقديمه للزوار العرب في سويسرا . . . . ولأنها تكشف ايضاً عن الاحتقار الذي قد يستحقه بعض زوارنا في الغرب الذين يمارسون في الوطن ازدواجية فكرية تدفع بهم الى كشف عوراتهم الحياتية كممارسة في الغرب .

* * *

الكراس يشهد لصاحبه بالصدق . ولعله الأول الذي يتحدث عن المسجد الاسلامي في جنيف وينصح بزيارة متحفه ومكتبته ومختبر لغاته ومدرسته لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم ويقول « وجدت المؤسسة بأمرة الملك فيصل » والكراس كله

يخاطب الانسان العربي السائح من منطلق احترامه لفكره وعمله دونما اغفال النواحي الدنيوية الأخرى ، ولكن دونما اقتصار عليها حتى الابتذال التجاري المفرط الذي يغلب طابعه على هذا النمط من الاعلام السياحي .

فلماذا حجب الدكتور (. . .) مؤلف هذا العمل الرائد غصته ومرارته تلك ؟ . . .

* * *

هل ابت عليه رقة نفسه تعرية الواقع المؤلم وجرح مشاعر الذين اهانوا قومه ومشروعه ؟

ام تراه خشي انتقامهم ، في زمن لا يحاسب الناس فيه انفسهم على الخطأ ، وانما يعاقبون من لا يشارك في التستر عليه ؟

ام تراه وجد المسؤولين على حق في نظرتهم المؤسفة لنموذج « السائح العربي » ، وآثر عدم جرح مشاعرهم بتعريته المباشرة لحقيقة معظمهم ؟

أياً كانت الاسباب ، من الواضح ان المؤلف ابقى على الفقرة السرية اياها حتى الانتهاء من طباعة الكتاب ، ثم غطاها (بحزام العفة الفكري) ، وتكلف من اجل ذلك عناء كبيراً كي لا نتحدث عن النفقات الباهظة . . .

وكل ذلك ، كي يحجب رأياً يستحق النقاش . لماذا ؟ . . .

* * *

لأننا في بلادنا العربية ما زلنا لا نميز بين الحوار والشجار ، وبين النقد والخصام ، ولأن ابداء وجهة نظر انتقادية ليس فاتحة لحوار بناء ، بل لخصام ابدي . . ولأن تعرية مآسي حياتنا العربية مرفوضة ، بالرغم من انها السبيل الأوحد للنقاش حولها ، وبالتالي للاتفاق على سبل مكافحتها في ضوء الشمس ، بدلاً من ان تتعفن في الظلام .

اننا نقسم البشر الى اعداء والى انصار . العدو من له وجهة نظر مغايرة ، والنصير من يمتدح عيوبنا ويخترع لذلك لغة خاصة هلامية نجدها تغطي رقعة الخطاب الأدبي والسياسي المعاصر . . . او معظمه . .

* * *

لعلنا بحاجة الى مزيد من الاقبال على (الستربتيز الفكري) الذي يعري حقيقة مواقفنا علناً ، والبعد عنه سراً في حانات اوروبا التي جعلت معظمنا سخرية العرب قبل الغرب . . .

لعلنا بحاجة الى التخلي عن شهية اغتيال الآخر الذي لا يمجدنا او لا يتفق معنا في الرأي حول عظمتنا ! . . كـأن في اعمـاق البعض صوتاً يصرخ باستمرار في وجه كل رأي مغاير : ايها السياف . . . اقطع رأسه . . .

ولعل الدكتور مؤلف الكراس القيم سمع الصوت آتياً من مغاور عصور الانحطاط ، وامتدادها في زمننا ، فقرر قطع لسان كلماته . . . بنفسه . . .

متى يستطيع الكاتب العربي تسطير كل ما يدور في رأسه بحرية ، ويقول باسترخاء : أيها السياف . . . تعال نقرأ معاً ؟ . . .

٨٥/٤/١١

لا تحضر يا سيدي لا تحضر

لأنني افتقدك ، لا تأت ، لا تأت .

نسيت كيف افرش شعري سجادة مدى الافق تعانق خطاك ، وكيف اتصرف في حضرتك .

نسيت كيف ازين عيني بغير الدمع ، وكيف أمد لك الجسر عبر اسوار قلبي ، وكيف افتح روحي على مصراعيها واهمس تعال . . وابادلك رقصة الشوق العصفورية .

نسيت كل شيء عن الود والتواصل والفرح البريء . .

كل شيء ، باستثنائك .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت .

نساء مدينتي ، وأنا ، نفتقد طعم لمساتك السحرية .

لكننا لا نريدك هذا العام .

هلالك ، نرجوك ألا يطل ، كي لا يحمل الينا زمن الغابات والمدى والبحر المشتعل بحرارة الهمس الصامت ، والرياح الفضية الصوت ، الخضراء اللون ، الحارة الاصابع ، الملقبة بالمحبة . .

هلالك ، ابعده عن سمائنا المشؤومة ، المدنسة باللعنات وطاعون الاحقاد . . .

لا تأت . . لا تأت . . .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت .

فقد أحرقنا أشجارنا واصابعنا وراياتنا واهدابنا ، وعلى نيران الحقد نشوي رؤوس بعضنا بعضاً كالكستناء ، والجماجم تتدلى من مداخل بيوتنا بدلاً من زينة العيد الملونة . . . ومصابيحنا التي ماتت فيها الكهرباء منذ زمن بعيد ، يقطنها الظلام البارد

كتنهدات الاشباح الخاطئة . . .

لا تأت ، لا تأت .

لم نعد نذكر كيف نغني « هل هلالك . . شهر مبارك » . . . وعلى شفاهنا المقددة بالأشواق المنتحرة لم تبق غير ابتسامة مالحة مقبرية مزرقة ! . . .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت .

الدماء تغطي وجوهنا ، فقد اكل كل منا لحم اخيه ، واغتسل بنزف الصديق . . لا ندري ماذا دهانا . عشرة اعوام ونحن نشرب من نبع الجنون ، ونغطي عوراتنا بالشعارات ، ونتحول من بشر الى قرود ، ونهرول في قارات السادية وندمر بيتنا الذي كان جميلاً كالحب الأخير ، وصغيراً بحيث يتسع لمائة مليون صديق نحبهم ، انيقاً كبحيرة جنيف ، وعريقاً كحصان عربي . .

لا تأت يا سيدي، لا تأت .

فناجين قهوتنا مكسوره ، وسجادنا تغطيه الجثث ، ونحن نتقاذف بقايا اطفالنا في مباراة لقتل اكبر عدد منهم ، وحينما نضجر نلعب كرة القدم بقنبلة يدوية . . . وقد جفت قهوتنا العربية والعقارب وحدها تسبح في حطام قوارير عطورنا .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت .

عشرة اعوام اتينا خلالها على بيتنا ، فأين نستقبلك ؟

نحن الذين قضينا ما يقارب نصف قرن من الزمن لا نتحدث في بيتنا الا عن اسرائيل والاستعمار ، فكيف نفسر لك ذلك القتال بين مسلمين في الطرف الشرقي من بيتنا ، وذلك العنف في شرفتنا البحرية بين الأهل والاقرباء ؟

لم نعد نفهم ماذا دهانا ، وليست لدينا بعد حكاية متكاملة نرويها لك . انتظرنا قليلاً ريثما يزور بعض المؤرخين حكاية ملفقة لأيام جنوننا المفككة . اعطنا بعض الوقت ريثما يتفضل بعض (المفكرين) باختراع (ايديولوجية) بطولية لزمن عارنا ودمارنا . . . زمن قتل الابرياء . . . وقد يتولى بعض (شعرائنا) تحويل لوردات حروبنا ومصاصي دمائنا الى ابطال (قوميين) تدرس سيرهم في المدارس . . فلا تزرنا هذا العام يا سيدي العيد . . . واعطنا بعض الوقت لتلفيق اسطورة نستر بها اشلاء آلاف الابرياء الذين تم استعمالهم كمتاريس واكياس رمل ، وشقت صدورهم لتكون خنادق قتال . . . دعنا

نغمض عيون جثث اطفالنا التي تحجر فيها تساؤ ل بريء : لماذا ؟ وهل ترضى تقاليدنا العربية بأن يحمل بريء وزر سواه ؟ في لغتنا العربية (نائب فاعل) ، لا (نائب قاتل) ننتقيه من بين الطيبين والبسطاء عشوائياً . . . ونعدمه . . .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت ، (فالطقس) غير مناسب . . لا نريدك ان ترى جاهليتنا الجديدة ، واحقادنا ، وشرورنا ، وآثامنا ، وعار بعض مثقفينا الذين يبررون للقاتل جريمته مقابل لقب شاعر بلاط المذابح . . .

انك مصر على الحضور ؟ وتسألنا ماذا نريد هدية للعيد ؟ تابوت بسيط يكفي .

لا تصدق . انه لا يكفي . نحن بحاجة الى اعجوبة . . جنازة ايامنا لن ترممها سوى لمسة المعجزة . . . لمسة انسانية . . لمسة حنان ومحبة وعدالة . . فهل ؟

واذا حضرت ، وسمعت مدافعنا تصدح قصفاً ، لا تتوهمها تغرد لقدومك ! . . .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت . لا تقل لنا كل عام وانتم بخير ، فالعالم ليس بخير ما دمنا هكذا ، ونحن الشر ولا بريء بعد اليوم بيننا . فقد اضحى الصمت جريمة كالقتل ونحن بصمتنا نمارس جريمة قتل الحقيقة وادخالها في آبار النسيان . . . ونمنح العار صفة العادة الاليفة بعدما تم ترويض انسانيتنا وتدجينها على طول عشرة اعوام من اللامعقول وعبثية الاذلال ، بلا اعياد ولا افراح . . .

كيف استطاعوا اقناعنا بأن الابتسام جريمة وطنية ، وان الفرح خيانة قومية ؟ كيف سورونا بالحس بالذنب وساقونا الى معسكرات الاختناق بالسكوت على قتل الديمقراطية ، تحت شعارات تحرير الأرض ؟ وكيف يحرر ارضاً من استلبت روحه ؟ . . .

* * *

لا تأت يا سيدي ، لا تأت . سيخطفونك على حاجز ما . سيتهمونك بالبشاشة والعذوبة ، وبحمل بطاقة شخصية غير مزورة ، وسيربطون حبالهم الى هلالك لتتدلى منها مشنوقاً . . .

وستطلع الصحف في اليوم التالي متهمة عناصر مجهولة « غير منضبطة » باغتيالك . . .

فانضبط يا حبيبنا الأزلي ، ولا تأت . . لا تأت . .   ١٩٨٥/٥/٣٠

من يزرع قلباً . . . لسمكة قرش ؟

ماذا يملك أطباء القلوب لزمن يحترف التهام الاطفال والاعصاب والقلوب ؟ ماذا يملكون لتلك الحفارات التي تنخر مناجم الروح في كل لحظة . . . وانهيارات الحزن المتلاحقة التي لم تزدها التكنولوجيا الا فداحة ؟ . . .

ماذا يملكون لصواريخ نووية تنطلق خطأ وقد تنطلق ذات يوم عمداً لتبيد الملايين ، وغازات تأكل سواد العيون وتحرق الآلاف في ومضة عين ، وحروب ماضية وآتية تهدد بفناء الانسان والشجرة والسمكة والطائر ؟

* * *

يأتيهم « وليم شرودر » ما ، يتسول قلباً ، محفوفاً بدموع الاسرة والأحباب ، وصلوات بقية مرضى القلوب .

يهرول الاطباء الى عبقرياتهم ، ويستخرجون منها خلاصة التطور الانساني في مجال زراعة القلوب ، وينقذون المريض بقلب كلفته ١٦ الف دولار على الأقل ، وهو مبلغ يكفي وحده لقتل المريض العادي بالسكتة ! . .

يغادر وليم شرودر المستشفى وقلوب الاطباء على قلبه ، واذا نجا الرجل وعاش بعد جراحة الخمس ساعات ، فمن يضمن عدم موته في ثانية حزن ، يصطدم فيها بوحشية عصر بلا قلب ؟ . . وحتى اذا انتصر جسده ، من يضمن عدم تدمير روحه في زمن كل ما فيه يدفع بالمرء الى حافة اليأس المذعور ؟

* * *

كلنا احترام لأطباء القلوب الذين يكرسون حياتهم لانقاذ مريض . . ولكن ، ما جدوى صراعهم اذا لم يكمله جهد خارق آخر لجعل كوكبنا مكاناً صالحاً للحياة ، لا مصيدة فناء ؟ ولو فرضنا جدلاً ان جراحة زرع القلوب تطورت بحيث صارت رخيصة التكاليف ومضمونة النتائج ، ما جدوى ان نجدد للانسان قلبه اذا كنا سنقتله

ثانية ؟ . . . كأننا اليوم نزرع له قلباً جديداً كي يموت غداً مرته . . . كأننا نطيل له حياته كي نزيد في عدد ميتاته . .

* * *

زراعة قلب للمريض لا تكتمل الا بزراعة قلب لعصره . . . وهذه مهمة بقية سكان هذا الكوكب الهزلي الذي يكافح لاطالة عمر المرء كأنما ليقتله مرات عديدة ! . . .

الدكتور بيلي زرع لطفلة قلب قرد صغير ، ولم تعش ـ لحسن حظها ـ اكثر من ثلاثة اسابيع . ففي عالم قاس لم يتطور فيه معظم البشر ليصيروا وحوشاً على الأقل ، ولم يرتقوا الى مرتبة الحيوانات الاليفة ، كيف كانت تلك الطفلة تمضي بين الناس وفي اعماقها قلب قرد بريء قد لا يخلو من الحنان وبالتأكيد يخلو من لذة الشر ؟ . . . فنحن لم نر قرداً يعذب آخر ، او يخطفه ، او يسجنه في مغارة ، ولم يرم قرد حتى الآن بقنبلة ذرية في (جبلاية) القرود الأخرى . . .

لقد قام الجدل يوم زرعوا قلب القرد للطفلة ، وهاج علماء الاجتماع والطب ورجال الدين . . . وقد هال بعضهم ان يزرع لطفلة قلب قرد !! . . .

ولم يعترض احدهم من أجل قلب القرد المسكين الذي لن يحتمل وحشية الحياة العصرية للانسان ، والطفلة المسكينة التي ستجد نفسها لو عاشت ، كالقرد البريء في مجتمعات مصاصي الدماء الحاذقين . . . وحديقة الحيوانات المفترسة لحياتنا المعاصرة . .

* * *

الا تظنون معي ان زراعة القلوب للناس لا تكتمل الا بزارعة قلب لسمكة القرش المتوحشة الملقبة بعصرنا ؟ وما جدوى التطور العلمي اذا لم يواكبه تطور انساني وروحاني على صعيد القيم الوجدانية ؟ اليست الخطوة الأولى لذلك ، مداواة « شهية الافتراس » التي لم تزدهر يوماً كما في العصر الذهبي للسقوط الذي نعيشه ؟ . . .

كل شيء يمضي صوب القسوة . . . الحبيب يتحول قيداً . الصديق يصير فخاً . الحكام يلعبون الشطرنج بأطفالنا . المؤسسات تتبارى في ابادة اكبر عدد ممكن من قيمنا وارواحنا وضمائرنا بأساليب مبتكرة وعتيقة .

انه زمن بلا حنان ، على الصعيد الشخصي ، والسياسي ، والاقتصادي والعسكري . . .

زمن بلا رقة . . زمن منشاري كأسنان سمكة القرش ، مرعب كنظرتها ، مفعم

بجبروت ميكانيكي كمطاردتها . . .

فمن يزرع قلباً لزمننا الشرس وعصرنا الافتراسي الذي يشبه سمكة قرش جهنمية شيطانية ؟ . . .

وهل يشارك كل منا في ذلك ، ولو بابتسامة عذوبة منسية ، او لحظة حب حقيقية خالصة نحو الآخر ؟ . . . ومن قال ان هذه المهمة تقع على عاتق الفنانين والفلاسفة والمفكرين وحدهم ؟ . .

* * *

منذ متى لم نزرع قلباً داخل لحظة انس ؟ منذ متى لم نمنح دقيقة صفاء للآخر ، مجاناً ودونما نزوات استعراضية ؟ . . .

منذ متى لم نبتسم لمرآة ، كي نفرحها هي ، لا كي نرى كم وجهنا جميل فيها ؟ . . منذ متى ونحن نعامل الآخرين كمرايا ، مجرد مرايا تنعكس فيها (عظمتنا) الشخصية ؟ ومتى لامسنا التواضع الانساني للمرة الأخيرة ؟ . . ومتى تكف هذه الهواجس عن اقلاقي ، واتعلم كيف احب سمكة قرش ؟

٨٥/١/٤

فهرس



□ إمرأة عربية هائلة الموهبة تكتب بلا خوف عن جذور وتشعبات القضايا العربية (لا مجرد كتابات نسائية ـ «وومنز ليب» سطحية كما نعرف الأدب النسائي في الغرب)، وهذه المرأة تفرض بالتالي الاحترام والإعجاب. إن قدرة غادة السمّان على رصد تشابك الأسباب بعيداً عن هستيريا أحادية النظرة (النسوية)، لهي بحق ظاهرة أدبية.

ـ **البروفسور جيمس كريتزك**
(الولايات المتحدة)

□ غادة السمّان في الأعماق المحتلة كانت كعادتها نابضةً بالحب، جريئة، وجّهت أصابع الاتهام إلى كل من يمارس «عُهره» السياسي ونفاقه الاجتماعي وثراءه اللامشروع، بأسلوب نابض بالحيوية، نابع من صميم الحالة الاجتماعية لواقع المعيوش العربي من المحيط إلى الخليج.

ـ **زينب حمود**

□ لا أدري كيف استطاعت الكاتبة العربية المتميزة غادة السمّان، في خفوت الأدب النسوي العربي (العفوي أو المقصود) وصمته اللافت، وأمام مئات المؤلفات التي تتناول الحرب (أو تدور حولها)، أن تستمر في كتابة الأحلى والأفضل دون ملل أو فتور، وبلغة تقترب من القلب، وأحياناً تخترقه لتطرد القلق الراعب فيه، أو لتحرّر هذا القلب من مختلف الاحتلالات المزعجة والمرهقة. ولكأن مؤلفاتها الأربعة والعشرين لا تُرهقها أو تُتعبها، بل تُعطيها زخماً أدبياً يكاد يفتقده معظم كتّابنا وكاتباتنا على امتداد الخارطة العربية.

ـ **محمد زين جابر**

منشورات غادة السمان